

التراث المعماري بالمغرب

ⴰⵢⴷⴰ ⵏ ⵜⵎⵙⴷⴰⴳⵜ ⴳ ⵍⵎⵖⵔⵉⴱ



تنسيق:

محمد أيت حمزة علي بنطالب



التراث المعماري بالمغرب

تنسيق:

محمد أيت حمزة علي بنطالب

منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

مركز الدراسات التاريخية والبيئية

سلسلة دراسات وأبحاث، رقم: 37

عنوان الكتاب : **التراث المعماري بالمغرب**

تنسيق : محمد أيت حمزة وعلي بنطالب

الناشر : المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

صورة الغلاف : محمد أيت حمزة (وادي درعة)

الإيداع القانوني : 2013 MO 1665

ردمك : 2 - 148 - 28 - 9954 - 978

الطبع : مطبعة المعارف الجديدة - الرباط - 2013

المتابعة التقنية : وحدة النشر

فهرس المحتويات

تقديــم

يكتسي المعمار بالمجالات المغربية أهمية بالغة، بالنظر لثرائه وأصالته وتنوع معالمه. فهو يعكس ثقافة المجتمع عبر تاريخه الطويل، وصمودها أمام مختلف التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها البلاد، حيث تداخلت في تشكيله عوامل البيئة المحلية في تفاعلها وتلاقحها مع المؤثرات الوافدة على المغرب منذ القديم إلى الآن.

يشهد المغرب تحولات أدت إلى تراجع هذا التراث الأصيل بشكل لا يبعث دائما على الارتياح. حيث أثر الانفتاح على الثقافات الأخرى بشكل بالغ على أنماط عيش السكان وأنماط إنتاجاتهم المختلفة. هذا الانفتاح، اللاإرادي أحيانا، فرض على المجتمع الانسلاخ عن هويته والابتعاد عن معارفه والانسياق وراء التقليد والتجديد، رغم صعوبة تأقلمه مع الظروف الطبيعية والمكونات المجتمعية والثقافية، مما أدى إلى تهميش كثير من جوانب الهوية المحلية، رغم أنها أثبتت انصهارها وتكيفها مع المعطيات المحلية والوطنية.

لم يحض موضوع المعمار سوى بدراسات نادرة، أنجزت في غالب الأحيان من طرف الأجانب، لذلك فهو يحتاج إلى تعميق البحث لاستجلاء كل الجوانب المتعلقة به، خصوصا الثقافية منها، وإلى ترسيخ الوعي بأهمية هذا التراث، لما له من بعد إنساني وحضاري وثقافي. فالمعمار إرث حضاري وثقافي أصيل يجمع الكل على ضرورة توفير سبل المحافظة عليه.

للمساهمة في طرح إشكالية التراث المادي بالمغرب، واقعه وآفاقه، قام مركز الدراسات التاريخية والبيئية بإنجاز كتاب جماعي حول موضوع: "**التراث المعماري بالمغرب**"، إدراكا منه بأن عملا من هذا القبيل من شأنه المساهمة في إبراز أهمية التراث المعماري المبني بالمجالات الأمازيغية، والتحولات التي عرفها. وذلك عبر مقاربة مجموعة من المواضيع والمحاور المرتبطة به في ظل المتغيرات التي يشهدها المجتمع ومحيطه.

في هذا الإطار، ساهم عدد من الباحثين المتخصصين بدراسات حاولت إبراز جوانب مرتبطة بالموضوع، مركزة على نماذج دالة من مناطق متعددة ومتنوعة وفي فترات تاريخية مختلفة.

وهكذا تناولت الأبحاث المقدمة باللغة العربية موضوع العمارة الدينية من خلال نماذج من تاريخ المغرب القديم والوسيط والحديث، مثل العمارة الدينية بوليلي، ورباط إيكَيليز

هرغة، ومعمار حاضرة تارودانت. وركزت أبحاث أخرى على دراسة المخازن الجماعية "إكَودار" بمناطق الأطلس والجنوب المغربي، كما هو الشأن بالنسبة لمنطقة أمطضي بالسفوح الجنوبية للأطلس الصغير الغربي، وقبيلة أيت مازيغ بالأطلس الكبير. واهتمت بعض الدراسات بموضوع القصور والقصبات التاريخية في مناطق مختلفة من البلاد، مثل قصبة أكَادير ن أوكَليد بطاطا وقصبة أكَوراي بقبيلة كَروان. وتناولت أبحاث أخرى قضايا ذات صلة بالمعمار المغربي، من قبيل واقع قصور واحة تودغى، وإشكالية التدبير التقني والقانوني للتراث المعماري بواحات الجنوب، والمعمار ببعض مناطق الأطلس المتوسط في عهد الحماية، وخصائص المعمار ومميزات السكن القروي بالريف، والتجليات المعمارية لطقس الطبيعة بواحة امحاميد الغزلان.

ركزت الأبحاث المقدمة باللغة الفرنسية على دور الهجرة في التحولات التي يشهدها التراث المعماري بالمغرب، كما هو الشأن بالنسبة للأطلس الصغير الغربي. وتناولت دراسات أخرى قضايا ذات صلة بمعمار بعض المناطق، من قبيل السكن القروي بمنطقة تازناخت، وإشكالية تثمين التراث المعماري بالمغرب من خلال نموذج قصبة تاوريرت بوارزازات، وأصول التراث المادي بتيزنيت وتطوره ومستقبله، والمدارس الدينية بالجنوب المغربي من خلال نموذج مدرسة توبقال.

على مستوى المنهج، اعتمدت العديد من الدراسات العمل الميداني وسيلة للبحث، مركزة على الوصف والتحليل لجوانب من التراث المعماري بالمغرب، قصد استجلاء الخطوات التي يمكن اتخاذها من أجل إنقاذ التراث المهدد، وإحياء معالمه واستغلاله لغايات أخرى، وإعادة الحياة إليه. كما نبهت إلى المخاطر التي تحدق به، وضرورة تدخل الدولة والمجتمع من أجل المحافظة عليه.

تناولت الأبحاث المقدمة جوانب وقضايا مختلفة من التراث المعماري بالمجالات الأمازيغية المغربية على الخصوص، وقدمت نتائج وتوصيات بخصوص صيانته وتثمينه وسبل الحفاظ عليه. لكن الأمل يظل معقودا على تواصل الأبحاث في التراث الثقافي المادي واللامادي بالمغرب، بالنظر إلى أهمية الموضوع في ميدان تحصين الهوية ودعم التنمية المستدامة.

محمد أيت حمزة
علي بنطالب

العمارة الدينية في موريطانية الطنجية : نموذج وليلي

ذ. سيدي محمد العيوض
المدرسة العليا للأساتذة، الرباط

احتفظت الديانات القديمة بطابع خاص في كل الأقاليم التي وجدت فيها، إذ أن كل واحد من هذه الأقاليم كانت له عاداته وممارساته الدينية الخاصة به، ومن هنا يطرح التساؤل حول الشكل الذي اتخذته الديانة في إقليم موريطانية الطنجية بوجه عام وموقع و ليلي بوجه خاص، وذلك من خلال البنايات الدينية.

كانت كل مدينة توضع تحت حماية الآلهة، لذا كان من اللازم توفير مقر لها، يشترط فيه أن يكون على نقطة مرتفعة، لأن الاعتقاد السائد هو أن حماية الإله لا تتم بطريقة محكمة إلا على المجال الذي يمكن رؤيته. غير أن هذه المعابد اختلفت عبر الزمان والمجال في مكوناتها وهندستها. وبهذا لا توجد مدينة بدون معبد، إذ من أهم وظائف التجمعات، كيف ما كان نوعها وتكاثفها، هي الوظيفة الدينية، وإن كنا نجد أحيانا بعض المعابد معزولة في بعض الجهات، فإن مرد ذلك إلى أن هذه الجهات كانت تحظى بقدسيتها وذلك بفعل ميزتها الطبغرافية.

إن ما يعكس أهمية هذه البنايات أن منها ما يعود للفترة السابقة عن الوجود الروماني وظلت مستمرة خلال العهد الروماني، فقد وقع احترام البنايات ذات القدسية، إذ يلاحظ استمرارية بعضها إلى جانب بنايات الفترة الرومانية، مما يؤكد أن الرومان عند استقرارهم بالمنطقة احترموا الإحساس الديني للساكنة المحلية. هذا إلى جانب محاولتهم نشر عبادة آلهتهم، كما يتجلى من خلال معابد الفترة الرومانية.

توجد المعابد في العديد من المدن إما في الوسط وأحيانا قرب الأسوار والأبواب، فهل تنطبق هذه الخاصيات على هذه البنايات في وليلي، وكيف كانت تتوزع داخل النسيج الحضري؟

تقع وليلي (الشكل رقم 1) في الضفة اليمنى لوادي خومان على بعد ثلاثة كيلميترات غرب مولاي ادريس زرهون وثلاثين كلم من مدينة مكناس. وهي من مدن المغرب القديم التي ورد ذكرها في العديد من النصوص القديمة والوسيطية.

استقرت في هذا المجال الجغرافي ساكنة أمازيغية تميزت بأصالتها، كما تعكس ذلك آثار بعض البنايات واللقى التي تم اكتشافها في الموقع والتي تؤكد ازدهار المدينة قبل وصول الرومان إليها.

اكتسبت هذه المدينة الأمازيغية أهمية خاصة من بين مدن المغرب القديم لدور الاستقطاب الذي لعبته في جنوب موريطانية الطنجية، لدرجة أن عددا من الباحثين اعتبرها عاصمة ليوبا الثاني ومقرا للبروكوراتور الروماني في مرحلة لاحقة، بل تفيدنا عدة شواهد، بأنها استقبلت إدريس الأول الذي جعل منها عاصمة لدولته.

لقد اختار الرومان هذه المدينة المورية، أي الأمازيغية، لإقامة نموذج المدينة الرومانية[1] أما عدم العثور على بنايات كاملة للفترة الأولى من تاريخ المدينة، فقد يعزى إلى مجموعة من الأسباب الطبيعية أو البشرية أو هما معا.

فالطبيعية ترتبط بكون المواد المعتمدة في البناء قد تكون تعرضت للانحلال والتفتت تحت تأثير عوامل التعرية، أما البشرية فيمكن ربطها بوجود هذه البنايات تحت مستويات البنايات الرومانية

إضافة إلى أن الاهتمام المكثف بالبنايات المورية (الأمازيغية) لم ينطلق إلا في العقود الأخيرة.

إن تأكيد هذا الوجود الأمازيغي سيكون من خلال العمارة الدينية، إذ سينصب الاهتمام على معابد المدينة من خلال تقديم وصف لمكوناتها، وتحديد أماكن انتشارها والوقوف على التطور الذي عرفته خلال مراحلها التاريخية من خلال التغيرات التي لحقت بها، اعتمادا على ما أسفرت عنه حفريات هذه المعابد من نتائج، القديمة منها أو المتأخرة، والقيام بمقارنات بينها وبين بعض المعابد الأخرى، وذلك لرسم صورة الجانب الديني في هذه الجهة.

معابد المدينة: (الشكل رقم 2)

المعبد البوني: أزاحت الحفريات التي قام بها لويس شاتلان (L. CHATELAIN) في الجهة الشمالية الشرقية للكابتول عن جدار من كتل الفليس تم اعتباره بقايا من سور وليلي

(1) – للإشارة، كل مدن المغرب القديم التي بها آثار الرومان، كشفت فيها الحفريات عن فترة مورية، أي أمازيغية قديمة، وهذا ما يؤكد أن الرومان ليسوا هم المؤسسين الفعليين لهذه المدن، ومنها وليلي التي تحمل اسما أمازيغيا، فالتجمعات البشرية الأمازيغية هي التي أسست هذه المدن، التي ستعرف توسعا وتغيرات عند احتلال الرومان لها.

الأول[2]، ورأى فيه م.أوزينا (M. EUZENNAT) جدار دعم مكون من كتل غليظة وأساساته توجد على عمق خمسة أمتار[3]، بخلاف جودان (A. JODIN) الذي اعتبره جزءا من السور الهلينيستي[4]. أما بوب (J. BOUBE) فقد قدم وصفا لهذا الجدار الذي استعمل فيه الفليس الذي نجده كذلك في كل مباني الفترة الموريطانية، أي الأمازيغية، في وليلي[5]. في حين خلص محمد البهل إلى أن هذا الجدار هو في الأصل عبارة عن مداميك مكعبة لم تكن تسير في اتجاه السور، بل تسير شيئا ما في اتجاه الغرب. يتعلق الأمر ببناية بونية، اعتمادا على شكلها، يمكن اعتبارها من أقدم معابد موريطانية[6]، فهي شاهد على الفترة البونية في وليلي[7]، وتعتبر البناية الوحيدة في هذا الحي التي تعود إلى هذه الفترة[8]. و للإشارة، فإنه من الصعب تحديد ما إذا كان هذا المعبد يحتوي على قاعة واحدة للعبادة أو على عدة قاعات[9].

أما أبعاد هذا البناء الديني فهي كالتالي:

الطول 41,50 م، العرض 38,5 م، أي أن مساحته تقدر ب 1600 م. أقيم هذا المعبد على أساسات لها علو يتراوح ما بين 060 سنتم و 070 سنتم، وتتكون مواد بنائها من حصى ودبش صغير ممزوج بطين أسود، أما التعلية فهي من الفليس [10].

لقد تمت الإشارة إلى وجود أربع قاعات شرق الكابتول، تحتوي الثانية منها، وهي القاعة ب، على بناية صغيرة في ملحق الكابتول. وقد سبق لتوفنو (R.THOUVENOT)أن رجح كونها معبدا صغيرا قبل إنشاء ساحة الكابتول[11]، وهو ما يدل على أن المهندسين الرومان

---

(2) - L.CHATELAIN, Le Maroc des romains, étude sur les centres antiques de la Maurétanie occidentale, Paris, 1946, pp.157 et 158.

(3) - M EUZENNAT, L'archéologie marocaine 1955-1957, p.208, Id., Le limes de Tingitane. La frontière méridionale, Paris, 1989, p.202.

(4) - A, JODIN, L'enceinte hellénistique de Volubilis, «BCTH», n.s. 1-2,1965-1966, Paris, 1968,p.210.

(5) -J.BOUBE, Documents d'architecture maurétanienne au Maroc, « BAM », 7, 1967, p.289.

(6) - M.BEHEL, Fortifications préromaines au Maroc: Lixus et Volubilis, essai de comparaison, Actes du colloque organisé par l'INSAP de Rabat avec le concoursde l'école française de Rome, Larache 8 - 11 Nov. 1989, Palais Farnèse, 1992, p.241

(7) - M.BEHEL, Le Versant est de la ville ancienne de Volubilis, Nouveau doctorat Paris IV Sorbonne, 1993, p.256.

(8) - Ibid., p.256

(9) - Ibid, p.136.

(10) - M.BEHEL, *Un temple punique à Volubilis*, « B.C.T.H »., n-s, fasc., 24, Paris, 1997, p.33.

(11) - R.THOUVENOT, *L'area et les thermes du Capitole de Volubilis*, « B.A.M. » 8, 1968-1972, p.182.

قد أخذوا بعين الاعتبار وجود هذا البناء. و بمقارنة هذا المعبد مع أمثاله داخل موريطانية الطنجية وخارجها يمكن تسجيل عدد من الملاحظات:

فبالنسبة للداخل ومقارنة مع معبدي بناصا وسلا، لا يمكن الوقوف على نقط التشابه بين هذه البنايات، ولو أن محمد البهل قد أشار إلى عكس ذلك(12)، والملاحظة نفسها تسري على باقي المعابد.

أما خارج موريطانية الطنجية، فيمكن الإشارة إلى وجود تشابه بين هذا المعبد ومعابد أخرى في كل من دوكًا وتبربومايوس وهيبون، مع الإشارة إلى اختلاف في مسألة التأريخ، لأن كل المعابد المذكورة أقيمت بعد معبد وليلي(13).

ومن المشاكل المطروحة بالنسبة لهذا البناية صعوبة التأريخ لها استراتيغرافيا، نظرا لتوالي مواسم الحفر التي شهدها الحي و التي غيرت من مشهده(14). ولتجاوز هذه الصعوبة اعتمدت تقنية البناء والمواد المستعملة كعناصر تأريخ لهذا المعبد، فتم اقتراح القرن الثالث قبل الميلاد، مع الإشارة إلى أنه لا يمكن لهذا التاريخ أن يتعدى القرن الأول قبل الميلاد. فالاستبارات التي أنجزت سنتي 1956-1957 كشفت في جهة المنصة عن نقود للملك يارباس في أساسات الدرج عن قطعة نقدية ليوبا الثاني، وهو ما يعني أن الربع الأول من القرن الأول قبل الميلاد بنيت فيه المنصة، ونهاية القرن الأول قبل الميلاد أو بداية القرن الميلادي الأول بني فيه الدرج(15). غير أن الاستنتاجات التي تم التوصل إليها من خلال دراسة السفح الشرقي في وليلي، وبخصوص الفرن الدائري الذي وجد على أحد جدران المعبد، تؤكد على أن اللقى الأثرية التي وجدت فيه تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد، مما يرجح فكرة هدم المعبد خلال هذا التاريخ(16)، وهو أمر يتعارض جملة وتفصيلا مع الاستنتاجات السابقة.

من جهة أخرى، مكنت الاستبارات من تحديد خمس مراحل في تاريخ هذا البناء، تهمنا منها الآن المرحلة الأولى التي تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، أي التي تطابق فترة بناء

---

(12) - M.BEHEL, *Le versant*, cit., p .135.

(13) – في هذا الإطار، يمكن مقارنة هذا المعبد مع معبد الحفرة الذي يعود هو الآخر إلى القرن الثالث أو القرن الثاني قبل الميلاد:

M.BEHEL, Le temple, cit, p. 49, Id., *Le versant*, cit, pp.138-139.

(14) - M.BEHEL, Le temple, cit., p.42.

(15) - Intervention, cité dans M.BEHEL, *Un temple*, cit , p.50.

(16) - M.BEHEL *Le versant*, cit., p.252.

المعبد البوني. ولا نعرف السبب الذي دفع محمد البهل إلى تبني هذا التاريخ، لأن الإشكال الذي تطرحه قطع الخزف والمتمثل في صعوبة تصنيفها لا يساعد على تأريخه بالقرن الثالث قبل الميلاد. لذلك قد يكون من الجائز، في نظرنا، أن نؤرخ له بالقرن الثاني أو بنهايته على اعتبار أن هذه المرحلة تقع في مستوى يوجد مباشرة تحت طبقات تحتوي على خزف كمباني كما عكست ذلك نتائج الاستبارات. ويمكن أن نضيف في هذا الصدد كون هذا المعبد البوني هو البناء الوحيد الذي يعود لهذه الفترة، لأن كل بنايات الحي لحد الآن - تعود للفترة الرومانية وذلك عكس ما يراه بوب[17] وجودان [18]. أما بالنسبة للكاردو الذي يخترق هذا المعبد، فقد أرخ له بالقرن الأول قبل الميلاد، وهو ما يعتبر شهادة أخرى على زوال المعبد البوني خلال الفترة الرومانية[19].

الكابتول [20]:

كانت كل مدينة رومانية تتوفر على معابد من عدة أصناف، إما كابتول أو معابد مخصصة للعبادة الإمبراطورية أو معابد لمعبودات خاصة، ويرتبط تصميم وهندسة المعبد بالمعبود الذي أنشئ من أجله هذا البناء[21]. على هذا الأساس، فإن مبنى الكابتول ستراعى فيه عدة شروط، لأنه رمز الحضور الروماني في هذه الجهات التابعة لروما.

يوجد هذا المعبد في الغالب قرب وسط التجمع الحضري، وهذا ما يلاحظ في العديد من مدن شمال إفريقيا، مع استثناء مدينة تمجاد التي يوجد بها غرب سور المدينة. وتبعا لقاعدة فيتروفوس، فإنه يبنى في الجزء المرتفع من المدينة[22].

يعتبر الكابتول أول المباني الدينية المكتشفة في وليلي 1924[23]. له اتجاه شمال جنوب، يستند إلى جدار البازيليك شمالا ويحده جنوبا وشرقا شارعان صغيران. ويظهر أن طبيعة المكان هي التي فرضت هذا التصميم.

(17) - J.BOUBE, Documents, cit.,p. 340-367.

(18) - A. JODIN, *Volubilis regia Iubae*, *Contribution à l'étude des civilisations du Maroc antiquepréclaudien,* Paris, 1987, 163-166.

(19) - M.BEHEL, *Le temple*, cit., p.42. 1999.

(20) - هذا النوع من المعابد نجد مثيلا له في بناصا وسلا، وهي معابد تشترك في عدة خاصيات بل أحيانا نلاحظ تشابها كبيرا بينهما.أنظر : سيدي محمد العيوض، موقع بناصا الأثري، دراسة مونوغرافية (من الأصول إلى الجلاء الروماني)، دبلوم الدراسات العليا، مرقونة، الرباط 1999.

(21) - A.PELLETIER, *L'urbanisme romain sous l'empire,* Paris, 1982, p.65.

(22) - M.BEHEL Le versant, cit., p.252.

(23) - J.BOUBE, Documents, cit.,p. 340-367.

ينتصب الكابتول فوق بوديوم، ويوجد على علو 1,46م، أما علو مقدمة الهيكل فتبلغ 0,55 م [24]. يتم الارتقاء إلى هذا البناء بدرج من ثلاثة عشر درجة، وتحد المستوى العلوي للدرج عتبة مدخل المعبد[25].

يتم ولوج الساحة عبر ممرين، مع توفر مدخل ثالث على الجهة الشرقية. تنفتح على أروقة هذا البناء عدد من القاعات ذات أبعاد مختلفة.

يوجد أمام الكابتول مذبح يتم الارتقاء إليه بدرجين، إضافة إلى ساحة تستند إلى البازيليك، ربما يرتبط وجودها بالتعديل الذي عرفه الحي بكامله، فقد تم إزالة البنايات الأولى والتي لم يتبق منها سوى الأساسات وبنيت أخرى مكانها. وعوض ربط وجود هاتين الساحتين بالإكراهات المجالية، يمكن ربطهما بالوظيفة الدينية. أما جدران مقصورة المعبد فتنتصب[26] على ارتفاع يفوق ثلاثة أمتار، وهي ذات زوايا من حجر ذي مرضون غليض[27]. صنف هذا المعبد ضمن المعابد التقليدية، فالأبعاد والقياسات والتناسق الهندسي توحي بأنه رباعي الأعمدة (Tetrastyle) توجد نماذج مثيلة له في باقي شمال إفريقيا[28].

يستنتج من النقيشة أنه بعد سنة من إهداء قوس النصر، قرر حاكم الإقليم ماركوس أوريليوس سيباستينوس (*M. Ayrelius Sebastenus*) إهداء كابتول لجوبيتر وجنون ومينرفا على شرف ماكران بين 11 أبريل و 10 دجنبر 217م[29]. وقد اعتبر ر. توفنو (R. THOUVENOT) أن هذا التاريخ يطابق تاريخ إعادة البناء،[30] لأنه لا يبدو بأن وليلي قد انتظرت حتى سنة 217 م لتتوفر على كابتول[31]. فالنقيشة المهداة للثالوث الكابتولي

(24) - A. JODIN, Volubilis regia Iubae, Contribution à l'étude des civilisations du Maroc antiquepréclaudien, Paris, 1987, 163-166.

(25) - M.BEHEL, Le temple, cit., p.42.

(26) – إن الأبعاد التي يتخذها هذا المعبد لا تراعي الأبعاد التي حددها فيتروف، مما يعكس الطابع المحلي، هذه الملاحظة نقف عليها كذلك في معبد بناصا.

(27) - A. LUQUET, Restauration, cit ., p.351

(28) - N.BOUJIBAR-ELKHATIB,L'archéologie marocaine en 1964-1965, « B.A.M »,6,1966, pp.546-548.

(29) – بني كابتول سلا خلال القرن الميلادي الثاني، من دون شك خلال نهاية عهد تريانوس أنظر:

J.BOUBE, *Les nécropole de Sala*, Paris 1999, pp.17-18.

(30) - R. THOUVENOT, *Volubilis*, Paris, 1949, p.37.

(31) – هذه المسألة نجدها كذك في قصر غورديانوس حيث كشفت الحفريات عن نقيشة اعتبر أنها تؤرخ لبناء هذا المنزل، إلا أن التحريات أكدت على أنها ترتبط بإعادة بنائه. نفس المسألة تسجل في حمامات الكابتول التي أكدت الدراسة أنها تعود في مرحلتها الأولى إلى القرن الميلادي الأول.

مؤرخة بسنوات 198 و211م، الشيء الذي يجعلنا نقر أنه إذا كانت عبادة الثالوث من خلال النقائش تعود لبداية القرن الثالث، فإن ذلك سيعني وجود كابتول قبل سنة 217 م. فالتاريخ الوارد في النقيشة، يفيد أن الكابتول من المحتمل أنه وجد قبل 217 م، وأنه عرف فيما بعد عدة إضافات يمكن أن نؤرخ لها من خلال النقيشة المذكورة.

على أن المشكل المرتبط بالتأريخ لا يهم فقط هذه البناية، بل يطال حتى المباني العمومية ، إذ يبقى الفوروم هو الوحيد الذي نتوفر بشأنه على تاريخ يعود للفترة الرومانية الأولى بوليلي.

يوجد بجوار هذه البناية معبد صغير في القاعة F ذات الأرضية المزينة بلوحة فسيفسائية، يحتمل أنها مرتبطة بعبادة الربة فينوس *Venus* [32]. يعود تاريخ بناء هذا المعبد لفترة حكم ماكران Macrin، واحتمالا عهد إيلاغبال Elagabale[33]. كما نجد قاعة أخرى تضم بناءا صغيرا يشكل نتوءا في الجدار الخارجي، رأى فيه محمد البهل معبدا، من المحتمل أنه كان مخصصا لمعبود محلي[34].

- المعبد : C

تقع هذه البناية الدينية شمال شرق البازيليك، وتتكون من ساحة كبيرة تقدر ب 28 م X 21م يحدها رواق داخلي يحيط بمعبد صغير تبلغ مساحته 750 م X 450 م، وهو مفتوح في جهة الشرق[35]. أزيح التراب عن هذه البناية خلال حفريات التل .أرخ لها موريس أوزينا اعتمادا على نتائج استبار الديكومانوس[36] بالقرن الثالث الميلادي. وتجدر الإشارة إلى أنه تحت هذا المستوى الأول، وجد المستوى الروماني الأول، إضافة إلى مستوى آخر عثر فيه على الخزف الكمباني "ب" والخزف المصبوغ الذي يعود للقرن الأول قبل الميلاد[37]،

(32) - R THOUVENOT, L'area et les thermes, cit., p. 184.

(33) - V. BROUQUIER-REDDE, R.REBUFFAT, Temple de Venusà Volubilis, «B.A.M. », 18, 1998, p.127-139.

(34) - M.BEHEL, Le temple, cit., p.34.

(35) - M.EUZENNAT, Activité de l'inspection des antiquités du Maroc en 1956, « B.C.T.H. », 1957, p.50

(36) – اعتمادا على اللقى الخزفية التي كشف عنها هذا الاستبار، خاصة منها الخزف المختوم ذي البرنيق البرتقالي، اقترح أوزينا أن بناء المعبد تم خلال الفترة التي عرفت إنجاز المشاريع الضخمة التي يمثلها قوس النصر والفوروم السيفيري والبازيليك، وأن تحطيمه كان بعد رحيل الرومان:

M.EUZENNAT, Le temple C de volubilis et les origines de la cité, «BAM », 2, 1957, p.47- 48.

(37) – اعتبر جودان بأن المعطيات الأثرية والنظام الهندسي للأعمدة، قد مكنت من استنتاجات تفيد أن المرحلة الأولى للمعبد تعود للعهد يوبا الثاني أو إلى فترة بطليموس.

A.JODIN, *Volubilis*, cit., p.169.

في حين يؤرخ المستوى الرابع بالقرن الثاني قبل الميلاد[38]. أحدث بناء هذا المعبد تغييرا في السكن الأول الذي وجد في هذه الجهة وحال دون وجود أي أثر له[39].

يتكون هذا البناء من ثلاث أروقة، ومقصورة وحيدة فوق منصة، وقد بني فوق بنايات قديمة[40]. اعتبر البعض أن تاريخ بنائه يعود في الأصل إلى عهد يوبا الثاني وبطليموس، وأن الإهداء الذي قدم خلال الفترة السيفيرية يطابق فترة إعادة بناء المدينة، الأمر الذي يخالف في العمق رأي أوزينا. ومع هذا الاختلاف يمكن أن يعود هذا البناء إلى القرن الميلادي الأول، وهي الفترة التي شهدت إنجاز عدد من المنشآت العمومية والتي تعتبر بحق نقطة انطلاق توسع العمران في المدينة. وتسير نتائج الاستبار الذي أنجز في هذه البناية الدينية في نفس الاتجاه[41]، إذ تفيد أن بناء هذا المعبد يعود للنصف الثاني من القرن الأول[42].

تتحصر المعلومات المتوفرة عن هذا المعبد خلال القرنين الميلاديين الثاني والثالث في الإشارة المرتبطة بتاريخ تحطيمه خلال نهاية القرن الميلادي الثالث، وكذلك عدم العثور على بقايا لما بعد هذه الفترة[43]. وقد أقيمت، خلال مرحلة لاحقة، في الجهة الغربية من هذا البناء الديني، بنايتان يمثلهما جداران يوحيان باستغلالهما خلال فترة متأخرة[44].

معبد الفورم أو المعبد D :

يتكون الفوروم الروماني من ثلاثة ساحات كشفت الحفريات في إحداها عن معبدين، وخلال مرحلة لاحقة عوضهما معبد مزدوج . ربط أ. جودان (A.Jodin) مسألة تطور هذه البناية من معبدين إلى معبد واحد بظاهرة عامة رصدت في جهات أخرى خارج موريطانية

(38) - M. EUZENNAT, *Activité de l'inspection des antiquités du Maroc en 1956*,«B.C.T.H.», 1957, p.50.

(39) - M.EUZENNAT, Le temple C, cit., p.48.

(40) - V.BROUQUIER-REDDE, A. ELKHAYARI, A.ICHKHAKH, *Recherches sur les monuments religieux de Maurétanie Tingitane de Louis Châtelain à la mission des temples, dans Actes des 1éres journées nationales d'Archéologie et du patrimoine*. *V.2, Archéologie préislamique,* Juillet 1998, S.M.A.P., 2001, p.189.

(41) – تتكون هذه المواد من الخزف المختوم ذي البرنيق الأحمر الغالي الجنوبي.

(42) - M.MAJDOUB, *Nouvelles données sur la datation du temple C de Volubilis*, « Africa romana » Atti del X convegno di studio, Oristano, (11-13 dicembre 1992), Sassari, 1994, p.283.

(43) - M.EUZENNAT, Le temple C, cit., p.48.

(44) - A.AKERRAZ, *Le Maroc du sud de Dioclétien aux Idrissides*, Thèse de 3éme cycle, Paris 1985, p.96.

الطنجية، مثل قرطاجة حيث حافظت المعابد على الأماكن التي وجدت فيها خلال الفترة البونية[45].

إن أهم نقطة يجب التركيز عليها تتعلق بطابع هذه البناية قبل الاحتلال الروماني، وبهذا الخصوص يلاحظ في وليلي، على ضوء نتائج الحفريات، أن العديد من البنايات العمومية قد أقيمت فوق أساسات بنايات سابقة، وهو ما أكدته الأبحاث الجديدة حول المعابد، إذ أشارت إلى وجود جدران بناية يصعب تحديد وظيفتها. وبعد هذه المرحلة الأولى، أقيم معبدان يتم الدخول إليهما عبر درج يفضي إلى مقدمة الهيكل[46]. وقد أرخ لهما بالنصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد [47].

لقد سبق لأوزينا وهاليي[48] أن حددا مراحل تطور هذه البناية الدينية التي تميزت خلال الفترة المورية، أي الأمازيغية، بتوفرها على قاعتين للعبادة ذات منصة يسبقها مذبح، مع العلم أن هذين المعبدين يعودان لنهاية القرن الثاني أو بداية القرن الأول قبل الميلاد، الأمر الذي يتعارض مع نتائج بعثة المعابد المغربية الفرنسية التي أرخت للجدران التي وجدت قبل المعبدين بالنصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد، إذ كيف يعقل أن يعود المعبدان حسب تأويلات أوزينا وهاليي إلى القرن الثاني أو بداية القرن الأول قبل الميلاد، وجدران ما قبل المعبدين إلى القرن الأول قبل الميلاد.

خلال الفترة الرومانية تم تشييد معبد من أربع قاعات للعبادة من أجل إحياء العبادة الإمبراطورية، وقد أرخ له بالفترة الممتدة ما بين 80 و150م[49].

ونضيف في هذه الجهة إشارة محمد البهل في دراسته للسفح الشرقي وخاصة في الجهة الشمالية الشرقية لما سمي بالمعبد البوني، إلى أن الجزأين 10 و11، اللذان اعتبرهما أ. جودان جزأين من السور الهلينيستي قد يدخلان ضمن بناية عمومية أو معبد[50]، استعملت في بنائها كتل كبيرة من الفليس. كما أن التقنية المعتمدة مخالفة تماما

(45) - A. JODIN, Volubilis, cit., p.172.

(46) - V.BROUQUIER-REDDE, A.ELKHAYARI, A.ICHKHAKH, Recherches, cit.., p.189.

(47) - Ibid.

(48) - M.EUZENNAT, G. HALLIER, Les forums de Tingitane. Observations sur l'influence de l'architecture militaire sur les constructions civiles de l'occident romain, « Ant.afr. », t.22, 1985, p.82-85.

(49) - M. EUZENNAT,G. HALLIER, Les forums, cit., p.68 et 69.

(50) - M.BEHEL, Le versant est de la ville ancienne de Volubilis, Nouveau doctorat Paris IV Sorbonne, 1993, p.257. Rome 1992, p.241.

لما نجده في الأجزاء الأخرى، إضافة إلى ذلك فإن الجزء العاشر مما اعتبره سور وليلي الأول لا يوجد على نفس خط السور المفترض وجوده، ويمثل جدار دعم للجزء الحادي عشر(51).

- **المعبدان G-H** : أقيم هذان المعبدان على سفح الربوة التي تشرف على وادي خومان، وقد اعتبرتهما نعيمة الخطيب بوجيبار معابد، إلا أنه لحد الآن لم ينشر عنهما أي شيء. كما أنه لم يتم العثور في أرشيفات وليلي على أي تقرير عن نتائج الحفريات التي أجريت في هاتين البنايتين.

بني أحد المعبدين بمواد مختلفة، أما الآخر فقد أقيم على منصة من 75 م وعلو 2,5 م إلى 3 م، بمواد من الفليس، الأمر الذي جعل بعض الباحثين يرون فيه بناء يعود للفترة البونية(52). فقد أزاحت حفريات 1962 التراب عن الجدران حتى الأساسات التي تظهر فيها كتل من الفليس الكلسي على شكل مداميك، وهي تشبه من حيث المرضوم، مرضوم ضريح منزل الفتى المراهق(53).

أما بالنسبة لتاريخهما فقد اقترح لهما موريس أوزينا فترة حكم يوبا الثاني وهو نفس التاريخ الذي حدده بالنسبة للمعبدين D-E(54). وتجدر الإشارة إلى وجود تشابه بين المعبدين G و H والمعبد D في مرحلته الأولى، هذا التشابه يجعلنا نتبنى تأريخا يخالف ما ذهب إليه م. أوزينا، الذي اعتبر كل المعابد ما قبل الرومانية تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد، وهو تأريخ يوافق القرن الثاني قبل الميلاد لكون المرحلة الثانية في معبد الفوروم تعود لهذا التاريخ.

- **المعبد B**:

يقع هذا المعبد في الجهة الشرقية من موقع وليلي، حيث يفصله وادي فرطاسة عن باقي بنايات هذه المدينة. يتخذ هذا المعبد شكلا مربعا، له اتجاه شرق غرب. وعرف

(51) - M.BEHEL, *Fortifications préromaines au Maroc : Lixus et Volubilis, essai de comparaison, dans Lixus, Actes du colloque organisé par l'Institut des sciences de l'archéologie et du patrimoine de Rabat avec le concours de l'école française de Rome*, Larache, 8-11 novembre 1989,

(52) - M.BEHEL, Le versant,cit., p.134.

(53) - A.JODIN, *Volubilis*, cit., p.175.

(54) - M.EUZENNAT, *Héritage punique et influences gréco-romaines au Maroc à la veille de la conquête romaine*, dans Le rayonnement des civilisations grecques et romains sur les cultures périphériques, Actes du VIIIème congrès international d'archéologie classique (Paris 1963) Paris 1965, p.269.

عدة مواسم حفر أشرف عليها في البداية شاتلان (L. Chatelin) ثم واصلها كل من م. بونسيك (M. Ponsich) وهـ. موريستان (H. Moresten)، الذي قدم دراسة شاملة حول هذا المعبد[55]، وختمتها بعثة المعابد المغربية الفرنسية.

لقد اعتبر هذا المعبد أكبر بناية كشفت عنها الحفريات بالموقع، بعد قصر غورديانوس. له شكل رباعي الأضلاع وجوانبه لها قياسات 55 م و53,70 م و52,50 م و51,80م تتوسطها ساحة واسعة (44 م x 48 م)، يمتد رواق على جوانبها الثلاثة، أما على الجهة الشرقية فتوجد بعض قواعد التماثيل [56]. وقد صنف هـ. موريستان هذا المعبد ضمن المعابد ذات التقليد البوني، إذ وقف على وجود تمازج فيما بين التأثيرات البونية والمحلية، أي الأمازيغية[57].

أما بالنسبة لتاريخ هذا البناء فيمكن التمييز، حسب ما أورده هـ. مورستان، بين ثلاث مراحل، أولاها تعود للقرن الأول قبل الميلاد وثانيها تتطابق مع سنة 80م، أما المرحلة الثالثة فقد اقترح لها منتصف القرن الميلادي الثالث[58].

أفاد العثور على نقيشة كتبت بالبونية الحديثة في أساسات هذا المعبد واثني عشر قطعة نقدية مورية (أمازيغية) لملوك المغرب القديم، بأن المعبد الذي أرخ له بالقرن الثالث قبل الميلاد قد أقيم فوق بنايات قديمة[59]. وبموازاة مع هذه التحليلات حددت حفريات بعثة المعابد المغربية الفرنسية أربع مراحل في تاريخ هذا المعبد عوض الثلاث التي حدها هـ. موريستان في دراسته، بناء على ملاحظات جديدة واستبارات استراتيغرافية[60].

في البداية كانت هناك ساحة كبيرة مقدسة تمتد في اتجاه شمالي شرقي، توضع فوقها النصب منتصبة أو مع أواني خزفية، كما هو الحال في مواقع أخرى في شمال

---

(55) – شكل هذا البناء الديني موضوعا لعدد من الدراسات، توجتها دراسة شاملة لموريستان، فقد باشر تحريات ميدانية أهمت تصميم البناية وأبعادها إضافة إلى التقنية المعتمدة في بنائها:

MORESTIN, TempleB de Volubilis, Paris, 1980

(56) - A. JODIN, Compte rendu de l'ouvrage de Morestin (H.), Le temple B de Volubilis, Paris, 1980, « R.E.A. », 1982,1-4, p.345.

(57) - H. MORESTIN, TempleB de Volubilis, Paris, 1980, p. 49-54.

(58) - A.JODIN, Compte rendu de l'ouvrage de Morestin.H., cit., p.347.

(59) - M.BEHEL, Le versant, cit., p. 133.

(60) - V.BROUQUIER- REDDE, A.ELKHAYARI, A.ICHKHAKH, Le temple B de Volubilis, «Ant.Afr» t.34, 1998, p.65-72.

إفريقيا وسردينيا. إن وجود نصب معاد الاستعمال في البناية الأولى، هو الذي دفع بالباحثين إلى التفكير في وجود ساحة مقدسة بهذا المكان[61]، وقد أرخت هذه المرحلة بفترة تمتد ما بين نهاية القرن الأخير قبل الميلاد وبداية القرن الميلادي الأول[62].

أما مرحلة إقامة أول معبد مبني بالحجر فقد أرخ لها اعتمادا على نتائج الاستبارات التي أنجزت في عدد من النقط بسنوات 80 ميلادية[63]. وقد تعذر تحديد تصميم مضبوط لهذه البناية بفعل الترميمات المتوالية التي عرفها، فالبقايا التي تم التعرف عليها تظهر في الجهة الغربية والشرقية[64]. لقد أزاحت الحفريات التراب عن أجزاء متناثرة، منها الجدار الشمالي الذي تغطيه أساسات جدران قاعتي العبادة التي تعود لمرحلة متأخرة عن التاريخ المقدم سابقا[65]، وجزء من جدار لازال يظهر على طول الأقبية الجنوبية. كما أن النصب[66] التي كانت موجودة في الساحة المقدسة خلال المرحلة الأولى قد أعيد استعمالها في جدران هذا المعبد الأول[67]. وسيتم هدم هذا البناء خلال مرحلة لاحقة.

مكنت هذه الملاحظات الميدانية من رصد الشكل الأول لهذا المعبد الذي أقيم على الساحة المقدسة خلال مرحلة لاحقة، فهو يتخذ شكلا مربعا مكشوفا بثلاثة مذابح، ومن المحتمل أنه قد اتخذ شكل قاعات العبادة على الواجهة الشمالية[68]. في المرحلة الثالثة أزيل المعبد السابق لإقامة آخر له نفس الشكل. أما بالنسبة للتاريخ المقترح، فقد سبق لمورستان[69] أن جعل المرحلة الثالثة من بناء المعبد تتطابق مع الفترة 238 - 244 م، معتمدا على التشابه الحاصل بين قواعد الأعمدة مع مثيلاتها في قصر غورديانوس. إلا أن هذا التأريخ قائم على اعتبارات تقنية لا يمكن أخذها بعين الاعتبار. فحسب آخر دراسة عرفها هذا المعبد، تمت مطابقتها مع النصف الأول من القرن الميلادي الثاني. أما

(61) - Ibid., p.67.
(62) - Ibid., p.69.
(63) - Ibid., p.66.
(64) - Ibid., p.67.
(65) - Ibid., p.69 fig. 5
(66) - إن وجود هذه النصب المعادة الاستعمال في هذا البناء يجعلنا نتساءل حول مدى استمرارية الأواني المأتمية والنصب خلال المراحل اللاحقة.
(67) -R.THOUVENOT, Rapport sur l'activité de l'inspection des antiquités du Maroc pendant le second semestre 1954, « B.C.T.H. », 1955-1956, p.85.
(68) -V.BROUQUIER- REDDE, A.ELKHAYARI, A.ICHKHAKH, Le temple B, cit., p.65-72.
(69) - H.MORESTIN,Le temple B de Volubilis, Paris, 1980.

مرحلة الترميمات والإضافات الجديدة [70] فتؤرخ بما بعد منتصف هذا القرن، ويحتمل أن يكون ذلك قد وقع خلال إقامة سور ماركوس أوريليوس[71]. أما آخر مرحلة في هذا المعبد، فقد سبق لمورستان، أمام ندرة اللقى التي تعود للقرن الميلادي الثالث، أن حددها في حوالي 240 م، وهو التاريخ الذي تبنته بعثة المعابد[72].

من الملاحظات التي يمكن تسجيلها بالنسبة لهذا المعبد احتفاظه بشكله الأول أي الشكل المربع، على الرغم من التطورات التي عرفها خلال المراحل اللاحقة، الأمر الذي يمكن أن نرى فيه استمرارية هذه الأركيولوجية الدينية خلال الفترة الرومانية. كما أنه على الرغم من الوضعية المهدمة التي وجد عليها فإنه يمكن مقارنته بمعابد أخرى خاصة فيما يتعلق بالساحة المكشوفة التي نجدها في أغلب المعابد[73].

وبالنسبة للمعبود الذي قدمت له الاهداءات، فمازالت تثار حوله العديد من التساؤلات، خاصة وأن عبادة ساتورنوس لم تتأكد في وليلي. و قد سبق لمورستان أن أشار إلى وجود معبود محلي أدمج فيما بعد مع معبود لاتيني[74]، ربما يتعلق الأمر بأوليزوا Aulisua اعتمادا على النقيشة التي عثر عليها شرق المعبد خارج سور وليلي[75].

يتضح من عرض البنايات الدينية في وليلي، أنها وعلى عكس البنايات الأخرى، عرفت استمرارية في الزمن، في الوقت الذي تعوزنا فيه المعلومات عن كل ماله علاقة بالعمارة الخصوصية. يظهر من خلال توزيع هذه المعابد أنها تتركز كلها في الجهة الشرقية من الموقع باستثناء المعبد "B" المعزول وراء واد فرطاسة، وإذا ما اعتبرنا إحدى الجدارين اللذين أشار إليهما محمد البهل معبدا، فإننا سنكون أمام حي للمعابد في هذه الجهة على غرار ما نجد في ليكسوس، الأمر الذي سيجعلنا أمام حي جديد ذي وظيفة دينية.

---

(70) – خلال هذه المرحلة كذلك عرف المعبد توسعا ناحية الجنوب يتمثل في إقامة أربع قاعات عبادة. وما يميز المعبد خلال هذه المرحلة هو استعمال الكلس الرمادي، الشيء الذي يمكن اعتباره معطى كرونولوجيا يساعد على تحديد تاريخ هذه المرحلة.

(71) - V.BROUQUIER- REDDE, A.ELKHAYARI, A.ICHKHAKH, Le temple B, cit., p.69- 70.

(72) - BROUQUIER- REDDE , A.ELKHAYARI, A.ICHKHAKH, Les stèles votive de Maurétanie Tingitane : Un complément au catalogue du temple B de Volubilis, dans Actes du VIIe Colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du nord ,121eme Congrès National des Sociétés Savantes (CTHS), Nice, octobre, 1996, Paris, 1999, p439 note 46

(73) - M. PONSICH, Le temple dit de Saturneà Volubilis, « B.A.M. », 10,1976, p.137.

(74) - M. EUZENNAT, Activité de l'inspection des antiquités du Maroc en 1956, «B.C.T.H », 1957, p.53-54.

(75) - V.BROUQUIER- REDDE, A.ELKHAYARI, A.ICHKHAKH, Les stèles, cit., p.349.

لقد أظهر لنا توطين هذه المعابد تركزها في النقط المرتفعة ويرتبط ذلك أساسا بالقاعدة العامة في كل المناطق، والتي تفيد أن هذه البنايات تكون دائما منتصبة فوق مرتفعات وتشرف على المناطق المجاورة. كما أن مراحل تطور هذه البنايات الدينية قد عكست أصالة ثقافة مثلتها ساكنة أمازيغية تفاعلت مع دخيل أجني ممثل في الاستعمار الروماني، كما يتجلى من خلال اللقى المتنوعة من نقائش وأدوات، كشفت عنها الحفريات المتوالية في الموقع، فالرومان عند استقرارهم في المنطقة لم يقيموا بناياتهم فوق أرض بكر بل على بنايات تعتبر شاهدا على الحضارة الأمازيغية بإحدى أكبر مدن المغرب القديم.

فالعمارة الدينية بهذه المدينة الضاربة في القدم لها أصول أمازيغية، مادام اسم المدينة بدوره أمازيغي، صحيح أن البنايات الدينية للمرحلة الرومانية، هي التي نتوفر حولها على عدد كبير من الدراسات، لكن كل هذه الدراسات أكدت على وجود مرحلة سابقة عن هذه المرحلة(76)، وهو ما يعزز طرح الأصالة الأمازيغية ليس لهذه البنايات(77) فحسب بل لكل معمار المدينة، وهذا ما أكدته الحفريات المتوالية التي عرفها الموقع منذ عدة عقود، فقد ذهب عدد من الباحثين أن البنايات الدينية تشهد على وجود تجمع سكني مهم بهذه المدينة على الأقل خلال القرن الأول قبل الميلاد، يتمثل في عدد من البنايات العمومية التي سيعاد توظيفها أو إعادة بنائها مع استقرار الرومان(78).

إن هذه ملاحظة عامة بالنسبة لمجموع موريطانية الطنجية، ذلك أن جميع المدن الرومانية قد أقيمت بمواقع ومدن مورية، أي أمازيغية، فقد كشفت الحفريات عن عناصر توسع حضري، يؤرخ بالفترة الممتدة مابين القرن الثالث والقرن الأول قبل الميلاد(79).

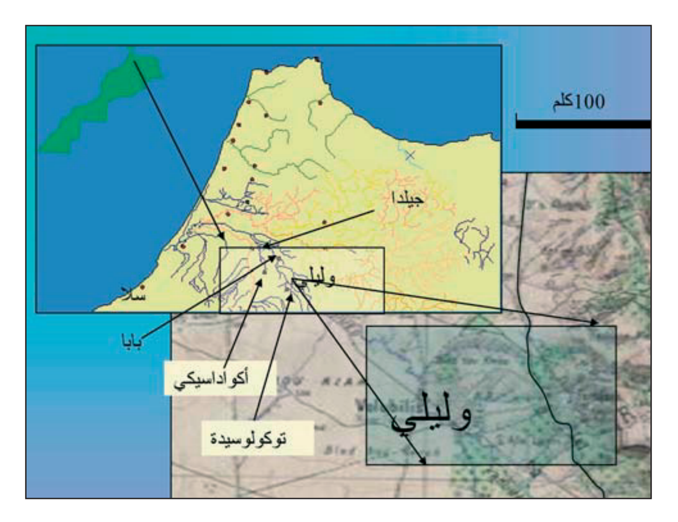
---

(76) – فعندما تهم هذه العبادة الرومانية مجال استقرار قديم، فإن الأمر يتعلق بتحديث البناء الديني القديم مع الاحتفاظ بخصائصه المحلية: P.GRIMAL, *Les villes romaines*, Que sais-je ?, Paris, 1990, p.70.

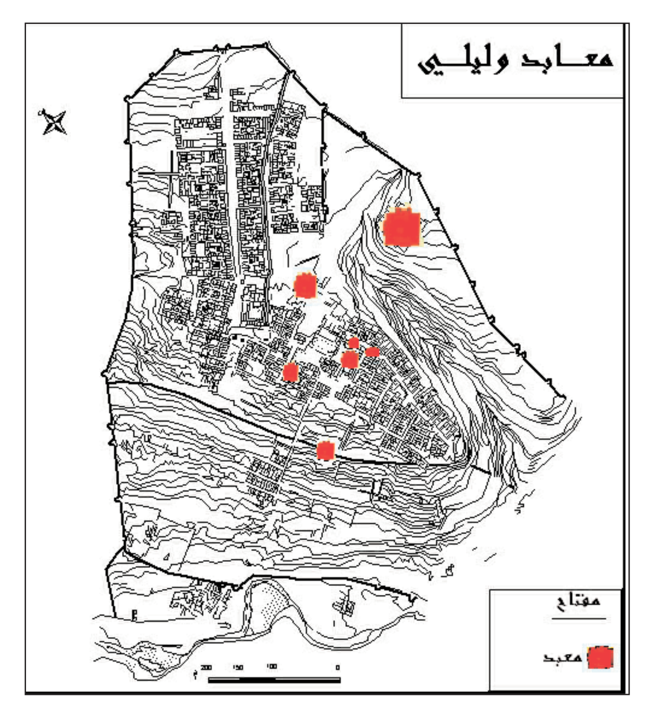
(77) - وجود معابد ما قبل رومانية تم طمرها تحت بنايات الفترة الرومانية، المعبد المزدوج ج هـ (G. H)، ومعبد الفورم: معبد د (Temple D)، المعبد البوني بالقرب من الكابتول.

(78) - M.EUZENNAT, Rapport sur l'archéologie en 1957 et 1958, « B.C.T.H », 1959-1960, Paris, 1962, p.56.

(79) - E.LENOIR, *Traditions hellénistiques et techniques romaines dans les enceintes urbaines du Maroc, dans la fortification dans l'histoire politique, sociale et culturelle du monde grec* CNRS, Colloque International 614 (Valbonne, 8-10 Décembre), Paris, 1986, p.337.



الشكل رقم 1 :
موقع وليلي الأثري



الشكل رقم 2 :
توطين المعابد داخل النسيج الحضري لمدينة وليلي

البيبلوغرافيا

سيدي محمد العيوض، موقع بناصا الأثري، دراسة مونوغرافية (من الأصول إلى الجلاء الروماني)، دبلوم الدراسات العليا، مرقونة، الرباط 1999.

******

AKERRAZ A., Le Maroc du sud de Dioclétien aux Idrissides, Thèse de 3[ème] cycle, Paris 1985.

BEHEL A., Un temple punique à volubilis «BCTH.», n.s. 24, 1993-1995, Paris 1997, pp. 25-51.

BEHEL M., Fortifications préromaines au Maroc : *Lixus et Volubilis*, *essai de comparaison, dans Lixus, Actes du colloque organisé par l'Institut des sciences de l'archéologie et du patrimoine de Rabat avec le concours de l'école française de Rome*, Larache, 8-11 novembre 1989, Rome 1992 pp. 239-247.

BEHEL M., Le versant est de la ville ancienne de Volubilis, Nouveau doctorat Paris IV Sorbonne, 1993.

BOUBE J., Documents d'architecture mauritanienne au Maroc, «BAM»,7, 1967, pp. 263-367.

BOUBE J., Les nécropole de Sala, Paris 1999.

BOUJIBAR-ELKHATIB N., L’archéologie marocaine en 1964-1965, «B.A.M», 6,1966, pp.546-548.

BROUQUIER REDDE V., ELKHAYARI A., ICHKHAKH A., *Les stèles votive de Maurétanie Tingitane : Un complément au catalogue du temple B de Volubilis,* dans Actes du VII[e] Colloque international sur l’histoire et l’archéologie de l’Afrique du nord ,121[e] Congrès National des Sociétés Savantes (CTHS), Nice, octobre, 1996, Paris, 1999, pp.443-470.

BROUQUIER- REDDE V., ELKHAYARI A., ICHKHAKH A., *Le temple B de Volubilis,* « Ant.afr » t.34, 1998, p.65-72.

BROUQUIER-REDDE V., ELKHAYARI A., ICHKHAKH A., *Recherches sur les monuments religieux de Maurétanie Tingitane de Louis Châtelain à la mission des temples, dans Actes des 1éres journées nationales d'Archéologie et du patrimoine* V.2, Archéologie préislamique, Juillet 1998, S.M.A.P., 2001, p.187-197.

BROUQUIER-REDDE V., REBUFFAT R., *Temple de Venus à Volubilis,* «B.A.M.», 18,1998, p.127-139.

CHATELAIN L., Le *Maroc des romains, étude sur les centres antiques de la Maurétanie occidentale*, Paris, 1946.

EUZENNAT M., *Le temple C de volubilis et les origines de la cité*, «BAM», 2, 1957, p.41-64.

EUZENNAT M., Activité de l'inspection des antiquités du Maroc en 1956, «B.C.T.H.», 1957, p.39-64.

EUZENNAT M., Rapport sur l'archéologie marocaine en 1957et 1958, «B.C.T.H .», 1959-1960, Paris, 1962, pp.45-61.

EUZENNAT M., L'archéologie marocaine de 1955 à 1957 « BAM », 2, 1957, pp.199-229.

EUZENNAT M., Activité de l'inspection des antiquités du Maroc en 1956, «B.C.T.H.», 1957, pp.39-64.

EUZENNAT M., HALLIER G., *Les forums de Tingitane. Observations sur l'influence de l'architecture militaire sur les constructions civiles de l'occident romain*, «Ant.afr.», t.22, p.1986, pp.73-103.

EUZENNAT M., *Héritage punique et influences gréco-romaines au Maroc à la veille de la conquête romaine, dans Le rayonnement des civilisations grecques et romains sur les cultures périphériques,* Actes du VIII^{ème} congrès international d'archéologie classique, (Paris 1963) Paris 1965, p. 261-278.

EUZENNAT M., *Le limes de Tingitane. La frontière méridionale*, Paris, 1989. GRIMAL .P, *Les villes romaines,* Que sais-je ? Paris, 1990.

JODIN A., *L'enceinte hellénistique de Volubilis*, «BCTH», n.s. 1-2,1965-1966, Paris, 1968, pp. 199-221.

JODIN A., Compte rendu de l'ouvrage de Morestin (H.), Le temple B de Volubilis, Paris, 1980, « R.E.A.», 1982,1-4, p. 344-347.

JODIN A., Volubilis regia Iubae, Contribution à l'étude des civilisations du Maroc antique préclaudien, Paris, 1987.

LENOIR E., *Traditions hellénistiques et techniques romaines dans les enceintes urbaines du Maroc, dans la fortification dans l'histoire politique, sociale et culturelle du monde grec* CNRS Colloque International 614 (Valbonne, 8-10 Décembre), Paris, 1986, pp. 337-344.

LUQUET A., *Restauration du Capitole*, «B.A.M.», 5,1964, pp. 351-356.

MAJDOUB M., *Nouvelles données sur la datation du temple C de Volubilis,* « Africa romana » Atti del X convegno di studio, Oristano, (11-13 dicembre 1992), Sassari, 1994, 1994, p.283-288.

MORESTIN H., *Temple B de Volubilis*, Paris, 1980.

PELLETIER A., *L'urbanisme romain sous l'empire*, Paris, 1982.

PONSICH M., Le temple dit de Saturne à Volubilis, «B.A.M »,10,1976, pp.131-144.

THOUVENOT R., *L'area et les thermes du Capitole de Volubilis,* «B.A.M.» 8, 1968-1972, p.179-195.

THOUVENOT R., *Rapport sur l'activité de l'inspection des antiquités du Maroc pendant le second semestre* 1954, «B.C.T.H.», 1955-1956, p.78-90.

THOUVENOT R., *Volubilis*, Paris, 1949.

VITRUVE, *De architectura,* traduction Claude Perault, 1673, revue et corrigé sur les textes latins et présenté par ANDRE DALMAS, 1965.

المعمار الديني ببلاد المغرب في العصر الوسيط
بين الضرورة الدينية وإكراهات السياسة والمجتمع

ذ. إبراهيم أنوار
باحث، الرباط

يعد موضوع اتجاه القبلة، من المواضع ذات الأهمية المعمارية، إلى جانب الأهمية المعرفية والعلمية والدينية والسياسية والاجتماعية، فهو متشعب المداخل ومتراكب المستويات، يظهر في بعض جوانبه بسيطاً لكنه معقد، وشديد الحساسية .يحاول هذا العمل قراءة بعض هذه المستويات، وذلك من خلال رسالة أبي علي صالح الأيلاني في القبلة، الذي يرصد الظاهرة في مجموع المغرب الكبير، مركزاً على المغرب الأقصى وبالخصوص المجال المصمودي الذي ينتمي إليه، وذلك على امتداد فترة طويلة، تهم معظم العصر الوسيط من دخول الإسلام بلاد المغرب حتى بداية القرن 8 هـ/ 14م. وهي فترة طويلة، لكن الذي يعنينا منها أساساً فترات التحول. نود بهذا العمل البحث عن علاقة القبلة والمحراب الذي يظهر الاتجاه نحو الكعبة بمكة في المغرب، بالهزات التي عرفها المغرب خلال الفترات الانتقالية من المرابطين إلى الموحدين ومن الموحدين إلى المرينيين. وآثار ذلك على المعمار الديني من جهة والمعمار المدني من جهة ثانية.

I - وضع محراب بعض مساجد المغرب

وضع المحراب هو العنصر الرئيسي في بناء المسجد، لأن من شروط صحة الصلاة استقبال القبلة، ويصبح الأمر ذا أهمية بالغة كلما وقع الابتعاد مسافات عن مدينة مكة وبالتالي من الكعبة. فما الطرق الموصلة إلى تحديد موقع الكعبة مع بعد المسافة عنها؟

تقتضي الإجابة على هذا السؤال تتبع نماذج سردها المؤلف في الرسالة، ثم البحث عن الأسس المعرفية التي قام عليها هذا الاختيار.

المثال الأول : هو مسجد عقبة بن نافع الفهري بالقيروان، الذي وقع الخلاف بين أصحاب عقبة على وضع محرابه بعد أن رصدوه بالنجوم ومطالع الشمس. فلمَّا اشتد الخلاف بينهم حل الخلاف بكرامة من كرامات عقبة، أقاموا عليها (قبلة المسجد بالنجوم)، ومطلع الشمس ووقع الاختلاف بينهم فبات عقبة مغموماً فأتاه آت في منامه

فقال له : «إذا أصبحت اجعل اللواء على عاتقك فإنك ستسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه غيرك، فالموضع الذي ينقطع فيه التكبير هو قبلتك وهو محراب مسجدك». فلما أصبح جعل اللواء على عاتقه وتتبع الصوت حتى انقطع له فركز لواءه وقال : «هذا محرابكم فاقتدى به الناس في القيروان وما حولها ...»[1].

وبنى في المغرب مساجد، منها مسجد مدينة نفيس سنة 62 هـ/ 682 م. وبنى الناس مقلدين اتجاه محراب هذا المسجد في كل من أغمات أيلان وخارجها. فأصبح بذلك مرجعاً معتمداً لمساجد جنوب المغرب[2].

المثال الثاني : مساجد تلاميذ أبي محمد بن أبي زيد القيرواني، وأولها مسجد شاكر، الذي بناه يعلى بن مصلين وقبلته مغربية يسيراً عن قبلة أغمات[3]. وقد وقع الاختلاف في اتجاه قبلاتها باختلاف أقوال بن أبي زيد القيرواني بخصوص القبلة بين ما ذكره في كتاب النوادر، وما ذكره في كتاب مجمع الأصول[4]. فاختلفت محارب تلاميذ أبي محمد بن أبي زيد القيرواني في المغرب الذين أخذوا عنه بالقيروان، لأن قوله بخصوص القبلة في كتابه النوادر مخالف لما قاله في مجمع الأصول حيث تراجع عما قاله، فالمساجد التي اتبعت قوله في النوادر مغربة (منحرفة) عن المألوف من المحارب الموجودة بالمغرب، في حين وافق قوله في مجمع الأصول المحارب القديمة في المغرب.

المثال الثالث : مساجد بنيت في القرنين 6 و7 الهجريين، من المصادر المعتمدة أبو محمد صالح الماجري دفين آسفي، الذي أسس الطريق البري للحج من المغرب إلى مكة، وقد اعتمد في وضع مساجده على طول الطريق الرابط بين مكة وآسفي على النجوم والمعاينة والتجريب[5]. وقد انتشر تلاميذه في المجال الهسكوري أساسا والذي يمتد على جزء من حوز مراكش، بلاد السراغنة الحالية ودرعة عبر جبال الأطلس الكبير الشرقي، وهو مجال واسع.

المثال الرابع : يتعلق بمسجد السقاية الذي يسمى أيضا الكتبيين، وهو مسجد بني على عهد يوسف بن تاشفين (454-500 هـ/1062-1106م)، وتم تعزيزه والزيادة فيه على

(1) – صالح الأيلاني، رسالة في تحقيق قبلة الصلاة بالمغرب، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، ق 985 : ص. 11- 12.
(2) – المصدر نفسه، ص.15.
(3) – المصدر نفسه ص. 16.
(4) – المصدر نفسه ص. 16-17.
(5) – المصدر نفسه ص 17.

عهد علي بن يوسف (500-537 هـ /1106-1142م). وخربه الموحدون عند دخولهم مراكش، ليبنوا مكانه مسجداً آخر مع دخول عبد المؤمن (540-558 هـ/1145-1162م) للمدينة، واستمر توسيعه وبناء صومعته مع ابنه يوسف (558-580 هـ/1162-1184م) وحفيده يعقوب المنصور (580- 595 هـ/1184-1198م)، والذي انتهى العمل في عهده من بناء الصومعة، التي شكلت مع صومعة حسان والمسجد الجامع في إشبيلية (الخيرالدة) ثلاث معالم موحدية كبرى بارزة إلى اليوم.

قال الشيخ : «ولم يكن في المغرب الأقصى محراب اشتهر أن الفقهاء اجتمعوا على تصويب قبلته عند بنيانه فيما علمنا إلا مسجد واحد وهو مسجد علي بن يوسف بمراكش. جمع علي بن يوسف على تصويب قبلته أربعين فقيها أو أكثر فيهم مالك بن وهيب، وأبو الوليد بن رشد صاحب البيان» ... قال الشيخ : «بنى علي بن يوسف قبلة جامع السقاية، وجعل محرابه في الجدار الذي يلي القطانين، فحولت بعد ذلك إلى الموضع الذي كانت فيه الآن، وموضع المحراب الأول معروف إلى الآن...». قال الشيخ : «فوطنت مطالع الشمس فوجدته مبنيا إلى مطلع الشمس في الاعتدال، ورأيت مساجد غيره التي بنيت في دولة لمتونة ولم يتغير محرابها إلى الآن استقبل موضع الاعتدال، ورصدت ذلك كله بالنجوم... ومن أراد الوقوف على ذلك فليشاهده الآن، فإن موضع المحراب الأول معروف إلى الآن، ولا يحدث إلا عن غائب والحاضر ينبئ عن نفسه، والنهار لا يحتاج إلى دليل ...».

اجتمع لبناء محراب قبلة جامع السقاية (الكتبيين) 520 هـ /7-1126 م أزيد من 40 فقيها، وضمن هؤلاء الفقهاء من كان ذا مستوى رفيع من العلم كابن رشد الجد[6]، الذي جمع علوم عصره. ومن العارفين بالنجوم والفلك... والشيخ أبو سعيد الهسكوري الذي ألف في الموضوع، كتاب دلائل القبلة، والذي لا يؤلف فيه إلا عارف بالجغرافيا والفلك ومن له دراية باستعمال أدوات القياس والرصد كالإسطرلاب. ومالك بن وهيب الفقيه الفلكي... هذا الإجماع لا يمكن أن يكون في نظر المؤلف موضع شك أو نزاع على صحة محراب الجامع المذكور، وبالتالي فإن الشك فيه أو المس به هو شك لا في الذي بناه، بل في العلماء الذين تم اختيارهم لوضعه، ولا يمكن أن يكون هؤلاء موضوع مزايدة أو خلاف لأنهم لـم ولن «يجتمعوا على ظلال». ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى رجالات المخزن الموحدي أنفسهم ومن أبرزهم قاضي الجماعة وهو منصب رفيع لا يناله إلا من

(6) – محمد حجي، ابن رشد الجد، معلمة المغرب، ج 13 ص 4348.

توفرت فيه شروط منها العلم بأحكام الشرع. وأبو الحسن بن القطان وهو من العلماء المحققين، وذهب إلى أبعد من ذلك باستعمال خبرته ومعرفته بالنجوم ومطالع الشمس وجرب ذلك على امتداد السنة. وقد وافقت القبلة المرابطية لجامع السقاية مساجد بنيت في العهد المرابطي والتي لم يمسها التغيير في مدينة مراكش. وهو يذكرها ويحيل عليها كل راغب في الاطلاع والمقارنة ليؤكد مدى صحة اتجاه هذا المحراب نحو مكة.

فما الذي دعا إلى تحريفها وهي صحيحة ؟

يمكن البحث عن الجواب في تاريخ الصراع المرابطي الموحدي الذي كان من نتائجه أن أطلق عبد المؤمن بن علي الكومي يد الجيش في المدينة عند فتحها، في حين امتنع الموحدون عن الدخول إلى حين تطهيرها بناء على توصية من المهدي بن تومرت الذي منعهم من دخولها قبل تطهيرها، فاقترح عليه الفقهاء لتطهيرها من رجس المجسمين» تحريف قبلة أهم مساجدها وضمنهم السقاية(الكتبيين)[7] والذي اجتمع لبنائه كبار علماء المرابطين. وبناء مساجد أخرى تكون مخالفة في اتجاه قبلتها للمحارب المرابطية.

إذن أسس وضع قبلة مسجد السقاية في العهد المرابطي قائمة على رصد المطالع على امتداد فصول السنة. في حين كان قرار تحويل هذه القبلة في جامع الكتبيين قرارا سياسيا، فشتان بين القرارين.

II - أهداف تأليف الرسالة

من بين الأهداف المعلنة لتأليف الرسالة البحث عن الاتجاه الصحيح لقبلة الصلاة في بلاد مصمودة التي ينتمي إليها المؤلف، ويظهر من طبيعتها كتأليف فقهي أنها جواب على سؤال/فتوى من سائل، أو أنها تفترض سائلا وربما يكون المؤلف نفسه، وهو يحاول الإجابة عنه. على كل حال تصنيفها ممكن ضمن الفتاوى لأنها تتعلق بنازلة فقهية تهم شرطا من شروط صحة الصلاة وهو استقبال القبلة. فبما أن الأمر يتعلق بفتوى فقهية لها ارتباط بخبرات تهم مجالات معرفية لا تخص الفقه وحده بل تتجاوزه إلى الفلك والجغرافيا أي إلى العلوم العقلية والفلسفية كما يسميها المؤلف. فإن أبعادها أيضا ستكون ولا شك متشعبة. منها المعماري، ومنها السياسي، ومنها الاجتماعي... وعليه فإن المؤلف يعلن صراحة أنه يبحث عن تحقيق اتجاه قبلة صلاة بلاد المغرب ويعتمد في ذلك على

---

(7) – ابن عذاري، البيان المعرب، تحقيق هويتي ميرندا ومحمد الكتاني، تطوان، 1960، القسم 3 ص.25 :

أقوال العلماء من الفقهاء بشكل أساسي. ويلجأ إلى العلوم الأخرى إن اقتضى الحال، مع تحفظه المبدئي من العلوم العقلية. فمن المؤلف ؟ وما الأهداف الكامنة وراء هذه الرغبة، خصوصا وأن التأليف في موضوع مثل هذا يظهر غريبا بعد مضي 6 قرون على استقرار الإسلام في هذه الربوع ؟

مؤلف الرسالة هو «الشيخ الفقيه الصالح العالم المؤرخ أبو علي صالح بن الشيخ الصالح الولي الزاهد الورع أبي صالح عبد الحليم نزيل نفيس، وهو يعيش إلى وقتنا هذا اثنا عشرة وسبعمائة، وقد جمع الله له بين الورع والعلم والعبادة وخصه بالفضل والديانة اشتهر بالعفاف واقتصر من الدنيا على الكفاف مع الانقباض عن أهل الدنيا والحلول من الورع في الدرجة العليا إلى ما يميز به من الكرم والسخاء والطهارة والتقى وتلك أوصاف السلف الصالح رضي الله عنهم... وقد سألته عن قبيله فذكر لي أنه أيلاني النسب، وأيلان اسم رجل هو أيلان بن مصمود»[8].

تحيل التحليات الواردة في هذه الترجمة على مستويات متعددة يمكن إجمالها في معرفية، تهم الفقه، والعلم، والتاريخ، أي على المستوى العلمي للرجل. والثانية تربوية تشير إلى أخلاقه العالية، وهي تستقي من أصل صالح، فهو ابن شيخ صالح وولي زاهد، وسلوك يرتبط باختيار الزهد في الحياة والورع بالكفاف والعفة والكرم والسخاء... المستوى الثالث اجتماعي الانتماء القبلي لأيلان، مما يدل على حداثة عهد الرجل بالمجال الحضري فهو طارئ على المدينة (نفيس). تظهر كل هذه العناصر والتحليات في الرسالة التي بين أيدينا. بل تتجاوزها إلى ما هو مسكوت عنه فيها. وهذا يدفعنا إلى الحديث عن المستويات المتراكبة للرسالة، والتي لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى:

أولا، تاريخ كتابة الرسالة، لا نتوفر على تاريخ محدد لكتابتها، فما ورد فيها من تاريخ يتعلق بتاريخ نسخها، 974 هـ، أما تاريخ كتابتها فيمكن البحث عنه في ثناياها ويمكن توطينه بنهاية القرن 7 هـ وبداية القرن 8 هـ/13- 14م، أي خلال فترة التحول من الحكم الموحدي إلى بداية استقرار الحكم المريني وهي فترة ارتباك في تاريخ المغرب.

ثانيا، صاحب الرسالة الذي أكد مترجمه انتماءه إلى عائلة ميزتها الصلاح، وما قد تحمله هذه الميزة من دلالات فكرية وسلوكية، بل مواقف سياسية أيضا، خصوصا إذا

(8) – مجهول، مفاخر البربر، مخ خع، د 1020 ص :37. محمد يعلى، ثلاثة نصوص عربية جمع وتحقيق، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد 1996، ص : 219-221.

علمنا أن التيار الصوفي أصبح له في هذه الفترة قول ورأي في القضايا الكبرى بل المصيرية للبلاد والعباد[9].

ثالثا، الانتماء المجالي لقبيلة هيلانة المصمودية التي لم تستفد من الحكم الموحدي لمعارضتها للموحدين في بداية أمرهم[10]، وبقيت مع تجمعات قبلية أخرى على الهامش، فانخرطت في صفوف المعارضين متبنية التصوف السني والمذهب المالكي[11]، وهما رمزا النضال ضد المذهب، الموحدي وأبناء عبد المؤمن، إلى حدود العقد الثالث من القرن 7 هـ/ 13م. عندما أعلن المأمون تخليه عن عقيدة ابن تومرت صراحة[12].

المستوى الأول فقهي : يذكر صاحب الرسالة من دوافع تأليفها أهمية استقبال القبلة في الصلاة، فهي شرط صحة. بل جعلها المؤلف فرضا، حيث يقول : «أما بعد، أيها الإخوان اعلموا أن الصلوات الخمس أفضل ما بني عليه الإسلام. ومن فرائضها استقبال الكعبة الحرام. وهو فرض بإجماع الأمة على سائر المكلفين»[13]. الأمر الثاني، أن المتحدثين عن القبلات في العالم الإسلامي لم يتحدثوا عن قبلة المصامدة. فهذا حيف شمل المجال المصمودي وبالتالي، العنصر المصمودي، تصدى له المؤلف بقوله: «والمتكلمون على القبلات من علماء الآفاق إنما تكلم كل واحد منهم على قبلة بلده. ونحن المصامدة خارجون عن ذلك كله»[14]. الأمر الثالث يتعلق باختلاف اتجاهات القبلة في المغرب، يقول: « ... اختلاف مساجدهم فإن بنيانهم قد اختلف اختلافا بعيدا منها ما استقبل مشارق الصيفية. ومنها ما استقبل موضع الاعتدال. ومنها ما استقبل مشارق الشتوية. ومنها ما استقبل وسط الجنوب مطلع سهيل. وأما المساجد المبنية في المغرب الأقصى إلى وسط الجنوب، وهو خط الزوال، ويقال له خط الاستواء، وهو قريب من مطلع سهيل، فقد ذكر أن دليلهم قوله صلى الله عليه وسلم: «ما بين المشرق والمغرب قبلة» فحملوا الحديث على العموم». إذن الدافع الظاهر من خلال هذه التصريحات هو الإقصاء

(9) – إبراهيم أنوار، التعليم والمعرفة والكتاب، أطروحة لنيل الدكتوراه، الرباط 2003، مرقونة، ص: 41- 79-80 .

(10) – أبو بكر البيدق، كتاب الأنساب، الرباط دار المنصور للطباعة والنشر،1971، ص: 46-47. أحمد عزاوي، رسائل موحدية، مجموعة جديدة، مطبعة النجاح الجديدة ط،1، الدار البيضاء 1422 هـ/2001 م. 2/29 ابن عذاري3/27.

(11) – محمد القبلي، قراءة في زمن أبي محمد صالح ضمن أبو محمد صالح المناقب والتاريخ، الرباط، النشر العربي الإفريقي 1990، ص: 90.

(12) – ابن عذاري، البيان المعرب 3/267-268... محمد المغراوي، الموحدون وأزمات المجتمع، الرباط، جذور للنشر، ط،1، 2006 ص: 157- 160. أحمد عزاوي، رسائل... 384/1.

(13) – الأيلاني، رسالة...ص :1.

(14) – المصدر نفسه، ص: 2.

(15) – المصدر نفسه، ص: 2.

الذي تعرض له المجال المصمودي من حيث التأليف في الموضوع من جهة، واختلاف اتجاهات القبلة في المجال المغربي بصفة عامة، والمجال المصمودي بصفة خاصة، وهذا الأمر له علاقة وطيدة بالعمران الديني خصوصا، والعمران المدني عموما، من حيث الاتجاه، وربما تجاوز الأمر إلى أبعد من ذلك.

المستوى الثاني، سياسي : لا يكاد يظهر موقف المؤلف السياسي من حكام عصره، فهو باهت خفي، فالمرينيون الذين وقع تأليف الرسالة في عصرهم لم يرد اسمهم لا تضمينا ولا صراحة في متن الرسالة، وصاحب مفاخر البربر الذي ترجم له أكد زهده وانقباضه عن أهل الدنيا. ومن يكون أهل الدنيا إن لم يكونوا هم الحكام المرينيون؟ وانتماؤه لهيلانة يؤكد ابتعاد أهله من قبل عن الموحدين الذين لم يرد ذكرهم في متن الرسالة. وعلاقته بأحفاد أبي محمد صالح الماجري دفين مدينة آسفي ونقله عن أحدهم أوالاعتماد عليه حجة كلها عناصر تؤكد هذه المواقف من الحكام. فهذا التأكيد على العلاقة بأهل الصلاح. وهذا الزهد في الدنيا بتركها لأصحابها. كلها عناصر تدل على مواقف سياسية مستترة من الموحدين والمرينيين. في الوقت الذي ظهر اسم المرابطين كحكام :علي بن يوسف، وكقبيل : لمتونة، في متن الرسالة مما يدل على تعاطف وحنين إلى فترة حكمهم، وهم المتشبثون بالمذهب المالكي الذي يعتمده صاحبنا فقها. وتخفي الرسالة أساً وأسفاً على ما آل إليه وضع مراكش العمراني في الفترة الانتقالية من المرابطين إلى الموحدين نتيجة المعارك والحصار الذي ضربه الموحدون عليها. لكن اتخاذها عاصمة من قبل الموحدين أعاد الاعتبار إليها كمدينة عاصمة فازدهر عمرانها وتوسعت رحابها، وكثرت معالمها العمرانية الدينية والمدنية، ولكن كل هذا لم يثر اهتمام المؤلف بقدر ما أثاره انحراف قبلة بعض مساجدها بتدخل الموحدين الذين لا يسميهم في رسالته ويكتفي بالقول حولت قبلة جامع السقاية بانياً الفعل للمجهول كأنه بذلك يتجاهل المحولين للقبلة في هذا المسجد (الموحدون) ويسكت أيضا عن الخراب الذي عرفته المدينة على إثر الصراع الموحدي/الموحدي الذي استغرق فترة مهمة من تاريخ الدولة الموحدية من 610 هـ/1213 م إلى نهايتها 668 هـ /1269م. كما يسكت على الضربة القاضية التي تلقتها العاصمة على إثر اتخاذ المرينيين لفاس عاصمة لهم، الشيء الذي أثر سلبا على مراكش كمدينة وعاصمة. والذي يمكن فهمه في سياق أوسع يتجاوز حدود المغرب الأقصى إلى المغرب الكبير بل إلى كل شمال إفريقيا مع اتجاه الطرق التجارية الصحراوية نحو الشرق، بفعل عدم الاستقرار الذي تعرفه الطرق الغربية خصوصا

المحادية للساحل الأطلسي. فطبيعي أن يتراجع دور مدينة مراكش وبالتالي عمرانها بسبب هذا التحول[16].

المستوى الثالث، الاجتماعي : سأل صاحب مفاخر البربر الشيخ المؤلف عن قبيلته فذكر له أنه أيلاني. هذا الحرص على ذكر انتمائه لهيلانة لا يخفيه بل هو الداعي إلى كتابة هذه الرسالة. فلماذا هذا الحرص من المؤلف عليه؟ قد يستفاد من المعلومات المتناثرة في ثنايا الرسالة أن بعض العناصر المصمودية لم تستفد من الحكم الموحدي رغم انتمائها للعصبية المصمودية. كما أنها لم تستفد من الحكم المريني بسبب انتمائها لهذه العصبية فضاعت بينهما. ولرد الاعتبار لها يؤكد صاحبنا على انتمائها لتيار عارض الموحدين فاعتنق المذهب المالكي، وانخرط في تيار التصوف السني متميزا بذلك عن الموحدين وعقيدتهم التي يراها منحرفة عن السنة، ومحاربة للتصوف السني، والذي ساهم رجالاته في الإطاحة بحكمهم. ثم إن التأكيد على انتمائه القبلي هو تخوف من ضياعه في الوسط الحضري الذي يعمل على فقدان الحضريين في غالب الأحيان انتماءاتهم القبلية، إن لم يكن على المدى القريب فسوف يتحقق هذا على المدى البعيد. وهو ما حصل حتى للتنظيمات الصوفية المعاصرة التي خرج أهلها عن سياقهم القبلي إلى المدن ففقد التنظيم بخروجهم قيمته وأهميته[17].

كما أدى تحول العاصمة من مراكش إلى فاس إلى هجرة عدد مهم من السكان إلى الشمال وخصوصا من ذوي الكفاءات العالية للاستفادة من الحكام الجدد في عاصمتهم الجديدة فاس الجديد.

لذا يرى صاحبنا أن من واجبه تناول كل هذا في رسالته لتحقيق اتجاه قبلة المغرب، لرد الاعتبار للمصامدة ورفع اللّبس، وتصحيح الأخطاء بتحقيق قبلة الصلاة اعتمادا على المتاح من المصادر النقلية والعقلية.

فما هي الأسس المعرفية التي بُني عليها المحراب في المغرب ؟

الأساس الأول للاختيار هو النقل اعتمادا على محارب وضعها عقبة أو تم الاعتماد فيها على أقوال الفقهاء في القبلة، وجاءت مضطربة كما ترد الفتاوى الفقهية لاختلاف

(16) – أحمد عزاوي، رسائل 27/2، 36، 213، 219....

(17) – بخصوص هذا الموضوع يمكن سرد تنظيم الأخوين الهزميريين، وتنظيم أبي زكرياء الحاحي، وتنظيم أبي محمد صالح الماجري. إبراهيم أنوار، التعليم والمعرفة والكتاب، ص: 178-185.

الآراء اعتمادا على اختلاف المواقف والحيثيات. هكذا اختلف تلاميذ أبي محمد بن أبي زيد القيرواني الذين أخذوا عنه قوله في **النوادر**، والذين أخذوا عنه قوله في **مجمع الأصول**. لم يخرج صاحب الرسالة عن أقوال أصحاب مالك مما يدل على تشبث قوي بالمذهب المالكي ومصادره الفقهية من الموطأ والمدونة الكبرى إلى الرسالة وأقوال فقهاء الفروع من المتأخرين .في حين تم إقصاء أصحاب المذاهب الأخرى بالتحامل عليها وذكرها أثناء الحديث عن محاولة معاد بن إسماعيل القرطبي سنة 345 هـ/هدم مسجد عقبة[18].

الأساس الثاني الذي وقع به وضع القبلة علمي يقوم على الجغرافيا، والفلك، والرصد لمطالع الشمس خلال الفصول الأربعة، ويظهر أنه غير مرغوب فيه لأنه جزء من الفلسفة، وعلوم القدماء، بل ويدخل ضمن خانة المعرفة المحظورة في حدود معينة. والذي يظهر أن هذه المعرفة متداولة رغم المواقف الرسمية المعلنة منها من قبل جمهور الفقهاء[19]، بل والحكام أيضا[20].

الأساس الثالث والأخير رغم اجتماع أصحاب عقبة بن نافع الفهري من العلماء بالشريعة الإسلامية، ومحاولات العارفين بالمطالع رصد القبلة اعتمادا على النجوم، والشمس، إلا أن الحسم بعد اختلاف أصحاب عقبة جاء على يد الرجل معتمدا على صلاحه وتقواه، فألهم الصواب بكرامة خص بها من بين أصحابه .إذن الأساس المعرفي الذي تم عليه اختيار هذه القبلة لا علاقة له لا بالنقل ولا بالعقل، بل أساسه غيبي كراماتي. ولم يكن اختيار هذا الخبر من المؤلف اعتباطا بل يدخل ضمن سياقين : أول عام يتفق مع روح العصر. وثان خاص يتفق وتكوين الرجل وانتماءه لأسرة ربها ولي صالح وشيخ زاهد، هذا ناهيك عن علاقته بأحفاد الشيخ أبي محمد صالح المعارض للموحدين. وربما انتماؤه لطائفته خصوصا وأنه أيلاني والطائفة السائدة في نفيس هزميرية[21]، فكل هذه العناصر مجتمعة ومتداخلة تبين لنا سبب اختيار الموضوع. فما هي المحطات الكبرى في تاريخ العمارة الدينية في المغرب ؟

---

(18) – الأيلاني، رسالة ...ص : 18.

(19) – تعرض ابن رشد الحفيد لمحنة على يد الخليفة يعقوب المنصور الذي أنكر عليه تعاطيه الفلسفلة وعلوم القدماء، بإيعاز من منافسين له في قرطبة. أحمد عزاوي، رسائل 1/ 206 -207...

(20) – إبراهيم القادري بوتشيش، علم النجوم والفلك، ضمن متنوعات حليمة فرحات، الرباط، مطبعة كوثر برانت، 2005، ص: 99-100.

(21) – صراع هزميرة وأيلان (هيلانة) أفضى إلى اختيار مراكش عاصمة للمرابطين. حسن جلاب، مراكش، معلمة المغرب، ج 7077/21.

III - محطات رئيسية في تاريخ العمارة الدينية في المغرب الوسيط

المحطة الأولى منتصف القرن 1 هـ /7 م

مساجد عقبة : سياق بناء مسجد عقبة في القيروان، والمساجد الأخرى المنسوبة إليه في المغرب والتي لم تذكر منها الرسالة إلا مساجد الجنوب المصمودي، هو سياق الفتح الإسلامي للمغرب، وقد تحول بعضها إلى رباطات للعبادة والجهاد مثل رباط شاكر، ومنها ما حوّل من بيت عبادة لغير المسلمين إلى مسجد للصلاة لما أصبح أهل البلاد مسلمين. وقد حاولت الرسالة أن تظهر مطابقة محارب هذه المساجد لمتطلبات الشريعة الإسلامية بالتوجه نحو الكعبة. ولم تشكك فيها لأنها من وضع رجل صالح ذي كرامات أو بعض أصحابه. إذن فهي تصادف تحولاً عرفه المغرب من الناحية العقدية وهو ما اصطلح عليه بجاهلية المغرب. فهذا التحول الأول في العمارة الإسلامية بالمغرب خطها أفقي يمتد من القيروان إلى رباط شاكر في جنوب غرب المغرب. هذا الصنف من المساجد من الناحية المعمارية تميز بالتواضع، والطابع القروي: مآذنه بسيطة متواضعة وبيوت صلاته عادية، بعيد عن كل مظاهر الضخامة والأبهة.

المحطة الثانية من منتصف القرن 2 هـ إلى نهاية القرن 5 هـ/8 -11 م

مساجد تلاميذ ابن أبي زيد القيرواني: سياق ظهورها محاربة نحلة برغواطة، فالتلاميذ الذين أخذوا عن القيرواني نقلوا عنه الفقه المالكي، وهم من الأوائل الذين نقلوا هذا الفقه إلى المغرب، وأعلنوا الجهاد ضد برغواطة، ولتحقيق هذا الهدف بنوا مراكز جهاد تدور حول مساجد ورباطات نذكر منها :مسجد -رباط شاكر الذي أعاد بناءه يعلى بن مصلين... ورباط تيط نفطر... وممن أعلن الجهاد : داوود بن يملول الصنهاجي، ويحيى بن وديفا الصادي من بلاد هسكورة، ويعلى بن مصلين الرجراجي[22].... وكلها شخصيات مغمورة في تاريخ المغرب العلمي، والتي حاول رد الاعتبار لبعضها صاحب مفاخر البربر[23]. وقد اختلفوا كما رأينا في وضع محاربهم باختلاف الروايات المأخوذة عن ابن أبي زيد. وهي مساجد تعكس الارتباط الأفقي بالمشرق مذهبيا، بل تحاول تعزيزه بمحاربة برغواطة ذات النزعة الانفصالية المحلية. ومن الناحية المعمارية هي مساجد بسيطة فيما يبدو، في وسط قروي: صنهاجة، وهسكورة، ورجراجة.

(22) - الأيلاني، رسالة ص : 16.

(23) - محمد يعلى، ثلاثة نصوص... ص: 202-224.

المحطة الثالثة 520 هـ/7-1126 م

مسجد السقاية بمراكش : يمثل نقطة التحول الكبرى في انتصار وفرض المذهب المالكي مذهبا للدولة التي تعزز نفوذها ببناء مراكش العاصمة المرتبطة عضويا بالمحاور التجارية الدولية. فقد تمكن المرابطون من دمج المغرب في محيطه المتوسطي والإفريقي، كما مثل بناء هذا المسجد بداية تراجع برغواطة لصالح الوحدة التي أصبح رمزها المخزن المرابطي الذي تحول إلى مراكش بعد أن عجزت أغمات عن استيعاب جنود المرابطين الذين ضاقت بهم المدينة، فاتجه المرابطون إلى بسيط مراكش الواقع بين أراضي هيلانة وأراضي هزميرة المصموديتان. وقد جمع علي بن يوسف بن تاشفين لتنصيب محراب مسجد السقاية كبار العلماء من المغرب والأندلس. فأصبح وابتداء من هذا التاريخ التوجه عموديا الأندلس/المغرب عوض أن يكون أفقيا. هذا التحول في التوجه ستكون له انعكاسات لا تتوقف عند حدود وضع المحراب بل تتجاوزه إلى شكله، والزخارف التي سوف يزين بها، والذي سيمزج بين عناصر هي خليط ساهم فيه كل الغرب الإسلامي مغربيا كان أو أندلسيا.

المحطة الرابعة من 540 هـ /1146-7 إلى نهاية القرن

تحريف محراب مسجد السقاية: يعتبر هذا التحريف النقطة البارزة الثانية في التوجه، ارتبطت من الناحية العقدية بدخول عقيدة التوحيد مع ابن تومرت. والتي رسخها تبني عقيدة الأشعري في مرحلة لاحقة. وتمثل فيه مساجد الكتبية في مراكش وحسان في رباط الفتح، وجامع إشبـيلية (الخيرالدا)، المساجد الموحدية الكبرى الممتدة على خط عمودي يربط إشبيلية بمراكش. وقد تميزت كلها بالضخامة والصلابة وعلو المئذنة المتحدية الشامخة، وهي عناصر لم تثر انتباه صاحب الرسالة الذي ركز اهتمامه وعنايته على «المحراب المنحرف» للكتبيين. يتقاطع مع هذا الخط العمودي خط آخر أفقي أهملته الدولة الموحدية، فاستغلت هذا الإهمال المعارضة التي مثلها أبو محمد صالح الماجري دفين آسفي الذي ركز اهتمامه على المحور الطرقي الممتد من آسفي عبر المجال الهسكوري في اتجاه القيروان[24]، فبنى مجموعة من المساجد والمحطات التي يأوي إليها القاصدون إلى مكة لأداء فريضة الحج. والذي لم تهمله الرسالة بل اعتبرت مساجده مصادر رئيسية وموثوقة في وضع المحارب في المغرب. فهذا التحول من

(24) – محمد القبلي، جذور وامتدادات، دار توبقال، ط1 ، الدار البيضاء، 2006 ص : 72.

الاتجاه الأفقي إلى العمودي لا يمكن أن يكون وليد الصدفة بل هو نتيجة لتطور في الزمن على المدى الطويل من عام 62 هـ/682م تاريخ بناء المساجد الأولى على يد عقبة إلى نهاية القرن 6 هـ/12 م أي أزيد من 500 سنة.

المحطة الخامسة 676- 678 هـ/ 1276-1279م

محراب مدرسة الحلفاويين موضوع نزاع لم يذكر: محراب هذه المدرسة من المحارب التي أثارت زوبعة في الأوساط العلمية بفاس 676-678 هـ/1276-1279م، والتي عاصرها صاحب الرسالة وغفل عن ذكرها كما غفل عن ذكر المرينيين أصحابها .وسياق هذه النازلة هو سياق بناء المدارس المرينية في المغرب. أثارت بمخالفتها لقبلة جامع القرويين نقاشا داخل الأوساط العلمية بفاس، انتهى بانتصار الاتجاه المحافظ المقلد، على حساب الاتجاه الذي اعتمد آخر ما وصلته علوم الرصد الفلكي .وكان محرابها أعدل المحارب في فاس[25]. لكن تدخل المحافظين جعل السلطات المرينية بعد مناظرة أجرتها بين واضع المحراب محمد ابن الحباك تحت إشراف القاضي أبي أمية الدولبي[26]، والفقهاء تميل إلى جانب المحافظين درءً للفتنة. وأخذت تبحث لها عن مخرج من هذه الورطة والذي كان خروج الأمير يعقوب بن عبد الحق من فاس العدوتين إلى فاس الجديد ببناء المدينة البيضاء[27].فهذه البناية لها علاقة بأحد أسس المشروعية التي افتقدتها الدولة عند بدايتها والتي تبلورت في بناء المدارس السنية المالكية[28].

ونتساءل، هل من الصدفة أن يكون المحراب مرة ثانية سببا في بناء مدينة جديدة قريبة من العاصمة فاس كما تم مع الموحدين عندما طُهِّرت مدينة مراكش بتحويل القبلة، وبناء مساجد جديدة مخالفة للمساجد المرابطية، حتى يتمكن الموحدون من اتخاذها عاصمة؟

(25) – الحاج موسى عوني، مدرسة الحلفاويين، معلمة المغرب، ج. 3544/11.
(26) – الجزنائي علي، جنى زهرة الآس... تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، ط، 3- 1429هـ/2008م، ص:81.
(27) – إبراهيم أنوار، التعليم ...أطروحة، ص:112.78.41.
(28) – المرجع نفسه، ص: 40.

البيبلوغرافيا

- ابن عذاري، البيان المعرب، تحقيق هويتي ميرندا ومحمد الكتاني، تطوان،1960، القسم 3.
- إبراهيم أنوار، التعليم والمعرفة والكتاب، أطروحة لنيل الدكتوراه، الرباط 2003، مرقونة.
- إبراهيم القادري بوتشيش، علم النجوم والفلك، ضمن متنوعات حليمة فرحات، الرباط، مطبعة كوثر برانت، 2005.
- أبو بكر البيدق، كتاب الأنساب، الرباط دار المنصور للطباعة والنشر، 1971.
- أحمد عزاوي، رسائل موحدية، مجموعة جديدة، مطبعة النجاح الجديدة ط،1، الدار البيضاء 2001.
- حسن جلاب، مراكش، معلمة المغرب، ج 7077/21.
- محمد حجي، ابن رشد الجد، معلمة المغرب، ج 13، ص 4348.
- محمد يعلى، ثلاثة نصوص عربية جمع وتحقيق، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد 1996.
- محمد المغراوي، الموحدون وأزمات المجتمع، الرباط، جذور للنشر، ط 1، 2006.
- محمد القبلي، قراءة في زمن أبي محمد صالح، ضمن: أبو محمد صالح المناقب والتاريخ، الرباط، النشر العربي الإفريقي، 1990.
- محمد القبلي، جذور وامتدادات، دار توبقال، ط1، الدار البيضاء، 2006.
- مجهول، مفاخر البربر، مخطوط الخزانة العامة، د 1020.
- صالح الأيلاني، رسالة في تحقيق قبلة الصلاة بالمغرب، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، ق: 985.

رباط إيكَيليز-هرغة
نموذج للعمارة المحصنة ببلاد السوس الأقصى
خلال القرن 6 الهجري/ 12 الميلادي

ذ. جان بيير فان ستايفل[1]
ذ. عبد الله فلي[2]
ذ. أحمد صالح الطاهري[3]

مقدمة

يقع رباط إيكَيليز-هرغة على بعد 60 كلم شرق، جنوب-شرق مدينة تارودانت، في عالية وادي أسيف-ن-وارغن الذي يتوغل بشكل كبير في مرتفعات الأطلس الصغير الأوسط[4]. اشتهر إيكَيليز - أو على الأصح إيكَيليز هرغة، باسم القبيلة الأمازيغية التي تستوطن المنطقة، أرغن أو هرغة[5] - في الكتابات الوسيطية بكونه مسقط رأس ابن تومرت، المهدي المنتظر الذي تزعم الحركة الموحدية، والمركز الأول لثورته التوحيدية. فمن هذا الموقع بدأ، حوالي سنة 500 هجرية (الموافق لسنتي 1106-1107 ميلادية)، المهدي ابن تومرت رحلته الدراسية التي دامت 15 سنة إلى المشرق. وإلى هذا الموضع سوف يعود ابن تومرت في نهاية هذه الرحلة ليستقر بين ذويه، وينشر دعوته، ويبدأ

(1) - جامعة السربون، باريس 4.

(2) جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب، الجديدة.

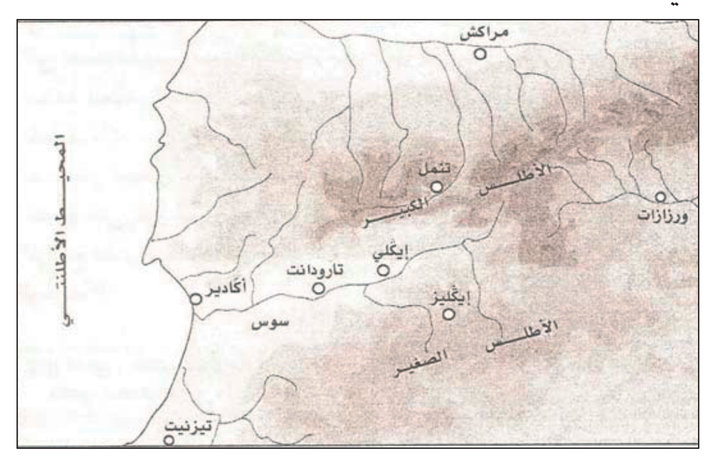
(3) المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث، الرباط.

(4) عن توطين الموقع، يمكن الرجوع إلى:

جان بيير فان ستيفل وعبد الله فلي، ووصلنا على بركة الله إلى إيجيليز، حول تحديد موقع إيكَيليز هرغة، حصن المهدي بن تومرت، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، العدد 26، (2006)، ص 91-124 الذي لخصت فيه المعطيات النصية والميدانية التي تم جمعها والتي نشرت باللغة الفرنسية في مجلة القنطرة التي تصدر بمدريد، انظر:
A. Fili, J.P. Van Staëvel, «Wa-wasalnâ ʻalâ barakat Allâh ilâ Îgîlîz : à propos de la localisation d'Îgîlîz-des-Hargha, le hisn du Mahdî Ibn Tûmart », Al Qantara XVII (2006), pp. 153-194 et A. Fili, J.P. Van Staëvel, «Avant Tinmal : notes historiques et archéologiques à propos d'Îgîlîz-des-Hargha, berceau du mouvement amohade », dans « 30 ans d'archéologie marocaine ». Actes des Journées d'hommage à Madame Joudia Hassar-Benslimane, (INSAP, Rabat, 8 et 9 décembre 2005), (sous presse).

(5) - مصطلح هرغة في النصوص الوسيطية هو المرادف العربي ل أرغن، التسمية الأمازيغية للمجموعة القبلية التي ينتمي إليها المهدي ابن تومرت.

صراعه الطويل ضد المرابطين. وإذا كنا نعرف من خلال الكتابات الوسيطية، مثل البيان لابن عذاري و العبر لابن خلدون، وجود الرابطة التي أسسها المهدي أو رابطة الغار المقدس التي وظفها كخلوة، على غرار الرسول محمد ﷺ، بالمرتفعات المشرفة على مكة، فإننا لا نعرف إلا القليل عن الدور العسكري والديني الذي لعبه إيكَيليز-هرغة خلال السنوات الأولى في منظومة المقاومة التي واجه بها الموحدون الأوائل جيوش أمير مراكش المنتشرة بوادي سوس. فالموقع يشكل إذن مركز الثورة الموحدية الناشئة قبل أن يغادره المهدي للاستقرار بتينمل بالأطلس الكبير، وما ترتب عن هذا الانتقال من نسيان تدريجي للموقع وتهميشه لصالح هذا الموضع الثاني[6]، سواء في الكتابات التي تتحدث عن الحركة الموحدية أو في الدراسات المعاصرة.



الشكل 1: موقع رباط إيكَيليز- هرغة

وإذا كان مهد الحركة الموحدية قد شكل منذ عشرينات القرن الماضي موضوع عدة محاولات لتوطينه فإنه يبدو، من خلال المعطيات المتوفرة لدينا لحد الآن، أنه لم يزره الأثريون قبل تحرياتنا الأولى للموقع سنتي 2004-2005 وأبحاثنا به خلال سنوات 2005 و2007 و2008 والحفريات التي باشرناها به ابتداءا من أبريل2009.

(6) – عن ظروف وفرضيات نسيان إيكيليز، انظر مقالا قيد النشر:

F. Fili, J.P. Van Staëvel, «Oublier Îgîlîz. Un cas d'amnésie volontaire dans la tradition historiographique almohade », dans la Revue de la Faculté des Lettres et des sciences Humaines de Rabat, Université Mohammed V (à paraître).

إيكَيليز : رباط محصن ومنيع

1- الأسوار

تنتشر البنيات الأثرية لرباط إيكَيليز-هرغة فوق مرتفع على علو 1354 متر تقريبا، هو جزء من الأطلس الصغير، ويحمل الآن على الخريطة الطبوغرافية تسمية جبل ابن تومرت(7). يتكون هذا المرتفع من ثلاثة قمم هي الجبل الشرقي الذي يطل على قرية توغمرت، والجبل الغربي الذي يشرف على مركز ماكنون، والجبل الأوسط الذي يهيمن على قرية تفيكيت من جهة الشمال وأسيف-ن-ورغن من جهة الجنوب. وإذا كانت القمة الأولى - الجبل الغربي- لا تختزن إلا بنايات قليلة، فإن الجبلين الشرقي والأوسط يزخران ببقايا معمارية متعددة، تبرز أن الاستيطان قد تمركز خلال العصر الوسيط بهما معا. وتم توظيف المعطيات الطبوغرافية للجبلين بشكل كبير، واستغلت أيضا التضاريس الوعرة لبعض منحدرات الجبلين وأجرافهما من أجل بناء قلعة محصنة بإمكانها الصمود أمام الغارات المحتملة(8).

ففي الجبل الشرقي، أبانت التحريات أن السياج الجداري قد تم تشييده بالجهة الشمالية الشرقية للجبل، بينما تركت جهتاه الجنوبية-الشرقية والجنوبية-الغربية دون تحصينات لكون الأخيرتين عبارة عن جرف صخري حاد ومستقيم يزيد ارتفاعه عن 100 متر. ومما يبرز حرص الموحدين على مناعة معقلهم، اهتمامهم وتركيزهم على مناطق الضعف بالواجهتين الأخريين. ففي أقصى الواجهة الشمالية الشرقية التي تطل على مركز توغمرت، ووسطها الذي يقابل تيفيكيت، يصبح المنحدر سهلا والميلان قليلا، وبالتالي كان من الضروري الاحتكام إلى تدعيم هذا الجزء من الجبل بسور يتجاوز عرضه في بعض الأحيان 1.50 متر، مبني بأحجار كبيرة الحجم فوق القاعدة الصخرية مباشرة وعند بداية الجرف الصخري، مما يمكن من الحصول على ارتفاع يتجاوز من الخارج 10 أمتار(9). وفي الأجزاء الضعيفة، لجأ الموحدون إلى الإكثار من الحواجز المتقدمة التي توقف تحركات

---

(7) - خريطة سوق أربعاء آيت عثمان، مقياس000 1/50 ورقة 1977, NH-29-XVU-2C.

(8) - تجمع العديد من الإشارات التاريخية على أن إيكيليز موقع محصن ومنيع يقع في موضع مرتفع، ووصفته تلك الكتابات ب الحصن والقلعة الحصينة والمعقل .جان بيير فان ستايفل وعبد الله فلي، ووصلنا على بركة الله إلى إيجيليز... مجلة كلية الآداب، ص. 107-108، وابن القطان، نظم الجمان...، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1190 ، ص131، وياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء الأول، طبعة الجندي، بيروت،1990، ص 342 وابن خلدون، العبر، بيروت، 1992، الجزء الرابع، ص269، والزركشي، ص 14.

(9) - وقفنا بهذا الجزء، وخاصة في السور المقابل لمركز تيفيكيت، على بقايا لازالت قائمة على ارتفاع يصل في بعض الأماكن إلى 8 أمتار، بجانبها طبقة سميكة من الأحجار التي كانت مستعملة في الجزء العلوي للسور.

المهاجمين، أو على الأقل تحد من حركيتهم، وتضطر كل قاصد للرباط بالمرور من مسلك وعر وحيد، لازال المسلك الأسهل والآمن لحد الآن لكل من يريد الوصول إلى قمتي الجبلين الشرقي والأوسط.

ونظرا لأهمية هذا الممر الذي لازالت الذاكرة المحلية تربطه بالباب الوحيد للقلعة بالجبل الشرقي، وتطلق عليه تسمية باب الجمل(10)، أو باب تيفيكيت لانفتاحه قبالة المدشر الذي يحمل الاسم نفسه، فإن عملية التحصين قد فرضت تدعيم هذا الجانب بسور متعامد تقريبا مع السياج الجداري، يتخذ اتجاها شماليا-جنوبيا ينتهي ببرج مراقبة متقدم. بني هذا الأخير عند التقاء طرفي جرفين صخريين فوق القاعدة الصخرية مباشرة، واستعملت في بنائه أحجار مختارة بدقة ومرصوصة بعناية فائقة تنم عن معرفة دقيقة بصنعة البناء ومهارة كبيرة في التحصين وتقنياته.

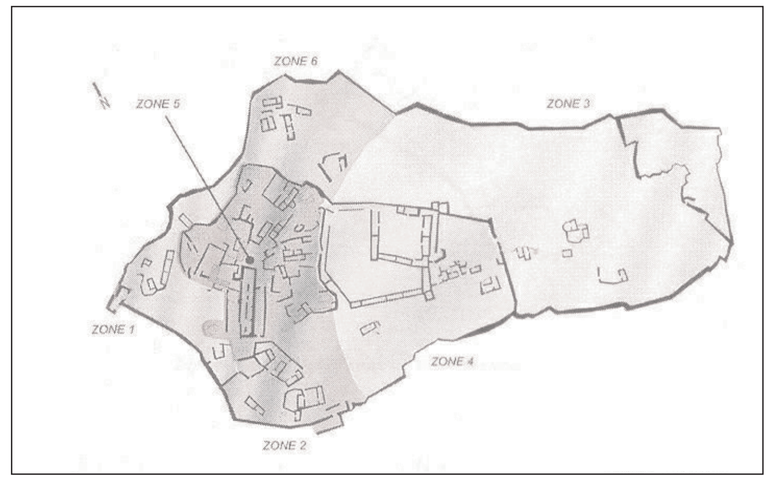
وتتأكد هذه المعرفة في تحصينات ومباني الجبل الأوسط. فبالإضافة إلى المسجد والصهاريج المائية المحفورة في القاعدة الصخرية للجبل والعمائر المختلفة المشيدة بهذا الجزء من الموقع، أبانت الحفريات عن تجهيزات عديدة ومركبة تهدف كلها إلى وقف وصد كل عدوان محتمل والصمود في وجه أي حصار قد يضرب على الرباط. استُغلت القواعد الصخرية، ووظفت المنحدرات لتشكل مع السياجين الجداريين، الأسفل والأعلى، والأبواب الثلاثة الملتوية، منظومة دفاعية قوية ومتماسكة. يتراوح سمك السياجين الجداريين ما بين 1.50متر في السور السفلي و 1.75 بالسور المحاذي للباب الشرقي (ب 1). من جهة أخرى، لجأ الهرغيون إلى تشييد حواجز ذات اتجاه شمال جنوب (متعامدة تقريبا مع السياجين الجداريين الأعلى والأسفل) بهدف التحكم أيضا في كل حركة بين الجدارين وتوجيهها نحو مناطق محددة لمواجهتها بشكل فعال.

مكن الرفع الطبوغرافي لمسار التحصينات بالجبلين معاً، الأوسط والشرقي، من تقديم نظرة عامة عن تخطيط الأسوار المكونة للسور السفلي، وكذا للأجزاء المكونة للسور العلوي وللحواجز المبنية في كل النقط الضعيفة ومواضع الأبواب. وأظهرت التحريات الميدانية أن تحصين رباط إيكيليز-هرغة قد استغل طبوغرافية الموقع استغلالا مدروسا، إذ وظف الأجراف الطبيعية توظيفا محكما، ودعم كل الأماكن التي تشوبها بعض

(10) - ربما نجد هنا إشارة أخرى إلى وصول المهدي ودخوله إلى رباط قبيلته، وهي واحدة من كل تلك الإشارات التي لازالت تختزنها وترويها الذاكرة الجماعية لأهل اسيف-ن-ورغن.

النواقص الدفاعية تدعيما مناسبا. ونلاحظ الاعتناء المخصص لهذه الدفاعات في جودة التشييدات لمجموع الأسوار، إذ بالرغم من أن الأحجار المستعملة تقدم للوهلة الأولى مظهرا خارجيا خشنا وبدائيا، إلا أن هذا الانطباع الأولي سرعان ما يزول مع الفحص الدقيق لبنية الجدران الذي يبرز مدى العناية التي أولاها الهرغيون لبناء وترصيص عمائرهم هاته. فقد كانوا بدون أدنى شك عارفين معرفة دقيقة بالبناء بالحجر، وطبقوا في هذا المجمع المحصن تقنياتهم المتوارثة، المستعملة في السكن، وكذا في حصونهم. وتبقى شساعة الحصن الغير العادية التميز الوحيد الممكن مقارنته مع باقي عمائر المنطقة.

إن تخطيط جميع العناصر الدفاعية يدحض في كل الحالات فكرة دفاع معد بشكل مرتجل في بداية العشرينيات من القرن 12 الميلادي من قبل جماعة جبلية منزوية، ويعطي الانطباع بأن الدفاعات بالجبلين الأوسط والشرقي هي برنامج معماري متناسق لا يترك إلا حيزا صغيرا للارتجال من أجل تصميم البنية الكلية للتحصينات.

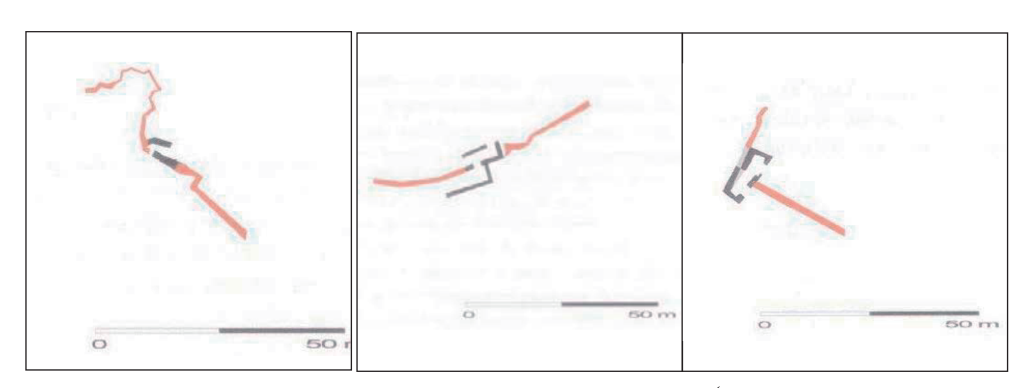


الشكل 2: إيكَيليز هرغة تصميم بنيات الجبل الأوسط

2 - **الأبواب**

عمل الهرغيون على جعل القمة المسطحة نسبيا للجبل الأوسط معقلا محاطا بسياج جداري يحمي خزاناتهم المائية (الجبوب)، ومسجدهم الرئيسي ومساكن بعض أعيانهم وغار زعيمهم. ومن أجل إحكام منظومتهم الدفاعية، اختار الهرغيون ثلاث نقط خصصوها للمداخل، وأخضعوها لتصميمات محكمة زاوجت بين الموضع الاستراتيجي (مواضع منفتحة على الخارج ولكن لايمكن الوصول إليها إلا من ممر واحد ضيق وصعب) والوظيفة الدفاعية (تصميم متعدد الالتواء).

ينفتح الباب الأول (ب1) بالواجهة الشرقية الجنوبية لتحصينات الجبل الأوسط، في الزاوية المشكلة بتقاطع السياجين الجداريين الشمالي الشرقي والجنوبي. اختير موضع هذا الباب بعناية فائقة، إذ تم تشييده مقابل الواجهة الهجومية من الجهة الأكثر انحدارا للقاعدة الصخرية. بني هذا المدخل عند انقطاع المنحدر مما يجعله يمنع، أو على الأقل يحد، من قوة أي هجوم مباشر. يتكون الباب الأول من بنية طولية مشيدة بشكل موازي مع طرف السور الجنوبي الذي يمدده ويمتزج معه في الوقت ذاته. فبعد صعود المسلك الذي يتموج في المنحدر الأخير، يمشي الداخل بمحاذاة السور الشمالي الشرقي على اليسار قبل أن يلج إلى البنية الفعلية للباب، ليجد نفسه مضطرا إلى الانعطاف على اليمين ثم عبور ممشى مستطيل ينتهي بمنعطف جديد على اليمين يفضي إلى ساحة تحتلها جزئيا بعض البنايات.



الشكل 3 : إيكَيليز هرغة، المخططات الأولية للأبواب الثلاثة للرباط

(ب 1 و ب 2 و ب 3)

يتواجد الباب الثاني للرباط هو الآخر في نهاية المنحدر، ويرتكز على حافة القاعدة الصخرية. يتم الولوج إلى الداخل عبر ممر منحدر يحاذي السور السفلي من جهة اليسار. يحيط بهذا الممر المنحدر نتوء صخري من جهة الشرق يمدده بعد ذلك جدار يشكل بالنسبة للسور السفلي سورا متقدما يلعب دور التثبيت الضروري في هذا الصنف من المواضع المنحدرة. تهدم هذا السور المتقدم حاليا ولم تبق منه إلا بعض الأجزاء القائمة، يصل علوها إلى 1.50 متر وسمكها مابين 1.20 و1.30 متر. بني السور بأحجار كبيرة يصل مقاس بعضها إلى 0.80 متر غير منجورة، وموضوعة مباشرة فوق القاعدة الصخرية.





الشكل 4 : رباط إيكَيليز هرغة، الباب الأول (ب1) والباب الثاني (ب 2)

من الجهة الخارجية، شيدت البوابة بين دعامتين يصل علو الأجزاء المتبقية منهما مابين 1.40 متر و1.50 متر. وهي تبرز تراجعا طفيفا في اتجاه المدخل (وليس في اتجاه الخارج). رصصت أحجار الزوايا بطريقة متقنة، وبنيت الأكتاف بعناية فائقة، مما يبرز عناية ودقة عاليتين. أما الأحجار الغير المنجورة فمتوسطة الحجم، ومقاييسها تختلف عن تلك التي تميز الكتل الحجرية المستخدمة في بناء السور. يخْلطُ الملاط ترابا أحمرا يتكون من حبيبات رقيقة تظهر علامات تدل على إضافة مواد نباتية وحصى وحبيبات من الجير(؟) (0.001 و 0.005 متر). وعلى يسار المدخل يلاحظ توظيف حائط قصير الطول (0.50 متر)، فرضته طبوغرافية الموضع.

يشكل المسلك بين الخارج والداخل زاوية قائمة على مستوى المدخل مما يجعل الزائر مضطرا للانعطاف إلى اليسار أولا، ثم بعد ذلك يتعقد الممر بسبب توظيف التواء ثان في حال رغبة المار التوجه من الباب مباشرة في اتجاه الشرق وهو يحاذي الواجهة الداخلية للسور، و التواءين اثنين، واحد على اليمين والثاني على اليسار، في حالة رغبته في قصد

اتجاه الفضاءين الرابع (فضاء القصبة)، والخامس للموقع. إن هذا التصميم يشكل، بالرغم من القيمة الدفاعية التي تطرح عددا من الأسئلة بسبب توفر الباب على ممرين للولوج داخل الحصن، نظاما معقدا يتطلب تحريات أثرية معمقة أكثر للوقوف على منظومته وبنيته المعمارية بكل تفاصيلها.



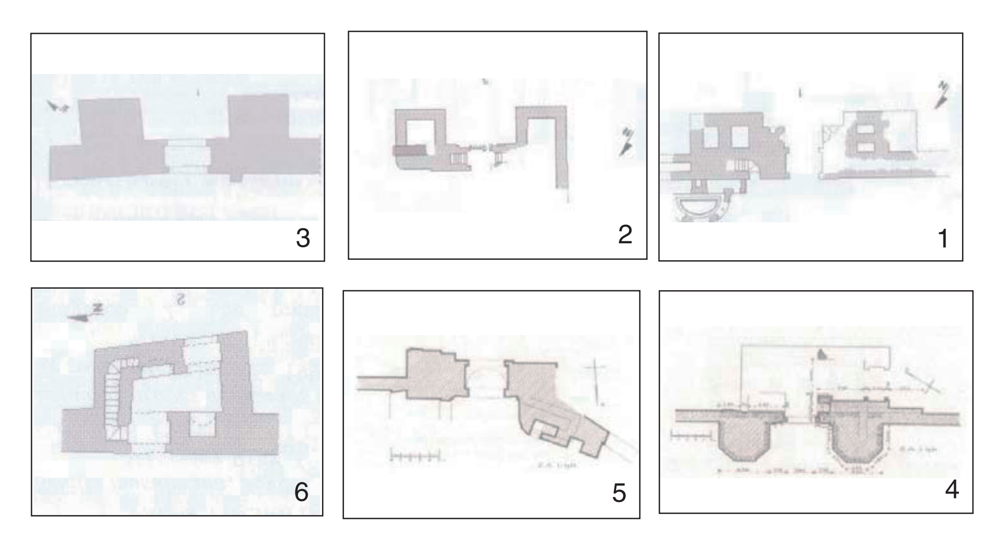
الشكل 5 : رباط إيكَليز هرغة، الباب الثالث (ب 3)

يقع الباب الثالث (ب 3) في الواجهة الغربية للجبل الأوسط، وهو يتشكل من تصميم ملتو ومن مقاسات تجعل منه بوابة ثانوية متميزة، بسبب موضعها وبنيتها، بالمقارنة مع البوابتين الأولى والثانية. يستند الباب إلى بروز صخري يشكل الحد بين القمة المسطحة وبداية المنحدر الشمالي الغربي للجبل. الممر ضيق ولا يتجاوز عرضه 0.80 متر، وهو مشيد بين البروز الصخري وبداية الحزام الجداري الذي يبلغ سمكه بهذا الموضع 1.40 متر. وبمقابل هذا الأخير، يتمدد سور أمامي آخر، مواز للأول، يتراوح سمكه مابين 1.00 و1.10 متر، ويستند إلى نفس البروز الصخري. صممت هذه البوابة هي الأخرى وفق تصميم ملتو إذ أن الزائر يجد نفسه مضطرا إلى السير جنب السور السفلي قبل أن يلج ممرا موازيا لهذا الأخير ثم الانعطاف على اليسار ليجد نفسه مقبلا على الفضاء 3 للموقع. الباب صغير الحجم مقارنة مع البوابتين الأولى والثانية، مما يدفع إلى تصنيفه كباب ثانوية كانت تسهل التحرك بين السياجين الجداريين العلوي والسفلي، وتسمح بالتواصل بين الجبل الأوسط والمرتفع الجبلي الذي يتمدد في اتجاه الجبل الغربي.

أبواب رباط إيكَليز هرغة وأبواب الفترتين المرابطية والموحدية

تسمح الحالة الراهنة للتحصينات الوسيطية بالمغرب بتقديم فكرة واضحة المعالم عن العمارة العسكرية خلال الفترة الموحدية بينما يبقى إدراكنا وفهمنا لهذا الصنف المعماري

خلال الفترة المرابطية محدودين بعض الشيء، وغير واضحين بالرغم من كون بعض المواقع الفريدة، مثل موقع تاسغيموت، تقدم لنا إضاءات كافية لفهم التوجهات الكبيرة لتلك الفترة والتغيرات الرئيسة التي عرفتها، في انتظار توفر معطيات تمكن من حصر تفاصيل وجزئيات تطور هذه العمارة طيلة الفترة المرابطية. وفي غياب بقايا بوابات ضخمة ترجع إلى القرون الإسلامية الأولى[11]، فإن دراسة أبواب مراكش، عاصمة المرابطين ثم الموحدين، قد تمكن من تقديم معلومات هامة حول تطور العمارة العسكرية خلال القرنين 12 و 13 الميلاديين.



الشكل 6 : 1 - باب دار الحجر، 2 - باب تاسغيموت، 3 - باب زاكورة، 4 - باب العرصة، 5 - باب تاغزوت، 6 - باب زاكورة

يجب التصريح بأن هذه الأبواب غير مؤرخة بالشكل اللازم لهذا الصنف من الدراسات إلا في بعض الحالات، وأن عددا من أبواب الفترة المرابطية معروفة لدينا من خلال النصوص التاريخية، لاسيما تلك التي تتناول الحصارين اللذين تعرضت لهما المدينة سنة 1130، والذي كان كارثيا بالنسبة للموحدين، وسنة 1146-1147 الذي يؤرخ لسقوط العاصمة المرابطية، ويرتبط بنهاية المرابطين. فإلى حد الآن، يطرح رسم السياج الجداري الذي

(11) - الأبواب الضخمة السابقة على الفترة الموحدية قليلة جدا، وبعض الأسوار الإسلامية القديمة غير معروفة لدينا إلا من خلال بعض الأجزاء المدعمة بالأبراج .انظر:

شيده علي ابن يوسف في سنة520 هـ/ 1126م عدة فرضيات وتأويلات[12]. فالأبواب الثمانية التي درست من قبل الباحثين، شارل ألان Charles Allain وجاستون دوفيردان Gaston Deverdun، خلال الخمسينيات من القرن الماضي، تطرح إشكالا يرتبط بصعوبة تحديد أي منها يحتفظ ببقايا قد تعود إلى فترة تشييد السور المرابطي. إذ أن المنهجية التي اتبعت من قبل الباحثين، والتي مزجت بين التحليل النصي والحفر الأثري المصطلح الذي نفضله والذي يختلف عن الحفريات -منهجية كلاسيكية، إلا أن إمكاناتها سرعان ما تصل إلى محدوديتها أمام بنايات تعرضت في أغلب الأحيان إلى تغييرات عديدة تشهد على تاريخ معماري معقد[13].

١ - الأبواب المستقيمة

بقيت تحصينات الفترة المرابطية تخضع جزئيا للمبدأ القديم المعتمد على الباب المشيدة بين برجين أو تلك المصممة اعتمادا على تصميم بسيط جدا والمتمثل في فتح الباب وسط سياج جداري للتحصينات. فقد شهدت القلعة المشيدة عند تأسيس مدينة مراكش من طرف يوسف بن تاشفين شمال مسجدي الكتبية، والتي حملت تسمية دار الحجر، حفريات ما بين سنتي 1948 و1952. وتقدم البوابة التي تم الكشف عنها بالواجهة الجنوبية للسور مدخلا مباشرا. والأمر نفسه ينطبق على باب تاغزوت المشيد في زاوية داخلة بالسور المرابطي، حيث كان المدخل ينفتح في أول الأمر بين برجين بواسطة ممر مستقيم يوصل مباشرة إلى وسط الساحة[14]. نفس الحل تم تبنيه من قبل مشيدي قصبة تاسغيموت المرابطية[15]. فعلى مستوى السور الرئيسي، تم فتح المدخل المباشر وسط برج ضخم بارز من الداخل ومن الخارج في حين شيد مدخل القصبة وسط برجين مربعي الشكل[16]. وفي قصبة زاكورة المرابطية، وظف البناءون الطريقتين معا إذ زودت القصبة

(12) - انظر : G. Deverdun, Marrakech, des origines à 1912, Paris, 1958, p : 108-128.

(13) - راجع: Ch. Allain, G. Deverdun, « Les portes anciennes de Marrakech », Hespéris, 44 (1957), p : 85-126.
وبخصوص مشاكل التأريخ، نحيل القارئ على: P. Cressier, « Les portes monumentales urbaines almohades », p :152-153.

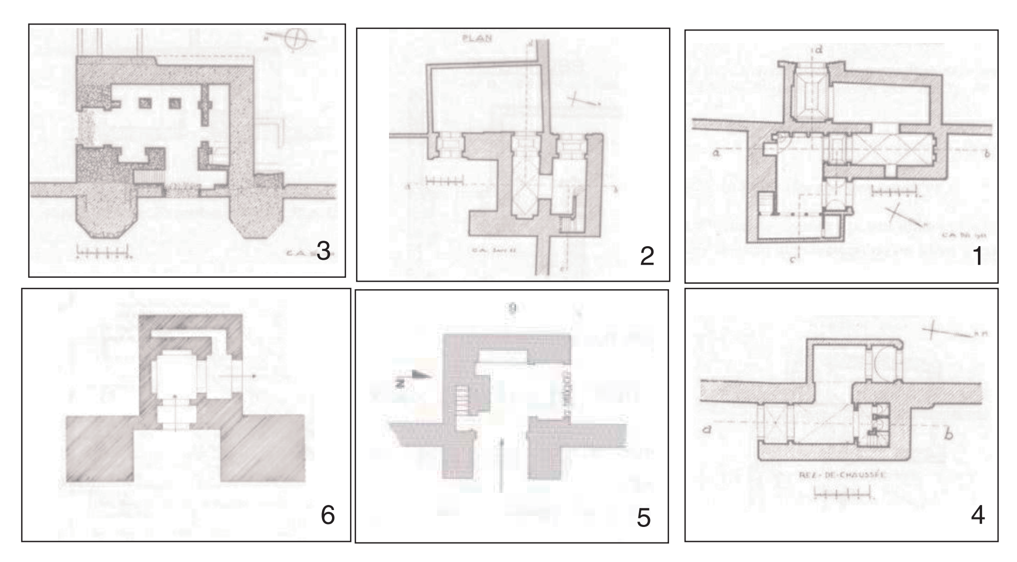
(14) - انظر : Ch. Allain, G. Deverdun, « Les portes anciennes de Marrakech », p :102-104.

(15) - نفس التأريخ اقترح من قبل الباحث باتريس كريسيي انظر:

P. Cressier, « Les portes monumentales urbaines almohades », p :153-154.

(16) - Ch. Allain, J. Meunié, « Recherches archéologiques au Tasghimout des Mesfioua », Hespéris, 38 (1951), p : 381-405 (391-394 et 396-398) ; Basset H., Terrasse H., «Sanctuaires et forteresses almohades. Le ribât de Tît. Le Tasghimout », Hespéris, 7 (1927), p :117-171 ; P. Cressier, L. Erbati, « Note sur la forteresse almoravide du Tâsghîmût », Archéologie islamique, 8-9 (1998-1999), p :55-66 ; P. Cressier, «Les portes monumentales urbaines almohades », p :152.

ببوابتين، إحداهما مكونة من مدخل مستقيم مدعم ببرجين، والأخرى ثنائية الالتواء مشيدة وسط برج خارجي(17).



الشكل7 : 1- باب الدباغ، 2 - باب أغمات، 3 - باب المخزن، 4 - باب أيلان، 5 - باب الدشيرة، 6 - الباب القبلي

2 - الأبواب المكوعة أو الملتوية

يصبح تصميم المدخل المباشر أكثر تعقيدا عندما ينضاف إليه من جهة الباحة الداخلية جدار مواز للسور الخارجي يجعله يرسم زاوية قائمة كما هو الشأن بالنسبة لباب العريصة بمراكش. فرغم تعرض هذا الأخير للخراب حتى مستوياته السفلى، فإن حفريات 1951 قد مكنت من رسم تصميمه العام. فقد التصق بمدخله برجان ذوا زوايا مضلعة (rabattus angles). ويؤكد وجودُ بقايا جدارٍ ومدخلٍ داخل السور الخارجي على أن الباب كان مكوعا في الأصل، حيث ينعطف الداخلُ جهة اليمين(18).

(17) - انظر :

J. Meunié, Ch. Allain, « La forteresse almoravide de Zagora », Hespéris, 43 (1956), p: 305-353 ; P. Cressier, «Les portes monumentales urbaines almohades », p :151 ; H. Basset, H. Terrasse, «Sanctuaires et forteresses almohades. Le ribât de Tît. Le Tasghimout », Hespéris, 7 (1927), p : 117-171.

(18) - Ch. Allain, G. Deverdun, « Les portes de Marrakech... », p.108-109

ويشير P. Gressier إلا أن الأمر يحتاج إلى مزيد من الأدلة:

P. Cressier, « Les portes monumentales urbaines almohades... », p. 154

ونجد مبدأ المدخل الملتوي أو المكوع في الباب الوحيد المعروف بتينمل الذي يعد نقطة متقدمة للجيوش الموحدية ابتداءا من سنة 1125 م. أُطِّر هذا البابُ ببرجين بارزين مربعين، وهُيئَ المدخلُ المكوع بواسطة جدار على شكل الحرف اللاتيني مداخل السور الخارجي، مباشرة بعد فتحة المدخل(19). ويمكن أن نضيف إلى مجموع هذه الأبواب المكوعة، باب المخزن بمراكش المرتبط بمنطقة وجود القصر المرابطي وبعده الموحدي(20)، والذي مكنت حفريات أبريل – ماي 1951 من العثور على بقاياه. وفضلا عن قوسه وممره الطويل، يتم الدخول جهة اليسار إلى أسكوب يحيط به رواق من جانبه الشرقي(21).

تبرز في هذه المعلمة – باب المخزن – مجموعة من العناصر الجديدة : من جهة، طول ممر الباب الذي يذكر بهندسة الأبواب ذات المدخل المباشر، ومن جهة أخرى وجود رواق كبير مفتوح على الأسكوب الرئيسي(22). ورغم أن باب المخزن يطرح مشاكل تأريخية(23)، إلا أننا نلاحظ انسجام تصميمه مع ما نعرفه عن تطور الهندسة الدفاعية خلال الفترة المرابطية(24). بقي هذا النوع من المداخل مستعملا خلال المرحلة الموحدية، كما هو الشأن بالنسبة لباب أكناو المشهور بمراكش (25). فقد تعرض هذا الأخير لعدة تغييرات، منها هدم البرجين اللذين كانا يؤطران واجهة المدخل .كما أن التصميم الداخلي يطرح

(19) - E. Doutté, Missions au Maroc. En tribu, p :103-109 et pl. XII, fig. 24. P. Cressier, « Les portes monumentales urbaines almohades », p : 154-155.

هناك احتمال وجود باب آخر، أنظر:

Y. Khiara, Reconnaissances et recherches archéologiques dans la moyenne vallée de Nfiss, Thèse de 3 cycles, INSAP, Rabat, 2000, I, p:164-168.

(20) – هذا الباب قريب جدا من قصبة يوسف بن تاشفين وإلى القصور التي انتشرت حولها . ومن الطبيعي أن يكون السلطان المرابطي كما الموحدي قد استعملها كثيرا: .Ch. Allain, G. Deverdun, p : 110

(21) – لا نعرف نمط التسقيف الذي استعمل. ولا شك أن البا ب لا يملك فضاء مفتوحا على السماء. ويحتمل أن تكون القاعة وممر المدخل قد سقفا بقبو مضلع. Ch. Allain, G. Deverdun, p : 110 -112

(22) - Ch. Allain, G. Deverdun, p :113.

(23) - نحن أمام أحد أقدم الممرات بمراكش الذي ارتبط استعماله بفترات طويلة. ويتوسط باب المخزن السور المرابطي، ولا شك أنه، على غرار باب العريصة، مؤرخ بمرحلة بناء السور من قبل علي بن يوسف:

Ch. Allain, G. Deverdun, p : 113 -114

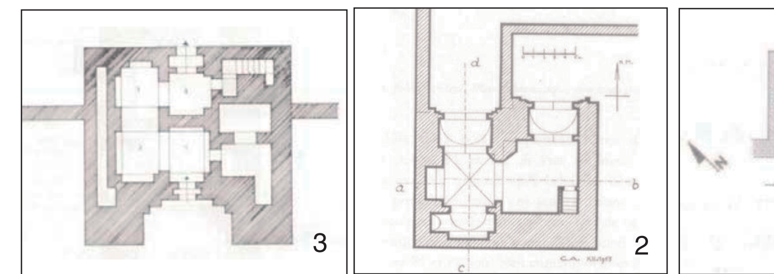
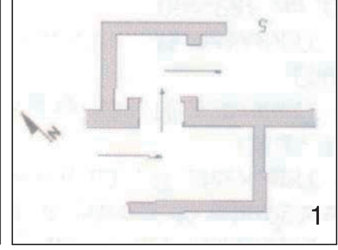
إلا أن P. Gressier يرى أن الأدلة لازالت غير كافية. P. Gressier, p.154. ويلاحظ باتريس كريسيي كذلك أن الأبراج المضلعة التي تؤطر باب العريصة وباب المخزن موجودة كذلك على باب الأحد وباب القصر الملكي بالرباط، وهي تعود للفترة الموحدية ص 158، هامش 18.

(24) - P. .Cressier, « Les portes monumentales urbaines almohades », p. 153

(25) – انظر:

Ch. Allain, G. Deverdun, « Les portes anciennes de Marrakech », p. 117 ; P. Cressier « Les portes monumentales… », p. 157 et n. 32.

بعض المشاكل. ورغم ذلك، فإن هذه المعلمة لا يمكن أن تحتوي إلا على كوع أو زاوية قائمة واحدة، مغطاة بسقف واسع واحد(26). وإذا كان دور هذا الباب تزييني بالدرجة الأولى ودوره الدفاعي ثانوي(27)، فهو يشهد عن التخلي عن مبدأ المدخل المباشر وتبني مبدأ المدخل المكوع أو الملتوي. ويقدم باب أيلان تصميميا ذا كوع فريد يوجد خارج السور. فتح الباب في عرض برج مستطيل (طوله 14 م) وجد مرتفع (ارتفاعه11 م). يتم الولوج عبر ممر مقبب بقبو نصف أسطواني. يتكون البناء الموجود وراء السور الخارجي من مواد ضعيفة الجودة، تجعل أمر بنائها، حسب الباحثين، متأخرا.

الشكل 8 : 1 - باب قصبة وادي يكم، 2- باب الرُّب، 3- باب الرواح

مقارنة مع هذا النموذج، يبقى باب الدباغ أكثر تعقيدا في تصميمه بسبب الإضافات اللاحقة على شكله الأصلي. فقد تعددت أساكيبه سواء خارج أو داخل السور الخارجي، مما جعله من أكثر الأبواب المركبة بمراكش إذ يتحتم الالتفاف خمس مرات من أجل الوصول إلى المدينة. يحيلنا ممر مسقف بقبو نصف أسطواني إلى ساحة كبيرة، وبعد الانعطاف نحو اليمين نلج إلى ممر آخر يفضي بدوره إلى قاعة طويلة ذات قبة مضلعة. نجتاز السور الخارجي للمدينة يسارا، لندخل إلى فضاء غير مسقف متعامد معه قبل أن نصل إلى المدينة. ويبدو من ملاحظات الباحثين أن هذا الباب امتد بناؤه على فترات، وأن البرج الكبير المنتظم طوليا والذي فتح المدخل في جانبه الأيسر، هو الذي يشكل الباب

(26) - Ch. Allain, G. Deverdun, p. 119.

(27) - كان باب أكناو مكانا للحراسة. فالقصر بعيد جدا لجعله قاعة للاستقبال. فهو إذن مكان للحراسة زين بزخرفة باذخة منقوشة على الحجر.

Ch. Allain, G. Deverdun, p. 120 ; P. Cressier, p :149-150.

انظر كذلك: P. Cressier, «La fortification islamique au Maroc» p. 185.

إن وظيفة هذه الأبواب لازالت تحتاج إلى الدراسة، فلا يمكن حصرها في دورها الدفاعي.

الأصلي. وقد اعتبر شارل ألان (Charles Allain) وجاستون دوفيردان (Gaston Deverdun) أن باب الدباغين كان يحتوي في البداية، مثل باب أيلان، على مدخل ذي كوع واحد(28). ويبدو رغم ذلك أن هذه المنشأة قد صممت وفق نفس منطق تصميم باب أغمات، وتعقد تصميم هذا الأخير بسبب إضافة قاعة قبلية (avant - porte) تنفتح على ساحة محاطة بأسوار عالية. ونلاحظ أن النواة الأصلية لهذا الباب عبارة عن ممر على شكل حرف "U" اللاتيني والتي يتكأ أسكوباه على السور(29)، وهو نفس المنطق العام الذي نجده بباب الدباغين.

3 - تعدد الأساكيب الملتوية أو المكوعة

يعد باب الرب نموذجا للأبواب الدفاعية الموحدية، وهو يوضح النمط المعماري الذي أشرنا إليه، ويؤشر على قدرة المهندسين الموحدين على الاستفادة من خصوصيات المجال وتخطيط الأسوار القريبة. يعتبر هذا الباب بمراكش ذو أهمية إستراتيجية خاصة: فهو المعلمة التي تراقب المدينة والقصبة على حد سواء(30). لهذه الأسباب، لا يمكن الإقرار بعدم بنائه في عهد يعقوب المنصور الموحدي (1184-1199). يقدم باب الرب تنظيما مجاليا خاصا : فهو عبارة عن بناء مستطيل ذي مدخل مزدوج الالتواء، وتوجد الفتحتان جهة الشمال في واجهة واحدة. نلج من البوابة الموجودة بالشرق للوصول إلى المدينة عبر المدخل الموازي، بعد المرور عبر فضاء غير مسقف وقاعة مقببة بقبو مضلع(31). ومن خلال نموذج باب الرب، نثير موضوع تعقد تصاميم الأبواب الحضرية خلال النصف الثاني من القرن 12 الميلادي. هذه الأبواب تبقى وليدة نمط الأبواب ذات

(28) - نظرا لغياب المعلومات المصدرية، يستعصي تأريخ التغييرات التي أدخلت على الباب. فالساحة الجنوبية الشرقية، بأبعادها الكبيرة، لا يمكن أن يتم بناؤها لأهداف إستراتيجية. ويمكن أن نرى فيها رغبة السلطة زيادة عنصر جديد إلى معلمة قديمة. ففي المرحلة الموحدية، استعملت هذه الفضاءات الموجودة قرب الأبواب قصد التجمع:
Ch. Allain, G. Deverdun, op.cit, p. 97-98.
اعتبارا لتصميمه القديم الذي يذكر بباب إيلان، أرخ الباحث P. Gressier بدوره هذا الباب بالفترة المرابطية مع بعض الزيادات الموحدية .انظر: P. Cressier, « Les portes monumentales … », p. 154, 157.

(29) - Ch. Allain, G. Deverdun, p. 88-92 واعتبر P. Gressier هذا الباب بابا موحديا أو ناتجا عن تغييرات وزيادات موحدية، مع إمكانية وجود زيادات لاحقة عن الفترة الموحدية خاصة خلال العصر الحديث:
P. Gressier, op.cit, p. 154, 157

(30) - لا شك أن بناء هذا الباب فرض نفسه بسرعة، وذلك من أجل تأمين الاتصال بين المدينة والحي السلطاني. وقد فرض بناؤه كذلك لأسباب جبائية.

(31) - Ch. Allain, G. Deverdun, op. cit, p. 124
يرى فيه P. Gressier حلا معماريا ذا بعد دفاعي فريد من نوعه إلى يومنا هذا. P. Cressier, op.cit, p. 157 .

المدخل المستقيم المدعم ببرجين، إلا أن تنظيمها المجالي الداخلي يبين تبني مهندسيها لتصميمات، أكثر حبكة، تستعمل فيها الأساكيب المكوعة.

استنتاجات أولية: أبواب الحصن الأوسط بإيكَيليز-هرغة في مجال الهندسة الدفاعية المرابطية والموحدية

تم تصور أبواب الجبل الأوسط بإيكَيليز هرغة كمعالم مستقلة. فلا نجد خارجها أبراجا تؤطرها[32]، إلا أن تنظيمها الداخلي يستعمل تقنية المدخل الملتوي أو المكوع. فالباب الأول يقدم مدخلا مزدوج الالتواء ومخرجا موازيا للسياج الجداري. في حين يقدم الباب الثاني شكلا غير مكتمل لمدخل مزدوج الالتواء. أما الباب الثالث، فرغم أبعاده الصغيرة، فهو يوظف بدوره مدخلا ملتويا تم تحقيقه عبر بناء جدار خارج سور الحصن. وقد كان لتضاريس المنطقة، بدون شك، دور في تصور هذه الأبواب بهذا الشكل [33]. فمن الصعب في هذا المجال الجبلي، تصور مدخل مباشر، نظرا لانخفاض القاعدة الصخرية التي بني عليها سور الحصن الأوسط، والطابع الدفاعي للمنطقة المحصنة.

لابد من إثارة نقطتين أساسيتين، تتمثل الأولى في العناصر التي تثبت ارتباط البابين الأول والثاني بمرحلة واحدة. فإذا اعتمدنا على تجانس طرق البناء وموادها، وكذا على تفاصيل عملية البناء[34]، فإننا نرجح أن يكون الباب الأول والثاني نتيجة لحملة تحصينية واحدة. واعتمادا على هذا المعطى، يمكن أن نتحدث عن برنامج معماري حقيقي بالنظر إلى كبر وضخامة المعلمتين. وإذا تعلق الأمر ببرنامج فهو، بدون شك، مرتبط بزمن الحرب، لأن الجودة الدفاعية للبنائين هي التي وجهت بدون شك اختيار المهندسين الذين أشرفوا على عملية البناء. وإذا كان الأمر كذلك، فيبدو أن هذا التصميم المركب لا معنى له خارج الأحداث العسكرية التي عرفتها سنوات 520-524 هـ/1125-1129م خلال دعوة المهدي ابن تومرت وصراعاته مع المرابطين، أو خلال العشرية اللاحقة على أبعد تقدير. فهل يرتبط بناؤها بأحداث شتاء 516-517 هـ/1121-1122م، أي خلال الفترة الفاصلة بين الحصارين المرابطين لإيكَيليز؟ أم يجب ربطها بمرحلة لاحقة بحكم أن الموقع حافظ على دوره الاستراتيجي، رغم أن مكانته تراجعت أمام تينمل بالأطلس الكبير؟ أم يجب

(32) – لا نجد أبراجا إلا في قصبة الموقع من ناحية الغرب والشمال وربما من جهة الجنوب.

(33) – انطلاقا من نماذج أخرى نلاحظ أن وظيفة المدخل المكوع هو ربط مسلكين موازيين وبالتالي تنتقي هنا وظيفته الدفاعية.

(34) – مثل الميلان الذي تتميز به الجدران في زواياها الخارجية أو الداخلية.

ربطهما بالنصف الثاني من القرن الثاني عشر، اعتمادا على مقارنتهما بباب الروب بمراكش؟ فكيف يمكن إذن تصور سبل الدخول إلى الحصن الأوسط بإيكَيليز؟ [35]

يعتبر اختيار المدخل المكوع في الأبواب الثلاثة بإيكَيليز هرغة اختيارا تجديديا بالنظر إلى المرحلة التاريخية. فالأبواب ذات المداخل المستقيمة أو المباشرة، والتي تنحدر من أصول رومانية – بيزنطية أضحت عنصرا من عناصر غارقة في القدم[36]؛ وحل محلها، خلال الفترة المرابطية الباب ذو المدخل المكوع. إلا أنه ليس من السهل فهم أصول هذه التقنية : فغياب نموذج مشرقي[37] جعل البعض يرى فيها تأثيرا للهندسة الدفاعية الأندلسية[38]، أو عنصرا كان موجودا، بتحصينات المغرب الأوسط[39]. كما أن هذه التقنية قد تكون تطورا محليا نحو باب أكثر تعقيدا[40]. وكيفما كان الأمر، فالباب ذو كوع بسيط، نجده غالبا في عرض برج، وكان موجودا بالأندلس منذ القرن الحادي عشر[41]، ثم انتشرت هذه التقنية بشكل واسع : فنجدها بقصبة الاوداية وتينمل، وبدون شك، بباب أكَناو[42]. فالمعطيات الأثرية تؤكد أن الأبواب المكوعة انتشرت أساسا خلال النصف الثاني من القرن نفسه. وهكذا، فتبني مدخل مزدوج الأكواع يعتبر، بدون شك، جدة كبيرة بجبال الأطلس الصغير[43]. فأبواب إيكَيليز أكثر تطورا من باب تينمل الذي ينخرط في الحقيقة في إطار نفس الصيغ المستعملة في الأبواب المرابطية بمراكش[44].

---

(35) – من هذا المنطلق، تظهر جليا أهمية إنجاز حفريات أثرية على البابين الأول والثاني بالنظر إلى دورهما في فهم وتأريخ المنظومة الدفاعية بجبل إيكَيليز.

(36) – منظومة قديمة، كثيرة الاستعمال في القلاع المشرقية والتي نجدها كذلك في مثيلاتها الأموية بالأندلس خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين .أما في المغرب فباب قلعة أمركو، التي اعتبرت إلى وقت قريب حصنا مرابطيا ولكنها سابقة، بدون شك، عن هذه المرحلة، هو عبارة عن قوس متجاوز يؤطره برجان ومدخل مستقيم .وتبقى الإشارة إلى أن المدخل المستقيم لا يعني ضعف البنية الدفاعية، بدليل استعماله في العمارة الدفاعية الإسلامية بحوض المتوسط قبل القرن الثاني عشر الميلادي .عن تراجع استعمال المدخل المستقيم أنظر :
Ch. Allain, G. Deverdun, op.cit, p125.

(37) – المدينة الدائرية التي بناها المنصور ببغداد (762-765) هي الوحيدة التي تقدم نموذجا لباب مكوع (قد يكون فقط نتيجة إعادة بناء نظري للمدينة) ويرى Creswell أن أصولها ترجع إلى آسيا الوسطى قبل الإسلام.
Creswell, "Fortification in Islam before 1250 A.D.", p. 106-107.
أما التحصينات الفاطمية بالقاهرة خلال نهاية القرن الحادي عشر، فتتوفر على أبواب ذات مداخل مستقيمة مؤطرة ببرجين مستطيلين أو نصف دائريين.

(38) – خاصة سور البياسين بغرناطة وباب من أبواب نيبلة .ويبدو أن لا جدوى من البحث عن أصول مشرقية للباب المكوع، فظهوره المفاجئ بالمغرب معاصر لفتح الأندلس" Ch. Allain, G. Deverdun, op.cit, p.125

(39) – باب الأقواس بقلعة بني حماد.

(40) – نفسه، نفس الصفحة.

(41) – نفسه، ص. 185.

(42) – نفسه، ص. 126.

(43) – رغم عدم تحديد تأريخه، نشير إلى أننا عثرنا على باب مكوع بموقع توريرت ن إكيوان قرب توغمرت شرق جبل ايكَيليز هرغة.

(44) – سيتواصل استعمال هذه التقنية في فترات لاحقة عن الفترة الموحدية. P. Gressier, op. cit, 156

وأخيرا، يمكن أن نتساءل عن وظيفة الباب الثاني (ب2) بإيكَيليز. فالباب الأول (ب1) هو الباب الرئيسي للحصن، أما الباب الثاني (ب2)، فيؤمن الوصول إلى المنطقة السكنية رقم 2 من جهة ومنطقة القصبة من جهة ثانية[45]. لا شك أن الوجهة الأخيرة هي التي تفسر طابعه المعماري الكبير، وبالرغم من ذلك، لا يمكن أن نغفل أهميته العسكرية. فهو يمكن المدافعين عن الحصن من أخذ العدو فجأة من الخلف حين يجتمع أمام الباب الأول، ومن الأمام عندما يهم بالوصول إلى الجبل الأوسط. كما يمكن أن نجد لهذا الباب دورا رمزيا لأنه المعلمة الوحيدة التي ترى على بعد وخاصة من المسلك الوحيد الذي يوصل إلى الموقع. ولا زالت الأحجار الناتجة عن خراب الباب ترى من مدشر تيفيكيت، وبالتالي، فإن ضخامة هذا الباب تجعله معلما معروفا بالنسبة للراغب في الارتقاء إلى حصن إيكَيليز، وتبرز مكوناته المعمارية خاصيات هذا الصنف من العمائر بالمنطقة في نهاية الفترة المرابطية وبداية الدولة الموحدية.

(45) - أثبتت الحفريات المنجزة خلال شهر أبريل 2009 أهمية هذه القصبة وضرورة التوسع فيها بحثا عن المزيد من المعطيات المادية.

البيبلوغرافيا

– جان بيير فان ستيفل وعبد الله فلي، ووصلنا على بركة الله إلى إيجيليز، حول تحديد موقع إيكَيليز هرغة، حصن المهدي بن تومرت، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، العدد 26، (2006) ، ص. 91- 124.

– ابن القطان، نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1190.

– ابن خلدون، العبر، بيروت، 1992، الجزء الرابع.

– ياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء الأول، طبعة الجندي، بيروت،1990.

– خريطة سوق أربعاء آيت عثمان، مقياس 1/50 000 ورقة NH-29-XVU-2C, 1977

******

- A. Fili, J.P. Van Staëvel, «Avant Tinmal : notes historiques et archéologiques à propos d'Îgîlîz-des-Hargha, berceau du mouvement almohade», dans «30 ans d'archéologie marocaine». Actes des Journées d'hommage à Madame Joudia Hassar-Benslimane, (INSAP, Rabat, 8 et 9 décembre 2005), (sous presse).

- A. Fili, J.P. Van Staëvel, «Oublier Îgîlîz. Un cas d'amnésie volontaire dans la tradition historiographique almohade», dans la Revue de la Faculté des Lettres et des sciences Humaines de Rabat, Université Mohammed V (à paraître).

- A. Fili, J.P. Van Staëvel, «*Wa-wasalnâ ʻalâ barakat Allâh ilâ Îgîlîz* : à propos de la localisation d'Îgîlîz-des-Hargha, le hisn du Mahdî Ibn Tûmart», Al Qantara XVII (2006), pp. 153-194.

- Basset H., Terrasse H., «Sanctuaires et forteresses almohades. Le ribât de Tît. Le Tasghimout », *Hespéris,* 7 (1927).

- Ch. Allain, G. Deverdun, «Les portes anciennes de Marrakech», *Hespéris*, 44 (1957).

- Ch. Allain, J. Meunié, «Recherches archéologiques au Tasghimout des Mesfioua», *Hespéris*, 38 (1951).

- E. Douté, Missions au Maroc. En tribu, p :103-109 et pl. XII, fig. 24. G. Deverdun, Marrakech, des origines à 1912, Paris, 1958.

- J. Meunié, Ch. Allain, «La forteresse almoravide de Zagora», *Hespéris*, 43 (1956).

- P. Cressier, L. Erbati, «Note sur la forteresse almoravide du Tâsghîmût», Archéologie islamique, 8-9 (1998-1999).

- P. Cressier, « Les portes monumentales urbaines almohades ».

- Y. Khiara, Reconnaissances et recherches archéologiques dans la moyenne vallée de Nfiss, Thèse de 3 cycles, INSAP, Rabat, 2000, I.

حاضرة تارودانت في القرن الثامن عشر
دراسة أولية في معمارها المتميز

ذ. محمد حنداين
أستاذ باحث، أكادير

تقديم

تشكل مدينة تارودانت قطب حاضرة سوس، باعتبارها مدينة تاريخية ساهمت في التطور المعماري للمنطقة منذ بداية العصر الوسيط، ولكون موقعها الجغرافي يربط بين المجال السهلي والمجال الجبلي، إلى جانب مرور الطرق التجارية الرابطة بين الجنوب المغربي وشماله، ثم التنوع البشري و الثقافي بالمنطقة، كل ذلك سيكون له الأثر العميق في البنية العمرانية للمدينة.

وبالنظر إلى كون تارودانت شكلت العاصمة الأولى لدولة السعديين، ومقر أمرائهم، وممثل المخزن والسلطة المركزية بسوس، فقد اعتبرت نموذجا لمدينة سلطانية، بالرغم من عدم إدماجها ضمن المدن السلطانية villes impériales المغربية، ونموذجا لدراسة المظاهر العمرانية بالجنوب المغربي.

يتميز المعمار بالمدينة بخصائص متعددة، جعلها تختلف عن المدن المسورة الأخرى مثل فاس، ومراكش، ومكناس. فإلى جانب سورها الذي يختلف عن الأسوار الموحدية، فهنالك عدة أبواب ذات خصوصيات معمارية تختلف عن الأبواب في مراكش وفاس ومكناس وتزنيت. وللمدينة أيضا تراث عمراني ذو صبغة دينية، كالمسجد الأعظم الذي يرجع تاريخه إلى فترة ما قبل القرن السابع عشر. ويتميز بمحراب منقوش نقشا بديعا بالجبس، لا يوجد مثيل له في المعمار الديني بالمغرب، حسب ما ذهبت إليه بعض الدراسات. ومازال المسجد الأعظم يشهد على التاريخ رغم مرور قرون وقرون.

ومن بين المآثر العمرانية بالمدينة، أيضا، القصبات العسكرية المغمورة، وقد تعرض معظمها للاندثار، ومن أهمها القصبة الزيدانية. أما بداخل المدينة، هنالك رياضات مخزنية، من أشهرها الدار البيضاء، وهي إحدى القصور التي بناها الأمير عبد السلام بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

وسنحاول تناول موضوع العمران بالمدينة وفق مقاربة تتوخى أولا وضعه في إطاره التاريخي، ثم تقييم وضعه ووظيفته الراهنة وإدماجه في التنمية الشاملة للمدينة، في أفق المساهمة في تحسيس المسؤولين بضرورة إنجاز متحف تاريخي للمدينة يروم التعريف بهذا التراث المعماري، وبالتقنيات المستعملة في البناء التي أضحت الآن شبه منسية.

1 - قضايا منهجية

1-1- تحديد المفاهيم

إن مفهوم تارودانت لا يقصد به في هذا العرض المفهوم الضيق الذي لا يتجاوز المجال الحضري، وإنما يقصد به مجالا أوسع، ويتعلق الأمر بالمدينة ومحيطها التاريخي. ذلك لأن المعمار في القرن الثامن عشر داخل المدينة المسورة لا يختلف كثيرا عن المجال بمحيط المدينة. وتورد المصادر أن الساكنة تقطن المدينة وتمارس الأنشطة القروية في محيطها. إلى جانب ذلك فإن المجال الذي تشمله تارودانت يختلف حسب الفترات التاريخية. فإلى حدود نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين، كانت الحاضرة تضم قرى وبساتين خارج الأسوار. ففي كتاب ل Jams Riley نشر سنة 1817 نجد معلومات عن تارودانت جاء فيها: "أنها أرض خصبة تنتج مواد كثيرة منها القمح والذرة والتين والزيتون والبرتقال والرومان واللوز..."[1].

من خلال هذه الشهادة يستنتج أن المقصود بتارودانت خلال تلك الفترة هو مجال واسع يشمل المجال الحضري، إلى جانب المحيط القروي الذي قد يتسع أو ينقص حسب الروايات والشهادات.

وانطلاقا من ذلك، فإن حديثنا عن المعمار سيهم المعمار داخل المجال المسور، وقد يهم أيضا محيط المدينة والذي له اتصال مباشر بالمدينة. فالقصبة الزيدانية التي شيدها مولاي زيدان والتي تعتبر من بين المظاهر المعمارية للمدينة توجد خارج المدينة.

2-1 – بيبليوغرافيا أولية

قليلة هي المراجع والأبحاث التي اهتمت بموضوع المعمار المغربي بشكل عام، والمعمار الأمازيغي بشكل خاص. نجـد مـن بيـنها مؤلف أنـدري أدام André Adam [2]

(1) – محمد أبو طالب : تارودانت في بعض الكتابات الانجليزية والأمريكية، ضمن: تارودانت حاضرة سوس، أعمال الأيام الدراسية حول تارودانت، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، بدون دار النشر، 1988 ص:201.

(2) - André Adam : « la maison et le village dans quelques tribus de l'Anti-Atlas», in Hesperis XIII, 1951.

وتعتبر دراسته من الأبحاث الأولى التي همت المعمار في المجالات الأمازيغية. وبالرغم من كونها دراسة مونوغرافية لا تتجاوز جبل جزولة، فإنها يمكن أن تفيد في معرفة خصوصيات المعمار في مدينة تارودانت ومحيطها.

ونجد أيضا، بخصوص هذا الموضوع، مؤلف Georges Hardy[3]، ومع أنه يهم التاريخ العام لشمال إفريقيا تحت حكم الزيريين، إلا أنه خصص بعض الفصول للمعمار وطبيعة البناء عند الأمازيغ. غير أن الاستنتاجات التي توصل إليها هاردي هي استنتاجات استقرائية تحتاج إلى مزيد من التنقيح والمراجعة.

ومن بين الدراسات المهمة حول المعمار في المجالات الأمازيغية، أطروحته Jaques Berque حول البنيات الاجتماعية للأطلس الكبير[4]، وهي دراسة أكاديمية بعيدة عن طبيعة الدراسات التي ينجزها موظفو الشؤون الأهلية الذين تستهويهم الدراسات السوسيولوجية والأنتروبولوجية، ويندفعون فيها دون أن يتمكنوا من أدوات البحث العلمي. والبحث يهم المجتمع الأمازيغي بالأطلس الكبير، وقد ضمن أبحاث مهمة حول المعمار، شكله ووظيفته وأدوات البناء وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالمعمار.

وفي نفس الإطار خصص Emile Laoust[5] الفصل الأول في مؤلفه للمعمار الأمازيغي، مشيرا إلى تنوع المعمار الأمازيغي في المناطق الجبلية والسهلية، وكذلك تنوع المعمار بتنوع القبائل المستقرة وغير المستقرة، مضيفا إلى كل ذلك شرح الأسماء التي تحملها.

هذه المراجع ليست إلا نماذج من الدراسات والأبحاث التي أنجزت حول المعمار الأمازيغي إبان الفترة الكولونيالية. وهي قليلة، منها ما هو أكاديمي يحترم الحد الأدنى من شروط البحث العلمي، ومنها ما يكتسي طبيعة هواياتية تفتقر إلى تلك الشروط، وجاءت على شكل وصف أكثر منها دراسة عميقة تخرج باستنتاجات يمكن الاعتماد عليها.

(3) - Hardy George : La Berbérie Orientale sous les Zirides aux XIIs ; 2tomes ; Publications L.I.E.O. Facultés des sciences, Alger, XXIIs 1962.

(4) - Jacques Berque : Structures sociales du Haut Atlas, éd. PUF 3ème édition 1978. Paris.

(5) - Emile Laoust : Mots et choses berbères, Société Marocaine d'Edition, Rabat, 1921.

2 - الجذور التاريخية للمعمار بتارودانت والعوامل المؤثرة فيه

2- 1- الجذور التاريخية للمعمار بتارودانت

تختلف الأبحاث حول تاريخ نشأة مدينة تارودانت، فهنالك من يرجع تاريخها إلى الفترة المغربية الفينيقية، وهنالك من يرجع تاريخها فقط إلى فترة العصر الوسيط. وغالب الظن أن جذور المعمار هنا ترجع إلى فترة بعيدة عن فترة العصر الوسيط. فقد أكدت بعض الدراسات أن مدينة تارودانت الحالية ترقد على أطلال، يرجع تاريخها إلى فترة تردد الفينيقيين على سواحل سوس وتوغلهم إلى الداخل عبر نهر سوس(6).

وتذهب تلك الدراسات إلى أن مدينة تارودانت أسست في تلك الفترة تحت اسم قالا Wala، ويستدل في هذا الرأي بالمنشآت المعمارية للسواقي المعلقة، التي تتخذ بعض مظاهر المعمار الروماني. وكذلك أطلال كابا Gaba، الواقعة بضواحي تارودانت، تذهب بعض الدراسات إلى أنها تعود إلى الفترة الرومانية. وإذا صحت تلك الفرضيات فيمكن القول: إن المعمار بالمدينة وضواحيها قد يرجع إلى فترة قديمة قبل أن تورد مصادر العصر الوسيط نصوص عن معمار تارودانت.

ومنذ بداية العصر الوسيط، بدأت الكتابات التاريخية تتحدث عن تارودانت ومعمارها، ومع أن تلك النصوص لا تتحدث كثيرا عن تفاصيل المعمار الروداني، إلا أننا نستطيع أن تستشف منها بعض المظاهر من خلال الرحالة والجغرافيين، أمثال : البكري وابن عذاري وغيرهم.

2-2 - العوامل المؤثرة في المعمار بتارودانت

من بين العوامل المتحكمة في المعمار الروداني، هنالك الموقع والموضع اللذان تقع فيهما المدينة .فموقع المدينة يصادف حوض نهر سوس، المتسم بتربة خصبة حمراء، تجعل من السهل الحصول على مواد البناء مثل التربة والجير والأحجار. فالأطلس الصغير والأطلس الكبير داخل حوض سوس يكون إطارا طبوغرافيا وبنيويا يحف بسهل سوس، ولا يجعله ينفتح إلا على المحيط الأطلسي من جهة الغرب، وبذلك يشكل هذا الإطار هيكل وحدة طبيعية يتحكم في كل عناصرها :يلطف المناخ، ويراقب النظام المائي، كما يحدد نوع الأتربة والنبات ويوجه في نهاية المطاف توزيع السكان(7).

---

(6) - D-Jacques-Meunié : le Maroc saharien des origines à nos jours, Tome 1, édition librairie klinsksieck 1982.

(7) - الحسن المحداد : عناصر الوسط الطبيعي السوسي، ضمن مؤلف تارودانت حاضرة سوس، المصدر السابق، ص: 209.

إن اختيار موقع المدينة حتمته عوامل متعددة، منها كون المدينة تشكل الرابط الضروري للطرق التجارية بين السودان وشمال المغرب. فالعامل التجاري ساهم، بشكل كبير، في تخطيط المدينة وهندستها وحدد أزقتها، ذلك أن الحركة التجارية النشيطة جعلت المدينة تتوفر على عدة أبواب، وقيساريات مشهورة تعج بأنواع كثيرة من المواد التجارية، إلى جانب وجود فنادق تأوي التجار الواردين على المدينة.

إن المحيط الثقافي والحضاري لتارودانت أثر أيضا على طبيعة معمار المدينة، إذ أن معمار القصبات الجنوبية إغرمان أو إودار وهي التقنية التي طبعت معمار جبال درن (الأطلس الكبير) وجبال لكست (الأطلس الصغير) هي التي نجدها بأشكال مختلفة في معمار المدينة. كما أن المواد والوسائل المستعملة كالطابية، واللوح، وتخباط، وأزدوز، والمركز، وهي أدوات مستعملة في محيط تارودانت، نجد آثارها في طريقة البناء والمواد المستعملة داخل المجال الحضري. لذلك فمعمار المدينة بالرغم من كونه داخل في المجال الحضري، فإنه لا يعدو أن يكون في جزء كبير منه معمارا قرويا.

لا يجب أن نغفل كذلك دور المناخ في الحفاظ على معمار المدينة من التدهور والتآكل. فموقعها وسط مثلث تضاريسي شكل حماية طبيعية لمعمار المدينة من جهة، إلى جانب دور الغطاء النباتي المشكل أساسا من شجر الزيتون الذي يساهم في تلطيف الجو واعتدال المناخ، غير أنه من جهة أخرى نجد أن وقوع المدينة على حافة وادي الواعر، جعل معمارها مهددا بشكل دوري بالفيضانات التي تجتاح المدينة من حين لآخر. وقد أورد المؤرخ الروداني عبد الرحمان التمنارتي (ق 16) وصفا لفياضان وادي الواعر(8).

إن الصراع السياسي الذي عرفته المدينة خلال القرن الثامن عشر جعل معمار المدينة يتعرض للتخريب ويعاد بناؤه عدة مرات .فقد خربت المدينة وتغير أهلها أكثر من عشر مرات، نتج عن ذلك تعاقب التعمير(9).

(8) – عبد الرحمان التمنارتي : الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، تحقيق اليزيد الراضي، مطبعة النجاح ،الدار البيضاء، 1990.

(9) – محمد حنداين : تارودانت ومحيطها التاريخي في القرن الثامن عشر، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1993، ص: 309.

3 - مظاهر الحياة المعمارية بتارودانت

3-1- السور

تعتبر تارودانت من بين المدن المسورة في المغرب، إلى جانب مراكش وفاس والرباط ومكناس والصويرة وتزنيت وغيرها من المدن التي تحتمي بأسوارها، ويشكل سور مدينة تارودانت واحدا من الأسوار النموذجية للدولة السعدية. يشير المؤرخ البرتغالي Diego de Torres (ق 16) إلى أن تارودانت تحيط بها أسوار من التراب المصبوغ بالجير، وفوقها قلاع وقلاع[10].

ويعتبر سور المدينة من أجمل الأسوار العمرانية بالمغرب، من حيث جمال البناء والهندسة والأبواب التي تتخلله. ويبلغ طول محيطه سبع كيلومترات تقريبا. ولا نتوفر على معلومات وأخبار عن بنائه قبل عهد السعديين، ما عدا بعض الإشارات التي جاءت في ترجمة أبي محمد صالح بنواندلوس (سيدي وسيدي) المتوفى سنة 592 هـ، حيث ورد أن هنالك سور صغير يحيط بالمدينة. ويرجح أن تكون تلك البناية مشروع تسوير المدينة من طرف المرابطين في إطار سياسة التطويق العسكري لجبال الأطلس الكبير والأطلس الصغير، والتي شرع في تطبيقها القائد المرابطي والمهندس العسكري القوطي الأصل عمر الفلاكي، والذي بنى عدة تحصينات عسكرية وراء الأطلس لتشديد المراقبة على قبائل الأطلس[11].

ومن الصعب القول : إن السور الحالي يعود إلى فترة محمد الشيخ السعدي في القرن السادس عشر، ذلك أن المدينة تعرضت للتخريب والحصار عدة مرات، أخطرها ذلك الذي حدث أثناء الصراع بين المولى زيدان والمولى محمد العالم حوالي 1706، إذ تمكن المولى زيدان من إحداث مداخل في السور مكنته من دخول المدينة[12]. ويشير محمد كسرير إلى أن هذا السور كان في القديم محاطا من الخارج بخندق يبلغ اتساعه في بعض الأماكن سبعة أمتار، وعمقه ثلاثة أمتار، ويبلغ عرضه ما بين متر ونصف إلى ثلاثة أمتار في بعض الأحيان، وارتفاع السور عشرة أمتار [13]. لم يبق من ذلك الخندق أي شيء ولم يشر إليه لا

(10) - Diogo de Torres: Histoire des Chérifs et des royaumes du Maroc, Province de Fès de Taraudant et autres ; traduite de l'espagnol de Diogo de Torres par M le Duc d'Angoulême le père, éd 1657; P : 154.

(11) - محمد حنداين : تارودانت ومحيطها التاريخي، م، س، ص.287.

(12) - محمد حنداين : سوس والمخزن في القرن الثامن عشر، مطبعة أبي رقراق، الرباط 2005 ، ص، 322.

(13) - محمد كسرير : أضواء على تاريخ تارودانت، ص44، بحث مرقون.

الحسن الوزان (ق 16) ولا الرحالة الأوروبيون، مما يدل على أن الخندق- إن وجد حقيقة- تم ردمه في إطار الصراعات السياسية التي عصفت بالمدينة.

وللسور ميزة خاصة، تتمثل في وجود سور آخر بجواره يسمى ممر المراقبة والدفاع، وبذلك يكون سمك السور يتجاوز في بعض الأماكن خمسة أمتار.



السور مع ممر المراقبة

أمام تتابع الأحداث تعرض السور للهدم، فأعيد بناؤه من طرف أمراء وسلاطين من بينهم المولى زيدان، بعد استيلائه على المدينة على حساب أخيه المولى محمد العالم. وقد أضاف العلامة محمد المختار السوسي أن المولى إسماعيل أعاد بناء سور المدينة(14).

وللسور عدة أدوار، منها على الخصوص الدور دفاعي، فالمدينة تقع في موقع استراتيجي تتصارع عليه مختلف القوى السياسية والدينية المحلية، وكذلك السلطتان المحلية والمركزية. فهذه شهادة المؤرخ الروداني عبد الرحمان التمنارتي، إذ يقول: "في سنة 1039-1629 حاصر بغاة العرب والبربر مدينة السوس الأقصى تارودانت وحاصروها مدة خمس وعشرين يوما أسرابا تحت سورها فوجدوا قاعدة أساسه الحصى لا تنال منه الفؤوس"(15). كما يلعب السور دور المحافظة على الأمن والمراقبة، وذلك عن طريق تخصيص أبواب محددة يلجها سكان المدينة في الغدو والمساء. ويعرف حراس الأبواب الغرباء الذين يدخلون المدينة فيراقبونهم.

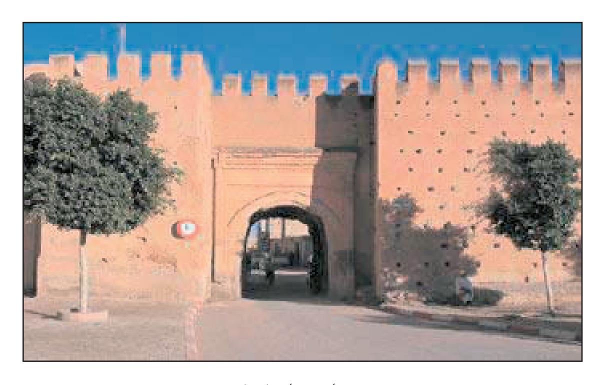
(14) - محمد المختار السوسي : سوس العالمة. الطبعة الثانية، فضالة، 1984.

(15) - عبد الرحمان التمنارتي : المصدر السابق، ص، 168.

3- 2 - الأبواب

أبواب سور مدينة تارودانت من بين أهم الأبواب المعمارية التي يشتهر بها المغرب. فهي تختلف عن أبواب مكناس وتقترب من أبواب مراكش، بحكم إنتماء معمارها إلى نموذج معمار القصبات. وتشكل المداخل الرئيسية للمدينة، وقد روعيت فيها الهندسة المعمارية المغربية. وغالب الظن أن معظمها بني مع تشييد السور، غير أنها لم تكن موجودة دفعة واحدة. فبعضها يعود تاريخه إلى فترة المرابطين في القرن الحادي عشر مثل باب الزران الذي يعتقد أن اسمه اتخذ من إحدى القبائل الصحراوية التي أتت مع المرابطين. وقد ورد اسمها عند مارمول. وبها يرتبط تخريب قصر أفرا بطاطا(16). كما أن باب تارغونت الحالي كان يسمى أيام المرابطين بباب الغزو، كتعبير عن الصراع المرابطي الموحدي (17). وقد يكون إسمه أيضا مأخوذا من أزرك أي الرحى بالأمازيغية، خاصة وان تارودانت معروفة بمعالجة زيت الزيتون باستعمال الرحى (إزركان).

ويعتبر باب تارغونت من أقدم الأبواب بالمدينة، يتميز بهندسة معمارية أقل دقة وأقل جمالية مما يؤكد بناءه في العهد المرابطي. وبخصوص اسم تارغونت، فمن المرجح أن يكون الباب مفتوحا على الطريق المؤدية إلى قبيلة ارغن معقل مؤسس الدولة الموحدية المهدي بن تومرت، والتي لا تبتعد عن تارودانت كثيرا. وتشير بعض الروايات إلى أن اسم تارغونت يرتبط بأميرة مرابطية، أطلق اسمها على هذا الباب. وعموما فان باب تارغونت هو من أقدم الأبواب بالمدينة ويشكل تراثا معماريا متميزا.



باب تارغونت

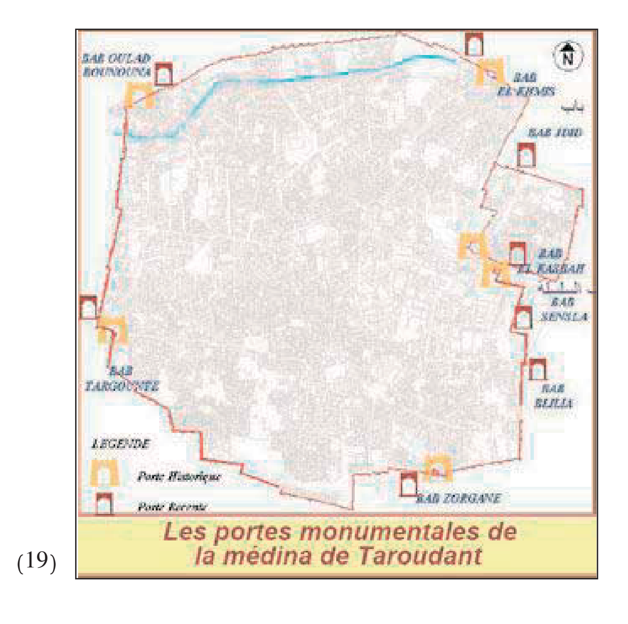
(16) - D-Jacques-Meunié : Op. Cit, p565.

(17) - محمد حنداين : مساهمة في دراسة أولية للأعلام الجغرافية بتارودانت، ضمن ندوة : تارودانت قاعدة السوس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، 1988.

أما **باب أولاد بونونة**، فإنه يعتقد أن هذا الباب أقل قدما من السابق، إذ يرجع إلى الفترة الأخيرة من الدولة السعدية، وهو مرتبط باستقرار أسرة أولاد بونونة بجوار السور بعد أن قدموا من الأندلس، حسب ما أشارت إليه بعض الدراسات[18]، غير أن المختار السوسي كان يربط وجودهم بالفترة البرتغالية في القرن الرابع عشر. وعموما فإن الباب المشار إليه مرتبط باسم هذه الأسرة المستقرة في المدينة وما تزال تحمل هذا الاسم. وتختلف هندسته المعمارية عن باب الزران بوجود بعض المعالم الفنية التي نجدها في الفن المعماري الموحدي، والذي أخذ عنه السعديون.

أهم باب من حيث الاتساع، هو باب القصبة لوجوده بالقرب منها، فهو أكثر اتساعا وأحسن جمالا، وهو بدون شك الباب الرئيسي للمدينة، ويقابله في الجهة الجنوبية باب الزران.

وآخر الأبواب هو باب الخميس، وهو على ما يبدو الباب الرئيسي للساكنة للخروج إلى سوق الخميس، السوق الأسبوعي الذي يشكل الملتقى التجاري والثقافي لساكنة المدينة.



Les portes monumentales de la médina de Taroudant

(19)

(18) – أفا عمر : مسألة النقود في تاريخ المغرب القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1988، ص81.

(19) – الصور الواردة في النص مأخوذة من موقع http:/www.signe-immobilier-taroudant.com/histoire-taroudannt.htm

3-3 – المساجد والمآذن

تعج الحياة المعمارية بتارودانت بعدة مساجد تشكل تراثا معماريا أصيلا، ويعتبر المسجد الكبير من أهم المعالم المعمارية الدينية بالمدينة. يشير محمد المختار السوسي بهذا الصدد إلى أن مساجد تارودانت ثلاثة، إحداها الجامع العتيق، وهو قديم، وإنما جدده محمد الشيخ حين أعاد العمارة إلى هذه المدينة في القرن السادس عشر، وهو كبير (...) وفي الصف الأخير من الصفوف الشرقية فيه مخطوط بالجبس يقال بأن السلطان مولاي رشيد العلوي هو الذي بنى ذلك الصف بقبابه المرتفعة (...) إنه لما هدم مسجد (إليغ) نقل مصاريع أبوابه إلى هذا المسجد[20].

ويعتقد أن بناء هذا المسجد يرجع إلى الفترة المرابطية، وأن محمد الشيخ السعدي جدده ليتلاءم مع هيبة وقوة الدولة السعدية، إذ أضاف إليه مأذنته الحالية، كما ألحقت به مدرسة الجامع الكبير، وخزانتها المشهورة، وتبلغ مساحته 114,75متر مربع وارتفاع سقفه حوالي 6,55 م وفيه 143أسطوانة قاعدة كل واحدة حوالي 1,35م وله ستة أبواب، ومحراب منقوش نقشا بديعا بالجبس، وكذا قبته، مع نقش كتابات قرآنية، كما زينت عرائضه السقفية بمختلف النقوش والرسوم الهندسية الملونة.

وتقوم من جهة الجنوب الغربي من المسجد صومعة بديعة الشكل والصنع، مزينة بالفسيفساء الملونة من خارج الجهات الأربع من أعلى إلى الأسفل، وتقيها من عوامل التعرية (...) ويبلغ ارتفاعها 22 م على شكل مربع قاعدتها البالغ محيطها 26,78 م مربع وعدد درجاتها 98 درجة[21].

وهنالك مساجد أخرى بنيت في فترات متقاربة، منها مسجد سيدي وسيدي وهو مسجد صغير ويعتقد أنه أقدم من الجامع الكبير، ومنها مسجد فراق الأحباب أنشأ في عهد محمد الشيخ السعدي عندما دعا إلى تجديد بناء تارودانت.

وأهم مواد البناء هي التراب المكوك والأحجار والحصى، ويستعمل في السقف القصب وخشب الأركان والزيتون والنخيل، ويضع فوق السقف الطين الممزوج بالتبن حتى يحول دون تشققه وتسرب المياه إلى الداخل. أما تقنيات البناء فهي لا تختلف عن تلك التي نجدها في البناء القروي وهي تقنية اللوح.

---

(20) - محمد المختار السوسي : خلال جزولة، ج، 4، مطبعة المهدية تطوان ب–ت، ص، 148.

(21) - محمد أبو زيد : ملامح تاريخية لبعض المعالم العمرانية بتارودانت، ضمن ندوة التراث الثقافي والحضاري والمعماري بتارودانت، مجلة معهد محمد الخامس، فبراير1990، عدد90 ، ص،51.

وتحتاج هذه المعالم المعمارية الدينية إلى عناية وترميم وصيانة لكي تبقى شاهدة على المعالم الحضارية الأصيلة للمدينة.

3-4- القصبات العسكرية

من بين المآثر المعمارية بالمدينة ومحيطها أيضا القصبات العسكرية، ولعل معظمها تعرض للاندثار بسبب الصراعات والحروب التي شهدتها المدينة خلال القرن الثامن عشر. ومن بين أهم هذه القصبات، والتي مازالت أطلالها بادية، هي القصبة الزيدانية الواقعة على بعد كيلومترات من المدينة في الجنوب الغربي. ولعل سبب بنائها خارج المدينة هو طول الصراع بين المولى زيدان والمولى محمد العالم، الذي ثار واستقل بسوس ضد والده المولى إسماعيل ما بين 1700 و1706، وكان من الضروري بناء هذه القصبة لتكون مركزا لقيادة الجيش المحاصر للمدينة.

يتعين القيام ببحث أركيولوجي للتعرف على التصميم الذي بنيت على أساسه هذه القصبة، وذلك لتسليط الأضواء على معطيات معمارية أخرى في سوس، ويتعلق الأمر بهندسة القصبات العسكرية بالجهة.

3-5 - القصور المخزنية

نظرا لكون مدينة تارودانت هي المقر الرسمي لخليفة السلطان وللسلطة المركزية، فان الأمراء وممثلو هذه السلطة يستقرون في قصور تعكس قوة السلطة المركزية أو قوة السلطة المحلية. وفي هذا الإطار نجد في المدينة قصورا لها مميزات معمارية تخص المدينة. ومن بين هذه القصور المخزنية قصر الدار البيضاء، وهو أحد القصور التي بنيت من طرف الأمير عبد السلام بن المولى سيدي محمد بن عبد الله في نهاية القرن الثامن عشر. ويقع شرق المدينة، في درب عياد وسط بستان مصمم من طرف أحد الفرنسيين. وهي بناية في غاية الجمال أشار إليها بعض المؤرخين أمثال الضعيف في تاريخ الضعيف وابن زيدان في الإتحاف، كما أشار إليها الطبيب البريطاني Lemprière ، الذي حل بالمدينة سنة 1789 لمعالجة الأمير من مرض حل به بعينيه حتى لقب بالضرير.

وقد بلغت هذه الدار من الضخامة والاتساع والفن غاية المشتهى، وحقق البناؤون والصناع في تنميقها مبلغ المنتهى[22]. وكانت هذه العمارة مقر استقبال الأمير لضيوفه

(22) - نفس المصدر.

ومقر الأحكام. وقد وصف ذلك الطبيب وصوله إلى القصر بقوله: "بعد يومين وصلت تارودانت وعندما دخلتها قادوني إلى قصر الأمير والذي يقع على بعد نصف ميل من المدينة ووجدت الأمير جالسا في غرفته وأمامه سجادة طويلة"[23]. وقد وجد Lemprière الناس ينتظرون الأمير في قاعة فسيحة.

اندثرت هذه المعلمة في ظروف غامضة، ولم يبق منها أي شيء. ونجد أصداء هذه الدار تتردد عند الشعراء والأدباء الملازمين للأمير، منها الشاعر البزيوي في ديوانه الموجود في خزانة تامكروت، وكذلك كان جمال هذا القصر يتغنى به مثل مجموعة عيساوى في إنشادها:

بالدار البيضاء يا زينة السمية

ما حلاك عليا لهلا ايخطيك لاولياء[24].

(23) - G.Lemprière : Voyage dans l'empire du Maroc et le Royaume de Fès, fait pendant les années 1790-1791, Tome 3, librairie Cordier et Legras, Paris 1801. p, 4.

(24) - محمد أبو زيد : المصدر السابق. ص. 56.

خلاصة

نستنتج من خلال هذه الدراسة أن مدينة تارودانت تزخر بتراث معماري متنوع وأصيل، من سور وأبواب وقصبات، يعكس المراحل التاريخية للمدينة. ويشكل هذا التراث المعماري في حد ذاته وثائق شاهدة على تاريخ المعمار ليس فقط في المدينة وإنما في القطر السوسي والمغرب بشكل عام.

ويتعين أن يحظى هذا التراث المعماري بكل عناية، من ترميم مناسب وإصلاح مستمر وإدخاله ضمن التراث المعماري الوطني، والتراث الإنساني شأن مدينة فاس. كما يتعين أن تتم المحافظة ليس فقط على المعمار المادي ولكن على ما يحمله من أسماء تاريخية. ذلك لأن مدينة تارودانت هي من بين المدن القليلة في المغرب التي لازالت تحمل أسماء أمازيغية في الشوارع والأزقة مثل تاسوكت، وتالماقلات، وتافلاكت، وغيرها من الأسماء الأمازيغية التي يتعين المحافظة عليها لكونها تحمل مضمونا تاريخيا مهما.

إن ما أشرنا إليه لا يعدو أن يكون إثارة للبحث في هذا المجال المهم، بهدف تحقيق تراكم معرفي حول المعمار الأمازيغي، ولابد من التعاون بين المؤرخ والأركيولوجي والمهندس، حتى تلامس الدراسة كل جوانب المعمار قصد إظهار خصوصياته ومزاياه، ليتم إدماجه في مناهج التربية والتعليم لتعريف الأجيال القادمة بأهمية هذا المعمار والافتخار به.

البيبلوغرافيا

– أبو طالب محمد: تارودانت في بعض الكتابات الإنجليزية والأمريكية، ضمن: تارودانت حاضرة سوس، أعمال الأيام الدراسية حول تارودانت، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، 1988.

– المحداد الحسن : عناصر الوسط الطبيعي السوسي، ضمن مؤلف تارودانت حاضرة سوس، أعمال الأيام الدراسية حول تارودانت، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، 1988.

– التمنارتي عبد الرحمان: الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، تحقيق اليزيد الراضي، الدار البيضاء 1990.

– حنداين محمد: تارودانت ومحيطها التاريخي في القرن الثامن عشر، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،1993.

– حنداين محمد: سوس والمخزن في القرن الثامن عشر، مطبعة أبي رقراق، الرباط، 2005.

– حنداين محمد: مساهمة في دراسة أولية للأعلام الجغرافية بتارودانت، ضمن ندوة: تارودانت قاعدة السوس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأدير، 1988.

– كسرير محمد: أضواء على تاريخ تارودانت، بحث مرقون.

– السوسي محمد المختار: سوس العالمة، الطبعة الثانية، فضالة، 1984.

– أفا عمر: مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر، مطبعة النجاح الجديدة، 1988.

– السوسي محمد المختار : خلال جزولة، ج، 4، مطبعة المهدية تطوان ب–ت.

– أبو زيد محمد: ملامح تاريخية لبعض المعالم العمرانية بتارودانت، ضمن ندوة: التراث الثقافي والحضاري والمعماري بتارودانت، مجلة معهد محمد الخامس، فبراير1990، عدد 90.

******

- André Adam : la maison et le village dans quelques tribus de l'Anti-Atlas, in Hesperis, XIII, 1951.

- Diogo de Torres : Histoire des Chérifs et des royaumes du Maroc, Province de Fès de taraudant et autres ; traduite de l'espagnol de Diogo de Torres par M. le Duc d'Angoulême le père, éd 1657.

- Emile Laoust : Mots et choses berbères, société marocaine d'Edition, Rabat, 1983.

- G. Lemprière : Voyage dans l'empire du Maroc et le Royaume de Fès, fait pendant les années 1790-1791, Paris 1801.

- Hardy George : La Berbérie Orientale sous les Zirides aux XIIs ; 2 tomes; Publications L.I.E.O. Facultés des sciences, Alger, XXIIs 1962.

- Jacques Berque : Structures sociales du Haut Atlas, éd. PUF 3ème édition Paris 1978.

- Jacques-Meunié : le Maroc saharien des origines à nos jours, tome 1, édition klinski, 1982.

في الأصول التاريخية والخصائص المعمارية للمخازن الجماعية (إكُودَار)[1] بمناطق الأطلس

ذ. أحمد أوموس
باحث في الآثار و التراث

تمهيد

يرتبط البحث في موضوع المخازن الجماعية المعروفة ب "إكُودَار" بالمغرب بالحيز الجغرافي لمناطق جبال الأطلس و بعض المجالات المنبسطة المتاخمة لها[2]. وبالنظر إلى المميزات الجغرافية لهذه المناطق وللظروف التاريخية التي شهدتها على امتداد فترات زمنية طويلة، والتي اتسمت بالغياب شبه الكلي لسلطة الدولة المركزية والحضور القوي لسلطة القبيلة، فان الإنسان الذي استوطن المنطقة اهتدى إلى تنظيم شؤون حياته في شتى تجلياتها. ونظرا لطبيعة نمط العيش السائد بهذه المنطقة، والقائم أساسا على الزراعة المعيشية وعلى تربية الماشية، وكذلك على بعض المبادلات التجارية، وما رافق ذلك كله من ضرورات توزعت بين الاستقرار والتنقل أحيانا، فقد نتج عن هذا الواقع بروز أشكال متنوعة للتنظيم وتكوين مؤسسات لتأمين الشؤون المرتبطة بذلك النمط. و من بين تلك الأشكال مؤسسة أكَادِيرْ التي كانت تستخدم، حتى ماض قريب، كمجمعات ومخازن للممتلكات؛ وكانت تؤدي أدوارا عسكرية وتحصينية زمن الحرب؛ وهي بذلك ترمز إلى الصمود وللوحدة الاجتماعية للقبيلة.

وارتباطا بوظيفة تخزين الممتلكات، فإن المادة الأساسية التي كانت توضع بإكَودار هي الحبوب. إذ من المعروف تاريخيا أن شمال إفريقيا عموما، والمغرب خصوصا، كانت مصدرا ومستهلكا كبيرا لهذه المادة. غير أن أسباب وظروف اهتداء الإنسان لتخزينها، حفاظا على أمنه الغذائي، وبخاصة خلال الفترات القديمة والوسيطية، لا تزال لم تكتشف بما فيه الكفاية. وقد أرجعت بعض الدراسات الحديثة زيادة الحاجة إلى ذلك، إلى تأثيرات

(1) – ينطق الكاف في الكلمة "إكَودار" أو "أكَادير" كما ينطق حرف (G) في اللغة الفرنسية (Igoudar sg. Agadir)

(2) – إذا حاولنا النظر إلى الإطار الواسع لهذه المعالم بشمال إفريقيا، فإننا نلاحظ اقترانها بالمجالات التي استوطنتها الساكنة الأمازيغية.

الأوبئة وسنوات الجفاف والمجاعة القاتلة التي عرفتها بعض المناطق بالمغرب، وتحديدا خلال القرنين 16 و 17 للميلاد[3]؛ حيث نتج عن هذه الأوضاع ظهور دعوات تدعو لوضع وسائل لتوفير الغذاء وتخزينه، تحسبا لمواسم القحط. ومن النماذج المشهورة بمنطقة الوسط الغربي لمناطق الأطلس، شخصية تدعى عبد الله البوشواري الذي أمر بتخزين كل أنواع الغلال[4].

تتركز المخازن الجماعية بمنطقة الأطلس (انظر الخريطة أسفله و الجدول الملحق). قلة منها لا يزال يستعمل لخزن الحبوب بمنطقة الأطلس الصغير الغربي؛ في حين أن أغلبها مهجور أو تعرض للدمار والاندثار، حيث لم يبق لها أثر ببعض المناطق، مثل إدَاوْتَنَانْ بالأطلس الكبير الغربي و بعض مناطق سروة والأطلس الصغير الشرقي؛ وذلك بسبب عوامل بشرية و طبيعية متعددة، منها: تراجع دور الجماعة في التسيير المحلي، أمام انتشار وتوسع الإدارة الحديثة منذ بدايات القرن العشرين[5]، والهجرة القروية؛ ودون إغفال دور الصراعات القبلية التي كانت تؤدي أحيانا إلى الثأر، عن طريق تخريب بعض من هذه المخازن. ويضاف إلى هذه العوامل كلها دور القواد المخزنيين في تدمير الكثير منها، بسبب إقدامهم على فرض السيطرة على بعض القبائل خلال القرن 19 م و بدايات القرن20 م، بهدف القضاء على رموز الاستقلال القبلي[6].

وبغض النظر عن الواقع المتدهور لهذه المعالم التراثية، فإنها تظل شاهدة على التاريخ العريق لمنطقة الأطلس والجنوب المغربي، وعلى قدرة ساكنتها على التنظيم والتشييد، وتكوين مؤسسات لا تزال تختزن الكثير من الألغاز، وتطرح الكثير من الإشكاليات. ذلك ما

(3) - Rosenberger (B.) et Triki (H.), "Famines et épidémies au Maroc aux 16 et 17ème siècle", Héspéris Tamuda, N°14, pp 109-175.

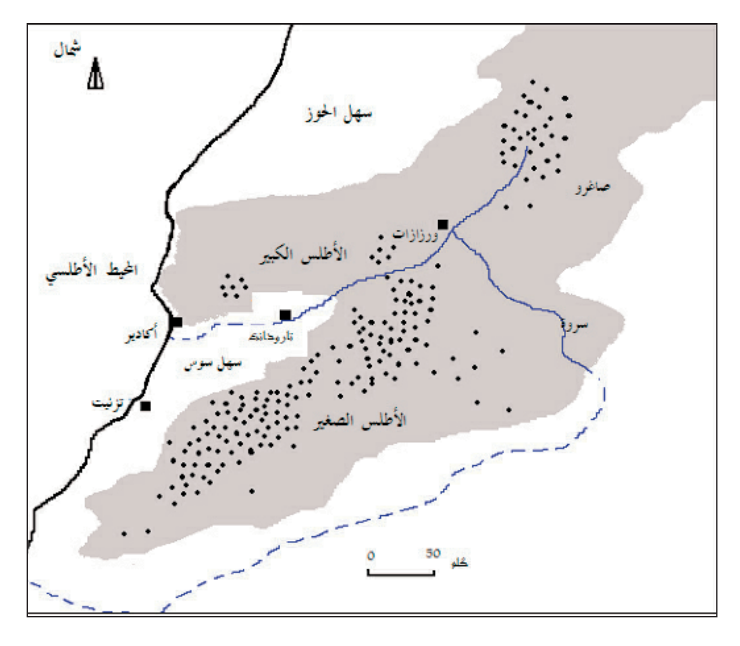
(4) - Ibidem.

(5) – المختار السوسي، المعسول، ج 3، ص 347- 350.

(6) – مثل "الكَيلولي" الذي دمر مخزن "تيكَيدا" بقبيلة "إمجاض"، والقائد "أغناج" الذي يعتقد أنه كان من وراء تدمير أكَادير ن "أوجاريف" سنة 1820، والقائد "الكَلاوي" والقائد "الكَندافي" و غيرهم. انظر محمد المختار السوسي، المعسول، ج 3، ص 130 و كل من :

Despois (J.), "Les greniers fortifiés de l'Afrique du Nord", les cahiers de Tunisie, n°1, 1953, p.38; Capot Rey (R.), "greniers domestiques et greniers fortifiés au sahara, le cas de Gourara", travaux de l'institut de recherches sahariennes, T. 14, 1-2 trimestre, 1956, p.56 ; Montagne (R.), "Un magasin collectif de l'Anti-Atlas: l'Agadir des Ikounka", Héspéris 9 (2), 1929, p.195; Adam (A.), «La maison et le village dans quelques tribus de l'Anti-Atlas», Hespéris, 37, 1950, p. 327 ; H. Terrasse, Kasbahs berbères de l'Atlas et des oasis,éd. Horizons de France, p. 25 ; Meunié (Dj.J.), Les greniers citadelles du Maroc, ed. Arts et Métiers Graphiques, 2 volumes, 1952. p 69

سنحاول الكشف عن بعض ملامحه في هذا البحث الأولي، انطلاقا من بعض التحريات الميدانية التي أجريناها، و من رصد حصيلة البحث العلمي بهذا الخصوص؛ مثيرين لإشكالية أصولها التاريخية، ولخصائصها المعمارية والمجالية؛ دون الخوض في مواضيع وتفاصيل ذات الصلة، و التي قد تكون لها علاقة، مثلا، بكيفية تدبيرها[7]، وما تتمتع به من قدسية واحترام، وكذلك المتعلقة بتقنيات وطقوس التخزين؛ وما إلى ذلك من المواضيع التي يمكن أن تكون حقلا خصبا للدراسات الانتروبولوجية والسوسيولوجية والتاريخية.



خريطة تبين مناطق تواجد "إكَودار" بالأطلسين الصغير والكبير

(7) – نظام قائم على تدبير جماعي، بناء على قواعد عرفية متوارثة وأخرى مكتوبة تسمى اللوح، و عبر تفويض الأمر لجماعة إنفلاس (مجلس منتخب من كبار ممثلي القبيلة)، و على مؤسسة الأمين، والأفراد المكلفين بالحراسة.

1 - في الطبونيميا : إكَودَارْ و مسميات أخرى

تتعدد الأسماء التي تطلق على المخازن الجماعية في شمال إفريقيا، من مثل "القصر" (Qasr) في تونس، و"القصبة" (Kasbah) و"الكلعة" (Galaa) في منطقتي جرارة والأوراس بالجزائر [8]. أما في المغرب، وبالتحديد في الأطلسين الصغير والكبير الغربي، فيسمى الواحد منها "أكَادير" (Agadir) (ج إكَودارْ أو إكَيدَارْ)، ومدلوله المخزن و الحصن في نفس الآن. أما بالأطلس الكبير الأوسط والشرقي فتعرف باسم "إغرم"[9](Igharm)؛ علما بان اسم "أكَادير" يحيل أيضا في بعض مناطق الأطلس الكبير إلى الجدار أو السور. ويعتقد E. Laoust أن أصل هذه الكلمة فينيقي أو عبري؛ مشيرا إلى أن هناك علاقة بين مصطلح "جدار" العربي و"كَدير" (Gader) العبري الذي يقصد به الجدار، و"كَادير" (Gadir) الفينيقي الذي يعني المكان المغلق أو المسور[10]. مع الإشارة إلى أن هناك أسماء أخرى بالمناطق الشمالية للأطلس تدل على منشآت أو مرافق وظيفتها الأساسية تخزين المحاصيل الزراعية[11].

ومما يجب التنبيه إليه في سياق معالجة مدلول "أكَادير"، أن ترجمته، سواء إلى اللغة العربية "بالمخازن الجماعية" أو الفرنسية (Greniers collectifs)، لا تؤدي البتة مفهوم ومعنى المصطلح الأمازيغي؛ فهذا الأخير يختزل معنيين في نفس الوقت : الأول، هو ما تتم ترجمته إلى اللغات الأخرى، أي الملكية الجماعية أو التدبير الجماعي للمؤسسة؛ أما المعنى الثاني، والذي لا تدركه هذه الترجمات، فهو الملكية الفردية لمرافق داخل البناية. فإذا كان تدبير المخزن جماعيا، فإن ملكية غرف التخزين فردية. وهي تخضع لكل ما تخضع له الممتلكات الفردية الأخرى، من بيع و شراء وتوريث، بل ومسؤولية الرعاية والإصلاح. فكل شخص مسؤول عن المحافظة على سلامة مخزنه، وأي إهمال قد يسبب ضررا لجيرانه يؤدي به إلى تحمل مسؤولية تلك الأضرار والقيام بالإصلاحات الضرورية على نفقته. كل فرد إذن من مالكي غرف التخزين تبقى له صلاحية التصرف في مخزنه في حدود ما يحدده العرف المنظم لذلك.

---

(8) – حول بعض الإشارات إلى هذه الأنواع من المخازن انظر : Despois (J.), op.cit, p. 139-158

(9) – كثيرا ما نجد تداول كلمة اغرم لدى أنصاف الرحل من سكان هذه المناطق الشرقية من الأطلس، دلالة على مخازن أحيانا، أو على حصن أو مساكن مهجورة أحيانا أخرى.

(10) - E. Laoust, "l'habitation chez les transhumants du Maroc central", Hésperis, 1934, Rabat, p. 114

(11) – انظر أسفله فقرة في تميز النظام "إكَودار" و أشكال أخرى للتخزين.

من خلال هذه الإشارة لدلالة مصطلح "أكَادير" ولبعض الأسماء الأخرى ذات الصلة، نلاحظ أن مناطق الأطلس بالمغرب لا تزال تحتفظ بالأسماء الأمازيغية لهذه المؤسسات والمباني. ولعل السبب الرئيس في ذلك، كونها لم تكن تحت تأثير التعريب الذي شهدته ساكنة وأسماء بعض الأماكن بالمناطق الشرقية و الصحراوية. إذ ظلت مناطق الأطلس شبه معزولة. ورغم ذلك، وباعتبار الظروف الجغرافية والتاريخية التي عرفتها، فقد عرفت أنماط عيش خاصة، كان من مخلفاتها أشكال تنظيمية مختلفة، من بينها المخازن الجماعية التي عرفت انتشارا وتطورا على مر العصور.

2 - في الأصول التاريخية : إشكالية تستدعي مزيدا من البحث

من حيث التحقيب التاريخي، لم تتمكن مختلف الدراسات و البحوث المنجزة إلى حدود الآن من التعرف إلى تاريخ مضبوط يحدد أصول إكَودار، سواء باعتبارها مؤسسات قبلية قائمة الذات، أو نماذج معمارية فريدة. فالموضوع لا يزال يثير أكثر من إشكالية. وبالرجوع إلى المصادر الأولى، فإن بعض الإشارات التي نجدها في بعض المصادر المكتوبة لبعض الجغرافيين والمؤرخين، أو في بعض الألواح "إزرفان" (Izarfan) أو "تعقدين" (Tiaaqidin)، كما يطلق عليها في بعض المناطق[12]، تعود بنا إلى القرن الخامس عشر للميلاد[13] وما تلاه من القرون، إلى حدود بدايات القرن العشرين. ويعتبر "أكَادِيرْ نْ أُوجَرِيف" بالأطلس الصغير (إقليم تارودانت) أقدم حصن معروف بالمغرب له قانون مكتوب ، إذ يرجع تاريخ كتابة اللوح المنظم له إلى سنة 1498م[14]. وهناك من المصادر العربية التي ربما تكون أشارت إلى هذه المؤسسات، دون ذكر لأسمائها الحقيقية، حين نقلها لروايات عن الحصون أو القصور، تعبيرا عن مبان محصنة، و دون تمييز من هي التي يعنى بها "إكَودار" أو أي بنايات محصنة أخرى؛ خاصة و أن جل الإخباريين و الجغرافيين الذين تحدثوا عن بلاد السوس الأقصى، خلال الفترة الوسيطية، لم يزوروا المنطقة. وإن استطاع احدهم فعل ذلك، فكان في أواخر القرن السادس عشر للميلاد، مثل إبراهيم بن علي الحساني[15]؛

(12) - Mezzine larbi, le droit coutumier, in Splendeurs du Maroc, ouvrage collectif, pp. 68-75

(13) – يمكن أن يعزى كذلك غياب دليل مكتوب عن "إكَودار" خلال الفترة الوسيطية إلى تأخر فعل الكتابة في أوساط ساكنة المنطقة و سيادة أنظمة عرفية متوارثة قبل تغلغل الكتابة بالخط العربي ابتداء من القرن الخامس عشر.

(14) – 1498م موافق ل 903 هـ حسب **محمد العثماني**، ألواح جزولة و التشريع الإسلامي، أطروحة نيل دبلوم الدراسات العليا بدار الحديث الحسنية، الرباط 1970 و سنة 1464 م موافق ل 869 هـ حسب **محمد بن احمد البقدوري** ، تاريخ قبائل هلالة بسوس، مطبعة النجاح الجديدة، ط 1، 2000، ص 220.

(15) – إبراهيم بن علي الحساني، ديوان قبائل سوس في عهد السلطان احمد المنصور الذهبي، تحقيق عمر افا، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989.

وكذلك في أواخر القرن التاسع عشر، من طرف بعض المستكشفين الأوربيين، مثل الرحالة الشهير Ch. De Foucauld الذي أثارت انتباهه هذه المباني الكبيرة[16].

أما الإشارات الأكثر تداولا عن المخازن الجماعية لبلاد السوس فنجدها بالكتابات المتأخرة، مثل "المعسول" و"خلال جزولة" لمحمد المختار السوسي، وهي في أغلبها روايات في سياق الحديث عن وقائع و أنماط حياة تشهدها قبائل الأطلس، إذ نجد بين ثناياها إشارات لتواريخ تشييد بعض هذه المخازن، و التي يرجع أغلبها إلى القرنين السابع عشر و الثامن عشر للميلاد[17] .

من خلال هذه الإشارات المستقاة من بعض المصادر المكتوبة، يرجح أن يكون تواجد هذه البنايات، سواء في الأطلس الصغير أو بلاد جزولة القديمة وبالأطلس الكبير، بل حتى في كثير من مناطق شمال إفريقيا، منذ القرون الأولى للعصر الوسيط، حيث هاجس غياب الأمن مع بدايات الفتح العربي و الإسلامي، و نزوح القبائل العربية و قبائل الرحل إلى مناطق مختلفة في السهول، ومن بينها سهل سوس؛ ثم بعد ذلك الاحتلال الإيبيري للسواحل المغربية، ممثلا بالخصوص في الغزو البرتغالي الذي احتل مرافئ كل من ماسة و"أكَادير إغير"، أو ما يعرف بفونتي (أكَادير الحالية). هذا، بالإضافة إلى فترات الجفاف والأوبئة والأزمات الطبيعية العصيبة التي عرفتها المنطقة[18]. كل ذلك جعل السكان بمناطق جبال الأطلس، خلال فترات تاريخية طويلة، تمتد إلى القرن التاسع عشر، بل حتى بدايات القرن العشرين، يحتمون بهذه الجبال، في استقلالية شبه كلية، واضعين أنظمة عيش واستغلال وتسيير متكاملة ومنسجمة مع مجال تحركهم.

ومما يؤكد قدم "إكَودار" على ما هو ثابت في الوثائق المكتوبة، أي أواخر القرن الخامس عشر (15م)، ما كشفت عنه دراسة إثنوأثرية (Ethnoarchéologie) حديثة ببلاد الأندلس، حيث اكتشف مخزن بمنطقة مورسيا يدعى. El cabezo de la cobertera ويرجع الباحثون تاريخه إلى القرن الثالث عشر للميلاد (13م)، وهي فترة تواجد الموحدين بهذه البلاد[19]. واعتبارا لإمكانية ارتباط تواجد هذا المخزن الجماعي بفترة حكم الدولة

---

(16) - De Foucauld (Ch.), Reconnaissance au Maroc 1883-1884, paris, Challamel, 1888.

(17) – محمد المختار السوسي، خلال جزولة، 4 ج، مطبعة المهدية، تطوان، دت. محمد المختار السوسي، المعسول، مطبعة النجاح الجزء الثالث، الدار البيضاء، 1961.

(18) - Rosenbeger et Triki, op-cit p. 190.

(19) - J. de Meulemeester et A. Matthys, "un grenier collectif hispano-musulman? le Cabezo de la Cobertera (vallée de rio ségura /Murcie). Bilan provisoire d'une approche ethnoarchéologique", Ethno-archéologie méditerranèenne (collection de la casa de Velazquez, 54), Madrid, 1995, p. 181-196.

الموحدية لبلاد الأندلس، و لإمكانية نقل هذه الدولة لواحدة من المؤسسات المتواجدة بمكان انطلاقتها الأولى، وهو منطقة هرغة (أَرْغَنْ) بالأطلس الصغير، إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، فان فرضية قدم تواجد "إكَودار" بوسط وجنوب المغرب، أكثر مما هو ثابت إلى الآن. ويبقى المجال مفتوحا أمام البحث الأثري لتأكيد أو نفي هذه الفرضية.

3- في اهتمام الباحثين : خلاصات وتأويلات تقتضي المراجعة والتمحيص

ترجع البدايات الأولى للاهتمام بدراسة إكَودار إلى بعثات المستكشفين الأوربيين، من جغرافيين وإثنوغرافيين وعسكريين. وكان ذلك ضمن حملات استكشاف منظومة المؤسسات وأشكال التنظيم التي تميز مغرب القرون الأولى للعصر الحديث. وقد كان للتميز المعماري والتنظيمي لإكَودار، أن جعل العديد من هؤلاء الباحثين يقفون عندها لوصفها و لدراستها ، بدأ بالإشارات المقتضبة لـ De Foucauld ، ووصولا إلى دراسات أكثر دقة، مع كل من R. Montagne وDj. J. Meunier وDupas وDespois وA.Adam[20] وغيرهم .

ومما أثارته هذه الأبحاث، مسألة الإطار الجغرافي الذي تتواجد به هذه المخازن بالمغرب. فإذا تمكنت Dj. J. Meunier ، في دراسة نوعية أولى حول المخازن و الحصون بالمغرب، من تحديد بعض مجالات تمركزها، مما يسمح بوضع خريطة أولية لمواقعها على امتداد الأطلسين الصغير والكبير، فان الجرد الذي أنجزته يحتاج إلى تحيين واستكمال المعطيات التي غفلت عنها الباحثة في بعض المناطق، مثل منطقتي "إلالن" و"أيت رخا" المتواجدتين بالأطلس الصغير. ولعل سبب هذا الإغفال، كان هو الاعتماد على إحدى الاستنتاجات غير الصحيحة التي سبق ل R. Montagne أن خلص إليها في دراسة خاصة بأكَادير إيكُونْكَا، و التي مفادها أن بعض مناطق الأطلس، مثل منطقة تمركز قبائل إِدَاوْلْتِيتْ بالأطلس الصغير الجنوبي، لم تكن تعرف نظام إكَودار[21] . وهي الخلاصة التي أكدت بعض الأبحاث الأخيرة عدم صحتها[22]؛ خاصة إذا علمنا أن هذه المناطق من

(20) - حول كتابات هؤلاء انظر البيبليوغرافيا.

(21) - R. Montagne, op.cit, p. 190

(22) - Keddan (N.), Approche historique et prospection archéologique dans une confédération du Souss : Ilaln, thèse de 3ème cycle, INSAP, Rabat, 2001 , Nait-Balk (H.) Approche archéologique et architecturale des igoudars de l'Anti-Atlas et leur rôle socio-économique, DEA, Paris 1, 1986; Rigalma (R.) et Amarir (A.), (2004), les Igoudars de la province de Tiznit, rapport préliminaire, délégation du Ministère de la Culture de Tiznit, 48p.

الأطلس بقيت، حتى وقت لاحق لخروج الدراسة الأولى ل R. Montagne وهي سنة 1929، مستقلة ولم تخضع لسلطة الاحتلال الاستعماري. وبالإضافة إلى هذا السبب، فإن هناك احتمال آخر لعدم اكتشاف هذه المخازن إلا في السنوات الأخيرة، وهو كون العديد منها قد تعرض للخراب. وهذه الحقيقة سبق أن وقف عندها A. Adam إبان الزيارة التي قام بها لبعض المناطق سنة 1947[23].

فضلا عن الإطار الجغرافي لإكودار، حاول بعض من هؤلاء المستكشفين والإثنوغرافيين البحث كذلك في موضوع أصولها وأسباب ظهورها. إذ اعتبر R. Montagne الظروف المناخية الصعبة السبب الرئيس في ظهورها أول الأمر؛ حيث اعتبر أن الجفاف أدى إلى تراجع المحاصيل الزراعية، و إلى نشوب صراعات قبلية للسيطرة على المجالات الخصبة القليلة وعلى مصادر المياه. وتضيف Dj. J. Meunier لعامل المناخ هذا، عامل العزلة الناتجة عن الطبيعة الجغرافية الصعبة، وكذلك للنمو السكاني المطرد. ونتج عن هذين الأمرين نوع من غياب الاستقرار واللجوء أحيانا إلى الصمود ومقاومة تلك الظروف؛ وأحيانا أخرى إلى التنقل والترحال، بحثا عن مجالات أكثر ملائمة للعيش [24].

وهناك من هؤلاء الباحثين من استغرق في تأويلاته، مثل A. Adam الذي حاول توجيه تحليله، مجانبا الخوض في إشكالية ظهورها و تطورها، متسائلا : أليست إكودار مدنا مجهضة وغير كاملة الولادة؟ ولماذا ظلت منطقة تواجد هذه المخازن في بداوتها الأولى، ولم تتمكن من تشييد المدن؟ معتبرا أن أصل الكثير من المدن بالحضارات القديمة كان عبارة عن مخازن جماعية، شيدت نتيجة لتراكم الثروات[25]. لكن الفرق، حسب الباحث نفسه، أن هذه الأخيرة كانت بمناطق غنية و خصبة، في حين أن مجال تواجد إكودار هو مجال جاف و ذو طبيعة جغرافية صعبة.

إن تأمل مثل هذه الاستفهامات الأخيرة، يبين أنها مجرد نظرة فوقية لا تلمس الحقيقة التاريخية للمنطقة، وقد تجعل الباحث ينسلخ معها ويخضع لعامل المنطق الذي يمكن أن يربط بينها وبين الإجابات المقدمة لها. لكن الواقع والتاريخ يشهدان على أن الإنسان ببادية الأطلس وسوس استطاع تكوين مؤسسات كثيرة من اجل تنظيم شؤونه؛ وعلى أن

(23) - Adam (A.), "la maison…" p. 329.
(24) - Meunié (Dj.J), op.cit, p. 147.
(25) - Adam (A.), "la maison…", p. 7.

مظاهر التمدن لم تكن غائبة جملة عن المنطقة، ولم تكن قاحلة بالدرجة التي يتصورها الباحث في زمنه. فالمصادر الجغرافية والتاريخية المكتوبة، ومنها ما أورده حسن الوزان، كما نقله عنه مارمول كربخال (Marmol Karbajal) [26] والعديد من الشواهد الأثرية، تؤكد مظاهر الخصوبة التي تميز بها العصر الوسيط وبداية العصر الحديث، حيث كان الخصب ومحاصيل الشعير والقمح والعسل الفائضة والمواشي الكثيرة...؛ الأمر الذي مكن السعديين مثلا من تمويل جيوشهم والتزود بالرجال و المؤن التي ساعدتهم على بسط سيطرتهم على المغرب. كما شيدت كثير من المدن بأحواز منطقة الأطلس، وهي مراكز وحواضر يعود تاريخ البعض منها إلى فترات متقدمة من العصر الوسيط، من مثل تارودانت ونول لمطة وإكَلي وتكَاوست وتمدولت وَقَّا و أغمات ومراكش والصويرة و تيدسي، وفي فترة حديثة مدينة تزنيت .كما بنيت القنوات، وزرعت الأراضي، وفتحت المناجم، مثل تزلاغت، وشيدت معامل السكر، مثل تزمورت[27]، وهيئت الكثير من المرافئ التجارية على الواجهة البحرية، مثل أكَادير إغير وماسة وتافضنا وأمكَدول...، والعديد من الحصون والقلاع، مثل تيونيوين وإكَيليز والكست وتغجيجت، الخ. وهذه كلها علامات من بين مظاهر أخرى تؤكد قدم التعمير بالمنطقة[28].

وفي نفس سياق معالجة أطروحة A. Adam، فان المدن لا تكون وليدة الخصب والثروات فحسب، كما افترض ذلك الكاتب، بل قد تكون أيضا وليدة لإرادة سياسية لحاكم أو زعيم ما، أو وليدة تقاطع الطرق التجارية أو مصالح جهات مختلفة، أو كذلك وليدة التوسع السكاني وتقاسم الأشغال بين مختلف الفئات المجتمعية[29].

هذه إذن بعض الإشكاليات المرتبطة بإكَودار والتي حاول باحثون غربيون النبش فيها، في غياب أحيانا لأدوات التحليل الكافية، خصوصا منها تنوع مصادر المعلومات، والتمكن من فهم كل المعطيات الثقافية والتاريخية والجغرافية للمنطقة. وإذا كان لهؤلاء الباحثين فضل كبير في الكشف عن جوانب كثيرة من هذه المؤسسات والتعريف بها، فإن باب البحث

---

(26) - Marmol (K.), l'Afrique de Marmol, T.1, trad. De Nicolas perrot, Sieur d'Ablancourt, paris, 1667, p.42-43

(27) - Berthier (P.), Une épisode de l'histoire de la canne à sucre. Les anciennes sucreries du Maroc et leurs réseaux hydrauliques. Etude archéologique et d'histoire économique, 2 Vol, 349 p., Rabat, 1966.

(28) - Oumouss (A.), Peuplement et occupation du sol dans le Souss Al-Aqsa à l'image de l'historiographie et de l'archéologie extensive, étude inédite.

(29) - Pauty (E.), "Villes spontanées et villes créées en Islam" dans: A.I.E.O. d'Alger, T. IX, 1951, P.52-75.

لا يزال مشرعا أمام البحث التاريخي والأثري والإثنوغرافي، للمزيد من التعمق في كل ما له ارتباط بأصول هذا النظام وتطوره واستمرار اعتماده لقرون.

4 - في تميز النظام : إكَودار وأشكال أخرى للتخزين

تؤكد العديد من الدراسات التاريخية والاثنوغرافية أن نظام "إكَودار" لم يكن السائد وحده ببادية المغرب [30]. حيث هناك عدة أنظمة أخرى لتخزين المحاصيل الزراعية، ربما تكون أقل أهمية من الناحية الهندسية، خاصة من حيث الحجم والتوزيع؛ لكن يجب الإقرار بكونها لم تحض بما يكفي من البحث و الدراسة، بما يمكن من نفي أو إثبات ذلك. وهي أنظمة يشرف عليها، بالإضافة إلى القبائل والأسر، كل من السلاطين و الأمراء والقواد المخزنيون والزوايا. ومن بين أمثلة هذه الأنظمة ما يلي:

- نظام "**أعريش**" (Aaarich) المتواجد بمنطقة زيَّانْ، وهو عبارة عن غرفة منفصلة داخل البيت[31]. من حيث الشكل والوظيفة فهو يشبه ما يسمى ب "أخزان" (Akhzan) والمعتمد داخل البيوت السكنية في مناطق الأطلس والسهول المحادية لها.

- نظام "**لهري**" (Lahri) بمنطقة الريف[32]، وهو عبارة عن مخازن صغيرة. تشيد في مناطق محصنة طبيعيا ويحيط بها سور. يدعى مجمع هذه المخازن "أكرار"[33] (Akrar) وبالرغم من أن هذا النظام يشبه نظام إكَودار، على الأقل من حيث وظيفة التخزين، إلا أن هناك من الباحثين من نفى أن يكون يشبه النظام المعمول به في مناطق الأطلس الكبير والصغير[34].

- نظام "**تسرافت**" (Tasraft) أو المطمورة. ويسمى مجمع هذه المطمورات "لْمْرْسْ" (Lmars) وهو كذلك نظام قديم يرجعه بعض الدارسين إلى عقود خلت. ومن خصوصياته، اعتماده كأسلوب لتخزين الحبوب في المناطق السهلية وبداخل المدن[35].

(30) - Rosenberger (B.), "Réserves de grains et pouvoir dans le Maroc précolonial", in. Les techniques de conservation des grains à long terme, 3, fasc. 1, éd. CNRS, Paris, 1985,pp 237-268

(31) - Aspinion (R.), Contribution à l'étude du droit coutumier berbère marocain (étude sur les coutumes des tribus Zayanes), Casablanca/Fès, Moynier, 1937.

(32) - هو نظام يتواجد كذلك بمنطقة القبائل بالجزائر.

(33) - Montagne (R.), op.cit, p. 201-202.

(34) - Adam (A.), "l'Agadir berbère, une ville manquée?" Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°26, p.06.

(35) - Rosenberger (B.), op.cit, p 254; Leféburе (C.), « Réserves céréalières et société : l'ensilage chez les marocains, in les techniques de conservation des grains à long terme,3, fas. 1, éd. CNRS, Paris 1985, pp P 211- 235

يتضح إذن أن أنظمة تخزين الحبوب متعددة؛ و هي وليدة معطيات جغرافية وسكانية خاصة. فإذا أمكن الوقوف عند بعض قواسمها المشتركة، فان لها مميزات خاصة أيضا. لكن، يظل نظام إكَودار من أهم وأكبر هذه الأنظمة، بالنظر إلى اتساع مجال تواجدها وإلى عددها الكبير بمناطق الأطلس. وهي تعبر على أن الإنسان بهذه المناطق كان استثمر في زراعة الجبال المتواجدة بها رغم وعورتها، وهيئ فيها العديد من المدرجات التي لا تزال شاهدة للعيان. فبالرغم من عدم الاستقرار السياسي أحيانا، و تفاوت الظروف المناخية أحيانا أخرى، فان إكَودار كانت تمكن من تخزين الحبوب الكافية لتأمين الغذاء اللازم لسنوات طويلة، يصل متوسطها إلى عشرين سنة [36].

وجدير بالإشارة أيضا إلى أن نظام إكودار، في صورته المعروفة حاليا، لم يكن ليرى النور دون تراكم لتجربة تطورت خلالها أشكال التخزين على مر التاريخ؛ الشيء الذي جعل بعض الدارسين يفترضون بعضا من تلك المراحل .وقد اعتبرت المخازن المهيأة داخل المغارات أو المحفورة بالجبال[37] (Greniers troglodytique)، والتي نجد بقاياها بمناطق مختلفة بمجال الأطلس، من أولى أشكال التخزين[38]؛ حيث كانت تتمتع بمناعة شديدة، يصعب الوصول إليها. كما أنها تتميز بتنوع الأشكال والأحجام. ومما يقترحه J. Gattefossé تطور لهذه الأشكال المراحل التالية[39]:

- **المرحلة الأولى** : مغارات متفرقة على منتصف سفح الجبل، دونما ترتيب أو قنوات اتصال في ما بينها (نموذج أيت شريبو بالأطلس الكبير الشرقي)؛
- **المرحلة الثانية** : مغارات منتظمة على منتصف سفح الجبل، تربط في ما بينها ممرات محفورة في الجبل، و تضم بعض العناصر التهيئية والمرافق الداخلية (نموذج أسيف مكَون)؛
- **المرحلة الثالثة** : مغارات منتظمة على أكثر من مستوى في سفح الجبل وتكون متصلة في ما بينها عبر منافذ داخلية (نماذج بيكَودين، جبل الكست، تامسينت، أمزميز)؛

(36) - Onrobia Pintado (J.), «Magasins de la falaise préhispaniques de la grande Canarie viabilité et conditions de formulation d'une hypothèse de référence ethnologique » in Ethnoarchéologie Méditerranéenne, Madrid, 1995, p. 176

(37) – نموذج أيت عبدي بمنطقة الأطلس الكبير الشرقي أنظر.
Meunier (Dj. J.), op.cit., p163

(38) - Montagne (R.), op-cit; Gattefossé (J.), "les greniers de falaises forme ancienne d'Agadir collectif, Bulletin de la société de préhistoire du Maroc", n° 1 et 2, Rabat, 1934, p. 94-95.

(39) - Gattefossé (J.), op-cit.

• **المرحلة الرابعة** : بنايات دائرية أو مستطيلة الشكل، مبنية على قمم محصنة طبيعيا (نماذج أكوديم، أيت حديدو)؛

• **المرحلة الخامسة و الأخيرة** : مخازن محصنة و أكبر حجما، و هي التي تسمى "إكَودار" بمناطق الأطلسين الصغير والكبير الغربي.

ويعتقد هذا الباحث أن هذه المراحل أعقبها ظهور أشكال أخرى، خاصة منها التي تسمى "إغرم" (Igharm) أو "تغرمت" (Tigharmt) بالأطلس الكبير الشرقي، و هي غالبا ما تكون مشيدة بالتراب (أيت حديدو، زاوية أحنصال، دمنات، خنيفرة)....، وأخيرا المخازن التي تدعى "أكرار"(Akrar) بمنطقة جبالة بالريف و شفشاون.

وقبل هذا التصنيف الزمني لتطور أشكال التخزين، كان سبق ل R. Montagne ، في دراسته حول "أكَادير إكونكا"[40]، أن اقترح بعض مراحل تطور النموذج المعماري للمخازن، من حيث الوظائف و الأحجام، و ذلك تبعا لتطور نمط العيش، من نظام الترحال إلى مرحلة الاستقرار، قبل أن تعود إلى التراجع و الأفول بفعل مجموعة من العوامل[41]. ومما افترضه هذا الباحث المراحل التطورية التالية:

• **المرحلة الأولى** : المغارات ذات المنافذ المتعددة على سفوح الجبال، و هي خاصة بالرحل؛

• **المرحلة الثانية** : مغارات مرتبة في سفح الجبال على أكثر من مستوى، و هي خاصة بأنصاف الرحل؛

• **المرحلة الثالثة** : مخازن عائلية تسمى "تيغرمت"؛

• **المرحلة الرابعة** : مخازن وسط مساكن لأنصاف الرحل، و هي تتمتع بالحراسة حتى في فترة الترحال؛

• **المرحلة الخامسة** : مخازن قبلية لساكنة مستقرة، و تكون خاضعة لنظام عرفي كما تكون النواة الأولى لتطور التبادل التجاري، وهي التي تسمى "بإكَودار".

(40) - Montagne (R.), op.cit

(41) – أنظر أعلاه (تمهيد).

من خلال هذا الجرد يلاحظ أن "إكَودار" تتميز، ليس فقط عن أشكال التخزين المعتمدة بالسهول والمراكز الحضرية، لكن أيضا عن أشكال أخرى، اعتبرتها جل الأطروحات بمثابة مراحل تطورية أولى، نتج عنها في الأخير المخازن المشيدة والمسماة إكودار والمتميزة بخصائصها المعمارية والمجالية. فما هي أهم هذه الخصائص؟

5 - في الخصائص و المميزات المعمارية : تقنيات خاصة لمرافق خاصة

ارتباطا بالوظائف التي تقوم بها إكَودار ولسياق ظهورها المجالي و التاريخي، فإنه من الطبيعي أن تتخذ أشكالا هندسية وأحجاما متنوعة، حسب الموقع الجغرافي وحسب الحاجة التي يفرضها عدد الساكنة المستعملة لها وظروف عيشها. ورغم التشابه الذي سجلناه من حيث هذه الوظائف، فان هذا الاختلاف يهم حجم و نوع وعدد المرافق التي تضمها. فإذا كان حجم "إغرم" أصغر وشكله بسيط في بعض الأحيان، فإن "إكَودار" مناطق الأطلس تتميز بتحصيناتها الكبيرة، وبمرافقها وخصائصها البنائية المتنوعة. وفي هذا الإطار سيكون تركيزنا على أهم الخصائص البنائية، من مواد وتقنيات وطرق تهيئ المجال، دون الخوض في بعض التفاصيل الدقيقة، والتي قد تبدو غريبة في مثل هذه البنايات، مثل الزخارف التي نجد لها حضورا، وإن كان قليلا، على مستوى الجدران، باستعمال الحجارة، أو على مستوى الأبواب و السقوف، باستعمال مواد مختلفة و اعتماد أشكال و رسوم هندسية متنوعة، كما هو الحال في بعض مخازن مناطق الدير.

5-1- الخصائص البنائية

مواد و تقنيات البناء[42]:

باستثناء قلة من المخازن بمنطقة الأطلس الصغير الشرقي والأوسط وبعض الأحواز السهلية والتي نجدها مبنية بالتراب (Akal)، اعتمادا على تقنية التراب المدكوك "اللوح" (Louh) أو تقنية الآجر المجفف أو اللبن ، فإن أغلب "إكَودار" مشيدة بواسطة الحجارة "أزْرو" (Azrou) وبالإضافة إلى هذه المواد الأساسية، يستعمل الخشب ومواد ثانوية أخرى مثل الجير، وأغلبها يكون التقاطه في عين المكان.

(42) – لتسهيل عملية نطق بعض المصطلحات الأمازيغية التي لها علة بمواد وتقنيات البناء آثرنا إعادة كتابتها بالحرف اللاتيني مع الإشارة إلى أننا بصدد العمل على إنجاز مشروع معجم البناء والعمارة بالمناطق الأمازيغية لسوس.

أما الحجارة فتدخل في تشكيل أجسام الجدران إغربان ج. "أغراب" (Aghrab) التي يصل سمكها إلى حوالي 50 سنتمتر. فهي تؤسس مباشرة على سطح الأرض الصلبة، دونما حاجة للأسس "لواسيس" (Lwasis) المغروسة في الأرض؛ حيث تُرتب طبقات وصفوف أفقية من الحجارة المتوسطة الحجم والمعدَّة نسبيا، لتُثبت بأخرى أصغر منها أو بتربة طينية "تلاغت" (Tallaght). ويلاحظ أن الحجارة التي تستعمل في بناء الأسوار الخارجية للبناية يكون حجمها أكبر، وترتبط في ما بينها بواسطة أحجار صغيرة؛ بينما يستعمل الطين لشد الحجارة في ما بينها في باقي مكونات البناية الأخرى. ويستعمل الجير الممزوج بالتراب أحيانا كملاط خارجي على سطوح الجدران "تبلوط" (Tabllout) وفي إعداد الطبقة المقاومة للأمطار على مستوى سطح البناية.

أما الخشب، خاصة الأركَان والنخيل، فقد استعمل في بناء السقوف، "تدولي" (Tadouli) أو "تسيوت" (Tasyout)، والعتبات "إمنارن" ج. "أمنار" (Amnar)، والأبواب "إكَورا"ج. "أكَور" (Agour)، أو "تلوحت" (Talouht). كما نجده أيضا وسط جسم الجدران، وهذه التقنية الأخيرة يكون اللجوء إليها لإعطاء الجدار مثانة وصلابة تقاوم الضغط الذي يتزايد بفعل الارتفاع.

ويكون بناء السقوف بعد إتمام تشييد الأسوار، على ارتفاع حوالي ثلاثة أمتار، وذلك بوضع الأعمدة الخشبية، "تكَجدا"(Tigjda) ج. "تكَجديت" (Tagajdit) ، في عرض الغرف، بشكل مواز لبعضها البعض، ومتباعدة بحوالي نصف المتر. وبعد ذلك تُفرش حصائر من أخشاب متوسطة الطول على الأعمدة الأولى في الاتجاه المعاكس لسد الفراغات المتروكة. تُدك من فوق هذا البساط طبقة من التراب الطيني، "أكال" (Akal) أو "تدقا" (Tadqqa)، الممزوج بقليل من الجير، "أفزا" (Afza) ، على مستوى الطابق العلوي، ثم تُوضع طبقة رقيقة مقاومة لمياه الأمطار وتُسهل تصريفها في مجار خاصة، "لمنازب" ج. "لمنزاب" (Lmanzab) ، بفضل الميلان الذي يُمنح إياها، أو تمنع تسرب مياه الأمطار فوق الجدران، بفضل "أكفاف"(Agfaf) ، وهو عبارة عن صف من الحجارة المسطحة والرقيقة التي توضع متجاوزة الجدران على مستوى السطح.

بالإضافة إلى بعض هذه التقنيات، لاحظنا اعتماد نظام البناء العمودي للغرف داخل "إكَودار" المبنية بواسطة الحجارة، وتتمثل هذه التقنية في بناء وحدات من الغرف المتراتبة، منفصلة عن مثيلاتها في جهتي اليمين والشمال. إذ يقفل بناء غرف التخزين في ما يسمى بتسلكَرت (Tasalgart). وإذا ظهرت الحاجة إلى إضافة غرف أخرى، نتيجة لتزايد الحاجة لأماكن تخزين جديدة، تفتح هذه الأخيرة لتشيد الغرف الجديدة بنفس التقنية قبل أن تقفل مرة ثانية.

5 - 2 – الخصائص المجالية:

موقع التشييد:

إذا كنا خلصنا إلى أن مناطق الأطلس هي التي تضم أبرز أنواع المخازن الجماعية بالمغرب، فان لهذه البنايات مواقع كذلك وسط هذا المجال الجغرافي الواسع .فهي تنتشر في كل أرجاء الأطلس، بدليل ما كشفت عنه بعض التحريات الأثرية التي جاءت لتساهم في استكمال العمل الذي أنجزه الباحثون الأوربيون أوائل القرن 20. فإذا لم تشيد وسط المساكن أو بالقرب منها، كما هو الحال ببعض مناطق الجهة الشرقية والغربية للأطلس، فإن أغلبها ينتصب على قمم جبلية أو على تلال و هضاب، تتميز بموقعها الاستراتيجي، من حيث مناعة الولوج إليها أحيانا، وإشرافها على المجال المحيط بها أحيانا أخرى. كما يمكن أن تكون هذه المواقع بمحاذاة وديان أو عيون مائية أو مجار جافة، لكي يسهل التقاط مياه الأمطار التي تزود مخازن الماء التي تهيئ داخل المخازن. وهذا الأمر يجعلها تتقاسم مع الهندسة العسكرية مجموعة من الخصائص البنائية، مثل التحصين ومراقبة المحيط.



أكَادير إدعيسى بأمطضي في السفح الجنوبي للأطلس الصغير الغربي

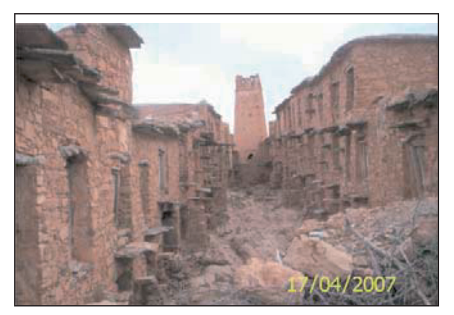
وإذا كان لهذه المواقع الإستراتيجية دور في تعزيز عنصر التحصين لإكَودار، فان هناك نتيجة أخرى للتواجد بهذه الأماكن العالية نسبيا، حيث أن تعرضها للرياح والشمس على طول السنة، يمكنها من الحفاظ على سلامة المحاصيل الزراعية وتجنيبها عوامل التلف الخارجية والمتمثلة خصوصا في الرطوبة والحشرات المختلفة. علما بان هناك أيضا أنظمة بنائية وتهيئية داخل غرف التخزين ما يساعد كذلك على تفادي كل ما يمكن أن يفسد الممتلكات.

تهييئ المرافق :

تتخذ "إكَودار" أحجاما وأشكالا هندسية مختلفة، منها المستطيل والدائري والمربع(43)، و ذلك حسب الطبيعة الجغرافية للموقع وحجم السكان الذين يستعملونها؛ وكذلك حسب طبيعة الأنشطة التي يزاولونها، من فلاحة الأرض وتربية الماشية أو أسلوب عيش قد يتوزع بين الاستقرار والترحال. وهي تضم مجموعة من المرافق، لها وظائف تنسجم ونمط عيش.



الواجهة الأمامية لأكَادير "تيسلان" بالأطلس الصغير



جناحين من غرف التخزين يفصل بينهما ممر في الوسط ويظهر أحد الأبراج في عمق البناية (أكَادير تيسلان)

وعموما نجد "إكَودار" مناطق الأطلس الصغير الغربي، محاطة بنباتات شوكية كالسدر أو الصبار، وهي تغرس خارج أسواره أو تجمع حوله وتستعمل كحاجز دفاعي يطلق عليه "إفريكَ" (Ifrig). ويدعى الفضاء الذي يفصل هذا الحاجز عن السور الخارجي "أكلوي أوكَادير" (Agleuy o gadir) أما السور الخارجي، فغالبا ما يكون متوسط الارتفاع (مترين أو ثلاثة)؛ يطل مباشرة على حافة شديدة الانحدار أحيانا أو على النباتات الشوكية التي سبق ذكرها. ينفتح في هذا السور الخارجي باب كبير يؤدي إلى مدخل يتخذ شكلا منكسرا أو مرفقيا، "أغكَمِّي" (Aghgammi). ويقام بمحاذاة السور، في اثنان أو أكثر من الزوايا المقابلة، "برجان" أو أكثر، ج. "لبرج" (Lbarj)، مزود بثقوب خاصة بالمراقبة وبالرماية، ويطلان على كل أحواز "أكادير"، اتقاء لشر الأعداء(44).

من وراء كل هذه الحواجز، وبمحاذاة السور، تتوزع بعض المرافق التي تؤمن مجموعة من الوظائف الاقتصادية والاجتماعية داخل المخزن، وهي مرافق يختلف حجمها ونوعها

(43) – انظر أسفله: في النموذج المعماري محاولة للتصنيف.

(44) – منها التي تحتوي على تحصينات إضافية مثل أكادير إفران بأيت واسو بإلالن بإقليم شتوكة أيت باها.

حسب أهمية هذا الأخير؛ قد يضمها مخزن واحد وقد يضم بعضا منها فقط. ويتعلق الأمر ب غرفة خاصة بالأمين، "لامين" (Lamin)، الذي يسهر على تنظيم استعمال مرافق "أكَادير"، وأخرى خاصة بجماعة "إنفلاس" (Inflas)[45]، تدعى "تمصريت" (Tamsrit)، ومطبخ، "أنوال" (Anwal)، ومسجد، "تمزكيد" (Timzgida) ، وهو عبارة عن قاعة خاصة بالصلاة أو حتى على مصلى مفتوح، وغرفة للحدادة، "أنوض" (Anoud) ، تحتضن ورشا لإصلاح وصناعة الأدوات المعدنية المختلفة، بما فيها الحلي أحيانا، وغرفة تحتوي على طاحونة يدوية للحبوب، "أزركَ" (Azarg)، ومربطا للدواب التي تستعمل في النقل، يدعى "أسكرف" (Askarf)، وخزانات للتبن، "لهري" (Lahri). وتكون مجمل هذه المرافق غالبا محادية للمدخل الرئيسي.

وبالولوج إلى وسط البناية نجد خزانا أو أكثر للماء، "تنوظفوين" ج. "تنوظفي"(Tanoudfi)، وهي تؤمن التقاط مياه الأمطار وجمعها للاستعمالات المختلفة.

أما البناية الرئيسية، والتي تودع داخلها الممتلكات والمنقولات المختلفة، من حبوب وحلي وألبسة وزيوت و غيرها، فهي تضم غرف التخزين، "إكَنارن" ج. "أكَنار" (Agnar) أو "إحونا" ج. "أحانو" (Ahanou)، وهي عبارة عن جناحين أو أكثر من الغرف المتراصة والمستطيلة الشكل، والموزعة على طابقين أو أكثر، "تدولي" (Tadouli)، قد تصل إلى 4 أو 5 طوابق، كما هو الحال بالنسبة ل أكادير "تسكينت" (Tisgint) بقبيلة إِدُوسكَا أوفلاًّ بالأطلس الصغير[46].

يؤدي إلى هذه البناية الوسطى مدخل واحد، يدعى "تخسايت" (Takhsayt)، وتنتظم بداخلها الغرف. ولكل غرفة مالكها الخاص، ضمن الأسر المكونة للقرية أو القبيلة، وذلك حسب حجم العائلة ووزنها الاقتصادي. ويبلغ عدد الغرف داخل المحزن الواحد ما بين 15 و50 غرفة، وقد يتجاوز ذلك بكثير، كما هو الشأن مثلا بأكَادير إنومار (Inoummar) وأكَادير تيكيدا (Tikida) بالأطلس الصغير الغربي؛ حيث يصل عددها إلى حوالي 300 غرفة. وتتخذ هذه الأخيرة أشكالا تتراوح ما بين المربع والمستطيل، أبعادها من 1.5 إلى 2 متر في العرض، وما بين 4 و 7 أمتار في الطول ؛ أما علوها فلا يتجاوز متران. وتكون

(45) – جماعة من زعماء وكبار القبيلة أو الجماعة والذين يتولون تنفيذ الأحكام وتطبيق البنود التي يحددها اللوح المنظم لأكادير.

(46) – نجد أحيانا أسماء خاصة بمستويات الغرف، يطلق على المستوى الأول اسم "تزقي" (Tizqi) أما المستوى الثاني، أي الطابق الأول، فيدعى "أحانو" (Ahanou) في حين يسمى المستوى الثالث، إذا وجد طبعا، "أكنار" (Agnar)

مزودة بأبواب صغيرة، تطل على ممر واحد (كما في أكَادير "تعلاط" (Taalat) "وتتقي" (Titqi)) أو أكثر من ممر، حسب عدد أجنحة الغرف (3 أو 4 ممرات، كما في "اكَادير" "إنومار" و"أيت ويزلن" (Ait-Wizeln)). يكون الولوج إلى داخل هذه الغرف عبر تسلق وحدات حجرية، "إسليتن" ج. "إسلي" (Isli)، مثبتة في واجهاتها الأمامية، وأحيانا باستعمال أعمدة خشبية من جذوع أشجار النخيل.

وبالإضافة إلى عناصر التهيئ الكبرى للمخزن، تخضع غرف التخزين لنظام تهيئ خاص، حيث يكون الفصل بين أماكن التخزين حسب طبيعة المواد، من تمور أو حبوب أو زيوت أو غيرها. ويكون ذلك بواسطة فواصل ترابية أو حجرية صغيرة، أو حتى عبر تهيئ مستوى ثان داخل الغرفة بواسطة ألواح خشبية. وتزود هذه الغرف أيضا بوسائل تجعلها تتمتع بدرجة حرارة معتدلة وتحارب الرطوبة التي قد تنشأ عنها كثير من عوامل تخريب الممتلكات، من مثل فتحات للتهوية، "إسكسال" ج. "أسكسل" (Asksl)، وفصل الغرف المتواجدة بالمستوى الأرضي عن الأرضية الطبيعية للموقع بفضل تهيئ فراغ يساعد على مرور الهواء.

بالإضافة إلى كل هذه المرافق التي وقفنا عندها والتي تتواجد في مجملها بداخل المخزن فان هناك مرافق أخرى تهيئ خارج أكَادير، مثل الندر "أنرار"(Anrar)، الذي غالبا ما يكون في سفح الهضبة أو الجبل أو بمحاداة أكَادير، لكي يسهل نقل الحبوب إليه، وكذلك قفير النحل، "تدارت أوكَليف" (Taddart ou glif).

إذا كان هذا النمط المعماري، من حيث محتويات البنايات والتوزيع الهندسي للمرافق، هو الطابع الغالب على أبرز "إكودار" المتواجدة بمنطقة الأطلس الصغير، فان مثيلاتها بمناطق الأطلس الأخرى تكون غالبا اقل اتساعا وأصغر حجما. و يلاحظ من خلال الخصائص الهندسية والمعمارية لهذه المخازن أن هناك قواسم مشتركة في ما بينها، حيث نجد مرافق أساسية بداخلها، ويكاد تواجدها بها يكون دائما، مثل الأبراج[47]، وخزانات الماء وبيت الأمين. و هناك مرافق تتواجد في أغلبها، مثل بيت الحدادة والمطبخ والمسجد. هذا الأخير نجده حاضرا ب "إكودار" الأطلس الصغير الغربي[48]، بخلاف مخازن الأطلس الشرقي والأوسط التي لا يتواجد بها إلا نادرا. ونجد أيضا مرافق تتواجد

(47) - باستثناء القليل منها شيدت في مراحل تاريخية متأخرة، مثل أكادير "تعلاط" بإقليم اشتوكة أيت باها.

(48) - قد لا نجد مكانا مخصص للصلاة داخل المخزن لكن نجد هذا الأخير بجوار مدرسة قرآنية.

في البعض منها، مثل غرفة تخزين خاصة بجمع زكاة الأعشار لصالح إحدى الزوايا أو أحد الأولياء[49]، وخزان التبن "لهري" ومربط للدواب وبيت مخصص لطاحونة الحبوب اليدوية.

6 – في النموذج المعماري : محاولات للتصنيف

إذا كنا قد توقفنا عند أهم المراحل التي عرفتها أشكال التخزين وعلى الأشكال البنائية والتهيئية التي ميزت نظام إكودار، فإن من شأن ذلك أن يمكن من وضع تصنيف أولي للأشكال البنائية لهذه الأخيرة. وهو الموضوع الذي حاول بعض الباحثين النبش فيه، بالرغم من الصعوبات التي قد يطرحها تنوع أحجامها واختلاف مواد ومكان بنائها. وفي هذا الإطار يمكن تمييز تصنيفات ثلاثة من التصاميم وهي:

6 – 1- الشكل الدائري:

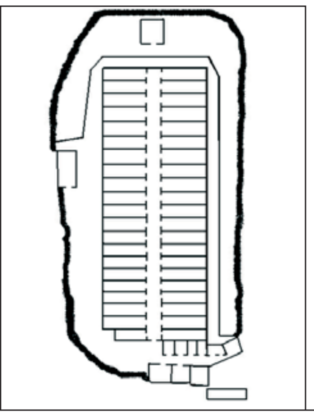
عبارة عن بناية دائرية الشكل، تحتوي على ساحة وسطى تحيط بها غرف التخزين. ويكون السور المحيط بالبناية محاديا لحافة الجبل. وتعتبر مونيي (Dj.J. Meunier) أن هذا النوع من المخازن يتواجد بالمناطق الجبلية، مثل سروة، وأن أصله ربما نجده في الأبراج التي كانت تستعمل للتخزين بمنطقة الصحراء الشرقية[50]. لكن هناك من الباحثين من فند هذه الفكرة واعتبر أن هذا الشكل أصله طبيعة التضاريس غير المستوية وقوة المنحدرات التي لا تسمح بأحجام وأشكال أكثر اتساعا[51].

---

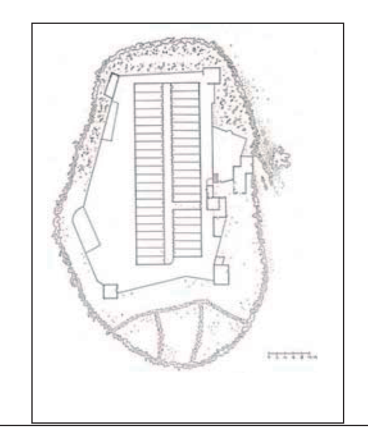
(49) – هناك من الحصون في منطقة دادس التي تضم من بين مرافقها ضريحا أو قبر ولي، فسميت ب "المخازن الأضرحة" انظر:
Meunié (J.), Architectures et habitats du Dadès, Maroc présaharien, Paris, 1962, p. 58-61.

(50) - Meunié (Dj.J.), op.cit., p. 181.

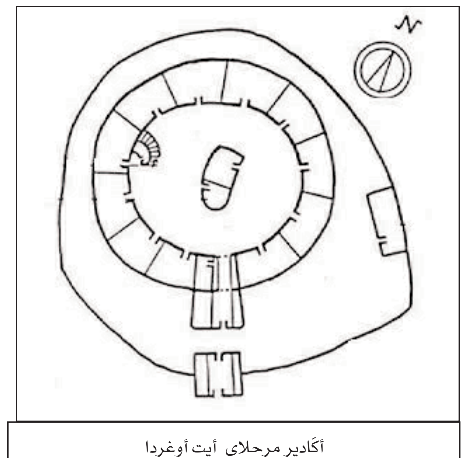
(51) - Nait-Balk, op.cit., p. 51.



أكادير إمي نتسيل مزداكَن - الأطلس الصغير - 3 طوابق 127 غرفة
المصدر: Despois (J), les greniers fortifiés. Meunié p. 42.
(Dj. J), les greniers citadelles, p. 42.



أكادير إمجكَيكَيلين الأطلس الصغير 3 طوابق 121 غرفة
المصدر: (Dj. J), les greniers citadelles, p. 42.



أكَادير مرحلاي أيت أوغردا
المصدر: Meunier (Dj.J), les greniers citadelles, p. 125.

6 - 2- ذات الممرات الطويلة :

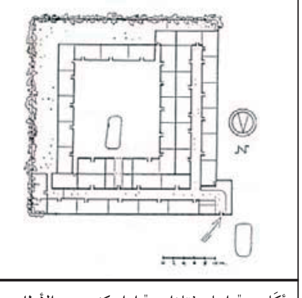
يتواجد هذا النوع من المخازن أساسا بمنطقة الأطلس الصغير الغربي[52]. ويتميز بشكله الممتد وبوجود ممر طويل وسط بناية تتكون من جناحين من غرف التخزين. وتنفتح هذه البناية الأخيرة على ساحة المخزن بواسطة مدخل واحد يمكن من الولوج إلى الغرف. وإذا ضاق مجال البناية يكون اللجوء إلى البناء العمودي، عبر إحداث مستويات عليا؛ كما يمكن أن يحتضن المخزن أكثر من جناح ويكون اللجوء بالتالي إلى إحداث الممرات الكافية.

(52) - A. Humbert, M. Fikri, op.cit., p. 27

وقد اعتبرت Dj.Meunier أن اعتماد هذا النوع كان نتيجة لازدهار القبيلة ووفرة المحاصيل الزراعية؛ مما ساعد على ازدهار الفن المعماري وتطور أشكال البناء(53).

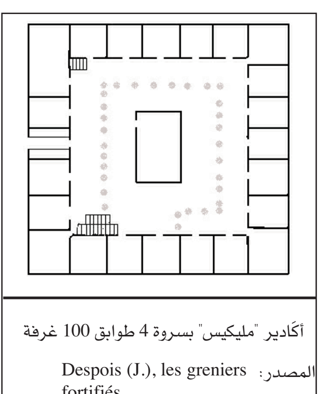
3-6- ذات الساحات المربعة الشكل :

تتخذ هذه المخازن أشكالا مربعة أو مستطيلة. وهي تحتوي على ساحة كبيرة نوعا ما، تستعمل أحيانا في بعض الأنشطة الحرفية أوالتجارية، بدليل تواجدها على طرق القوافل التجارية، خاصة بمناطق الأطلس الوسطى والشرقية وبعض الواحات المتاخمة للأطلس. لكن، يمكن أن نجد داخل هذا الصنف أشكالا متفرعة أخرى، تتعدد فيها الساحات الصغيرة، بسبب الحاجة المستمرة لتوسيع المخزن وزيادة أعداد الغرف. فهي بذلك تشبه إلى حد كبير الفنادق المعروفة بداخل المدن.



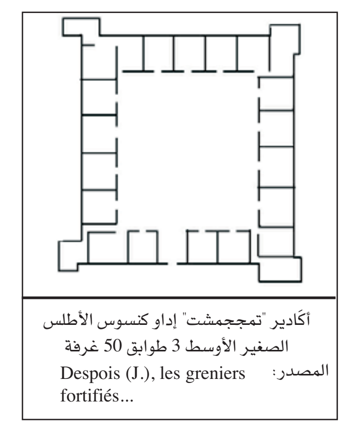
أكَادير "وامان نتازارت" إداو كنسوس الأطلس الصغير الأوسط 3 طوابق 120 غرفة

المصدر: Meunié (Dj. J), les greniers citadelles, p. 91.



أكَادير "مليكيس" بسروة 4 طوابق 100 غرفة

المصدر: Despois (J.), les greniers fortifiés...



أكَادير "تمجمشت" إداو كنسوس الأطلس الصغير الأوسط 3 طوابق 50 غرفة

المصدر: Despois (J.), les greniers fortifiés...

وجدير بالإشارة إلى أن التمييز بين الأصناف المختلفة لإكَودار لا يتأسس فقط على تنوع أشكالها الهندسية، لكن كذلك على مواقع تواجدها. وهذه المواقع تحيل إلى جوانب من التطور الذي شهدته، بدأ باستغلال المغارات الطبيعية ووصولا إلى تشييد مبان ضخمة جوار و وسط المداشر والقرى. فأمكن بالتالي التمييز بين:

(53) - Meunié (Dj.J.), op. cit., p. 27

- **المخازن المغارات** (Greniers Grottes) ؛
- **المخازن المحفورة على سفوح الجبال**(Greniers de falaises) ؛
- **مخازن المرتفعات** (Greniers de hauteurs ou de collines) كما هو الشأن بالأطلس الصغير؛
- **مخازن القرى** (Greniers de village) تتميز بكونها مخازن عائلية وبتواجدها وسط المداشر. وهي في أغلبها بنيت متأخرة، بعد استتباب الأمن؛ مما ساهم في تشييدها، دونما حاجة إلى التحصينات والمواقع المنيعة التي ميزت المخازن الأولى.

إذا كانت كل هذه المحاولات لتصنيف إكَودار انطلاقا من مميزاتها الهندسية قد اعتمدت بالدرجة الأولى على نتائج الأبحاث الإثنوغرافية، فان الأمر في حاجة إلى مزيد من البحث لاستكمال النتائج المترتبة عن الأبحاث المنجزة حتى الآن. إذ يستلزم الأمر القيام بأبحاث أثرية وبدراسات معمارية أكثر تقدما، من أجل رصد تطور الأشكال الهندسية لهذا النوع من المخازن الجماعية.

خاتمة:

من خلال إثارة بعض الإشكاليات المرتبطة بدراسة المخازن الجماعية (إكَودار)، يجدر بنا التذكير بأهم الخلاصات التي وقفنا عندها. من الناحية التاريخية، اتضح أن نظام إكودار يعتبر واحدا من أبرز الأساليب المعتمدة في تخزين الممتلكات وفي التحصين بمناطق الأطلس. وهو نظام متجدر في التاريخ عرف عدة مراحل تطورية. لكن التحقيب والبحث التاريخيين، وإن استطاعا استجلاء بعض نقط الظل، فإنهما لم يتمكنا من تحديد دقيق لتاريخ البدايات الأولى لظهورها ولكل مراحل تطورها، مما يستدعي مزيدا من البحث والتنقيب والاستعانة بالعلوم التاريخية الأخرى، كعلم الآثار الذي أبان عن نتائج مهمة عند دراسته لمثل هذه البنايات بمنطقة الأندلس.

من حيث الخصائص المعمارية، لاحظنا اعتماد مواد وتقنيات شبيهة بتلك المعتمدة في الأشكال الهندسية المتواجدة في نفس المجال الجغرافي. ويكمن تميز إكودار في تنوع المرافق المكونة لها وفي تعدد أشكالها الهندسية التي تنسجم وطبيعة الوظائف التي تؤديها. وقد لاحظنا أن مخازن الأطلس الصغير تظل متميزة، بالنظر إلى تنوع تصاميمها وإلى طبيعة مرافقها وحجم أشكالها المعمارية.

وفضلا عن الأهمية التاريخية والمعمارية لهذه المعالم، لابد من إثارة الانتباه إلى المخاطر التي تهدد وجودها وإلى ضرورة إنقاذها ورد الاعتبار إليها والتعرف عليها في أوساط البحث، ليس فقط كمبان وتراث معماري، ولكن كذلك كمؤسسات اجتماعية واقتصادية وثقافية متميزة. فكل أكادير يقتضي دراسة مفصلة تروم، فضلا عن الكشف والتنقيب عن أهميته التاريخية والمعمارية، التفكير في سبل حمايته ورد الاعتبار إليه. واعتبارا لكون من بين أهداف التنمية المستدامة الاهتمام بصيانة التراثين الطبيعي والثقافي، وجعلهما في خدمة التنمية الاقتصادية والاجتماعية، أصبح من الضروري التفكير في توظيف إكَودار في مجالات علمية و تنموية عدة، تساهم في ضمان استمرارية وجودها المادي وبالتالي صيانة الذاكرة الوطنية.

البيبلوغرافيا

- محمد المختار السوسي، خلال جزولة، 4 ج .مطبعة المهدية، تطوان، د. ت. ط.

- محمد المختار السوسي، المعسول، مطبعة النجاح، الجزء الثالث، الدار البيضاء، 1961.

- محمد العثماني، ألواح جزولة والتشريع الإسلامي، أطروحة نيل دبلوم الدراسات العليا بدار الحديث الحسنية، الرباط 1970.

- البقدوري محمد بن احمد، تاريخ قبائل هلالة بسوس، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2000.

- إبراهيم بن علي الحساني، ديوان قبائل سوس في عهد السلطان احمد المنصور الذهبي، تحقيق عمر أفا، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989.

******

Adam (A.), «L'agadir berbère : une ville manquée ?», Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, n°26, pp 5-12.

- Adam (A.), « la maison et le village dans quelques tribus de l'Anti-Atlas», Hespéris, 37, 1950, pp 289-351.

- Amarir (A.) et Rigalma (R.), Igudar, approche architecturale et ethnologique, cas de la province de Tiznit, rapport délégation culture, Tiznit, 2004. (Dactylographié)

- Aspinion (R.), Contribution à l'étude du droit coutumier berbère marocain (étude sur les coutumes des tribus Zayanes), Casablanca/Fès, Moynier, 1937.

- Berthier (P.), Une épisode de l'histoire de la canne à sucre. Les anciennes sucreries du Maroc et leurs réseaux hydrauliques. Etude Archéologique et d'Histoire Economique, 2 Vol, 349 p., Rabat, 1966.

- Capot-Rey (R.), "Greniers domestiques et greniers fortifiés au Sahara, le cas du Gourara", Travaux de l'Institut de recherches sahariennes, T.14, 1 et 2 trimestre, 1956, p.139-158.

- De Foucauld (Ch.), Reconnaissance au Maroc 1883-1884, Paris, Challamel, 1888.

- Despois (J.), « Les greniers fortifiés de l'Afrique du Nord », les cahiers de Tunisie, n°1,1953, pp 38-58. -

De Meulemeester (J.) et Matthys (A.), "Un grenier collectif hispano-musulman? le Cabezo de la Cobertera (vallée de rio ségura /Murcie). Bilan provisoire d'une approche ethnoarchéologique", Ethno-archéologie méditerranèenne (collection de la casa de Velazquez, 54), Madrid, 1995, p. 181-196.

- Gattefossé (J.), « Les greniers de falaises, forme ancienne d'Agadir collectif », Bulletin de la société de la préhistoire du Maroc, n°1 et 2, Rabat, 1934, pp 91-102.

- Humbert (A.) et Fikri (M.), Les greniers collectifs fortifiés de l'Anti-Atlas occidental et central, étude de cas, in Castrum n°5, 1995, p.361-370.

- Laoust (E.), « L'habitation chez les transhumants du Maroc central: la maison » suite, Hésperis, T.14, 1932, Rabat, p. 115-218.

- Laoust (E.), «L'habitation chez les transhumants du Maroc central» suite et fin, Hésperis, 1934, Rabat, p. 109-196.

- Lefébure (C.), « Réserves céréalières et société : l'ensilage chez les marocains, in les techniques de conservation des grains à long terme, 3, fas. 1, éd. CNRS, Paris 1985, pp 211- 235.

- Marmol (K.), l'Afrique de Marmol, T.1, trad. De Nicolas perrot, Sieur d'Ablancourt, paris, 1667.

- Meunié (Dj. J.), Les greniers citadelles du Maroc, ed. Arts et Métiers Graphiques, 2 volumes, 1952.

- Meunié (J.), architectures et habitats du Dadès, Maroc présaharien, Paris, 1962.

- Mezzine (L.), "Le droit coutumier", in Splendeurs du Maroc, ouvrage collectif, pp.68-75.

- Montagne (R.), "Un magasin collectif de l'Anti-Atlas : Agadir des Ikounka", Hesperis, 1929, pp 145-266.

- Nait Balk (H.), Approche archéologique et architecturale des igoudars de l'Anti-Atlas et leur rôle socio-économique, DEA, Paris 1, 1986.

- Keddan (N.), Approche historique et prospection archéologique dans une confédération du Souss : Ilaln, thèse de 3ème cycle, INSAP, Rabat, 2001.

- Oumouss (A.), Peuplement et occupation du sol dans le Souss al-Aqsa à l'image de l'historiographie, (inédit).

- Onrobia Pintado (J.), «Magasins de la falaise préhispaniques de la grande Canarie viabilité et conditions de formulation d'une hypothèse de référence ethnologique», in Ethnoarchéologie Méditerranéenne, Madrid, 1995, pp159-180.

- Pauty (E.), "Villes spontanées et villes créées en Islam" dans: A.I.E.O. d'Alger, T. IX, 1951, pp.52-75.

- Rosenberger (B.), «Réserves de grains et pouvoir dans le Maroc précolonial", in. Les techniques de conservation des grains à long terme, 3, fasc.1, ed. CNRS, Paris, 1985, pp. 237-268.

- Rosenberger (B.) et Triki (H.), "Famines et épidémies au Maroc aux 16 et 17ème siècle", Héspéris Tamuda, N°14, pp 109-175.

- Terrasse (H.), Kasbahs berbères de l'Atlas et des oasis, éd. Horizons de France, Paris, 1938.

دينامية إكَيدَارْ منطقة أَمْطْضِي بالسفوح الجنوبية للأطلس الصغير الغربي

ذ. حسن رامو

ذ. المحفوظ أسمهري

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

مقدمة

تعتبر المخازن الجماعية، المشهورة في المغرب باسم إكَيدَار[1]، واحدة من أهم عناصر التراث المعماري الأمازيغي. فهي لا تختزن فقط عناصر من التراث المادي من هندسة وبناء وغيرها، بل وأيضا عناصر من التراث اللامادي، تتجلى أساسا في كل ما له علاقة بتدبير مؤسسة أكَادِيرْ وقانونها التنظيمي، فضلا عن المعتقدات المرتبطة بها.

ساهمت عدة عوامل في إنتاج هذه المؤسسة، ترتبط في مجملها بالظروف الأمنية التي طبعتها الصراعات القبلية أو المواجهات مع السلطة المركزية. لقد عرفت هذه الظروف تغيرا كبيرا، خاصة إبان فترة الحماية، الأمر الذي نتجت عنه دينامية مست وظيفية هذه المؤسسة في جوهرها.

وإذا كان ظهور إكَودَارْ يعكس مرحلة متقدمة في مسلسل تطوير المجموعات البشرية الأمازيغية للطرق التي كانت تضمن بها الأمن والحماية من مختلف الآفات الطبيعية والبشرية، فإنها تبرز كذلك التطور الذي سَمَى بهذه البناية الجماعية إلى مستوى مؤسسة ذات تنظيم محكم، يعكس تنظيما اجتماعيا مماثلا. كما تشكل هذه البنايات واحدة من مظاهر تأقلم الإنسان مع محيطه الطبيعي والاقتصادي والاجتماعي. لذا، فكلما طرأ تغير على هذا المحيط، إلا وأرخى بظلاله على مؤسسة بأكَادِيرْ، الأمر الذي جعل من هذه الأخيرة مرآة لمحيطها.

---

(1) – تجمع على صيغتي إكَدارْ أو إكُودَارْ، ومفردها أكَادير، أما أمازيغ قرية الذويرات بالجنوب التونسي وأمازيغ جبل نفوسة بليبيا فيسمونها "أغْسْرُو" (جمعها إِغْسْرَ)، لكن هذه التسمية المحلية الأصلية لم نعثر لها على أثر – في حدود اطلاعنا – في الدراسات التي تناولت المخازن الجماعية بالمنطقة، والتي تنعتها باسمها العربي الواسع التداول، وهو "القصر".

استنادا إلى ما سبق، ومن خلال الوقوف على إكَيدَارْ أَمْطْضِي وضاحيته، سنحاول في هذا المقال رصد الدينامية التي عرفتها البنايات الجماعية بهذه المنطقة الواقعة في السفوح الجنوبية للأطلس الصغير الغربي، والتابعة إداريا لإقليم أكَلميم. وحصر الدراسة في هذا المجال ليس اعتباطيا، إذ يمكن أن نتتبع فيه أهم التحولات التي عرفها هذا الصنف من البنايات الجماعية في الجنوب المغربي، عبر تاريخها الطويل، منذ بداياتها إلى توظيفها الحالي في النشاط السياحي، والذي بدأ يحولها تدريجيا إلى بنايات متحفية تراثية. يثير هذا الموضوع تساؤلات عدة ترتبط أساسا بأنواع إكُودَارْ (أو إكَيدَار) ووظيفتها: فماذا نعرف عن تاريخها بالمنطقة موضوع الدراسة ؟ وأين تتجلى الدينامية التي عرفتها سواء قبل فترة الحماية أو بعدها؟ وما هي أوجه التشابه والاختلاف بين دينامية إكُودَارْ منطقة أَمْطْضِي ومثيلاتها في باقي المجال المغربي؟

I - التعريف بأكَادِيرْ

يحيل اسم أكَادِيرْ في اللغة الأمازيغية المغربية على الجُدران وعلى أشكال مختلفة من البنايات منها : الحصن والمخزن الجماعي والقرية المحصنة والمنزل المحصن والقصبة، قاسمها المشترك تصميم البناية وفق وظيفة دفاعية وأمنية، لكن لكل منها مميزاتها الخاصة. وسنقتصر في هذا المقال على صنف واحد من هذه البنايات، وهو الذي يصطلح عليه اعتباطا بالمخزن الجماعي. يعرف التوزيع المجالي لكلمة أكَادِيرْ انتشارا كبيرا في الجنوب المغربي، خاصة في الأطلس الكبير الغربي والأطلس الصغير وسهل سوس، في حين تقابلها كلمة إغْرْمْ في الأطلس الكبير الأوسط والشرقي والأطلس المتوسط والجنوب الشرقي من تَازْنَاخْتْ إلى تَافيلالْتْ. كما نجدها أيضا بصيغة التصغير تَكَادِيرْتْ /جمعها تِكِيدَارْ أو تِغْرْمْتْ / جمعها تِغْرْمِينْ (2).

وكلمة أكَادِيرْ لها تاريخ عريق، إذ نجدها اسما قديما لعدد من القرى المغربية، ومنها أيضا اسم المدينة السياحية المغربية المعروفة، أكَادِير، التي أخذت اسمها، دون شك، من القصبة القديمة، (أكَادِيرْ أوفْلاَّ)، التي شكلت النواة الأولى للمدينة.

يبنى أكَادِيرْ على أشكال هندسية مختلفة منها المربع والمستطيل والدائري، أو حسب ما يمليه الوضع الطبوغرافي لموضع البناية. ورغم أنه يكون دائما مسوّرا، إلا أن أبراج

(2) – صدفي أزايكو، مادة أكَادِير، معلمة المغرب، الجزء الثاني، 1989.

المراقبة ليست قاعدة ثابتة، إذ لا نجدها في بعض الحالات. أما طبقاته فقد تصل إلى ستة، كل واحدة منها تحتوي على غرف مفتوحة نحو الداخل، وهي التي تخصص لخزن مدخرات الأسر ونفائسها. ويمكن أن تكون لبعض العائلات أكثر من غرفة، حسب وضعها الاجتماعي أو الاقتصادي.

أما ملكية أكَادِيرْ فهي دائما جماعية، قد تكون محصورة في سكان قرية واحدة أو تتعداها إلى ساكنة مجموعة من القرى المتجاورة، وقد تكون في ملكية قبيلة بأكملها. كما أن الجماعة المالكة للمخزن الجماعي تسمح أحيانا لأفراد من قبيلة أخرى أن تمتلك غرفا في حصنها، شريطة احترام الأعراف الجاري بها العمل.

إضافة لفضاء التخزين[3] ذي الوضع العقاري الخاص، تتوفر غالبية إكُودَارْ على مرافق جماعية منها: المسجد، وخزان أو خزَّانات الماء (تَنُوضَفِي)، ومسكن الأمين، ومكان لتجمع الحراس وممثلي القبيلة، المعروفين بإنْفْلاَسْ، وفضاء مخصص للماشية والدواب. إضافة لذلك، يحتوي البعض منها على أماكن لتربية النحل ومطبخ وميضة، وفي بعض الأحيان على ساحة صغيرة للتجارة وتبادل البضائع[4]. وقد نجد بها أيضا ورشة حدادة ومحل صياغة، غالبا ما يستغلها الحرفيون اليهود. وفي بعض الأحيان، يخصص مجال خارج السور الداخلي للصبار الشوكي أو الأركان أو اللوز أو الخروب ليمثل حزاما أمنيا إضافيا يحيط بالبناية.

تعتبر إكيدَارْ مؤسسات جماعية يُقنن تدبيرها بأعراف، غالبا ما تكون مكتوبة، وتحيط بها هالة من القداسة والاحترام. كل ذلك لضمان حسن تسييره، مع ما يقتضيه من امتثال الأفراد لما تقرره الجماعة (مجلس إِنْفْلاسْ) خدمة للمصلحة المشتركة ودرء الخطر بطريقة جماعية. فإذا كان حق ملكية الغرف مقدسا وخاصا لكل فرد، فإن حق الانتفاع به يخضع لضوابط صارمة ومقننة جماعيا بالقانون المحلي (أَزْرْفْ) الذي يسهر الأمناء على تطبيقه وتحيينه إذا اقتضت الضرورة ذلك. وفي هذا رمزية كبيرة على اندماج الفرد في جماعته.

---

(3) – نقصد بفضاء التخزين مجموع الغرف المكونة لأكَادير.

(4) – تظهر الأهمية التجارية للمخازن الجماعية بوضوح في قصور الجنوب التونسي حيث الغرف تنفتح على ساحات واسعة، كانت بمثابة السوق التي تستبدل فيها السلع .أما في الجنوب المغربي فنادرا ما نجد بالمخازن الجماعية مكانا مخصصا للنشاط التجاري.

II - ظروف إنتاج إكُودَارْ

1- الإطار والظروف العامة

نال موضوع أصل إكُودَارْ أو "المخازن الجماعية" اهتمام العديد من الباحثين، وسنفرد بدورنا دراسة خاصة لتاريخها بالجنوب المغربي[5]. وقد ارتأينا إعطاء لمحة عن نشأتها بمنطقة أَمْطّضِي، لأن الحديث عن ديناميتها يقتضي، لأسباب منهجية، وضعها في إطارها التاريخي العام، لأن التحولات التي عرفتها ناتجة أساسا عن تغير الظروف التي أفرزتها.

من المعلوم أن بعض الدراسات حاولت فهم ظروف نشأة "المخازن الجماعية" وتَرَكُّز انتشارها بالمجالات الجنوبية لشمال إفريقيا. ومن التفسيرات المتداولة بكثرة في هذا الصدد، تلك التي ربطت هذا الانتشار بالوضعية الأمنية لهذه المجالات، خاصة الاضطرابات الناجمة عن وصول القبائل العربية البدوية إليها إبان القرن الخامس الهجري. ومن الأدلة التي يُستدل بها لتبرير هذا الرأي كون واحد من أقدم "المخازن الجماعية" في الجنوب التونسي، وهو قصر[6] زناتة (أو القصر القديم) بضاحية تِطَّاوِينْ، بني في أواخر هذا القرن[7]. كما يُستدل أيضا بكون أولى قوانين إكُودَارْ (اللّوح) بالجنوب المغربي وصلتنا محررة باللغة العربية، وأقدمها حتى الآن يعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (أَكَادِيرْ نْ أُجَارِيفْ).[8]

يصعب تعميم هذا التفسير على كل المناطق الأمازيغية التي تنتشر فيها إكودَار، لأن الهجرات العربية لم تحدث الاضطرابات في كل مناطق انتشار هذه البنايات. كما أن هذه الأخيرة لم تصل درجة الإتقان في البناء والتدبير فجأة، بل عبر تراكم تاريخي للخبرات.

وهكذا، فالأدبيات العلمية المتداولة غالبا ما تربط بداية إكُودَارْ بالمغرب، وبدول شمال إفريقيا عامة، بدواعي أمنية محضة. وانسجاما مع هذا الرأي، تكاد الدراسات تحصر دورها في خزن المواد الفلاحية والنفائس، بينما دورها لا يقتصر على هذا وحده. هذه

(5) – تطرقنا إلى هذا الموضوع في مقال سينشر ضمن أعمال الندوة الدولية التي نظمها المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية حول موضوع "إكُودَارْ: تثمين التراث المادي"، بتارودانت أيام 25-24 شتنبر2010، (قيد النشر).

(6) – يطلق القصر في الجنوب التونسي على المخازن الجماعية المشهورة في المغرب باسم أكادِير.

(7) - André Louis; 1971; 124.

(8) – تكتسي نشأة "المخازن الجماعية" أهمية بالغة .حاولت فرضيات تفسير هذه النشأة، ومن أشهرها فرضية Dj. Menie التي تعيد أصل نشأة المخازن الجماعية لقبائل الرحل التي دفعتها الحاجة إلى البحث عن مكان للتخزين إبان فترات انتجاعها .غير أن هذا الرأي يفتقد إلى أدلة مقنعة.

المقاربة تتبني على اعتبار أكادِيرْ مخزنا للمؤن والنفائس تمتلكه مجموعة بشرية تدُود عن حوزته بشكل جماعي، غير أن هذه البنايات/المؤسسات تقوم بأدوار أخرى يأتي في مقدمتها كونها مقرا لتدبير الشأن العام المحلي من طرف ممثلي القبيلة، علاوة على اضطلاعها بأدوار اجتماعية ودينية.

تبقى ظروف نشأة أكَادِيرْ غامضة. ويبدو أنها مرتبطة، أساسا، بتطور بنيات المجموعات البشرية الأمازيغية بشمال أفريقيا، والتي كانت تحتاج في بعض مراحلها التاريخية إلى تأسيس آليات تنظيمية على مستويات عدة :

- أولا، توثيق التشريع المحلي وضوابطه القانونية : يترجم لوح أكَادِيرْ جانبا منه، فضلا عن كون أكَادِيرْ مكانا للنطق بالأحكام، بل وتنفيذها أحيانا، وهذا ما يضفي على هذه المؤسسة طابعا تشريعيا و قضائيا.
- ثانيا، المستوى الأمني : كانت الصراعات القبلية والتوترات مع السلطة المركزية تجعل القبائل في حاجة دائمة إلى طريقة آمنة لحفظ النفوس والنفائس وحمايتها بطريقة جماعية، وهذا ما يضطلع به أكَادِيرْ.
- ثالثا، المستوى الاقتصادي: كانت الساكنة في حاجة إلى تقنين أفضل لاقتصادها المحلي، وهذا ما يضطلع به أكَادِيرْ لكونه مؤسسة تضمن التدبير الأمثل لاقتصاد معاشي مهدد بالتقلبات المناخية.

نعتقد أنه لا يمكن الفصل بين كل هذه المستويات عندما نبحث عن أسباب ظهور مؤسسة أكَادِيرْ بالجنوب المغربي، بل وحتى المؤسسات المشابهة له بباقي مناطق شمال إفريقيا.

2 - ظروف نشأة إكُودَارْ بمنطقة أَمْطْضِي

يمكن أن نرجع تاريخ إكُودَارْ بهذه المنطقة، استنادا إلى الرواية الشفوية، إلى بداية العصر الوسيط. المؤشر على ذلك أن حدث خراب مدينة تَمْدُولْتْ، في حوالي القرن الثالث الهجري، تربطه الرواية الشفوية المتداولة في الجنوب المغربي ب **علْي أَمْنْصَاكْ** زعيم "أكَادِيرْ أوخْضَيْرْ" ، نسبة إلى "تَارْكَا أو خْضَيْرْ"، إحدى المداشر المكونة لجماعة أَمْطْضِي.

نعتقد أن السفوح الجنوبية للأطلس الصغير الغربي، حيث يوجد بها هذا الحصن، كانت لها مكانة استراتيجية في بداية العصر الوسيط[9]. فبها نجد قلعة تسمى "تِكِمِّي أُو كَلِّيدْ = منزل الملك"، والتي ترجح الدراسات الأولوية التي اهتمت بها أن تكون حصنا موحديا[10]. ويبدو من موقعها المختار بعناية أنها تراقب ممرا استراتجيا. فوجود هذه القلعة على مقربة من "أكَاديرْ أوخْضَيْرْ"، يجعلنا نعتقد أن هذين الحصنين لعبا أدوارا تاريخية في بداية العصر الوسيط، قد يكشف البحث الأركيولوجي الذي بدأ بموقع هذه القلعة جانبا منها في المستقبل القريب.

وفضلا عن هذين الأكَاديرَيْنِ الذين بصما التاريخ المحلي المحكي، تنتشر بمحيط قرية أَمْطْضي بقايا بنايات جماعية في أماكن محصنة طبيعيا، يطلق عليها إسم أكَاديرْ مثل أكَاديرْ إِيْمَرِيرْنْ وأكَاديرْ نْ تْرُومِيْتْ (المعروف كذلك بأكَاديرْ مْهْدِي) وأكَاديرْ إِرْشْكَنْ وغيرها. ويفهم من الروايات الشفوية المتداولة أن هذه البنايات كانت قرى محصنة، ما تزال الكثير من معالمها ماثلة للعيان كالمساكن والبيادر وغيرها. وتتحدث الذاكرة الجامعية عن هذه الحصون كمساكن قديمة للمجموعات البشرية التي قطنت المنطقة منذ ما يقرب من ستة قرون، وإلى هذه المجموعات تنتسب الأفخاذ الأصلية المكونة لساكنة أكلُّويْ مثل إمَاريرْنْ وإدْ شَاوُّو. ويستشف من هذا أن أولى البنايات الجماعية التي حملت اسم أكَاديرْ بالمنطقة، كانت على الأرجح قلاعا أو قرى محصنة. بعد هذه الأخيرة، وعلى أنقاض بعضها[11]، بنيت" المخازن الجماعية "التي على رأسها أكَادِيرْ نْ أكَلُّويْ وأكَادِيرْ نْ إدْ عِيسَى.

3 – ظهور أكَادِيرْ نْ أكْلُويْ وأكَادِيرْ نْ إدْ عِيسَى

يعتبران من أشهر "المخازن الجماعية" بالمنطقة. ليس تمة شك أن أكَلُّويْ هو الأقدم، وتسميته في الوثائق المحلية بأكَادِيرْ يعقوب، يرجح الرواية التي تقول أنه بني على أنقاض

(9) – نعتقد أن المكانة الإستراتيجية لهذه المنطقة لها علاقة بموقعها، الذي من خلاله يمكن مراقبة واحدة من أهم الممرات التي تخترق الأطلس الصغير الغربي في اتجاه الهوامش الصحراوية .وباستحضار الأهمية الاقتصادية لهذه المناطق في تجارة العصر الوسيط، قد نفهم جانبا من الأهمية التي كانت لهذه المنطقة.

(10) – يعجاء هذا في اللقاء العلمي الذي نظم سنة 2009 بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث من طرف فريق البحث المغربي الإسباني الذي هو بصدد إنجاز دراسة حول هذا الموقع، في إطار مشروع علمي يسمى "واد نون–تكنة".

(11) – بني أكَادِيرْ ن أوكَلُّويْ على أنقاض أكَادِيرْ آخر كان يسكنه أجداد إدْ شَاوُّو، من أقدم ساكنة أَمْطْضِي، وتسميه الوثائق المحلية باسم أكَادِيرْ نْ يَعْقُوب.

أكَادِيرْ عريق في القدم. كما أن الموقع الاستراتجي لأكَادِيرْ نْ أكَلُّويْ لا يمكن أن لا يثير انتباه الساكنة القديمة للمنطقة بدليل اللوحات الصخرية التي نقشت على مقربة منه، والتي تبرز بجلاء قدم الاستقرار البشري بمحيطه.

أما أكَادِيرْ نْ إدْ عِيسَى فيعود بناءه إلى مرحلة تاريخية متأخرة كان فيها الصراع على أشده بين مجموعتين : إدْ شَاوُّو، المستقرين الأوائل بأَكَلُّويْ، وإدْ عِيسَى الوافدين الجدد على المنطقة. فحسب ما تحكيه الرواية الشفوية، فقد سمح إدْ شَاوُّو لكل من حَمُّو أوعِيسى وعَلِي أوعيسى القادمين من أَيْتْ وَافْقًا (ناحية تَافَرَاوْت) بالاستقرار بجوارهم عند سافلة واد بُولْقْوَاسْ. مع مرور الزمن، أخذ عدد إدْ عِيسَى في التزايد، مما جعلهم يدخلون في صراعات دامية مستمرة مع إدْ شَاوُّو المستقرين الأوائل بالمنطقة، انتهت بطرد إدْ شَاوُّو لهم نحو قرية أدَايْ المجاورة، والتي قضوا بها مدة سبع سنوات، قبل أن يعودوا إلى أَمْطْضِي بعد وساطة صلح كان وراءها أحد الصلحاء المحليين. في هذه الظروف المتسمة بالحذر وبالهدوء النسبي، بنى إدْ عِيسَى مخزنهم الجماعي، خاصة وأن تعاطيهم للترحال وتربية الماشية جعلهم يشعرون بأمس الحاجة إليه[12]. وهكذا لا يستبعد أن يكون إدْ عِيسَى قد استلهموا أشياء من أكَادِيرْ ن أكلُّويْ أثناء بناءهم لحصنهم.

يتضح مما سبق أن ظروف نشأة إكُودَارْ بهذه المنطقة كانت أمنية واقتصادية واجتماعية، غير أنه بتغير هذه الظروف ستعرف هذه المؤسسات دينامية بوثيرة متسارعة.

III – دينامية إكُودَارْ منطقة أَمْطْضِي قبل فترة الحماية وخلالها

قبل إحكام الاستعمار الفرنسي قبضته على المنطقة عرفت البنيات الاجتماعية والاقتصادية وأنماط العيش تغيرات جوهرية انعكست على كل مناحي الحياة العامة، ومن بينها إكودَارْ. غير أن الباحث يجد صعوبة عند محاولته رصد تفاصيل مختلف أوجه الدينامية التي عرفتها هذه البنايات قبل فترة الحماية، لأننا لا نملك معطيات دقيقة عنها، ماعدا ما تختزنه الذاكرة الجماعية عن طريق الرواية الشفوية أو ما تشهد عليه أطلال البنايات، وإن كان مظهرها العام لا يسمح باستخلاص الشيء الكثير.

(12) – ما تزال ملكية الأرض والماء تشهد على أن إدْ عيسَى ليسوا من الساكنة الأصلية لأَمْطْضِي. فهم يملكون نسبة قليلة من الأراضي، أما حصتهم من ماء الساقية فهي 10 نوبات (تِيرَامْ) مقابل 18 لإد شاوّو. كما أن التراتب الاجتماعي عند إد عيسى ما يزال يعتمد على ثنائية المستقرون "يطلق عليهم محليا إمَازِيغَنْ" والرحل.

أما خلال الفترة الاستعمارية، فمن المعلوم أن إكُودَارْ كانت رمزا لمقاومة القبائل، وهو ما يفسر تعرض بعضها للتدمير من طرف القوات الفرنسية. كما أن ارتباطها بالبنيات الاجتماعية والاقتصادية المحلية، والتي عرفت خلال فترة الحماية تحولات كبيرة، ساهم في التعجيل بتهميشها والتخلي عنها.

وعموما يمكن الحديث في مرحلة ما قبل الحماية عن دينامية نتج عنها اندثار إكُودَارْ، ارتباطا بالأحداث الأمنية، وبناء أخرى على أنقاض بعضها، ستعرف هي الأخرى تحولات خلال الفترة الاستعمارية.

1- اندثار إكُودَارْ فترة ما قبل الحماية :

توجد بمنطقة أَمْطَضِي ومحيطها عددا من إكُودَارْ التي خربت في فترات لم تستطع الذاكرة الجماعية تحديدها، رغم أن أجزاء منها -خاصة الأسوار- ما تزال قائمة. ويظهر من شكل بنائها أنها بنايات قديمة جدا، تشبه تلك التي نجدها بكثرة في السفوح الجنوبية للأطلس الصغير وجبل باني، وتنسبها الذاكرة الجماعية إلى الرومان (إِرُومِينْ) أو البرتغال (بْرْدْقِّسْ). فرغم أن أسرار هذه البنايات ما تزال مجهولة في جزء كبير منها، فإنه من المرجح أن يتعلق الأمر بقلاع أو مخازن أو قرى صغيرة، لأنها جد محصنة طبيعيا ومبنية بالحجر وتحتوي على سورين، كما تتموقع غالبا في رأس إفريز عال. لقد سبق للباحثة مونيي أن لاحظت أن المخازن الأكثر تحصينا هي التي عرفت الاندثار[13]، لكن هل كل البنايات التي تحمل اسم أكَادِيرْ كانت مخازن جماعية؟

حسب الرواية الشفوية، تضم المنطقة على الأقل خمسة إكُودَارْ مخربة، يمكن إدراجها ضمن هذا الصنف العتيق من الحصون، منها أكَادِيرْ نْتْرُومِيتْ، والمسمى أيضا بأكَادِيرْ مهدي. نفس الأكَادِيرْ يحمل أيضا اسم أكَادِيرْ إِرُوهَانْ والمنسوب للحضور اليهودي بالمنطقة. ومنها كذلك أكَادِيرْ نْ سِّي الحَاجْ وأكَادِيرْ نْ إِرْشْكَ إضافة إلى تَكَادِيرْتْ نْ لْعِينْ وأكَادِيرْ نْ إمَارِيرْنْ بإِصْضَانْ.

وحده هذا الأخير، احتفظت الذاكرة الجماعية بظروف خرابه، والتي تعود إلى فترة الصراع بين مجموعتين بشريتين متجاورتين، إمَارِيرْنْ و إدْ شَاوّو، كانتا تتقاسمان المجال. فالمجموعة الأولى كانت تمتلك حصن إِصْضَانْ، بينما تمتلك الثانية حصن يعقوب أو

(13) - DJ. Jaques-Meunier; 1949; p. 134.

أكلُّويْ. وتحكي الرواية الشفوية كيف تفاقم الصراع بين المجموعتين المتجاورتين بسبب التنافس على الموارد الطبيعية (الماء والمراعي، وربما حتى معدن النحاس الموجود بتَاوْرِيرْتْ نْ وَانَاسْ)، التي تتركز على واد بُولْقْوَسْ، الذي يمكن اعتباره شريان الحياة بالمنطقة. وهكذا عزم إدْ شَاوّو على تخريب أكَاديرْ إمَارِيرْنْ، وهو ما تم بالفعل[14]. وعموما نعتقد أن أسباب اندثار أقدم إكُودَارْ منطقة أَمْطَّضِي، والهوامش الصحراوية المجاورة لها، قد تعود إلى ثلاث عوامل أساسية:

- أولاها يتمثل في التغيرات المناخية التي عرفتها الهوامش الصحراوية .فهذه المجالات شهدت فترات جفاف متتالية أدت إلى مجاعات كبيرة، وربما صاحبتها أوبئة، مما اضطرت معه بعض المجموعات البشرية إلى الهجرة والتخلي عن حصونها. وهذا الرأي تؤيده كتابات الباحثة موني عند تفسيرها لأسباب اندثار أقدم إكودَارْ الجنوب المغربي.
- ثانيها، وله علاقة بالعامل الأول، أن توالي فترات الجفاف ونقص الموارد احتدمت معه الصراعات القبلية. فالدراسات ترجع ظاهرة خراب إكودَارْ، في جزء كبير منها، إلى هذه الصراعات، كما حدث لحصن إمَارِيرْنْ.
- ثالثها راجع بالأساس إلى حملات القياد المحليين وإلى حَرْكَاتْ المخزن. فإكودَارْ لم تكن فقط مكانا لحفظ المحاصيل والأشياء الثمينة، بل هي في منظور السلطة المركزية وممثليها (القواد) بمثابة بؤر مقاومة القبائل، ولإخضاعها يتوجب تخريب حصنها. وهي نفس الإستراتيجية التي تبناها المستعمر الأوروبي.

(14) - تحكي الرواية الشفوية أن خطة إدْ شَاوُّو كانت هي استغلال حق المرأة في ولوج أكادير. فبما أن امرأة من إمَارِيرْنِ كانت متزوجة بإحدى رجال إدْ شاوُّو ومن حقها ولوج أكاديرْ، فقد تم تجهيز بغلتين برجال مسلحين بطريقة لم تثر شك حراس الحصن. وهكذا استطاع هؤلاء المسلحون تخريب أكاديرْ إصْضَانْ وتصفية إمَارِيرْنِ ماعدا امرأة أصلها من إفْرَانْ الأطلس الصغير المجاور، التي تمكنت من الهروب وهي حامل بابنها ومعها 60 مثقال من الذهب. وحسب محمد أمَارِير، فإن أسرته تملك وثيقة تؤرخ لهذا الحدث الذي يعود إلى حوالي 3 قرون.



أكادير بناحية أمطضي (أكادير نْ تِكُدّا) خربه كَيلُّولْ، قائد الحسن الأول.

2 - تحولات إِكودَارْ منطقة أَمْطْضِي إبان الفترة الاستعمارية

شكلت إِكُودَارْ رمزا لمقاومة المستعمر الفرنسي، الذي استهدفها بالمدفعية الثقيلة وبالطائرات، كما حصل لبعض حصون أَيْتْ عَبّْلاَّ. أما القبائل التي استسلمت للمستعمر، فقد تجنبت مخازنها الجماعية هذا المصير. وبفرض السلطات الاستعمارية لقوانينها، ستتأثر مؤسسة أَكَادِيرْ التي كانت تضطلع بدور كبير في تدبر الشأن المحلي.

رغم هذه التحولات التي مست المستوى الأمني والسياسي والسوسيو-اقتصادي إبان الفترة الاستعمارية، استمرت المخازن الجماعية بالمنطقة في الاضطلاع بوظيفتها، وإن تحولت من طابعها الاجتماعي والسياسي والدفاعي-التخزيني إلى الاقتصار على وظيفة التخزين لوحدها. ففي هذه الفترة، بدأت الحراسة المشددة لأَكَادِيرْ نْ أوكلُّويْ في التراجع، وبدأ معها العد التنازلي للتخلي عن وظيفته، انتهى بتخلي الساكنة عن استغلاله، بشكل جماعي[15]، في بداية السبعينيات، ليظل بعد ذلك مهجورا إلى أن بدأ توظيفه في النشاط السياحي، كما سنرى لاحقا.

أما أَكَادِيرْ نْ إدْ عِيسَى، فبحكم ممارسة نسبة مهمة من الساكنة التي تمتلكه لنشاط الترحال، فإن وتيرة تأثره بظروف الفترة الاستعمارية كانت بطيئة. فنمط عيش مالكيه كان يستلزم استمرار اشتغاله وحراسته[16]. ولم ترتفع وتيرة التخلي عن هذا الحصن إلا بعد الاستقلال، خاصة مع تنامي الزيارات السياحية له في نهاية الستينيات. فبسبب تردد

(15) – يحكي أهل أَكلُّويْ أن إخلاء الساكنة لغرفها بالحصن كانت بشكل جماعي، خاصة بعد موت آخر حراسه.

(16) – يبدو أن نمط الترحال ساهم بشكل فعال في الحفاظ على استمرارية أكادِيرْ في آداء دوره. ففضلا عن ما أوردناه حول أكادِيرْ نْ إدْ عِيسَى، نجد أن واحدا من أسباب استمرار اشتغال أكادِيرْ ن إدْ أوسَكَا(قبيلة إِبْرْكاكْ)، وبشكل فعال، مرتبط بالترحال الموسمي المنظم الذي ماتزال تمارسه الساكنة المالكة لهذا المخزن الجماعي.

الأجانب عليه والسماح لهم بالدخول لزيارته، اضطرت الساكنة إلى إخلاء غرفها، خوفا على ممتلكاتها.

وعموما فإذا استثنينا حالة أكَادِيرْ نْ إدْ عِيسَى، فأسباب استمرار التوظيف الجزئي للمخازن الجماعية بمنطقة أَمْطْضِي في هذه المرحلة لم تختلف في جوهرها عن تلك التي انتبهت إليها بعض الدراسات الكوليانية[17]، والتي نجملها في عاملين أساسيين:

- حفاظ المنتوجات الفلاحية التي تودع بأكَادِير على جودتها لسنوات، بل ولعقود أحيانا[18]. وبالمقابل فالتي تُحفظ في المنازل سرعان ما تتعرض للتلف.
- حفظ المنتوج الفلاحي في أكادِيرْ يساعد على تدبيره حسب الحاجة، بينما إيداعه في المنزل تترتب عنه مظاهر التبذير[19].

لم تستطع هذه الأسباب أن توقف التدهور المستمر لوظيفة المخازن الجماعية في منطقة أَمْطْضِي ومحيطها. فتغير الظروف الاقتصادية واعتماد الساكنة على موارد وأنشطة اقتصادية جديدة، بعيدا عن الفلاحة والرعي، ساهم في التخلي التدريجي عن المخـزن الجمـاعي، خاصـة أمـام نقدنـة (monétarisation) المبادلات وسهولة التزويد بالمنتوجات وتصريفها. ولهذا فاستعمال أكادِيرْ، المتموقع جغرافيا في منطقة عالية ومنيعة، لا يعدو أن يكون هذرا للمجهودات.

يتضح مما سبق أن تفاوت مستوى استغلال كل من أكادِيرْ نْ أكلُّويْ وأكادِيرْ نْ إدْ عِيسَى واختلاف وتيرة التخلي عنهما راجع أساسا إلى تفاوت أنماط العيش بين المجموعتين البشريتين اللتين تمتلكهما. وبالرغم من تغير الظروف الاقتصادية والأمنية والاجتماعية والسياسية إبان فترة الحماية ودورها السلبي على مؤسسة أكادِيرْ، فقد استطاع النشاط السياحي الذي عرفته منطقة أَمْطْضِي منذ نهاية الستينيات أن يعيد لهذه المؤسسة حيويتها، لكن في ظل واقع مغاير وبوظيفة جديدة، وهذا ما سنقف عند حيثياته.

---

(17) - Jaques-Meunier DJ. ; 1951 et 1958.

(18) – يفسر الساكنة ذلك بالتقنيات التي تبنى بها غرف التخزين، والتي يراعى فيها، بشكل جيد، التصدي لمسببات الرطوبة.

(19) – التفسير الذي يُساق لتعليل أهمية أكَاديرْ في تجنب تبذير المنتوج الفلاحي، هو أن وجود هذا الأخير بعيدا عن متناول أفراد الأسرة يضمن اللجوء إليه فقط عند الضرورة.

IV - عودة أكادِيرْ إلى الحياة العامة وأبرز معالم حركيته

تضافرت عدة عوامل لتعيد إدماج مؤسسة أكادِيرْ في الحياة العامة، غير أن هذه العودة كانت بوظائف جديدة أملتها التغيرات الجوهرية التي مست الجانب الاقتصادي والاجتماعي. ولعل أهم عامل كان وراء عودة ساكنة أمطضي إلى العناية بأكادِيرْ وجعله في صلب اهتماماتها الحالية، هو النشاط السياحي.

1 - النشاط السياحي وعودة الاهتمام بأكادِيرْ

أ - المؤهلات السياحية للمنطقة

يمتلك أَمّطّضِي مؤهلات سياحية طبيعية وثقافية مهمة. فموقعه على السفوح المشرفة على طول واد بُولّقّوَسْ الغني بشلالاته أعطى للمنطقة منظرا سياحيا جذابا. فوفرة المياه في هذه المنطقة الشبه قاحلة منحها مناخا مجهريا فريدا ومنظرا طبيعيا أخاذا، زادتهما مناظر المشاهد الفلاحية غنى وتنوعا. وشكلت هذه المؤهلات الطبيعية قوة الجذب الأولى للسياح إلى المنطقة، وبدأت أفواجهم تفد عليها للتمتع بمناظرها الطبيعية التي يقل نظيرها في مثل هذه الهوامش الصحراوية المحاذية للأطلس الصغير الغربي.

كما يزخر أَمّطّضِي بتراث ثقافي وتاريخي متنوع، تتصدره المخازن الجماعية والنقوش الصخرية. غير أن المؤهل الطبيعي هو الذي كان وراء التوظيف السياحي للتراث المعماري، الذي تأتي إكودار في مقدمته، مما ساهم في تنويع المنتوج السياحي وجلب أفواج هائلة من السياح.

ب - تطور النشاط السياحي بأَمْطْضِي

تعود البدايات الأولى للنشاط السياحي بالمنطقة إلى أواسط الستينيات من القرن الماضي. وكانت تتمثل في زيارات عابرة لأخذ وجبة الغذاء في واد بُولّقّوَسْ ذي المناظر الطبيعية الخلابة. وكان سائقو السيارات السياحية التابعين لوكالات الأسفار السياحية بمدينة أ كادِيرْ هم من يتكلفون بإعداد الوجبات في عين المكان، وخاصة قبالة الشلالات.

كان موقع أكادِيرْ نْ إدْ عِيسَى، على مدخل أَمّطّضِي وقبالة نهاية الطريق القديمة، يثير بهندسته وبموضعه المطل على واد بُولّقّوَسْ اهتمام الزوار الأجانب وفضولهم بمجرد

وصولهم إلى المنطقة. ولصعوبة زيارة هذه المعلمة التاريخية الموجودة على قمة جبلية عالية، وفرت ساكنة أَمْطْضِي للسائح خدمة الصعود إليها على ظهر الدواب وبشكل منظم.

وقد استأثر أكادِيرْ إدْ عِيسَى، لسنوات طوال، بكل الزيارات السياحية بالنظر إلى موقعه، لكن أيضا بسبب الحالة الجيدة لبنايته لما بدأت الزيارات السياحية الأولى تصل إليه، بينما كان أكَادِيرْ نْ أكلُّويْ مقفلا ومهدّما في بعض أجزائه.

ونود أن نشير إلى أن النشاط السياحي المدر للربح الذي عرفه أكادِيرْ نْ إدْ عِيسَى استفادت منه كل ساكنة أَمْطْضِي، سواء التي لها حقوق في أكادِيرْ أو التي ليست لها، ولم يسبب ذلك أية مشاكل بين ذوي الحقوق المالكين لهذا الأكادِيرْ وإخوانهم المالكين لأكادِيرْ نْ أوكلُّويْ، رغم أن صراعات تاريخية قديمة هي التي كانت وراء بناء هذا المخزن الجماعي المستقبل للسياح بكثرة. وربما كثافة النشاط السياحي هو الذي حال دون طفو هذا الصراع التاريخي، لكنه سيظهر من جديد في جوانب أخرى سنتطرق إليها في حينها.

بدأ النشاط السياحي بالمنطقة بمجيء بعض السياح الفرديين وذلك بمعية بعض الأطر الإدارية الإقليمية. وشرع الفعل السياحي يتمأسس منذ 1965 لما شرع Club Med في التعامل مع عون السلطة آنذاك - مقدم أَمْطْضِي - بهدف توفير الشاي والغذاء للسياح. تجب الإشارة إلى أنه في هذه الفترة كانت عائدات السياحة تستغل من خارج المنطقة وعلى حساب الساكنة المحلية. غير أن نقص جودة الخدمات المطعمية المقدمة أدى إلى الاستغناء عنها، ليتم الرجوع من جديد إلى الطريقة الأولى، حيث كان سائقو الحفلات السياحية يتكلفون بإعداد وجبات غذائية أثناء قيام السياح بزيارة أكَادِيرْ والشلالات[20]. وربما أمام مشكل الخدمات المطعمية تراجع أعداد السياح. ولفهم أهمية هذه الخدمات، لابد أن نستحضر أن الوصول إلى أَمْطْضِي في تلك الفترة جد شاق، لأن كل الطرق التي توصل إليه عبارة عن مسالك وعرة.

بدأت مرحلة جديدة من تاريخ الفعل السياحي بأَمْطْضِي بانخراط رئيس جماعة أَدَايْ آنذاك، والذي عرض على Club Med توفير الغذاء في أحد حقوله، لينتقل بعد ذلك إلى إيواء السياح في منزل خاص. وهكذا انتظم العمل السياحي إلى درجة أضحى نشاطا اقتصاديا مهما، يجلب كل شباب المنطقة لما يدره من أرباح مهمة. انتظمت الزيارات السياحية لتصبح أسبوعية في نهاية سنة 1968. كما عرفت هذه الفترة انتقال النشاط

(20) – تتطلب تلك الزيارات ما يزيد عن ساعتين انطلاقا من مفترق الطريق المؤدية إلى كل من أكَادِيرْ والشلالات .

السياحي من العبور إلى الإيواء وبيع الليالي السياحية إضافة إلى بيع الخدمات الأخرى، كالتغذية والإرشاد السياحي.

مقابل هذا الطلب، انتظمت الساكنة لتوفير الغذاء وبعض الخدمات خاصة كراء البغال والحمير لنقل السياح لزيارة الأكادير. وقد تسبب عدم تنظيم خدمة النقل هذه في العديد من المشاجرات والمشاكل، أدت إلى تقنين العملية عن طريق التناوب بين الممتهنين لهذه الحرفة. هذا النشاط أدرّ على الساكنة أموالا مهمة؛ فزيارة الحصن كانت مقابل 5 دراهم للسائح الواحد، وكان معدل الزيارات يصل بحصن إدْ عِيسَى إلى 50 سائحا يوميا. وتشير التقديرات إلى أن عدد الدواب التي كانت تعمل في النقل السياحي وصل آنذاك إلى ما يناهز 90 دابة. في هذه الظرفية، وأمام أهمية الأموال التي تدرها الزيارات السياحية لأكَادِيرْ ن إدْ عِيسَى، نصب رئيس الجماعة أحد أقربائه حارسا لهذا الحصن. كما أصبح يلعب دور الوسيط بين أصحاب الدواب والسياح في أداء مستحقات النقل إلى أكادِيرْ[21].

سيعرف النشاط السياحي قفزة نوعية مع تزايد أعداد وكالات الأسفار التي تبرمج أَمْطَّضِي في مسلكها السياحي. فبعد Club Med، استطاع رئيس الجماعة، الذي كان أيضا رئيسا للمجلس الإقليمي وله ارتباطات وعلاقات قوية مع النسيج الإداري والاقتصادي بكل من أكادِيرْ واكلميم، أن يجلب فاعليين سياحيين آخرين. كما سيتعاقد في بداية السبعينات مع Holidays service ومع عدد آخر من الوكالات السياحية، وهو ما ساعده على تجهيز المأوى السياحي الوحيد بالمنطقة، الذي ليس صدفة أن يختار له مكان مقابل لأكادِيرْ ن إدْ عِيسَى. وهكذا أصبح رئيس الجماعة أهم منعش سياحي بأَمْطَّضِي.

في سنة 1975، ستعرف السياحة بالمنطقة نقلة نوعية أخرى، لما قررت الجماعة القروية الشروع في بناء فندق جماعي بهدف تنمية سياحة الإقامة بعدما كانت لمدة طويلة عبارة عن سياحة العبور. هذا المشروع يترجم مدى حدة التنافس بين الفاعل المحلي (رئيس الجماعة) وبعض الأطر الإدارية[22] التي كانت توجه من بعيد النشاط السياحي وتستفيد منه. لكن رغم إتمام المشروع، فقد ظل مغلقا لسنوات عدة لأن تشغيله كان، على

---

(21) – كانت عملية الآداء في البداية تتم مباشرة مع السائح أو مع المرشدين الذين يرافقونهم، وبعد ذلك أصبح المستثمر السياحي (رئيس الجماعة) يدرج ثمن الزيارة السياحية على ظهر الدواب في قائمة الخدمات السياحية المقدمة، ويتولى هو تسديد المبالغ للذين يؤمنون خدمة النقل هذه. فقد كان يعطي صاحب الدابة وصلا مقابل كل زيارة يؤمنها، وبعد ذلك تتم المحاسبة على رأس كل أسبوع أو أكثر أو أقل، بناء على عدد الزيارات. لكن أهم مدخول، كما يؤكد أحد الممتهنين للحرفة، كان هو المبالغ الإضافية التي يقدمها السياح في كل نهاية زيارة.

(22) – خاصة من عمالة أكَلميم التي يدخل أمطضي ضمن نفوذها الإدارية.

ما يبدو، سيضر بمصالح رئيس الجماعة، المنعش السياحي الأول بالمنطقة. ظل الفندق الجماعي على حاله إلى أن نشب خلاف بين هذا المنعش ووكالة Holidays service. ولكي تستغني هذه الأخيرة على خدماته قامت باستغلال الفندق بموجب عقد كراء مع الجماعة لمدة سنتين، عرفت خلالها المنطقة انتعاشا سياحيا كبيرا. ويبدو من تشبث هذه الوكالة بأَمْطْضِي أن المنطقة كان عليها إقبال سياحي مهم.

تزامن استغلال الفندق الجماعي من طرف هذه الوكالة مع مجيء أحد المستثمرين الفرنسيين إلى المنطقة، إذ اكترى هذا الأخير النّزل الذي بناه رئيس الجماعة السابق، فازداد بذلك النشاط السياحي أهمية. هكذا تحولت المنطقة من موقع عبور على المسار السياحي أكَادير- طاطا أو أكَادِيرْ تافراوت إلى منطقة للإيواء السياحي. كما ستنتقل فيما بعد من موقع سياحي بسيط إلى مكان انطلاق جولات سياحية باتجاه تَافْرَاوْتْ وترسيم مسلك سياحي جبلي، ينطلق من أسيف بُولْقْوَسْ باتجاه تَمَانَارْتْ ومنها إلى تَافْرَاوْتْ على الأرجل ولمدة خمسة أو ستة أيام. هذا المسلك سمح لمالكي الدواب بإيجاد نشاط سياحي مهم يدر مداخيل إضافية زادت على تلك التي يتم جنيها من زيارة حصني المنطقة.

ج - أفول النشاط السياحي

مع حرب الخليج الأولى، سيتخلى المنعش السياحي عن النزل وعن برمجة المنطقة في المدارات السياحية المحلية. هذه الوضعية أدت إلى التوقف التام للنشاط السياحي وتناقص كبير في عدد السياح. بعد فترة الركود هذه، لم يعد النشاط السياحي إلى الانتعاش الذي عرفه من قبل، بل أصبح ينحصر في عدد محدود من السياح الفرديين وخاصة أصحاب المقطورات. حاليا، تنحصر فرص الشغل في المجال السياحي بالمنطقة على مسيري الفندقين واليد العاملة المرتبطة بهما، وعلى أربع مرشدين عرضيين إضافة لفرقة من البغالة لا يتجاوز عددها أربعة أفراد أو خمس.



هيمنة سياحة المقطورات على النشاط السياحي بالمنطقة

أثر هذا الوضع سلبا على عدد الزيارات السياحية التي كان يستقبلها أكَادِير، وبالتالي نقص المداخيل التي كانت السياحة تدرها على الساكنة المحلية. وهذا الوضع أملاه بالدرجة الأولى تراجع أعداد السياح، لكن أيضا حتى نوعية السياحة التي أصبحت المنطقة تستقبلها. فغالبية زوار منطقة أَمْطْضِي هم من الشيوخ الذين لم يقدروا على تحمل المشقة التي يتطلبها الصعود إلى الحصن، بل إن همهم هو التمتع بالشمس قرب سيارتهم في موقف الفندق (أنظر الصورة). كما أن التحول من سياحة العبور إلى سياحة الإقامة، أعطى للزائر الأجنبي وقتا أطول لاستكشاف المنطقة مشيا على الأقدام متخليا بذلك عن كراء البغال، بينما في السابق كان يضطر إلى كراء الدواب لزيارة الحصن والشلالات في ظرف وجيز قبل سفر العودة إلى مدينة أكَادِيرْ.

يبقى ركود النشاط السياحي أمرا غير مفهوم بدقة. فرغم تجاوز آثار حرب الخليج، لم تستطع المنطقة بعد جلب الوكالات السياحية كما في السابق. يمكن إجمال أسباب عدم استعادة المنطقة لنشاطها السياحي في ما يلي:

- ارتباط التنمية السياحية بالمنطقة بشخص رئيس الجماعة وبعض الأطر الإدارية لعمالة أكَلميم. فاحتكار النشاط السياحي المحلي على يد هذه النخبة، حرم المنطقة من نشاط اقتصادي مهم بعد تخلي أفرادها عن هذا النشاط ومغادرتهم للمنطقة.
- عدم قدرة الفاعلين المحليين والمستثمرين الجدد على إرساء مقومات النمو الساحي، وذلك لانعدام المبادرة وضعف التنافسية واكتفائهم بسياح المقطورات أو بسياح العبور.
- تدني مستوى الخدمات المقدمة وغلائها المفرط، مقارنة مع باقي الجنوب المغربي الأمر الذي لا يشجع على الرفع من نسب عودة السياح للمنطقة.

يظهر أن النشاط السياحي ساهم، في أوج المراحل التي عرفها، في التعريف بأكَادِير وفي تثمينه، الأمر الذي أوحى للساكنة بضرورة الحفاظ على هذا التراث، الذي ظل لعقود مصدرا مهما للدخل. وهذا ما انعكس على طريقة تدبير الحصن.

2- دينامية تدبير الأكادِيرْ : من القبيلة إلى فاعلين محليين آخرين

من المعلوم أن تدبير الأكادِيرْ من اختصاص القبيلة عن طريق الأعيان (إنْفْلاَسْ). فهم الذين يتولون تسييره، سواء في ما يتعلق باختيار الأمين أو تنظيم الحراسة، كما يسهرون على تطبيق القوانين التي تضمن السير العادي لهذه المؤسسة الجماعية. غير أن طريقة التدبير هذه ستعرف تحولات بعدد من مناطق الجنوب المغربي، خاصة منذ فترة الاستعمار الفرنسي، التي يمكن اعتبارها البداية الفعلية لمرحلة التخلي عن تخزين المنتجات والأشياء الثمينة بالحصن.

تعتبر منطقة أَمْطْضِي من المناطق القليلة التي تزامنت فيها نهاية الوظيفة التقليدية لإكَـُودَار، أي وظيفة التخزين، مع ميلاد أخرى جديدة حولتها إلى بنايات متحفية بفضل توظيفها المبكر في النشاط السياحي منذ منتصف الستينيات من القرن الماضي. وهكذا يمكن القول أن المخازن الجماعية بأَمْطْضِي، وبالدرجة الأولى أكادِيرْ ن إدْ عِيسَى، نموذج معبر لنجاح التحول الجذري الذي انتقل معه المخزن الجماعي من يد القبيلة إلى أيادي أطراف أخرى تتمثل أساسا في الجمعية والجماعة القروية. فالنشاط السياحي من أهم العوامل التي جعلت التدبير الأصيل لأكادِيرْ يعرف تحولات جوهرية سنقف عندها لاحقا (أجرة الأمين، الترميم، الاستغلال). كما أن انخراط شباب القبيلة في إرشاد السياح وحملهم على ظهور الدواب بمقابل مادي غيّب حق القبيلة في الإيرادات المالية التي يدرها الحصن.

أ - من القبيلة إلى الجماعة القروية

لعب الانخراط المبكر لرئيس الجماعة في الاستثمار السياحي دورا كبيرا في تدخل الجماعة في شؤون أكادير، سواء بشكل رسمي أو عن طريق استغلال النفوذ. كانت أولى الخطوات في هذا الاتجاه هي تعين أحد أقرباء الرئيس حارسا بباب أكادِيرْ نْ إدْ عِيسَى، خصصت له منحة من طرف ميزانية الإنعاش الوطني. وهكذا تم تعويض القبيلة في تعيين أمين الأكادِيرْ برئيس الجماعة. كما أن الأجرة العينية التي كانت القبيلة تؤديها سنويا لأمين أكادِيرْ عوضتها الأجرة الشهرية للانعاش الوطني. وفضلا عن هذه المنحة كان

الحارس يجني أرباحا مهمة من الزيارات السياحية دون أن تستفيد منها القبيلة، مما اضطرت معه هذه الأخيرة مؤخرا إلى مطالبة الحارس بدفع مبلغ مالي[23] يخصص للمصلحة العامة. كما كانت الجماعة أيضا وراء تخصيص برنامج الإنعاش الوطني ميزانية لإصلاح الطريق المؤدي إلى أكَادِيرْ وترميم بعض أجزاء البناية المهددة عوضا عن القبيلة التي كان على عاتقها إصلاح الأكادير.

لقد نتج عن تدخل الجماعة في شؤون أكَادِيرْ ن إدْ عِيسَى وضعية جديدة، نلمسها في ما يلي:

- قبول القبيلة تدخل رئيس الجماعة في شؤون الحصن، يجد تفسيره في استفادة ساكنة أَمْطْضِي من عائدات النشاط السياحي، خاصة خلال الستينيات والسبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، بفضل مجهودات هذا الرئيس في تطوير النشاط السياحي.
- دور الجماعة في ترميم أكَادِيرْ من ميزانية الإنعاش الوطني، ساهم في تخلي القبيلة عن الحصن، إذ لم تعد تؤدّي أجر الحارس ولم تهتم بالترميم.
- طريقة تفويت استغلال العائدات السياحية لأكَادِيرْ ما تزال مصدر نزاع بين أفراد قبيلة إدْ عِيسَى. ففي الوقت الذي ما يزال فيه أقرباء رئيس الجماعة السابق "يحتكرون" هذا الاستغلال، لم تتوقف أصوات عديدة تطالب بالدعوة إلى "دمقرطته"عن طريق إخضاع تفويضه لمزاد علني تتكافؤ فيه الفرص. وهذا ما يوحي بعودة القبيلة للواجهة لتغير الواقع الموروث من تدخل الجماعة في شؤون أكَادِيرْ. يعتبر هذا الوضع من نتائج تأثير طريقة تدبير أهل أكلُّويْ لحصنهم على جيرانهم إدْ عِيسَى. فأكَادِيرْ نْ أكلُّويْ هو السباق إلى اعتماد طريقة تفويت استغلال عائداته السياحية وإخضاعها لمنافسة شفافة عن طريق المزاد العلني.
- خضعت السومة الكرائية السنوية التي يدفعها حارس أكَادِيرْ إدْ عِيسَى إلى قبيلته لمراجعات عديدة، أوصلتها إلى 5000 درهم في سنة 2010. لكن أهمية مداخيل النشاط السياحي، رغم تراجعه عما كان عليه في بدايته، جعلت بعض الشباب يعبرون عن استعدادهم لدفع 7500 درهم سنويا. ونشير إلى أن القبيلة تستثمر هذه المبالغ في المرافق العامة، خاصة شؤون المسجد.

---

(23) – كان المبلغ في البداية 1000 درهم سنويا ليصل الآن إلى 5000 درهم سنويا.

نستشف مما سبق أن الجماعة القروية استغلت الفراغ الذي سببه تخلي" لجْماعْتْ "إدْ عِيسَى عن حصنها لتحل محل القبيلة. وقد نتج عن هذا عدم استفادة القبيلة من المداخيل المهمة التي يدرها الحصن عن طريق النشاط السياحي. فتداخل الأدوار في موضوع أكَاديرْ بين القبيلة والجماعة القروية تعود أسبابه، أساسا، إلى احتكار أحد رموز النخبة لتسيير الجماعة خلال الفترة الممتدة بين 1962 و1998، وإلى أهمية أكَادِيرْ في النشاط السياحي.

ب - أكَادِيرْ نْ أكَلُّويْ : من تدبير القبيلة إلى تدبير جمعية

عرف أكَادِيرْ ن أكَلُّويْ دينامية مغايرة للتي عرفها أكَادِيرْ ن إدْ عِيسَى المجاور. فبعد تراجع وظيفته كمخزن جماعي، والتي بدأ عدها التنازلي مع الاستعمار لينتهي في السنوات الأولى من عهد الاستقلال، أُقفل هذا المخزن الجماعي وتخلت عنه القبيلة ولم تعد تتكلف بحراسته، لكن البناية استطاعت الصمود[24]. ولما كان النشاط السياحي مكثفا حول أكَادِيرْ ن إدْ عِيسَى المجاور له، كان هو مهجورا ولم تبدأ بعض الزيارات السياحية الفردية تصل إليه إلا في نهاية الثمانينيات.

مع تنامي هذه الزيارات، بدأت الأشياء المتبقية في الحصن تتعرض للسرقة من طرف بعض السياح أو المرشدين السياحيين. كانت النقطة التي أفاضت الكأس في اهتمام القبيلة بمخزنها الجماعي هي مساعدة أحد فتيان إدْ عِيسَى، وهو آنذاك مرشد سياحي مبتدئ، لسائحة أجنبية على اقتلاع أحد أبوابه الداخلية ومحاولة بيعها لها. ففي طريقهما صادفا بجوار مسجد أكلُّويْ جماعة من الناس واقترح عليهم بيع الباب لهذه الأجنبية. أثار هذا العمل حفيظة هذه الجماعة وعاملت المرشد بقسوة واسترجعت منه الباب (أنظر الصورة أسفله).

(24) - يفسر محمد أمرير (خبير في تقنيات البناء المحلية ومن المساهمين في عمليات الترميم) صمود البناية أمام العوامل الطبيعية بأن أعمدتها الرئيسة هي الأجراف الصخرية التي تتوسطها، والتي استغلت بمنتهى الدقة في تصميم أكَادِيرْ وبنائه. إنه إحدى الأدلة على عبقرية الذين خططوا للبناية.



باب غرفة بأكَادِيرْ نْ أُكَلُّويْ، التحفة المسروقة التي دفعت الساكنة للاهتمام بالحصن

تزامن هذا الواقعة مع إنشاء جمعية محلية في نهاية التسعينات من القرن العشرين، مما جعل منها نقطة تحول جذري في تعامل القبيلة مع الحصن. فوجود هذا الإطار الجمعوي، ولو أنه أسس لهدف آخر(25)، ساهم في انتقال سلس لشأن تدبير أكَادِيرْ من القبيلة إلى الجمعية، بتكليف الأولى لهذه الأخيرة للسهر على تتبع شؤونه.

كانت أول خطوة في هذا الاتجاه هي مبادرة أحد أعضاء الجمعية بالتكفل بترميم باب الحصن وبحراسته. ومقابل هذا التطوع كان يحصل على الإيرادات القليلة التي تدرها بعض الزيارات السياحية لأكَادير. بعد ذلك استفاد أكَادِيرْ من عملية ترميم من ميزانية برنامج الإنعاش الوطني، رفعت من مستوى استقطابه للزيارات السياحية. تدخلت القبيلة من جديد لتفرض نفسها كمدبِّر للحصن، ففرضت على حارسه سومة كرائية سنوية حددت في 600 درهم للسنة. ومع تزايد أعداد الزائرين انتقلت إلى 1000 درهم، مع تعهد الحارس للقيام ببعض الإصلاحات الصغرى. طلبت القبيلة بعد ذلك رفع المبلغ إلى 1500 درهم، لكنه أمام ركود عدد الزائرين امتنع الحارس عن مسايرة هذه الزيادات المتلاحقة. اقترحت القبيلة طرح كراء أكَادِيرْ في المزاد العلني فبلغت السومة الكرائية 2000 درهم ثم 3000 درهم، لتستقر سنة 2010 في 3500 درهم.

يظهر من تعامل القبيلة مع هذا الموضوع أن سلطتها أقوى من سلطة الجمعية، وأن هذه الأخيرة أداة لتدبير المخزن الجماعي. وهو ما استوعبه الذين يتعاقبون على حراسة

(25) – الهدف الأساسي الذي أسست من أجله هذه الجمعية هو العمل على تزويد الساكنة بالماء الصالح للشرب، لكن سرعان ما تحولت إلى جمعية تخدم مصالح أهل أكَلُّوي، ومنها أكَادير.

الحصن. فالقبيلة بثقلها وبحضورها اليومي في المنطقة وبرمزيتها ودورها التاريخي في تدبير شؤون الحصن ما تزال تمارس نوعا من الرقابة المعنوية والفعلية على كل أفراد القبيلة، وإن كان تدبير الحصن موكل للجمعية. ويتضح هذا الثقل أثناء استقدام الجمعية لشركة إنتاج وطنية قصد استعمال فضاء الحصن ومحيطه لتصوير فيلم سينيمائي (انتقام) فقد تمت مطالبة الشركة بتعويض للقبيلة، الأمر الذي استجابت له الشركة ومنحتها مبلغ 5000 درهم، استغلت في ترميم المسجد. أثار ذلك حفيظة الجمعية، وسبب خلافا بين الطرفين، انتهى باسترجاع القبيلة مفتاح الحصن الذي كان لدى الجمعية.

أمام استفحال الصراع بين الجمعية والقبيلة عرض الأمر على ممثل السلطة بالمنطقة. ولتجنب المزيد من الصراعات أعاد هذا الأخير المفتاح للجمعية، التي أعادت العمل بقانون المزايدة لكراء الحصن، ليصل مؤخرا 3500 درهم استفادت منها القبيلة عن طريق الجمعية.

تجدر الإشارة إلى أن أكَادِيرْ ن أكَلُّويّ، المكون من طابقين إلى خمسة طوابق، لا يسمح بزيارات سياحية مريحة بالنظر لطريقة بنائه المتكدسة والمتلاصقة. فممراته الضيفة تقتضي الانحناء في كثير من الأحيان. كما أن ظلمة المكان تجعل الزيارة أقرب إلى مغامرة في متاهات مظلمة ورهيبة وليس إلى الزيارة السياحية المريحة. وهذه الخصوية لا نجدها في حصن إدْ عِيسَى المكون من طابقين. ورغم ذلك كله فالسومة الكرائية لأكَلوي معقولة مقارنة مع سومة كراء إدْ عِيسَى وذلك بفضل تدبير الجمعية.

هذا التداول في تدبير الحصن بين الجمعية والقبيلة يبرز بجلاء مدى استمرار تحكم القبيلة في القرار، لكن عدم استيعابها لطرق التدبير الحديثة فسح المجال للجمعية في تدبير الحصن والمصالح العامة للقبيلة عموما. ومع ذلك، فالجمعية لم تستطع بعد الحلول محل القبيلة والاشتغال باستقلالية تامة عنها، لذا فهي مطالبة بالحرص على ضمان مصالح القبيلة واحترام قراراتها، لتتحول الجمعية إلى آلية لتطبيق قرارات القبيلة وتنظيم الموارد المالية المستجدّة التي يُدرِّها الحصن. فمؤشرات عدة تبرز بجلاء استمرار القبيلة، وإن بشكل غير مباشر، في فرض رأيها في تدبير الحصن، ونلمسها في ما يلي:

- استغلال عائدات الحصن من النشاط موكول للقبيلة التي تستغله في المصالح الجماعية.

- حصر تفويت حق كراء الحصن في أفراد القبيلة.
- لجوؤها إلى المؤسسات التقليدية (المسجد-الجامع) لفض النزاعات والقيام بالمفاوضات حول الشؤون العامة.
- فرض شروطها على حارس الحصن، ومنها تكفله ببعض الإصلاحات.

ومقابل الحضور القوي للقبيلة في تدبير أمور أكَادِيرْ ن أُكَلُّويْ، نلمس تراجعا كبيرا لقبيلة إدْ عِيسَى في هذا المجال. فهذه الأخيرة لم تستطع بعد سحب مفتاح الحصن من عائلة رئيس الجماعة السابق التي احتكرت الحراسة لما يزيد عن 40 سنة. فما تزال هذه العائلة تقف في وجه القبيلة وتستمد مشروعية امتلاكها لمفتاح الحصن من كونها تسلمته من رئيس الجماعة الأسبق وليس من ممثلي القبيلة. وحتى السومة الكرائية لم تتحكم فيها هذه الأخيرة، فحارس الحصن هو الذي يقترح الثمن الذي يرضيه.

3 - دينامية إصلاح الحصن عبر برامج الترميم

عرف حصنا إدْ عِيسَى وأكَلُّويْ عمليات إصلاحية وترميمية، منذ التسعينيات من القرن الماضي. وقد أعطيت الأولوية والعناية للحصن الأول بسبب حركية النشاط السياحي به، لكن أيضا لارتباطه بمصالح النخبة السياسية المحلية التي هي السباقة إلى الاستثمار في المجال السياحي بالمنطقة. فرغم أن أكَادِيرْ ن أوكلوي هو الأقدم والأولى بإنقاذه من حالة التدهور التي كانت تهدده، وما تزال، فإن حصن إدْ عِيسَى رغم حداثته والوضعية الجيدة لبنايته حظي بحصة الأسد من تلك العمليات. كما استفادت ساكنته من هذه البرامج في محاربة البطالة وفي إيجاد فرص للشغل محليا.

أشرف خبراء البناء المحليون (لْمْعَلّْمِينْ) على أولى عمليات الإصلاح التي استهدفت حصن إدْ عِيسَى، والتي كانت الجماعة القروية تقف وراء تمويلها من ميزانية الإنعاش الوطني. غير أن العفوية كانت هي الطابع المميز لها، لذا يمكن القول أنها كانت "عمليات تجميل"، خصوصا وأن حالة البناية كانت جيدة .أما التأثير غير المباشر لهذه الإصلاحات المتكررة فنلمسه في مساهمتها، وبشكل كبير، في إعادة الحيوية لأقدم مخزن جماعي بأَمْطْضِي، أي أكَادِيرْ ن أُكَلُّوي. فكيف حصل ذلك؟

يمكن القول أن بداية اهتمام أهل أكَلُّويْ بإصلاح حصنهم راجع إلى الاهتمام الزائد الذي أولته السلطة المحلية لحصن إدْ عِيسَى، الذي يجب أن لا ننسى الظروف التاريخية

التي كانت وراء إنشائه، والمتمثلة في الصراع بين إدْ عِيسَى وأيت أوكَلوي. كانت القبيلة هي التي أخذت مبادرة الإصلاح بعد حادثة سرقة الباب التي أشرنا إليها سابقا، حيث عهدت إلى أحد الفاعلين(26) بترميم باب الحصن وخزان الماء، أي تنضفي، كل هذا في مدة وجيزة لم تتعد 3 أيام. بعد هذه العملية ضغطت القبيلة على ممثلها في الجماعة القروية وطالبته بضرورة رصد ميزانية لإصلاح الحصن كما هو حال الحصن المجاور/المنافس. هذا التنافس الغير المسبوق(27) كان بدافع رغبة السكان في زيادة مداخيلهم من السياحة. وبالفعل استجاب المجلس القروي لهذا الطلب وخصص جزءا من ميزانية برنامج الإنعاش الوطني لحصن أَكَلُّويْ، والتي كان ينفرد بها سابقا حصن إدْ عِيسَى. وبفضل هذا الدعم تم ترميم عدد من أبواب الحوانيت والجدران وتفريغ الحصن من الأتربة التي تراكمت إثر تهدم بعض الغرف. وقد ساهمت هذه الترميمات في رفع ملحوظ لمستوى الزيارات السياحية للحصن.

عرف حصن أَكَلُّويْ في سنة 2004 ترميمات على يد فريق متعدد التخصصات أشرفت عليها مهندسة مختصة. واستهدفت ترميم الأجزاء المتهدمة داخل الحصن وتَيْسِير الولوج إلى السطوح. وانطلقت المرحلة الثانية من هذا البرنامج سنة 2006 ، دامت 19 يوما، رممت خلالها ساحات البناية والأشكال الزخرفية للواجهات. وقد حاولت هذه التدخلات، قدر الإمكان، التقيد بالمعايير العلمية المعمول بها في عمليات الترميم، مثل المحافظة على أصالة البناية واستعمال مواد البناء الأصلية، غير أن الأمطار الغزيرة التي عرفتها سنة 2010 ألحقت بها أضرارا كثيرة أصبحت تهددها بالانهيار من جديد، ما لم يتم تدخل مستعجل ينقذها.

---

(26) – يتعلق الأمر بمحمد أمرير، خبير في البناء التقليدي، والذي مارس أيضا مهمة مرافق في المدارات السياحية مشيا على الأقدام، وقبلها كان يرافق السياح لزيارة أكَادِيرْ نْ إدْ عِيسَى على ظهر الدواب. وهو أول من أسندت له مهمة إصلاح أكادير ن أوكَلُّويْ وأول من عمل على إدراجه الفعلي في المدار السياحي لأمْطَضِي.

(27) – يجب التذكير أن أهل أكلويْ كانوا في البداية غير مكثرين باستغلال حصنهم في النشاط السياحي، لأنهم كانوا يستفيدون من النشاط السياحي المكثف الذي عرفه أكَادِيرْ إدْعِيسَى، لكن مع مرور الوقت تولدت لديهم الرغبة في ذلك.

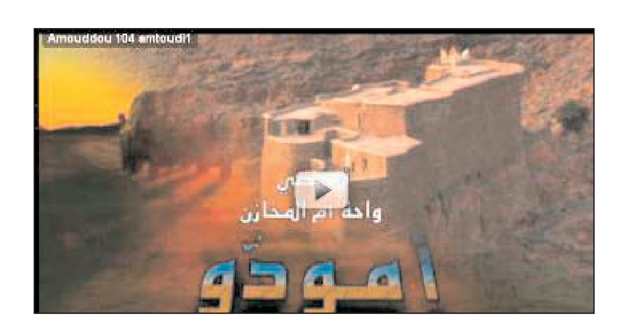


سبورة إشهارية تبرز مشروع ترميم الحصن

وتبقى حالة إِكودَارْ أَمْطَضِي فريدة، فقد استطاعت حصون المنطقة بفضل الإشعاع السياحي لها ودينامية نخبه أن تجلب عددا مهما من برامج الترميم في وقت تعاني حصون أخرى جنوب المغرب، لها قيمة تاريخية وعمرانية ومعمارية مهمة، من غياب الترميم.

4 - الصناعة السينمائية والإنتاج السمعي البصري بإِكودَارْ أَمْطْضِي

بالنظر إلى ما تدخره المخازن الجماعية لهذه المنطقة من تراث معماري وحضاري، ونظرا كذلك للإقبال السياحي المتزايد عليها، اتُّخذت موضوعا لإنتاجات وثائقية. وفي هذا الإطار خصص لها برنامج أَمُودُّو ثلاث حلقات (104 و105 و107) ركزت على التدبير التقليدي لأكَادير، وعلى المؤهلات السياحية والطبيعية والثقافية للمنطقة، وخاصة على حالة التدهور التي تعرفها هذه المخازن الجماعية. عنونت الحلقة الأولى ب "أَمْطْضِي واحة أم المخازن"، والثانية ب "واحة الدرقاويين"، والثالثة ب "أَمْطْضِي أمل واحة".



كما خصصت لها قناة الجزيرة الوثائقية برنامجا تحت عنوان "إكَودَارْ من الأمن إلى التنمية". قامت شركات إنتاجية أوروبية بإعداد برامج وثائقية حول الحصنين، لكن ساكنة أَمْطْضِي المتتبعة لحضور تراث بلادهم في الفضائيات لم يرو بعد أي أثر لهذا. وحده فيلم "الانتقام" الذي صورت أحداثه بأكَادِيرْ أكلُّويْ من طرف شركة إنتاج وطنية، هو الذي تم عرضه وتفتخر به ساكنة أَمْطْضِي. لقد أصبحت هذه المخازن كذلك وجهة لفناني الأغنية الأمازيغية التي تستعمل تقنية "فيديو كليب" كما هو حال مجموعة "أَرْشَاشْ"، التي توظف هذا التراث الأمازيغي في غنائها.

ساهم كل هذا في إشعاع إعلامي للمنطقة، وخاصة لمخازنها الجماعية. غير أن تأثير هذا الإشعاع يبقى محدودا مقارنة مع الذي حققه الإنتاج السينمائي العالمي لنماذج أخرى من التراث المعماري الأمازيغي، كقصبة أيت بن حدّو (عمالة ورزازات) أوأكادِيرْ ن إينُومَّارْ (عمالة اشتوكة أَيْتْ بَهَا)، والتي منحتها السينما الدولية إشعاعا دوليا ساهم بقدر وافر في دينامية المنطقة، إن على المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي أو المجالي والثقافي. وحتى تجربة المخازن الجماعية في الجنوب التونسي عرفت التجربة نفسها. فقصر (أي أكَادِيرْ) حْدَّادَة الذي صورت فيه وقائع من الفيلم السينمائي العالمي "حرب النجوم" حوله إلى معلمة سياحية فاقت شهرتها باقي قصور الجنوب التونسي.

خاتمة

كانت إِكودَارْ أمْطْضِي قبل فترة الحماية، كما هو الحال في غيرها من المناطق، بمثابة شريان الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لساكنة المنطقة، نظرا للظروف الأمنية والاقتصادية السائدة آنذاك. أما اليوم، وبفضل ما يختزنه هذا المعمار من عناصر تراثية، مادية كانت أم لامادية، فقد خلقت هذه البنايات/المؤسسات دينامية واضحة بالمنطقة لم يتوقف نشاطها بعد.

فنظرا لما تختزنه إِكَودَارْ من تراث ثقافي وتاريخي، استطاعت أن تجلب أنظار السياح واهتمام المنعشين السياحيين وبرامج الترميم وشركات الإنتاج السينمائي والوثائقي، إضافة إلى عناية خاصة للسلطة المنتخبة بهذا التراث المعماري الأمازيغي. وكان هذا وراء اهتمام تدريجي للقبيلة بأكَادِيرها بعد أن تخلت عنه. هكذا أضحت المنطقة برمتها تدور في فلك تحولات لها ارتباط وثيق بالرمزية التاريخية والحضارية لمؤسسة أكَادِيرْ، بعد أن تم التخلي عنه في ظل التحولات التي أحدثها الاستعمار الأوروبي الحديث ببنيات المجتمع

المغربي. غير أن اللافت للانتباه أن كل هذا الاهتمام يمكن اعتباره نتيجة لاستهلاك أجنبي للتراث الأمازيغي، بينما التثمين المحلي لتراث المنطقة يكاد يكون منعدما، لتطرح معه أسئلة جديدة: لماذا ارتبط التحول المهم الذي عرفته هذه المؤسسات بالفاعل الأجنبي؟ لماذا تم إعادة الاعتبار لأكَادِيرْ بفضل هذا الفاعل؟ ما دور الفاعل المحلي والوطني في تثمين تراثه الثقافي الأمازيغي؟

البيبلوغرافيا

- **Dupas, P**., 1929, Notes sur les magasins collectifs du Haut-Atlas occidental, Hespéris, IX, pp. 302-322.

- **Meunié Dj**., 1958, Hiérarchie sociale au Maroc pré-saharien, Hespéris, XIV, 3ème- 4ème trimestre, pp.239-269.

- **Jacques-Meunié Dj**., 1951, Sites et forteresses de l'Atlas Monuments montagnards du Maroc, Paris.

- **Jacques-Meunié, Dj**., 1949, Greniers collectifs, Hespéris, XXXVI, pp.97-133.

- **Jacques-Meunié, Dj**., 1951, Greniers-citadelles au Maroc, Publications de l'Institut des hautes études marocaines, Arts et Métiers graphiques. Paris.

- **Jacques-Meunié, Dj**., 1944, Les greniers collectifs au Maroc , in Journal de la Société des Africanistes, XIV, pp.1-16.

- **Montagne, R.**, 1930, Un magasin collectif de l'Anti-Atlas : l'agadir des Ikounka. Éditions Larousse, Paris.

- **Terrasse H.**, 1938, Kasbas berbères de l'Atlas et des Oasis, Paris, Ed. des Horizons de France.

- **Slima Naji**, 2006, Greniers collectifs de l'Atlas, édition Croisée des chemins et par Edisud

- **André Louis,** 1971, Habitat et habitations autour des ksars de montagne dans le sud tunisien, in IBLA, n° 127, 1971

- معلمة المغرب، الجزء الثاني، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر، مطابع سلا، 1989.

المخازن الجماعية بقبيلة آيت مازيغ بين الماضي والحاضر

ذ. علي علام

باحث في التاريخ

مقدمة

إن المصادر التاريخية لا تمدنا بالكثير من المعلومات عن العمارة كعمارة، سواء في الوسط الحضري أو القروي، ماعدا بعض الحالات التي لفتت فيها بعض الأبنية نظر المؤرخين بعظمتها وأبهتها وكثرة مصاريفها، فكتبوا عنها، أو في الحالات التي أراد فيها بعض المؤرخين نيل الحظوة عند ذوي السلطة، فدونوا جردا بالأعمال التي مَوَّلُوها ورعوها، ولكن هؤلاء المدونين نادرا ما تجاوزوا إعلان انبهارهم بالعمارة أو بكلفتها أو بعظمة رُعاتها إلى إبداء الرأي بها كعمارة وإثارة النقاش في أمور تدخل في صميم الوصف المعماري والفني الدقيقين والتذوق الجمالي والوعي الثقافي أو التاريخي. والكل يدرك الأسطر القليلة عن العمارة كشاهد على عظمة بُناتِها التي دونها كتاب كبار تجاوزوا معطيات عصورهم ومجالاتها المعرفية ليتناولوا العمارة الماضية والحاضرة في كتاباتهم، مثل الجاحظ وابن فضل الله العمري وابن خلدون[1]. ويزداد الأمر تعقيدا كلما تعلق الأمر بالعمارة في المجالات الأمازيغية التي نالها النسيان والتهميش.

ولعل هذه المبادرة التي أطلقها المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية والمتعلقة بدراسة وتناول موضوع "المعمار بالمجالات الأمازيغية المغربية" من شأنها إعادة الاعتبار للعمارة في المناطق الأمازيغية والكشف عن تاريخها الطويل ووظائفها، وهو ما سيكون بدون شك إضافة جديدة للخزانة المغربية وللحقل الثقافي و الفكري المغربي.

والموضوع الذي سنتناوله في هذه الدراسة هو : "المخازن الجماعية بقبيلة آيت مازيغ بين الماضي والحاضر"، الذي أنجزناه بإتباع منهج الزيارة الميدانية وإجراء المقابلات الفردية والجماعية مع سكان المنطقة وأخذ الصور الفوتوغرافية لهذه المخازن حتى نقرب الصورة أكثر للقارئ.

(1) – عن كتابات ابن فضل الله العمري، يراجع : ناصر الرباط: "مفهوم العمارة في الكتابات الإسلامية"، عالم الفكر، المجلد 34، 2006 ، ص : 9.

1 - المجال الجغرافي للمخازن الجماعية بقبيلة آيت مازيغ

تقع هذه المخازن بقبيلة آيت مازيغ، التابعة إداريا لجماعة آيت مازيغ ولإقليم أزيلال. فهي توجد عند مجال اتصال سلسلة الأطلس المتوسط بالأطلس الكبير؛ تحدها غربا جماعة بين الويدان، وشرقا جماعة تيلوكيت، وجنوبا مرتفعات الأطلس الكبير، أما من الشمال فتحدها جماعة واويزغت، تبعد عن إقليم أزيلال بحوالي 60 كلم وعن إقليم بني ملال بحوالي 70 كلم.

أحدثت جماعة آيت مازيغ بمقتضى التقسيم الجماعي لسنة 1992، وتبلغ مساحتها 140 كلم^2، مناخها حار وجاف صيفا، وبارد شتاء، يبلغ عدد سكان الجماعة حسب إحصاء 2004 أزيد من 6500 نسمة(2)، ويتوزعون على سبعة دواوير هي : آيت باخوش، آيت عيسى ويشو، آيت ايسيمور، تاكونيت، آيت احروباس، آيت ابراهيم، وآيت واحي(3). تبعد هذه الدواوير عن بعضها البعض بعدة كيلومترات، ونتيجة لغياب المسالك الطرقية المعبدة فإن أغلبها يعيش في عزلة تامة.

يعتمد سكان المنطقة على الرعي والفلاحة البورية التي تعاني الكثير من قلة التساقطات المطرية. ولوحظ في السنوات الأخيرة تنامي ظاهرة الهجرة الجماعية من هذه المنطقة إلى المراكز المجاورة، وخاصة واويزغت (حوالي20 كلم) وأفورار (حوالي30 كلم)، وذلك نتيجة قساوة الظروف المناخية وغياب التجهيزات السوسيو-اقتصادية.

2- وظيفة وهندسة المخازن الجماعية بقبيلة آيت مازيغ

يبلغ عدد هذه المخازن التي تعرف ب "إِغْرْمَانْ" ستة، حيث نجد عند كل دوار مخزنا خاصا أي "إِغْرَمْ". كانت العادة أو العرف المتبع هو المشاركة الجماعية لسكان الدوار في بناء هذه المخازن وتسييرها وصيانتها وحراستها(4).

- فماهي وظيفة هذه المخازن في الماضي و الحاضر؟
- وماهي هندستها؟ وطبيعة المواد المستعملة في بنائها؟

---

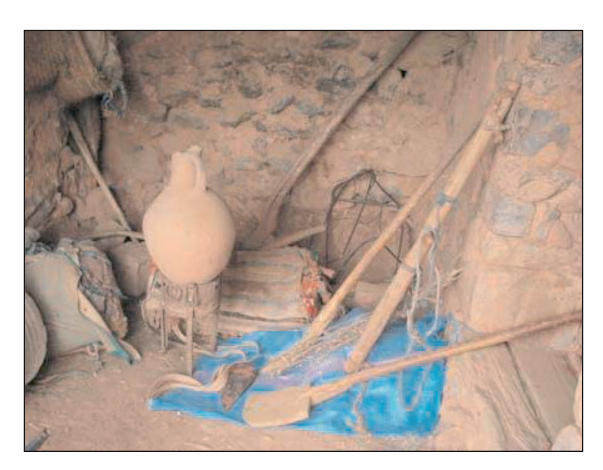
(2) - أرشيف الجماعة القروية لآيت مازيغ.

(3) - نفس المرجع.

(4) - مقابلة مع السيد خاشوني احماد (80 سنة)، وهو من سكان دوار آيت باخوش.

يرجع تاريخ بناء هذه المخازن "إِغْرْمَانْ" إلى القرن 19 م، حسب الرواية الشفهية التي استقيناها من أشخاص مسنين من سكان المنطقة والذين يفوق سنهم 80 سنة، وبالضبط خلال فترة حكم السلطان مولاي الحسن(1873-1894)[5]، فبعض هؤلاء المستجوبين يتذكرون "الريال الحسني" ويتذكرون المراسلات السلطانية التي كانت تبعث إلى هذه المناطق، كما يتذكرون جيدا دخول القوات الفرنسية إلى منطقتهم خلال العقد الثالث من القرن الماضي.

أما الأسباب التي كانت وراء بناء هذه المعالم العمرانية فهي الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي كان يمر بها المغرب عامة وهذه المنطقة على وجه الخصوص؛ فقد كان انعدام الأمن وراء بناء هذه الأبراج التي كان السكان يختارون لتشييدها أماكن مرتفعة حتى تكون في منأى عن المهاجمين واللصوص، فكانت بذلك مكانا آمنا لتخزين المواد الغذائية الأساسية (كالزيت والسكر والحبوب...). ولازالت هذه المخازن تحتفظ ببعض الأواني التي كانت تخزن فيها زيت الزيتون مثلا، والمعروفة محليا ب "تَقَلاَّلْتْ"[6]،(الصورتين1-2)، ويتم التناوب على حراستها من أعلى الأبراج الموجودة بالمبنى.



الصورة 1: "تاقلالت".

(5) – من الصعوبات التي واجهتنا خلال إنجاز هذا العمل أن سكان المنطقة لا يحتفظون بالوثائق التاريخية التي تشير إلى تاريخ منطقتهم، رغم أنهم يتذكرون وجودها عند آبائهم : مقابلة مع السيد علاوي باسو وخاشوني احماد وخاشوني علي.

(6) – "تَاقْلاَلْتْ" من الأواني المصنوعة بالطين وتستخدم لتخزين زيت الزيتون، ومنها نوع آخر يخصص لجلب الماء من العيون.



الصورة 2: "تَاقلاَّلْتْ" وبعض الأدوات المستعملة في المنطقة

وخلال فترة الحماية الفرنسية شكلت هذه المخازن مكانا مناسبا لاجتماع رجال المنطقة وتنظيم العمليات الجهادية ضد القوات الفرنسية التي بدأ تدخلها العسكري في المنطقة منذ سنة 1920م .

أما هندسة هذه المخازن، فمن خلال المعاينة الميدانية والرواية الشفهية يتبين أن بناءها كان يتم بواسطة مواد محلية (أحجار، طين، أخشاب)(7). وبالرجوع إلى تاريخ المرحلة التي تنعدم فيها المواد العصرية ويغيب فيها المتخصصون في البناء، وبالنظر إلى كون هذه المنطقة غنية بأشجار البلوط والعرعار(8)، كان يتم اللجوء إلى الغابة المحلية للتزود بالأعمدة المستخدمة في البناء وخاصة في تغطية الأسطح والسقوف. فالبناء كان إذن يتم بمواد ويد عاملة محلية.

بالطبع لم تكن فكرة "التصميم" أو "الهندسة" تعني بالنسبة لسكان قبيلة آيت مازيغ ما تعنيه بالنسبة إلينا في الوقت الراهن، بل إنهم لم يستعملوا الكلمة ذاتها أساسا، وربما لم يعرفوا المفهوم نفسه كما نعرفه اليوم كمفهوم مستقل، وكانوا في الوقت ذاته أكثر تمسكا واهتماما بالتصميم من مهندسي اليوم بشكل عام: أكثر لأنهم اعتنوا بالتصميم والتنفيذ والقياس والحساب وبقطع الأحجار ونشر الخشب أو سواه من الأعمال الحرفية في آن واحد، كعمليات متممة لبعضها البعض؛ وتعلموا ما نسميه التصميم بالتجربة وبالنقل دون أن تكون لهم دراية نظرية؛ ومع ذلك فلابد أنهم كانوا يتخذون قرارات تصميمية في عملهم مبنية على معرفتهم وتدريبهم وذوقهم ودرايتهم بالتقاليد المعمارية السابقة، ولعل هذا ما

(7) – آزْرُو، أكَّالْ، أكْشِيضْ.

(8) – يعرف البلوط محليا ب "تَاسَفْتْ"، والعرعار ب "كِيزُو" أو "شِيزُّو".

يفسر التشابه الموجود بين هندسة هذه المخازن وهندسة بعض المدن العتيقة، سواء في فاس أو في مراكش أو في غيرها من المناطق[9]، فهندسة "إغرمان نايت مازيغ" تتم بالطريقة التالية:

- اختيار مكان البناء: غالبا ما يكون مرتفعا وعلى أرضية مكسوة بالحجر.
- مقياس البناء: 10م طولا و10م عرضا.
- طابق سفلي وطابق علوي، وأحيانا نجد عدة طوابق.
- أربعة أبراج فوق زوايا السطح مخصصة للمراقبة.

يخصص الطابق السفلي لإيواء الخيل والماشية، (الصورتين 3-4) وهو مقسم إلى غرف صغيرة.





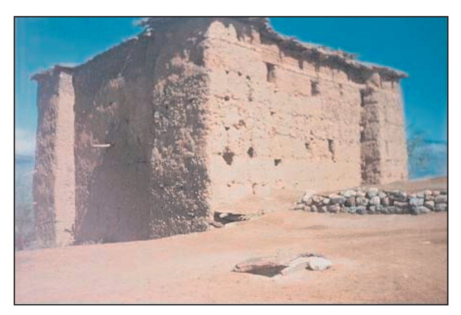
الصورتان : 3-4 طابق سفلي لإغرم نايت خاشون مخصص لإيواء الماشية والدواب

أما الطابق العلوي فهو مقسم إلى طابقين علويين يتكونان من مجموعة من الغرف الصغيرة[10] التي يتناسب عددها مع عدد الأسر المشيدة لهذه البناية.

نذكر مثلا إغرم نايت خاشون الذي شاركت في بنائه ستة أسر من الدوار (الصورة5)، وإغرم نايت واحي الذي يضم ستة أسر أيضا (الصورة 6)، وإغرم نايت إيسيمور الذي يضم ثمانية أسر (الصورة 7)، ثم إغرم نايت ابراهيم الذي يعود لخمسة أسر (الصورة 8).

(9) – حاولنا مقارنة هندسة المخازن الجماعية بآيت مازيغ بالبرج الشمالي والجنوبي المطلين على مدينة فاس والذين يرجعان إلى العصر الوسيط، فلاحظنا تشابها كبيرا في الهندسة والمواد المستعملة في البناء.

(10) – يطلق عليها محليا اسم : تَاحَنُوتٌ.



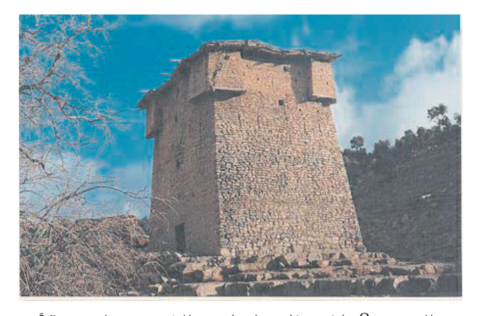
الصورة 5: إغرم نايت خاشون، يتوفر على ستة غرف في الطابق العلوي وكلها مخصصة لتخزين المواد الأساسية.



الصورة 6: إغرم نايت واحي يضم ستة أسر.



الصورة 7: إغرم نايت إيسيمور يضم ثمانية أسر.



الصورة 8: إغرم نايت ابراهيم الذي يعود لخمسة أسر

ويلاحظ أن أسوار هذه المخازن عريضة (حوالي70 سم)؛ بنيت بالطين والحجر وذلك لتقويتها وجعلها قادرة على تحمل العلو الكبير، وتركت بهذه الأسوار فراغات أو ثقوب صغيرة للتهوية ونوافذ للإضاءة (أنظر الصور).

لقد أبانت المواد والتقنيات البسيطة المستعملة في البناء عن فعاليتها من حيث القدرة على مقاومة الحرارة و الرطوبة، نذكر من خصائصها :

- القواعد الحجرية التي يتم ربط عناصرها بالطين.
- الحافات التي تفيض على الحواشي العلوية والمكونة من خشب أو قصب أو حجر وهي المعروفة بالأمازيغية ب "أكُفًاف".
- تلبيسات الأسطح أو غطاء الأسطح.
- مجاري تصريف مياه السطوح وهي المعروفة ب "الميازيب"(11).



الصورة 9: نموذج للحافات أو "أكُفًافْ"

ويحكي مسنو المنطقة والذين تحتفظ ذاكرتهم بالطرق المتبعة في البناء، أن هذه العملية تتم كالتالي:

أولا : البحث عن التراب الجيد.

ثانيا : تسقى الأتربة لبضعة أيام.

ثالثا : يركب القالب الخشبي الخاص أو التابوت.

رابعا : يمزج التراب بالماء.

(11) – تعرف محليا ب "تَافْرَاوْتْ".

خامسا: تنقل الأتربة إلى داخل القالب الخشبي ويتم دكها، ويطلق على هذه العملية "تَادْكُت"، ويترك القالب في مكانه إلى اليوم الموالي ثم يحول إلى مكان آخر، وهكذا حتى تتم عملية بناء الأسوار الخارجية.

إن هذه البنايات تبدأ بحفر قاعدة داخل التراب تبنى بالأحجار، حيث تلعب دورا مهما في ضمان توزيع ثقل البناية بالتساوي على الأرض، وتمنع صعود الرطوبة داخل الجدران، وتحول هذه القاعدة أو الأساس دون تآكل الجدران بسبب مياه الأمطار.

أما داخل هذا المعمار فهو مقسم إلى غرف صغيرة مبنية ب "اللبن" وهو خليط من التراب والماء والتبن، يستعمل في قوالب صغيرة ويعرف محليا ب "أُطُوبْ". وتوضع لهذه الغرف الصغيرة أبواب خشبية صغيرة الحجم.

أما الواجهة الخارجية للبناية فيتم تبليطها بواسطة الجير والتربة، وذلك للرفع من درجة مقاومتها لعوامل التعرية. و يتكون الدهان الخارجي من طبقتين:

- طبقة تسوية (من 1 إلى 1,5سم) تتشكل من التربة، وتكون قدرتها الالتصاقية كبيرة إذا تم خلطها بالتبن[12].
- وطبقة الدهان، وهي طبقة سميكة تتشكل من خليط التربة و الجير.

أما الدهانات الداخلية فتتم بواسطة التربة والماء فقط، وأحيانا يضاف إليها شيء من التبن لضمان متانتها.

و بالنسبة للسقوف فهي تتكون من هيكل خشبي (أعمدة وعوارض)[13]، يتم جلبها من الغابة المجاورة لآيت مازيغ، والأعمدة الرئيسية في هذا الهيكل عبارة عن جذوع أشجار مكعبة ذات قطر مهم (أكثر من20 سم)، أما عوارض الهيكل الثانوي فهي أخشاب ذات حجم أقل (قطر10 سم) متباعدة عن بعضها البعض بحوالي30 سم، وتوضع على العوارض طبقة من القصب المعروف محليا ب "أغَنِيمْ"، ويمكن الاكتفاء بوضع هذا القصب جنبا إلى جنب.

(12) – التبن : يعرف محليا ب "أليـمْ".

(13) – الأعمدة : "إمْغْرَاضَنْ" و "تَحْنِييتْ".



الصورة 10: نموذج لأحد السقوف من الداخل

ولا يكون القصب دوما بالطول المطلوب لتغطية مجمل المكان، وفي هذه الحالة يتم توصيل قصبة بأخرى فوق العارضة لإخفاء الوصلة[14]. و أحيانا يلجأ إلى الخشب عوض القصب كما توضحه الصورتين؛ و يلون هذا الخشب أو توضع عليه بعض الرسومات كما يتبين من خلال الأشكال التالية:



الصورة 11: استعمال الخشب والألوان المختلفة لتزيين المخازن من الداخل[15]

(14) – مقابلة مع السيد علاوي باسو من سكان دوار آيت باخوش.

(15) – يذكر سكان المنطقة أن الألوان تساهم في الحفاظ على الخشب من التآكل وتحميه من الرطوبة والحشرات.



الصورة 12 : سقف داخلي عادي

يغطى سطح المخازن أو "إغرم" بطبقة سميكة من التراب، تشكل غلافا للحماية من الحرارة وتسهيل تصريف المياه. ويتم تحضير هذه الطبقة بمزج التربة بالماء والتبن ودكها بمدكة خشبية بعد نشرها. إذ تتم أولا تغطية الأخشاب والقصب بتربة مبللة بالماء وشيء من التبن تليها طبقة أخرى من التراب اليابس، ويتم احترام مقاييس واتجاهات انحدار المياه. كما يحرص سكان المنطقة على تغطية هذه السطوح بتربة جيرية مانعة لتسرب المياه تجلب عادة من خارج المنطقة.

تنتهي عملية البناء بتهيئة الحواشي العلوية التي تحمي الجدران من الأمطار بوضع الأخشاب أو القصب أو الألواح الحجرية عليها، وهو ما يصطلح عليه بالأمازيغية ب "أكُوفَّافْ".

و يلاحظ أن عملية بناء هذه المخازن الجماعية شبيهة بدرجة كبيرة بتلك الطرق التي تستعمل في بناء القصور في واحات تافلالت ودرعة[16]، أو التي نجدها في المدن التاريخية، حيث امتزجت العمارة الإسلامية بالعمارة المحلية القديمة، وهو ما يدعو إلى الاعتقاد "أن العمارة في العالم الإسلامي بشكل عام تأثرت كثيرا بالتقاليد المعمارية للحضارات السابقة، بل إنها في بعض الأحيان تماهت معها"[17].

---

(16) - يراجع:

- Boussalh. M., Patrimoine architectural au Maroc : Propositions de création d'un équipement culturel intégré dans la kasbah de Taourirt à Ouarzazate, Mémoire du 3ème cycle, Alexandrie, Egypte, 1999, pp.240-260.
- Ichter.J., Les ksours de la vallée du Tafilalet, revue africaine d'architecture et d'urbanisme, N° 11, Rabat, 1972, p 275.
- Noin.D., Géographie du Maroc, Casablanca, 1967, pp.57-63.

(17) - ناصر الرباط : مرجع سابق، ص. 18.

نجد في محيط المخازن الجماعية بآيت مازيغ بعض المنازل الصغيرة التي اتخذت كملحقات صغيرة لإيواء الحيوانات التي لم يعد "إغْرَمْ" قادرا على استيعابها كلها.

يعمل سكان الدوار بشكل دائم على ترميم وصيانة هذه المخازن؛ وكان العرف المتبع هو أن لكل أسرة مكان خاص داخل "إغْرَمْ" تخزن فيه كل حاجياتها، ولها مفتاح خاص بها، وإبان الأزمات يتناوبون على حراسته مخافة اقتحامه من طرف اللصوص أو الغرباء الذين يهاجمون المنطقة عندما يحل الجفاف بمناطقهم ولا يجدون ما يقتاتون به[18].

3 - تطور المخازن الجماعية بقبيلة آيت مازيغ

كان "إغْرَمْ" في الماضي يشكل حلقة أساسية في نسيج القبيلة، وكان يسهر على خلق نسق من العلاقات الاجتماعية بين سكان الدوار، وشكّل على مر الأيام رمزا للوحدة والتضامن من خلال حرص السكان على الدفاع عنه وعن القبيلة.

اليوم، ومع التحولات السوسيو-اقتصادية التي تعرفها البوادي المغربية ومعها قبيلة آيت مازيغ، فإن "إغْرَمْ" لم يعد يؤد تلك الوظيفة التي كان يقوم بها في الماضي، إذ أدى تحسن المستوى الاقتصادي للأسر وازدياد عددها إلى بناء مساكن جديدة بمواصفات ومواد حديثة، كاستعمال الإسمنت والحديد التي غزت البوادي المغربية وأثرت بشكل كبير في نوعية السكن القروي، وهو ما أدى إلى ظهور السكن المتفرق والمنعزل على امتداد تراب القبيلة.

كما أن تخزين المواد الفلاحية والغذائية لم يعد يتم في "إغْرَمْ"، بل شيدت فضاءات خاصة لتخزين مختلف المواد، وإيواء الماشية والحيوانات داخل كل منزل، ولم تعد الحاجة ماسة إلى استعمال المخازن الجماعية أو "إغْرْمَان"[19]. كما كانت النزاعات العائلية بين سكان الدوار وراء استقلالية كل أسرة بعيدا عن الأسر الأخرى.

كل هذه العوامل ساهمت في تهميش هذه المخازن التي أصبحت معرضة للانهيار بعد أن شهدت وشاركت في صنع تاريخ وحياة المنطقة وأهلها ممن عاشوا ومروا بالقبيلة[20].

---

(18) - مقابلة مع سكان المنطقة.

(19) - لاحظنا من خلال الزيارة الميدانية لمجموعة من المخازن الجماعية أنها فارغة ولم تعد تستعمل.

(20) - يذكر سكان المنطقة مثلا المقاوم "موحى أخاشون" أول من استشهد في مواجهة القوات الفرنسية عند دخولها إلى منطقة بين الويدان سنة 1920. فقد كان هذا المقاوم يتخذ من "إغرم" نايت خاشون (الصورة1) مكانا للاستقرار وتنظيم العمليات إلى أن اغتالته القوات الفرنسية.

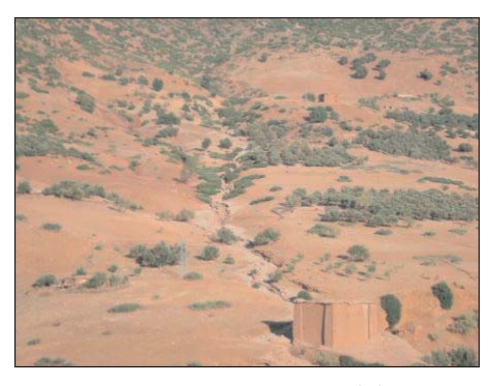
4 - التدبير وإعادة الاعتبار

أصبحت أغلب المخازن الجماعية بقبيلة آيت مازيغ في حاجة ماسة إلى الترميم وإعادة الاعتبار، وهي مهمة لم تعد ساكنة المنطقة قادرة لوحدها على القيام بها، وهو ما يستدعي تدخل أطراف أخرى كوزارة الثقافة والجماعات المحلية والمجتمع المدني.

إن هذه المخازن نالت منها عوامل التعرية وأصابها الإهمال مما أدى إلى تآكل بعض جوانبها، مما يفرض العناية بها وترميمها بإصلاح السطوح، وكسو الواجهات الخارجية بتخشينة من الطلاء، ومعالجة الشقوق التي بدأت تظهر على الجدران، كما توضحه الصور التالية المأخوذة من المنطقة:



الصورة 13: أسوار خارجية متآكلة من إغْرَمْ نايت خاشون



الصورة 14: إغْرَمْ نايت إيسيمور معرض للانهيار بسبب السيول



الصورة 15: باب متآكل



الصورة 16: سقف داخلي متآكل بسبب الأمطار

وعلى الدولة أن تتدخل لجعل هذه المخازن الجماعية وهذا التراث تراثا إنسانيا لسكان المنطقة وللمغاربة عموما، يعبر عن الهوية الثقافية الأمازيغية شأنه في ذلك شأن المدن العتيقة والمآثر التاريخية الأخرى.

خلاصة

لعبت المخازن الجماعية دورا اقتصاديا أساسيا كما كونت مجالا لتمتين العلاقات بين سكان قبيلة آيت مازيغ منذ أقدم العصور؛ إلا أنها تعاني حاليا من تقلبات الزمن ومن التحولات التي يشهدها العالم والإغراءات التي توفرها الحياة المدنية؛ حيث انتشر تمدين البوادي وتم إدخال المباني المشيدة بالإسمنت والحديد، الأمر الذي أثر سلبا وبشكل مباشر على "إغرم أو إغرمان".

ونعتقد أن الوقت قد حان لوقف الخطر الذي يتهدد المعمار الأمازيغي في جميع أنحاء البلاد. كما نؤكد على أن إنقاذ المخازن الجماعية يستلزم تضافر جهود جميع المعنيين والفاعلين (السكان، الجماعة القروية، الدولة، المجتمع المدني....). ونعتقد أن المسؤولية الكبرى تقع على وزارة التربية الوطنية إذ يجب أن تدرج هذا النوع من المعمار ضمن المقررات الدراسية حتى يتسنى نشر الوعي بأهميته كرافد من روافد الهوية وكعامل للثقافة الوطنية في صفوف المتعلمين. وعلى الإعلام، أيضا، تقع مسؤولية التحسيس بأهمية هذا الموروث الثقافي الذي ينبغي أن نحافظ عليه جميعا. وعلى المجتمع المدني تأسيس جمعيات مهتمة بالتنسيق مع جهات أخرى تعنى بنفس الموضوع من أجل الحصول على الدعم التقني والمادي الذي تستلزمه صيانة هذه المنشآت.

البيبلوغرافيا

- أرشيف الجماعة القروية لآيت مازيغ، إقليم أزيلال.

- تحريات ميدانية بجماعة أيت مازيغ، إقليم أزيلال.

- ناصر الرباط : "مفهوم العمارة في الكتابات الإسلامية"، عالم الفكر، المجلد34، 2006.

******

-Boussalh. M., Patrimoine architectural au Maroc : Propositions de création d'un équipement culturel intégré dans la kasbah de Taourirt à Ouarzazate, Mémoire du 3ème cycle, Alexandrie, Egypte, 1999.

- Ichter.J., Les ksours de la vallée du Tafilalet, revue africaine d'architecture et d'urbanisme, N° 11, Rabat, 1972.

- Noin.D., Géographie du Maroc, Casablanca, 1967.

بعض وظائف القصبات السلطانية بجنوب المغرب
تكَاديرت. نْ. أوكَليد بطاطا نموذجا

ذ . مبارك آيت عدي
المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

تقديم

اشتهرت منطقة جنوب المغرب بقصبات وحصون مخزنية كثيرة[1].اعتبرتها الدراسات التاريخية الأجنبية مؤسسات غريبة، بنيت لمراقبة قبائل المنطقة، وتيسير استخلاص واجبات المخزن منها، بعدما كانت تتحصن بمواقع منيعة تسمى إيكَودار، يصعب الوصول إليها بسرعة[2]. بنيت بهذه الجهة بسبب موقعها الجغرافي المنفتح على الصحراء وبلاد السودان، الشيء الذي يتطلب عمارة عسكرية من أجل فرض هيبة الدولة على الطرق والمسالك التجارية بالمنطقة، البعيدة عن المراقبة المباشرة للمخزن[3].

أود في هذا المقال أن أقف لدى نموذج لهذه المنشئات الدفاعية، من خلال دراسة نموذج تكَاديرت ـ نْ ـ أوكَليد بطاطا، المعروفة فيما بعد بتكَاديرت نْ أغْنَاجْ [4]. يهمني أن أطرح السؤال حول الأدوار التي اضطلعت بها، خلال مختلف مراحلها التاريخية، خاصة علاقة القواد والأمراء الذين مثلوا المخزن بها بقبائل المنطقة وممتلكاتها، وقبل ذلك أقف عند موقعها، وتاريخ بنائها، ومكوناتها المعمارية.

(1) - Jacques, Menié, Greniers Collectifs, Hespéris 1-2 trimestres, 1949, p99.
(2) - Lieutenant, Dupas, Note sur les Magasins collectifs du Haut Atlas occidental, Hespéris, Tome IX, 4e Trimestre, 1926, p305.
(3) - Montagne, R, Un Magasin collectif de L'Anti-Atlas : l'Agadir des Ikounka, Hespris, tome, IX , 2-3 Trrimestres, 1929, p 193.

(4) – هو خليفة القائد عبد المالك بن محمد أوبيهي في تارودانت، عينه السلطان مولاي سليمان عاملا على تارودانت والتي كانت منطقة طاطا آنذاك تدخل ضمن نفوذها الترابي، حول هذا القائد، انظر معلمة المغرب، ج 2، مادة أغناج، ص.543-542.

1- موقع القصبة

تقع هذه القصبة على الضفة اليمنى لوادي طاطا، (أسيف ـ ن ـ ولت)، في الواجهة المقابلة لقرية تِيِّتي، المنتمية من الناحية الإدارية إلى جماعة أديس، بإقليم طاطا[5]. تبعد بحوالي سبعين ميلا من قصبة تمدولت التاريخية[6]. كما تشرف على ممر أديس (إمِي ـ نْ ـ أوديس)، الذي يراقب جزءا مهما من المحور التجاري: دْرا-تِنبكْت، المشهور لدى تجار القوافل منذ العصر الوسيط[7]. يتميز موقعها بمغريات كثيرة، جلبت أنظار المخزن منذ وقت مبكر: فمن الناحية الاقتصادية، تقع في مجال غني بالفرشة المائية، والتي تعد عصب الحياة في هذه المنطقة. كما تتميز بثروات معدنية كثيرة، تستخرج في المناجم الواقعة في أحوازها، مثل تلك التي توجد بواحة تِسنتْ، حيث وصفت بأنها : "تصدر إلى أوروبا معادن النحاس الأحمر والنحاس الأصفر والرصاص والتبر الذي يجلب من بلاد السودان[8]، وتلك الواقعة بمدينة تامدولتْ، حيث كانت القوافل الصحراوية تحمل منها كميات مهمة من الفضة والنحاس، قبل الذهاب إلى بلاد السودان"[9].

أما من الناحية السياسية والعسكرية، فتوجد في منطقة تماس حدود الأحلاف القبلية المشهورة في جنوب المغرب، خاصة حلفي تْحكَاتْ وتكَزولْتْ، الشيء الذي من شأنه أن يساعد المخزن على مراقبة تحركات هذه الأحلاف كلها، والحد من استمالة إمارة تزروالت لها، كما هو الأمر بالنسبة لجزء مهم من حلف تكَزولت بطاطا، الذي يبدي الميل والمؤازرة لهذه الإمارة، كلما سنحت الفرصة بذلك [10]. بهذا يمكن اعتبارها بمثابة قاعدة خلفية، كان المخزن ينطلق منها لحصر نفوذ هذه الأمارة الذي ما فتئ يمتد في سوس والصحراء، بسبب السلطة الواسعة التي تملكها هذه الإمارة، إلى درجة أنها تستطيع أن تعلن الحرب على السلطان أو توقفها متى شاءت[11].

---

(5) – حول هذه القرية انظر:

De Foucauld, CH ; Reconnaissance au Maroc, 1883-1884, Paris, 1888, p 143-309

(6) - Rosen berger ; TAMDOULT, cité minière et caravanière présaharienne ; Hesperis-Tamuda, 1970, pp103-141.

(7) – حول هذا الممر انظر:

De Foucauld, CH ; Reconnaissance au Maroc, 1883-1884, Paris, 1888, p 143-309.

(8) – مرمول، كربخال، إفريقيا، مكتبة المعاريف، الرباط، ج 2، ص 147.

(9) – أفا عمر، مسألة النقود في تاريخ المغرب، في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب، جامعة ابن زهر أكادير، طبعة1، 1988، ص 293.

(10) – السوسي، محمد المختار، خلال جزولة، الجزء 3، ص80.

(11) - Jacques, Menié, Greniers Collectifs, Hespéris 1-2ème trimestres, année 1949, p. 210.

لا شك أن هذه العوامل كلها، قد ساعدت على اختيار المخزن لهذه المنطقة، كمجال لبناء هذه القصبة، إذ سرعان ما قامت بأدوار دفاعية بالمنطقة. ويهمنا الآن أن نقدم صورة عن تاريخ بنائها ومختلف الأدوار السياسية والعسكرية التي أنيطت بها.

2 - مراحل بناء القصبة

لا تقدم المصادر المتداولة معلومات مهمة حول المراحل التاريخية التي مرت بها هذه القصبة، ولا وجود لاسمها ضمن لائحة القصبات المخزنية، التي تحدثت عنها المصادر خلال فترة حكم السلطان مولاي إسماعيل[12]. كل ما نملك في هذا الموضوع لا يتعدى إشارات متناقضة، يلفها كثير من الغموض، حيث أشارت بعض المصادر إلى أنها بنيت قبل بناء قصبة تمدولت نفسها، بحكم أن بعض الأخشاب التي استعملت في بناء هذه الأخيرة، كانت تحمل من القصبة المدروسة [13]. بينما أشارت أخرى إلى أن بنائها يرجع إلى عهد أحد السلاطين المغاربة، يدعى السلطان "الأكحل"، دون ذكر الدولة التي ينتمي إليها، ولا تاريخ توليته[14]. في حين أشارت رواية ثالثة إلى أنها بنيت في عهد السلطان مولاي إسماعيل، خلال حركته المشهورة إلى جنوب المغرب، والتي "بلغ فيها إزاء أقا وطاطا وتسنت وشنكيط"[15].

لعل أول من ذكرها في المصادر المكتوبة هو تقييد تاريخي، يهم الملوك المتصرفين في بلاد طاطا منذ الفترة السعدية، يوجد في خزانة أسرة آيت داود بقرية تِكيسلتْ بطاطا، نسبها إلى السلطان أحمد المنصور الذهبي، حيث اتخذها قاعدة محصنة، لتجميع جيشه واستراحتهم قبل البدء في اجتياز الصحراء نحو بلاد السودان، وكذا محطة استراحتهم، بعد العودة من هذا البلد[16]. كما ذكرها بعد ذلك الرحالة شارل دوفوكو، أثناء مروره بطاطا سنة 1884 م، حيث وصفها بأنها : تعد من القصبات القديمة في جنوب المغرب، تعرضت

---

(12) – أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور، برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفلالي، مطبعة فضالة،1967 ص.71.

(13) – أشارت هذه الرواية أيضا إلى أن الرسائل المتبادلة بين سكان القصبتين، كانت ترسل عبر الساقية الضخمة التي تربط بين القصبتين.

(14) – هذا اللقب غالبا ما يطلق على السلطان أبو الحسن المريني، وعلى السلطان مولاي اسماعيل.

(15) – ابن زيدان، المنزع اللطيف، في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، الدار البيضاء، 1993. ص.162.

(16) – حول نص هذا التقييد : انظر الملحق.

للخراب في فترة مبكرة[17]. وأخيرا العلامة محمد المختار السوسي، الذي نسبها – حين وقف عند أطلالها، خلال رحلته إلى بلاد جزولة – إلى القائد محمد بن يحيا أغناج الحاحي، حيث قال : "وهناك في طاطة قصبة بناها هذا القائد الذي بقي في إلالن إلى طاطة إلى ما بعد عام1232"[18]، كما حدد تاريخ بنائها في نحو1227هـ [19].

إذا كنا لا نستطيع تحديد التاريخ الذي بنيت فيه هذه القصبة بالضبط، ولا الدولة التي وضعت حجرها الأساسي، فان ما يلاحظه الزائر لمحيطها، أنها بنيت ربما على أنقاض مجموعة من القلع والحصون المحلية، تحيط أطلالها بهذه القصبة إلى اليوم، كانت تجسد سلطة قبائل طاطا على جزء من المحور التجاري : دَّرَا ـ تنبكت، ومن أهم هذه المؤسسات القبلية: أكَادير أمغار، على قمة جبل أديس، والذي يقول بعض الرسوم المحلية إن تاريخه يرجع إلى القرن 6هـ/12م، وتكَاديرت نتاكوشْت، بمدشر تلدنونت، والذي تقول الرواية الشفوية: إن قبائل المنطقة كانت توقد في قمة الجبل الذي توجد به النار لهداية القوافل وإرشادها في الطريق. وأخيرا دوار القصابات الحالي الذي لا يفصله عن القصبة هذه سوى أقل من 2000 م، والذي يحمل اسم قصبات سيدي محمد أو يعقوب. توارثت هذه المؤسسات القبلية السلطة على هذا الممر، إلى حين بناء المخزن لهذه القصبة، رغبة في فرض مركزية الدولة وتحكمها في البضائع والطرق التجارية. الشيء الذي يتطلب إقامة حصون وقصبات أخرى بديلة.

3 – المرافق الأساسية

مع الأسف لم يبق من هذه المرافق الشيء الكثير، حيث تعرضت للدمار وللخراب، نتيجة الظروف الطبيعية القاسية والحروب المتكررة التي شهدها مجالها، مما أدى إلى اندثار معظم معالمها العمرانية. رغم ذلك، يمكن للزائر أن يلاحظ بسرعة مجموعة من المرافق والشواهد، لازالت ماثلة للعيان، تؤرخ لعظمة وقوة من شيدها، منها ما هو عسكري محض، ومنها ما هو تنظيمي سياسي، استطاعت الصمود في وجه الزمان، إلى يومنا هذا، ومن أهمها:

(17) - CH. De Foucauld, Reconnaissance au Maroc, pp. 143-309.

(18) – السوسي، محمد المختار، خلال جزولة، مطبعة تطوان، بدون تاريخ، ج 2، ص 126.

(19) – المصدر نفسه، ج 3، ص. 93.

■ **الخندق** : يوجد – حسب العلامة محمد المختار السوسي – في كل واجهات القصبة، باستثناء الباب الرسمي، "هو وحده الذي ليس فيه الخندق"[20]. يبلغ طوله حوالي 460 مترا، بينما يتجاوز قعره 3 أمتار، أما عرضه فيصل إلى أكثر من 5 أمتار .كان يلعب دور الحزام الأمني لهذه القلعة التاريخية، باعتبارها بنيت في منطقة منبسطة، لا تستفيد من الحماية الطبيعية، خلافا لما هو معروف بالنسبة لأغلب القصبات والقلع المخزنية، والتي تبنى غالبا في مناطق شاهقة ووعرة، من اجل ضمان حمايتها.

■ **السور الخارجي** : يبلغ طوله حوالي480 م، أما علوه فيتجاوز 6 أمتار، كما يصل سمكه مابين 80 سنتيم إلى 100 سنتيم. بني بالتراب والتبن، إلى جانب مواد مساعدة أخرى، مثل الحجر والخشب، خاصة مادة الحجر، التي استعملت في بناء الأساس وعتبات الأبواب، لتفادي تسرب مياه الأمطار إلى القصبة[21].

■ **الأبراج** : عددها تسعة أبراج، تعرض الكثير منها للخراب، بحيث لم يبق فيها سوى برجين في الواجهة الشرقية، شكلها مربع وملتصقة بالسور، وضعت بتنظيم محكم، توجد أربعة منها في زوايا القصبة، واثنان ملتصقان بالباب الرسمي. تتوفر على العديد من الثقوب، كانت تصوب فيها الأسلحة النارية، التي أصبحت حاجة ضرورية للدفاع والهجوم، خلال الفترة الحديثة.

■ **الباب الرئيسي** : يقع في الجهة الجنوبية للقصبة، ينفتح على سهل تكيسلت، مجال نفوذ القائد على بن عيسى، أحد كبار رجال السلطان أحمد المنصور بجنوب المغرب وبلاد السودان[22]. توجد أمامه ساحة لها وظائف متعددة، مثل : استعراض الجيش والخيل، ونزول القوافل التجارية القادمة من الصحراء، واستقبال الزوار، من أهل المخزن أو غيرهم.

■ **الساقية** : توجد في الواجهة الشرقية للقصبة، لازالت بعض معالمها بادية للعيان في كثير من المواضع، خاصة الأقواس التي امتدت على طولها. تقول الرواية الشفوية إنها تمتد حتى مدينة تمدولت، تنبع من عين دوار تغْلا، المسمى حاليا "أكوكْ". من وظائفها توفير الماء الكافي للجيش وللدواب، وللحقول المحيطة بالقصبة.

(20) – المصدر نفسه، ج 3، 93.

(21) – أشار المختار السوسي إلى أنه "يقل ما بقي من جدرانها العليا"، المصدر نفسه ج 3، ص 93.

(22) – الفشتالي، عبد العزيز، مناهل الصفا، في مآثر موالينا الشرفا، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، الرباط، 1970، ص 137.

إلى جانب المرافق السالفة الذكر، تتحدث الروايات المحلية عن مرافق أخرى، تعرضت للدمار والخراب، منها مخازن وأهرية الحبوب والثمار، واصطبلات الخيول، ومخازن السلاح، وسجن، قيل إن هذا الأخير يشبه إلى حد كبير سجن مكناس، الذي شيده السلطان مولاي إسماعيل[23].

أما من حيث تصميمها العام، فهي على شكل مربع .تنقسم إلى عدة أجنحة، يتوسط كل منها صحن مربع الشكل، يعتبر بمثابة المحور الرئيسي، الذي تحيط به جميع الغرف، ويتجلى دور هذا الصحن في اعتباره المنفذ الرئيسي للهواء وللضوء.

4 - بعض وظائف القصبة

تنوعت أدوار هذه القصبة باختلاف الفترات التاريخية التي مرت بها، وباختلاف الأسر التي خضعت لأمرها، ويمكن تقسيمها، حسب أهميتها، إلى فترتين متميزتين، هما :

أ - الفترة السعدية

تطلعنا الوثائق المؤرخة لهذه الفترة، على أن وظيفتها تكاد تنحصر في حراسة جزء من طريق دْرَا - تنبكت، الذي تجتازه القوافل التجارة الصحراوية، في اتجاه بلاد السودان، فحسب التقييد السالف الذكر، كانت إدارتها موكولة إلى مجموعة من القواد كانوا يشرفون على أمن القوافل التجارية، منهم: القائد زيان الشاوي، الذي عينه السلطان أحمد المنصور خليفة له على طاطا بعد الانتصار في حملته على بلاد السودان سنة 999 هـ/1591م[24]، ومنهم القائد أوطالب الحسن، الذي قال عنه المختار السوسي: "وكان أجداده أغنياء تجارا ثم صاروا خلفاء السلاطين في هذه الجهات إلى راس الوادي... وذكره طنان بهذه الجهات،"[25]ومن هؤلاء أيضا القائد علي بن عيسى، قال عنه عبد العزيز الفشتالي في كتاب مناهل الصفا : "أرسله هذا السلطان في صورة رسول، إلى بلاد السودان، ليرتاد له البلاد ويسبر له عمق أموره ويمتلء من الإطلاع على سائر أحوالها"[26].

(23) - لازالت بعض الآبار داخل هذه القصبة، يعتقد الكثير من الناس أنها تربطها بعض الدهاليز، كانت تتخذ سجنا لرافضي أداء الضرائب .

(24) - انظر هذه الإشارة في التقييد الموجود بالملحق.

(25) - السوسي محمد، خلال جزولة، ج 3، ص.97.

(26) - الفشتالي، مناهل الصفا ص. 119.

نفس الدور تقريبا كانت تقوم به القصبات الموجودة في نفس الخط التجاري، مثل قصبة الكلاوي وقصبة السلطان بتنزولين وقصبة ترغالة بدرعة، حيث ذكر مارمول أنها : كان يرابط بها أربعمائة فارس وخمسمائة رام، أنيطت بهم مهمة حراسة القوافل التي تنقل التبر من تغازة إلى ترغالة، حيث : "يصهر ويوزن ويوضع عليه الطابع، ومن ثمة يرسل إلى مراكش عبر لكتاوة"[27].

ولقد كان سلاطين وأمراء الدولة السعدية هم أنفسهم الذين يشرفون على إنجاح هذه الأدوار الموكولة لهذه القصبات، حيث جاء في إحدى الرسائل السعدية، أن السلطان أحمد المنصور: قلد ابنه الأمير أبو الحسن حكم: "حضرة سوس الأقصى وجميع آفاقها وفوض له فيها التفويض المطلق في القول والعمل، وأسند له "أمور خاصتهم وجمهورهم وأميرهم ومأمورهم وألزمه لحياطة تلك البلاد والاستعداد لتلبية داعي الجهاد ألفي حصان"[28]. كما جاء عند العلامة محمد المختار السوسي، أن هذا السلطان قام برحلة استكشافية قادته إلى جهات طاطا وأقا وتمانارت سنة 998 هـ، قام خلالها بإصلاح الطريق المؤدي إلى بلاد السودان وحفر الآبار وبناء النطفيات أو الصهاريج، قصد تيسير اجتيازه حينئذ نحو بلاد السودان، كما قام أيضا "بتسوية الهضاب الصعبة وإقامة الجسور على الأودية وتأسيس النطفيات في المعاطش"[29].

ب – في الفترة العلوية

إذا كانت الخاصية الأساسية التي تميز هذه القصبة على امتداد الفترة السعدية هي حماية التجارة الصحراوية، فان الأمر يختلف نوعا ما في الفترة العلوية، ربما لسبب تراجع هذه التجارة من الصحراء إلى المحيط الأطلسي، حيث تتحدث المصادر التاريخية عن مهمة أخرى لها، تتجلى في مراقبة القبائل وجمع واجبات المخزن منها، كما تتحدث أيضا عما كان يطرحه ذلك من القلاقل بين الطرفين. تعد فترة القائد محمد بن يحي أغناج، من الفترات البارزة في ذلك،[30] فحسب وثائق توزيع المياه بعيون طاطا كان هذا القائد يفرض

(27) – مارمول، كربخال، إفريقيا، مكتبة المعارف، الرباط، 1984، ج 3، ص. 150.

(28) – كنون، رسائل سعدية، ص. 218–219.

(29) – السوسي محمد المختار، المعسول، ج1، ص. 93.

(30) – لقد جاء عند العلامة محمد المختار السوسي حول مجيء هذا القائد إلى طاطا ما يلي : "ومما يتعلق بهذه الناحية أيضا أن القائد محمد بن يحيا أغناج أرسل قائدا من أصحابه سنة 1226هـ إلى هذه النواحي بأقا فوطئها، ثم قدم أغناج نفسه إلى طاطة فنزل في القصبة المخزنية القديمة هناك والقائد الذي مر هنا باقا من قواد أغناج يسمى عند الناس مهابر"، خلال جزولة، ج 3، ص .80.

ضرائب ثقيلة على السكان، بلغت على سبيل المثال في عين رأس الماء بدوار أنغْريف، بجماعة أم الكردانْ 60 حبة، أي اثني عشرة ساعة بالمقياس الحالي، علما أن دورة هذا العين هي 36 يوما [31]. كما بلغت في عين قرية توكَريح، بجماعة أديس 120حبة، أي يوما كاملا في الأسبوع، علما أن دورة الماء في هذه القرية مدتها 36 يوما [32]. كما بلغت حصته في عين قرية تِغْرْمْتْ ببلدية طاطا حاليا 24 ساعة في كل 44 يوم[33].

لقد أثار الإجحاف المصاحب لاستخلاص هذه الضرائب انتباه العديد من المؤرخين، أمثال المختار السوسي الذي وصف سياسة القائد محمد بن يحيا أغناج اتجاه قبائل المنطقة بقوله : "دب الفساد والخراب في الزرع والدور وأثخن جراح ساكنة الجبال بما فيها الإلان"[34]. نفس المصدر أشار إلى أن هذا القائد كان يترك وراءه الخراب والدمار في أية منطقة مر بها، بما فيها المخازن الجماعية التي في ملك القبائل، كما هو الأمر بالنسبة لحصن إداوكَنيضيْف الذي خربه أثناء مرور حركته في قمم الأطلس الصغير[35].

لم يسلم من تعسف هذا القائد حتى العلماء والقضاة في القرى المحيطة بهذه القصبة، حيث جاء عن المختار السوسي أنه أمر القاضي سيدي محمد بن أحمد الإزنكَاضي، الشهير قي قرية أقا إزنكَاض، حين جاء إلى طاطا : "أن يحكم بحكم ظالم جائر فأبى فأرسل إليه أعوانه عن غيظ، وهو ينوي البطش به، فحين وصله بردت ناره، فلم يصنع له شيئا .ويقول الناس إنه رأى منه كرامة أنكف عنه بسببها"[36].

مهما يكن من أمر، فان الوظائف التي تمت الإشارة إليها، لا تعني عدم قيام هذه القصبة بوظائف أخرى، التي كانت تقوم بها مثيلاتها في مختلف جهات المغرب، مثل استقبال الحركات السلطانية وضيوف المخزن، المكلفين بالإشراف على عملية التويزة ونقل الكلف والفروض إلى العواصم السلطانية، كما كانت تقوم باستقبال الجيوش التي كانت ترسل لإخماد الثورات وتأديب الثوار في الجهات المحيطة.

(31) – لقد اطلعت على هذا القانون من طرف السيد مبارك الركيبي، احد أفراد الجماعة السلالية بدوار انغريف، جماعة أم الكردان، طاطا.

(32) – لقد اطلعت على هذا القانون لدى بيا العربي، احد أفراد الجماعة السلالية بدوار توكريح، جماعة أديس.

(33) – هذا القانون سرده علينا السيد جامع ايت اوشبان، احد أفراد الجماعة السلالية بدوار تغرمت، بلدية طاطا.

(34) – السوسي محمد المختار، خلال جزولة، ج 2، ص. 125- 126.

(35) - Montagne, R, Un Magasin collectif de L’Anti-Atlas. op. cit. p.184.

(36) – السوسي، محمد المختار، خلال جزولة، ج 3، ص. 95.

5 - ردود فعل القبائل تجاه قصبات أغناج

رغم رمزية هذه القصبات، التي بناها هذا القائد في مختلف جهات سوس، وتجهيزها بالوسائل الضرورية واللازمة للعملية الدفاعية: من أبراج وأسوار ومدافع وحاميات عسكرية، فانه ثمة قرائن تفيد رفض القبائل لها، وتحينها الفرص لتخريبها وإزالتها، باعتبارها تجسد تجاوزات المخزن في استخلاص الواجبات في حقها، كما تعد أيضا رمز استفحال ظلم هذا القائد للقبائل. فقد جاء في كتاب أخبار سيدي إبراهيم الماسي أنه مباشرة بعد وفاة السلطان مولاي سليمان، "قام أهل تزنيت وطردوا خليفته، واجتمعوا حول القصبة ـ قصبة أغناج ـ كبيرهم وصغيرهم، فقاموا بتخريبها عن آخرها ولم يتركوا فيها أية جهة وجمعوا أحجارها وأخشابها وأساطينها وأبوابها واستعملوا ذلك كله في بناء مسجد المدينة في وسط القصبة إلى جوار العين المذكورة ـ العين الزرقاء"[37]. ولما تولى مولاي عبد الرحمان الملك: "أرسل خليفته وهو القائد الطاهر بن مسعود الأوديي إلى أهل تزنيت نزل بها ثلاثة أيام فبعث إليهم ليجتمعوا لديه قصد قراءة ظهير السلطان عليهم، فاجتمع عليه أهل تزنيت وجلسوا إليه، فتلا عليهم ظهير السلطان وقال لهم إنه سيدخل المدينة وسيسكن في قصبة السلطان، فقالوا له إن ذلك غير ممكن... أما قصبتك فقد قمنا بتخريبها وبنينا محلها مسجدا كبيرا وسط مدينتين"[38]. نفس الشيء أكد عليه أيضا المؤرخ الاكراري، الذي قال : "لما رجع السلطان مولاي الحسن لمقره بمراكش ؟ بعد حركته الثانية إلى بلاد سوس – قام أهل سوس من واد سوس إلى واد ماسة على ساق الجد ليمحوا من فيه رائحة المخزن، فهدموا ديار القياد بهشتوكة وهوارة وراس المواد، فجعلت القبائل في الفتن يأكل الضعيف القوي[39]" . لم تسلم من هذا المصير أيضا قصبة أغناج بطاطا، حيث تعرضت هي الأخرى حسب شارل دوفوكو للخراب والهدم قبل سنة 1884م بكثير [40].

---

(37) – سيدي إبراهيم الماسي، أخبار سيدي إبراهيم الماسي، اعتنى بنشره عمر افا، منشورات المعهد الملكي للثقافة الامازيغية، مطبعة المعارف الرباط، 2004، ص. 73.

(38) – المصدر نفسه، ص. 75.

(39) – الاكراري، محمد، روضة الأفنان في وفيات الأعيان، تحقيق حمدي أنوش، أكادير، 1998، ص. 70-71.

(40) - De Foucauld, CH ; Reconnaissance au Maroc, 1883-1884, Paris, 1888, p. 309.

خاتمة

تجدر الإشارة في الأخير إلى أنه رغم ما تعرضت له القصبات والحصون من الدمار والخراب، نتيجة الصراع الحاصل بين المخزن والقبائل، على مر التاريخ، فإن ذلك لم يمنع من بقاء العديد من هذه المنشآت العسكرية في مختلف جهات المغرب، استطاعت الصمود إلى يومنا هذا. استعملت فيها تقنيات مهمة في عملية البناء، مثل الطابية والطوب التي ترجع إلى عهود ضاربة في القدم. لهذا وجب لفت الأنظار إلى مثل هذه الصروح المعمارية ومحاولة تأصيلها ودراستها بأسلوب علمي، عن طريق المحافظة على ما تبقى منها وإصلاحه وترميمه، خاصة وأنها تعد شواهد حية بالمكان البحث في تاريخها أن يقدم بعض عناصر الجواب عن الكثير من القضايا التي لم يحسمها البحث التاريخي إلى اليوم. منها على سبيل المثال: الضغط الجبائي على القبائل وعواقبه على المجتمع، وطبيعة الجهاز الجبائي داخل القبائل، ومختلف أنواع الجبايات المستخلصة من سكان القبائل، و طرق وأساليب استخلاص الجباية من السكان، وأشكال تعسف القواد على محكوميهم. الفكرة التي اهتدت إليها بعض الجهات بالمغرب كتلك المشرفة على قصبة آيت بن حدو، المسترجعة لحيويتها ووظائفها، بعد عملية الترميم سنة 1987م، وتلك المشرفة على قصبة أغناج بتزنيت، حيث تجري بها أعمال الترميم منذ سنة 2009م، نفس المصير نتمناه لقصبة أغناج بطاطا.

البيبلوغرافيا

- أفا، عمر، "مسألة النقود في تاريخ المغرب، في القرن التاسع عشر"، منشورات جامعة ابن زهر، كلية الآداب أكادير، الطبعة 1، 1988.
- بومزكو، أحمد، "تاريخ مدينة تزنيت، محطات وإشارات"، كتاب تزنيت: الذاكرة الجماعية، منشورات بلدية تزنيت، المطبعة الرئيسية، أكادير، 2009.
- السوسي، محمد المختار، "إيليغ قديما وحديثا"، الرباط، المطبعة الملكية، 1966.
- السوسي، محمد المختار، "خلال جزولة"، مطبعة، تطوان، بدون تاريخ، ج 2-3-4.
- السوسي محمد المختار، "المعسول"، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،1960.
- سيدي إبراهيم الماسي، "أخبار سيدي إبراهيم الماسي"، اعتنى بنشره عمر أفا، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، مطبعة المعاريف الرباط، 2004.

- الضعيف، الرباطي، "تاريخ الضعيف"، تحقيق أحمد العماري، نشر دار المأثورات، الطبعة الأولى، الرباط، 1986.

- الفشتالي، عبد العزيز، "مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا"، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1970.

- كنون، عبد الله، "رسائل سعدية"، تطوران، دار الطباعة المغربية، 1954.

- مرمول كربخال، "إفريقيا"، ترجمه عن الفرنسية كل من محمد حجي ومحمد الأخضر غزال وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة

******

- Bellakhdar, J, et Autres, Tissint, une Oasis du Maroc présaharien, Monographie d'une Palmeraie du moyen Dra, Ed Albiruniya, 1992.

- De Foucauld- CH, Reconnaissance au Maroc, 1883-1884, Paris, 1888.

- Jacques, M, Greniers Collectifs, Hespéris 1-2e trimestres année 1949, pp 97-137.

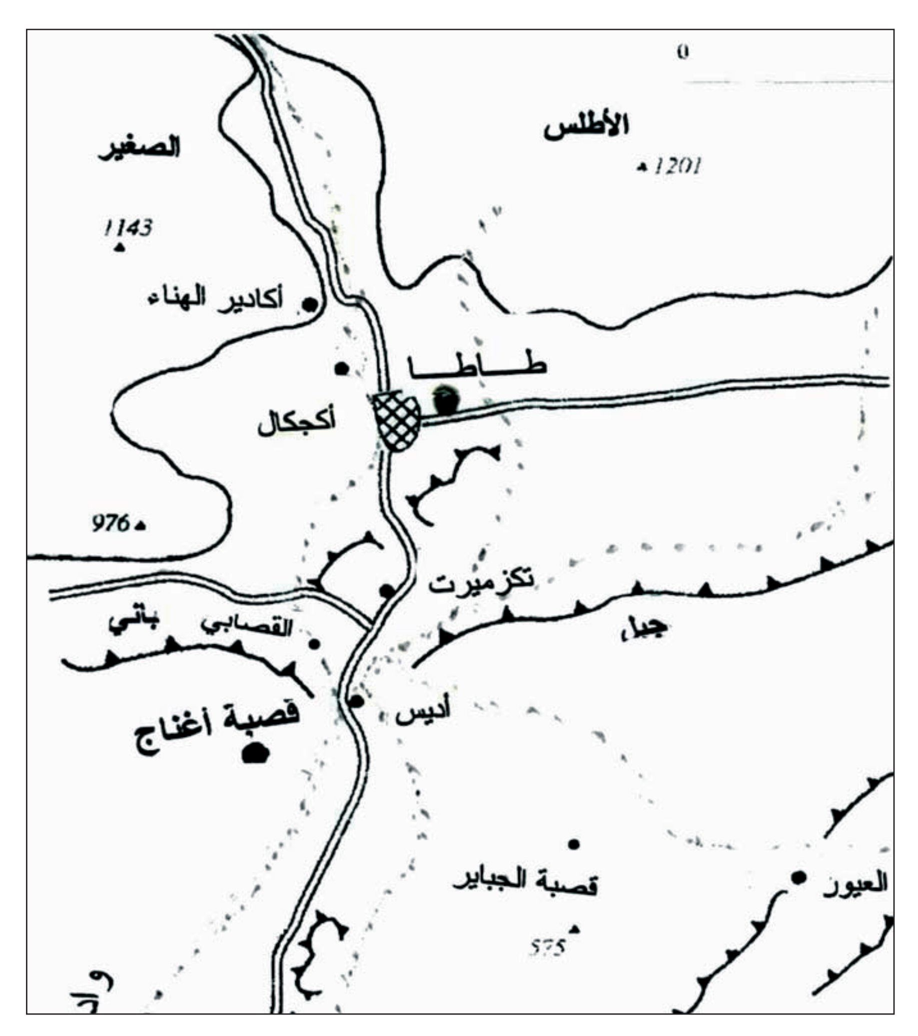
- Justinard, L, Un petite royaume berbère, le Tazeroualt, Un Saint berbère, Sidi Ahmed Ou Moussa, publication de L'I.H.E.M., Maisonneuve, Paris, 1951.

- Montagne, R, Un Magasin collectif de L'Anti-Atlas: l'Agadir des Ikounka; Hesperis, tome IX, 2-3 Trimestres 1929.

- Pascon, P, La Maison D'Iligh et l'histoire sociale du Tazerwalt, Rabat, SMER, 1984.

- Rosen, B, Tamdoult, cité minière et caravanière présaharienne; Hisperis-Tamuda; 1970; pp103-141.

ملحق الخرائط والوثائق والصور :



موقع القصبة بالنسبة لقرى طاطا

Annales des geographes n° 644; 2005.

بتصرف

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه

هاذه تقييد الملوك المتعاقبين في هاذا البلد الاول منهم سيدنا ومولانا
احمد الذهبي هو الذي بنا القصبة السلطان التي في سعولة تكيسلت
معلومة هناك وهو الذي فيه انباء القصر مكاد في طاطا وهم علي اعيسى
بتكيسلت والطالب الحسن بتزرت والقايد احمد ازبك باساكن وهو
الذي ارسل القايد [illegible] زيان الشاوي خليفة بعد ما ذهب من هنا
وهو حاز هذا حين رجع من السودان وبدا ملكه في عام 986
وتوفي في عام 1012 ثم تولى النصر سيدي علي بن محمد الشز والتي
حفيد سيدي احمد بن موسى وهو الملقب بابي دمعة من ذلك التاريخ
1012 الى ان قتله مولاي رشيد من شرف اد تجلكت ومنه رجع
الى العلا لسبيبا وفي ذالك في عام 1070 وفيه انتصر مولاي رشيد حتى
مات في عام 1082 ثم انتصر مولاي اسماعيل حتى مات في عام 1139
ثم انتصر ابنه مولاي عبد الله بن مولاي اسماعيل حتى مات في عام 1160
ثم انتصر ابنه مولاي محمد بن مولاي عبد الله بن مولاي اسماعيل حتى
توفي في عام 1200 ثم انتصر ابنه مولاي اليازيد بن مولاي محمد
بن مولاي عبد الله بن مولاي اسماعيل حتى مات حتى في عام
1204 ثم انتصر اخوه مولاي سليمان بن مولاي محمد بن مولاي
عبد الله بن مولاي اسماعيل وهو الذي ارسل القايد محمد اغناج
حين قدم لهنا هو الذي جدد قصبة السلطان التي بنا هنا
مولانا احمد الذهبي وعمرها قليلا وذهب وهو من احواز
مراكش جمات مولانا سليمان في عام 1238 ثم انتصر
ابن اخيه مولانا عبد الرحمان بن مولاي هشام بن مولاي محمد
ابن مولاي عبد الله بن مولاي اسماعيل حتى مات في عام 1276
نع القايد [illegible] حتى هو من خليفة
مولاي احمد الذهبي هو الذي خلفه هنا
في تاريخ ملكه ومن الغارب

وثيقة حول تاريخ بناء القصبة، توجد بخزانة أسرة أيت داود بقرية تكيسلت بطاطا.



جانب من الخندق المحيط بالقصبة، 2009



المنظر العام للقصبة، هذه الصورة زودناها الأستاذ محمد بن العتيق مشكورا



بعض معالم الساقية التي تمد القصبة بالماء، 2009



جانب من صور القصب، 2009



بعض بقايا أبراج القصبة، 2009



أحد أبواب سجن القصبة، 2009

جوانب من التطور التاريخي والمعماري لقصبة أكَوراي بقبيلة كَروان

ذ. علي بنطالب
المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

تقديم

تقع قصبة أكَوراي التاريخية في موقع استراتيجي، على بعد حوالي 28 كلم جنوب مدينة مكناس، في المحور الطرقي القديم الذي يربط مكناس بمراكش، وقد بنيت في عهد السلطان مولاي إسماعيل. وبالنظر لأهميتها التاريخية والمعمارية صنفت القصبة معلمة تاريخية بمرسوم وزاري يحمل تاريخ 10 أكتوبر 1948. استوجبت أهمية الموقع التراثية العناية به والمحافظة عليه، ولذلك عملت بلدية أكَوراي، بدعم من هيئات ومؤسسات مهتمة، على تمويل مشروع ترميم القصبة وإبراز معالمها.

يسعى هذا المقال إلى دراسة جوانب من التطور التاريخي والمعماري لقصبة أكَوراي بقبيلة كَروان. ويهدف إلى أن يكون منطلقا للتفكير في تاريخ القصبة داخل إطار مجالي الأطلس وسايس، والإجابة على العديد من التساؤلات المطروحة حول تاريخ القصبة وتطورها المعماري، من قبيل البحث عن دواعي بناء القصبة، والأدوار التي اضطلعت بها بعد وفاة مولاي إسماعيل، وموقعها في الحياة اليومية للسكان، وطبيعة الحياة داخلها. ثم البحث في أصل معمار القصبة وعلاقته بالثقافة المحلية والمحيطة به. والوقوف عند الجانب التقني الجمالي وتطوراته المختلفة. وصولا إلى الوظائف الحالية للقصبة، وطبيعة التحولات الثقافية والاجتماعية التي شهدتها.

1 - القصبات الإسماعيلية

شكلت القصور والقصبات[1] مظهرا بارزا في تاريخ المغرب. فقد انتشرت في مجالات مختلفة، وارتبطت بفترات متعددة، خاصة منذ بداية تاريخ المغرب الحديث. وعكست

(1) - القصبة بناء محصن تحيط به أسوار من جميع الجهات، وتتخله أبواب محصنة بوسائل دفاعية، وفي أركانه أو على طول أسواره أبراج للمراقبة. وهذه الخصائص تنطبق على القصبة التاريخية لأكَوراي. راجع:
- حميد الفرخ: "تطور المجال الدفاعي المعماري بالمغرب"، ضمن أعمال ندوة: "تاوريرت - واد زا/القصبة التاريخ والمجال والتنمية"، تاوريرت 8-9 ماي 2007. ص. 39-41.

نظيمة المخزن وأدوارها عبر التاريخ. وكان المخزن يكلف عددا من القبائل ببناء القصور والقصبات والأسوار، وغيرها من الأشغال التي يسخر فيها السكان مجانا، حيث يجبرون على حمل الأتربة والأحجار، وإعداد أكواش الجير اللازمة للبناءات أو إصلاحاتها، وكذا السهر على الأشغال اللازمة للحفر أو البناء أو الصيانة. وكانت القبائل تكلف أيضا بتقديم مصاريف إنجاز العديد من البناءات[2].

شكلت القصبات الإسماعيلية تراثا تاريخيا زاخرا شاهدا على أحوال ووقائع الماضي وتجلياته الراهنة. واتسمت بكثرتها وتواجدها في مناطق متعددة، خاصة بالأطلس المتوسط. وارتبط هذا التركز بعدة عوامل تحكمت في بناء هذه القصبات. تحدث المؤرخ الزياني عن ست وسبعين قصبة تم التعرف فقط على ما يقارب الثلاثين منها . وهي عبارة عن أحزمة دفاعية، ومراكز مراقبة في مواجهة القبائل[3].

شرع المولى إسماعيل (1672-1727) في غزو القبائل الصنهاجية منذ السنوات الأولى من حكمه. وكانت القبائل مستعصية بالأطلس المتوسط والأطلس الكبير الشرقي. وقام السلطان بعدة حركات توغلت داخل الجبال من أجل معاقبة القبائل المتمردة، وانطلقت الجيوش المخزنية من سايس وتادلا وتافيلالت ومن جهة الشرق فأرغمت القبائل الصنهاجية على الخضوع للسلطة المركزية. وكان للمدفعية النارية الحديثة دور كبير في تغلب جيش البخاري.

من أجل الحد من النزوح المتكرر لهذه القبائل، أقام المولى إسماعيل سلسلة من القصبات أحاطت بالقبائل الصنهاجية من جميع الجهات، ابتداء من قصبة تادلا إلى تافيلالت مرورا بأدخسان (خنيفرة) وعين اللوح وأزرو وكَيكَو وقصبة حميدوش بالضفة اليمنى لتانسيفت[4].

وهكذا كانت مسألة التحصينات والدفاع حاضرة بقوة في عهد السلطان مولاي إسماعيل، حيث شيد العديد من القصبات في مواقع دفاعية، وسن نظاما جديدا في مجال

(2) – حول التسخير في البناء، وعواقبه على سكان البوادي، راجع :

– علي بنطالب: "المخزن والقبائل، الضغط الجبائي وتداعياته، 1894-1912"، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2013، ص 115- 116.

(3) – عبد العزيز بن عبد الله : "القصبات والقلاع الإسماعيلية"، مجلة دعوة الحق، العدد 268، مارس 1988 ص. 108-113.

(4) – إبراهيم بوطالب : معلمة المغرب، مادة "المولى إسماعيل"، نشر مطابع سلا، 1989، ج 2، ص :447.

التحصين، وقسم المغرب إلى ثلاث مقاطعات عسكرية: تافيلالت ومراكش وفاس(5)، تتميز بخصائص متعددة منها الخاصية الأمنية المتمثلة في استخدام القلاع(6) لمراقبة القبائل، والخاصية الضبطية المتمثلة في تأمين الطرق التجارية وضمان سلامة المسافرين، والخاصية الجبائية وتتجلى في استخلاص الجبايات من القبائل(7).

وصف الناصري سياسة المولى إسماعيل في بناء القصبات والقلاع العسكرية بقوله: "دخلت سنة ست وتسعين وألف فيها خرج السلطان غازيا بلاد ملوية، وجعل طريقه على مدينة صفرو، ففرت قبائل البربر إلى رؤوس الجبال وهم أيت موسى وسغروشن وأيوب وعلاهم على وادي سورة على وادي تشواكت، ثم خرج السلطان بملوية ففرت القبائل المذكورة إلى جبل العياشي وتفرقوا في شعابه، فأمر ببناء قلعة بدار الطمع، وقلعة بتايبوست، وقلعة بني مطير، وقلعة بواطواط وقلعة بالقصابي، وأقام على نهر ملوية يبث السرايا ويشن الغارات على البربر قريبا من سنة، والعمل مستمر في بناء القلاع إلى أن أكملت أسوارها، وأنزل رحمه الله بكل قلعة أربعمائة من خيل العبيد بعيالهم"(8).

كما أشار الناصري كذلك إلى القلاع التي شيدها السلطان بالأطلس المتوسط، بقوله: "دخلت سنة خمس وتسعين وألف فيها خرج السلطان في العساكر إلى جبال فزاز لحرب صنهاجة من البربر الذين هنالك، فلما سمعوا بخروج السلطان انهزموا إلى ملوية، فدخل السلطان بلادهم واختط قلعة بعين اللوح بسفح جبلهم ثم نزل بعين أصرو فأمر ببناء قلعة هنالك بسفح جبل أيضا، ثم تبع آثارهم إلى أن دخلوا جبل العياشي وتربص رحمه الله بملوية إلى أن دخل الشتاء، وكان قصده بذلك التربص إتمام سور القلعتين، ولما عزم الرجوع أنزل بقلعة أصرو ألف فارس وبقلعة عين اللوح خمسمائة فارس فأخذوا بمخنقهم واستراح الناس من عيثهم ببسيط سائس"(9).

---

(5) – محمد شقير: "تطور الدولة في المغرب، من القرن الثالث ق. م إلى القرن العشرين". مطبعة الشرق، 2000، ص: 254.

(6) – القلعة بناية غايتها التحصين ضد العدو، وتمتاز بطابع خاص يجعلها أقرب إلى جهاز الدولة منها إلى جهاز القبيلة أو الجماعة. كقلعة إدخسان في الشعاب الشمالية للأطلس وأكَوراي، وهي التي احتفظت بطابعها الأصلي، وتراقب الأطلس الأوسط، وقلاع تادلا وحميدوش ومديونة. راجع:

–عبد العزيز بن عبد الله : "القصبات والقلاع الإسماعيلية"، م، س، ص. 110.

- F. De Lachapelle, «Moulay Ismail et les Berbères Sanhaja du Maroc Central», in : Archives Marocaines, vol. XXVIII, 1931, pp : 179-210.

- Morsy Magali, «Moulay Ismail et l'armée de métier», in : Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine, XIV, 1967, pp : 97-122.

(7) – حميد الفرخ : "تطور المجال الدفاعي المعماري بالمغرب"، م، س، ص.54 :

–عبد الرحمان بن زيدان: "المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف"، مطبعة إديال، 1993، ص: 133.

(8) – أحمد الناصري: "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954-1965، ج 7، ص: 68.

(9) – الناصري : الاستقصا، م. س، ص: 66.

اهتم السلطان مولاي إسماعيل، في مجال التحصينات أيضا، بتوفير الشروط المادية لضمان سير نظامها، إذ كان من بين الوظائف التي تم تكليف القلعة أو القصبة بها هو تحصيل الضرائب، أي تقريب الإدارة الجبائية من القبائل وضبط عملية الجباية المحلية واستغلال جزء من هذه الضرائب لتموين القلاع. وقد أشار الناصري إلى ذلك بقوله : "عين لكل قبيلة من تلك البلاد قلعتها التي تدفع بها زكواتها وأعشارها لمؤونة العبيد وعلف خيولهم...(10)".

وفي حالة ضعف السلطة المركزية كان ذلك ينعكس على القصبة أو القلعة، حيث تتوقف عنها الضرائب التي تقوم بجبايتها، كما حدث بعد وفاة السلطان مولاي إسماعيل، وكما أشار إلى ذلك أكنسوس في مؤلفه "الجيش العرمرم" بقوله: "لما مات المولى إسماعيل انقطع عن عسكر القلع المدد الذي كان به قوامهم ولم يلتفت إليهم أحد من أولاد الملوك من بعد، ولا وصلتهم بإعانة فخرجوا إلى التمعش على أولادهم وأنفسهم بالقبائل التي هم فيها وامتدت أيدي النهب للقلع التي تركوها فأخذوا أبوابها وسقوفها ولم يبق إلا الجدران...(11)".

بالنسبة للقصبات المنشأة بقبيلة كَروان يلاحظ أنها تتضمن من حيث طبيعتها القصبات المخزنية كقصبتي تولال (12) وأكَوراي، إضافة بعض القصبات التي أنشأها كبار رجال المخزن بالمنطقة، مثل قصبة أجانا وقصبة رحّ. وتجدر الإشارة إلى أن بناء هذه القصبات اعتمد فيه على طاقات قبائل كَروان وبني مطير (أيت نظير). كما أن موقع هذه القصبات يتوسط مجال الاستغلال الزراعي الحضري، حيث تسود بلادات وأوقاف مدينة مكناس وأراضي الموظفين الكبار بالمخزن. كما توجد بين محاور الطرق الرئيسية أو عند نقط التقاء السهل بالجبل، مما يعني أن هذه القصبات الجديدة أقيمت لتدعيم القصبات القديمة كقصبة حرطان وأكَوراي(13).

---

(10) – الناصري: الاستقصا، م. س، ص : 62.

(11) – نفسه.

(12) – تولال مشتقة من الكلمة الأمازيغية "تلالت"، وتعني الرافدة أو الدعامة، ومعناها الذين يمكن الاعتماد عليهم. راجع:

- Kamal (Said), « Signification des Toponymes de la région de Meknes », la tribune de Meknes-Tafilalt, n°44, p : 33.

(13) – اللحية محمد : "التدابير العسكرية في القرن التاسع عشر"، مجلة السفير المكناسي، العدد 10-11، السنة الأولى، نونبر– دجنبر 1986، ص : 23.

لعل أهم القصبات الموجودة بقبيلة كَروان هي قصبة أكَوراي، وقد أنشئت في ظل الصراع بين المخزن والقبائل كثكنة مخزنية، مشكلة بذلك موقعا عسكريا ضمن الحزام الثالث من القصبات التي شيدها المولى إسماعيل حول مدينة مكناس، بهدف تدعيم سلطة المخزن بأحواز المدينة والمناطق الجبلية المجاورة. فإذا كان الحزام الثاني يشكل خطا دفاعيا ثانيا وسكنا لبعض الشرفاء العلويين (قصبة بوفكران، قصبة حرطان)...، فإن الحزام الثالث يقع مباشرة عند مشارف الأطلس المتوسط (منطقة الدير)، ويتشكل هذا الحزام الأخير من قصبات أكَوراي والحاجب وإيموزار.

2 - أكَوراي : لمحة عن الإنسان والمجال

تقع أكَوراي في منطقة الدير بين الأطلس المتوسط وهضبة سايس، على علو حوالي 850 م عن سطح البحر وعلى بعد حوالي 28 كلم جنوب مدينة مكناس وسط قبائل كَراون الأمازيغية. يحدها من الشمال الشرقي جماعة عين عرمة، ومن الشمال الغربي الصفاصيف زمور، ومن الشرق جماعة الدير الحاجب، ومن الجنوب الشرقي قبيلة بني مكَيلد ومن الجنوب الغربي وادي بهت. بلغ عدد سكان أكَوراي 1200 نسمة عام 1950. ثم انتقل هذا العدد سنة 1982 إلى 4930 نسمة. وحسب الإحصاء الرسمي لسنة 2004 وصل عدد سكان أكَوراي إلى 13.291 نسمة.

تشير الوثائق إلى أن دير أكَوراي كان في بداية القرن السابع عشر مجالا للنزاع بين قبائل كَروان وبني مطير وبني مكَيلد، كما أن أول تجمع بشري كان عبارة عن قرية تتشكل من "نوايل" متناثرة على جوانب وادي الرحا (قرب القصبة الحالية). وفي بداية عهد المولى إسماعيل تعرضت القرية لوباء أتى على معظم سكانها، في حين التحقت البقية بالقصبة التي شيدها السلطان، بعيدا عن التجمع الأصلي، لتكون ثكنة لعناصر البواخر، وقاعدة الانطلاق لمواجهة القبائل المناوئة بالأطلس المتوسط وخاصة بني مكَيلد وأيت يوسي وأيت سغروشن التي تشكل العمود الفقري لحلف أيت إدراسن. وبالرغم من صغر حجم القصبة - حيث لا تتعدى مساحتها 1,2 هكتار - فإنها استقبلت عناصر سكانية جديدة: أسر مطيرية وكَروانية، بالإضافة إلى الأسرى المسيحيين[14] الذين اعتنقوا الإسلام

(14) - قارن : إدريس أبو إدريس: "رفع الالتباس عن وضع الأسرى المسيحيين بمدينة مكناس (أواخر القرن17م بداية القرن18م)"، أعمال ندوة الحاضرة الإسماعيلية، 16-19 أكتوبر 1986، منشورات كلية الآداب بمكناس، 1988. صص: 261-268.

(العلوج) واستقروا على دفعات متوالية، منذ القرن السابع عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر[15]. وقد اندمجت هذه العناصر لتكون الأساس السكاني للقصبة[16].

يرتبط تاريخ مدينة أكَوراي بشكل مباشر بالقصبة المذكورة التي تناهز من العمر حوالي ثلاثة قرون، وقد صنفت تراثا عالميا إنسانيا من طرف وزارة الثقافة المغربية بقرار صادر بتاريخ 10 فبراير 1948 (ج. ر. رقم 1846، في 12 مارس 1948).

بالنسبة لقبيلة كَروان فقد تعرضت لعملية الهجرة انطلاقا من جبل صاغرو وواد زيز مرورا بالأطلس المتوسط. وخلال تقدمها واجهت صراعات مع قبائل أخرى في إطار اتحاديتي أيت عطا وأيت أومالو. كما اندمجت معها مجموعات بشرية أخرى. ومهما يكن تاريخ الاستقرار النهائي ببسيط سايس مكناس، فإنها استوطنت مجالا شاسعا خصبا يمتد من أبواب مكناس. وقد ساعدت هذه الظروف الطبيعية على ذلك، مما جعل بلادها أول منطقة ستحتلها القوات الفرنسية بعد احتلال مدينة مكناس[17].

شهدت بلدة أكَوراي نوعا من التهميش طيلة فترة الحماية، بحيث كان يتم تصنيفها ضمن القرى. لكن ابتداء من 17 يوليوز 1992 سيتم تحويل أكَوراي من جماعة قروية إلى جماعة حضرية. ولعل موقع مدينة أكَوراي في سافلة الهوامش الشمالية لمنطقة الأطلس المتوسط جعلها تستفيد بشكل طبيعي من الثروات المائية للمنطقة. ومن المؤكد أن منطقة أكَوراي تعتبر من المناطق الغنية بثرواتها المائية، كما يتضح من كثرة العيون المنبثقة. ذلك أن المنطقة تتوفر على مجوعة من العيون ذات المياه العذبة والصبيب الدائم. كما توجد في منطقة أكَوراي العديد من العيون الأخرى ذات الصبيب الموسمي.

---

(15) – كانت آخر دفعة تتشكل من الأوروبيين الذين أسروا بقبيلة قلعية ما بين 1828 و1831.

(16) – عبد الرحمان رحّو : مادة "أكَوراي"، معلمة المغرب، ج 2، نشر مطابع سلا 1989، ص: 637.

(17) – سعيد علبوش : "قبائل أحواز مكناس على عهد الحماية: 1912-1956، نموذج قبيلة كَروان"، دكتوراه، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس 2006 ، مرقون، ص: 86.

3 - القصبة التاريخية لأكَوراي



الصورة 1 : القصبة التاريخية لأكَوراي، مارس 2010(18)

- دواعي التأسيس وأصل التسمية

سبقت الإشارة إلى أن قصبة أكَوراي تدخل ضمن العديد من القصبات التي بناها السلطان مولاي إسماعيل لترسيخ دور السلطة المركزية في جميع مناطق المغرب، ومن أجل مراقبة القبائل الأمازيغية المستقرة في الجبال ومنعهم من النزول إلى السهل وحماية العاصمة مكناس من هجماتهم. وقد ذكر البريطاني بيلو Thomas Pellow قصبة أكَوراي في الرواية التي خصصها لأسره بالمغرب(19)، حيث أكد اشتغاله بها في الحامية العسكرية سنة 1727 م.

تنتمي قصبة أكَوراي إلى الدير الشمالي الذي يشكل منطقة اتصال بين مرتفعات الأطلس المتوسط في الجنوب وهضبة مكناس في الشمال، مما مكنها من السيطرة على السهل المتقطع بكَروان الذي يعتبر امتدادا لسهل سايس الكبير. وتشكل بذلك منطقة الاتصال بين مرتفعات الأطلس بالجنوب وهضبة مكناس بالشمال. ولعل بناء القصبة كان لهدفين : الأول عسكري ويتمثل في مراقبة أمازيغ الأطلس المتوسط. والثاني تلبية رغبة زوجة السلطان البرتغالية التي أعجبت بالمنظر الجميل لأكَوراي، فطلبت منه بناء قصبة اتخذت قاعدة لإيواء أسرتها، بالإضافة إلى احتضانها للأسرى المسيحيين والعلوج.

---

(18) - الصور الواردة في المقال مأخوذة بعدسة علي بنطالب، أثناء القيام ببحث ميداني بالقصبة في شهر مارس من العام 2010.

(19) - نشرت في لندن سنة 1739 م.



الصورة 2 : إحدى واجهات قصبة أكَوراي، مارس 2010.

ارتبط اسم القصبة بلفظة "أكَوراي". وتتعدد الروايات في أصل هذه التسمية: أولها أنها تعني الهضبة العليا نسبة لمدينة برتغالية تدعى "لاكوريا"، أما الثانية أنها تعني عين "السلطان" باللغة البرتغالية، بحيث أن لفظة "أكَو AGOU" تعني عين و"راي RAI" تعني سلطان، وهذه العين تدعى العين البرانية[20]. إن تسرب كلمة (أكَوراي) ذات الأصل البرتغالي إلى هذه المنطقة القابعة في سهول الأطلس المتوسط يطرح تساؤلات تجيب عن بعضها الرواية الشفوية المتوارثة لدى ساكنة المنطقة. فالتفسير البرتغالي للكلمة يجد تبريره في كون الموقع الذي شيدت عليه القصبة كان محطة لموكب المولى إسماعيل في المنطقة، إذ يروى أن السلطان إسماعيل كان في إحدى غزواته على قبيلة زيان غرب المنطقة، وبعد تحقيق الانتصار عاد إلى العاصمة مكناس، وفي طريقه مر بالموقع المذكور في موكب يضم زوجته البرتغالية التي هالها الموقع ومنظره الفسيح، فطلبت منه أن يبني لها قصبة تكون مقرا لعائلتها، فكان لها ما شاءت، وشكل ذلك أحد أسباب اختيار موقع القصبة.

- **سكان القصبة**

كانت القصبة تضم أكبر تجمع بشري بالقرية خلال العهود السابقة التي كانت تلعب فيها دورا مهما بالمنطقة، وتحول دورها في ما بعد لتصبح مقرا لسكن الأسر ذات الأصول المختلفة.

---

(20) – عادل البخاري وجواد أشيبان: "قصبة أكَوراي: التاريخ، الواقع والآفاق"، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس 2004/2003، ص : 8.

بعد تأسيس القصبة استوطنها أقارب الأميرة البرتغالية الذين كانوا يسمون بالعلوج والذين حضوا باهتمام خاص من طرف السلاطين المغاربة، من خلال إصدار ظهائر توقرهم وتمجدهم وتحفظ لهم حقوقهم وتحميهم وتجدد لهم الامتيازات التي كانت ممنوحة لهم في السابق[21]. في هذا الصدد يقول عبد الرحمان بن زيدان: "... وقصبة أكراي، واستعمرها (المولى إسماعيل) بالعلوج ولازال عقبهم بها لحد الآن..."[22]. وكان هؤلاء العلوج يقطنون القصبة ويقومون في الوقت نفسه بحراستها.

ولازالت بعض الأسماء العائلية متداولة في أوساط سكان القصبة، يقال أنها ذات أصل برتغالي، كعائلة بالاموا، سانك كيلو، زوقوا، بانكوش، قرنيف وغيرهم، الشيء الذي يدفع البعض إلى نعتهم ب "برطقيز" نسبة إلى أصلهم البرتغالي[23].

ويأتي في المرتبة الثانية عنصر" البواخرة"[24] الذين كانوا عصب الجيش الإسماعلي في ذلك الوقت، وقد وكّل لهم السهر على حماية القصبة من هجمات القبائل التي كانت ترفض قبليا منطق دخول جنس غير أمازيغي الأصل إليها.

كما استقبلت القصبة عنصرا ثالثا تمثل في بعض العلماء الصحراويين المنحدرين من إقليم الراشدية، الذين أتى بهم المولى إسماعيل من أجل تلقين تعاليم الإسلام للعائلات البرتغالية بعد إسلامها. هذا دون أن ننسى العنصر الأمازيغي (أيت نظير-كَروان)... الذي يدخل ضمن العناصر السكانية الجديدة، حيث لم يلتحقوا بالقصبة إلا في أوقات متأخرة[25].

غير أن اندماج هؤلاء بأهل القصبة عن طريق التزاوج قد ألغى تدريجيا المنطق القبلي. وهكذا فالقصبة ضمت فسيفساء سكانية ذات أصول متباينة، لكن ارتفاع نسبة الزيادة الطبيعية وتصاعد مد الهجرة نحو القصبة جعلها غير قادرة على استيعاب هذه الأعداد المتزايدة من السكان، الشيء الذي نتج عنه ظهور أحياء سكنية خارجها في شكل دواوير على حساب الأراضي المجاورة لها[26].

(21) – تحمل العديد من الرسائل والظهائر الموجهة من طرف السلاطين العلويين عبارة "وصفائنا العلوج القاطنين بأجوراي..."، إضافة إلى عبارات التوقير والاحترام والعناية التي خصهم بها معظم السلاطين.

(22) – عبد الرحمان ابن زيدان : "المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف". م، س، ص:334.

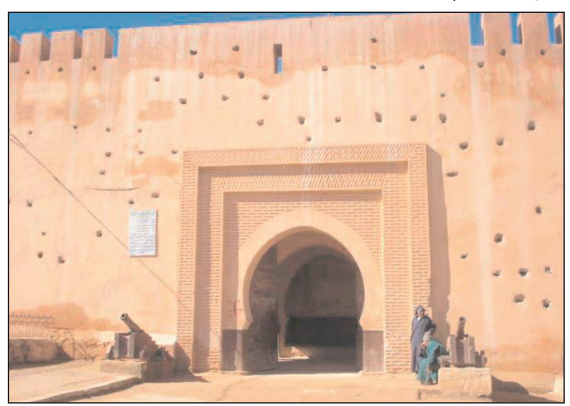
(23) – عادل البخاري وجواد أشيبان : م، س، ص: 12.

(24) – حسب روايات العديد من ساكنة القصبة فقد كان "بوخارة" يمارسون الحراسة (عسّاسة)، ويعتبرهم العلوج بمثابة خدام لهم.

(25) – عادل البخاري وجواد أشيبان : م، س، ص: 12-13.

(26) – المرجع نفسه.

4 - أهم مرافق القصبة



الصورة 3: الباب الرئيس للقصبة، مارس 2010.

يعتبر المسجد الأعظم لقصبة أكَوراي أهم مرفق بها، وقد حظي باهتمام كبير من طرف السلاطين العلويين، وهذا ما تبرزه الظهائر السلطانية الموجودة بالمسجد[27]. يتوسط هذا الأخير القصبة كما هو شأن كل المساجد في المعمار الإسلامي. وتشير الدلائل التاريخية إلى أنه شرع في بنائه في عهد المولى إسماعيل. ولم يتم الفراغ منه وإتمامه إلا على عهد السلطان عبد الرحمان بن هشام (1822-1859).

لم يختص هذا المسجد بأداء الصلوات والجمعة والأعياد فقط، وإنما كان مدرسة يلتقي فيها أهل العلم من العلماء والطلبة يتدارسون فيه علوم الدين حتى فاق صيته في بعض الأحيان جامعة القرويين بفاس، وذلك من خلال اهتمام السلاطين العلويين بالمسجد والطلبة وإفراد الأحباس لهم حتى يتمكنوا من الدراسة في أفضل الظروف.

استمر هذا الصيت إلى حدود سنة 1212 هـ وهي السنة التي ضرب فيها وباء الطاعون قرية أكَوراي، وقد قضى نحبه حوالي 866 شخص، منهم 35 من الطلبة وهو عدد كبير بالنسبة لتلك الفترة، مما أدى إلى توقف حركة العلم بموت عدد من العلماء وهجرة الطلبة وعودتهم إلى أهلهم، ومن ذلك الوقت انحصر دور المسجد في تحفيظ القرآن وأداء الصلاة.

(27) - لم نتمكن من تفحص هذه المخطوطات لأن المسجد كان مغلقا خلال فترة زيارتنا للقصبة (مارس 2010). وأكد لنا العديد من المهتمين ضرورة الحصول على ترخيص من باشوية أكَوراي من أجل الإطلاع على هذه المخطوطات. كما أكد لنا البعض عدم وجودها بالقصبة، وأنها نقلت إلى مكان مجهول. بالإضافة إلى ضياع بعض الوثائق والمخطوطات.

بعد الاستقلال لم يبق شيء مما ذكر، فقد تغيرت معالم المسجد شكلا ومضمونا. حيث تم إزالة النافورة من ساحة المسجد وغطي السقف - الذي كان مفتوحا على السماء - ومع ذلك فقد حافظ بعض المهتمين بالحقل الديني في المسجد على بعض المظاهر التعبدية، كقراءة القرآن جماعة بعد صلاة المغرب (الحزب)، وكذا قراءة دلائل الخيرات للإمام الجزولي يوم الجمعة بعد صلاة العصر على الطريقة الجزولية.

يتوفر المسجد على خزانة غنية بمخطوطات نفيسة تؤرخ لحقبة زاهية من تاريخه العلمي، غير أن أغلبها تعرض للضياع، وقد بقي منها حوالي 30 مخطوطا، أما الباقي فيجهل مصيره. وهي عبارة عن مخطوطات ذات صبغة دينية في الغالب.

يعرف المسجد حاليا ترميما استدعى إغلاقه نظرا لظهور بعض الشقوق في حيطانه. ونجد من مرافق هذا المسجد خزانة تضم ظهائر ورسائل[28] ومخطوطات تاريخية، بالإضافة إلى وجود مراحيض خاصة بالمسجد بنيت منذ عهد مولاي إسماعيل، وقد عرفت بعض الإصلاحات.

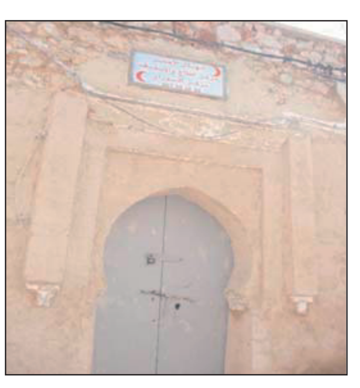


الصورة 4 : مسجد القصبة، مارس 2010

إلى جانب المسجد، نجد داخل قصبة أكَوراي المقر القديم لزاوية أنشئت مع بناء القصبة من طرف المولى إسماعيل، ويتعلق الأمر بالزاوية العيساوية التي كان ينخرط فيها معظم السكان، وقد تحولت الزاوية حاليا إلى مركز أكَوراي التابع للهلال الأحمر المغربي.

(28) - تجدر الإشارة إلى أن هذه الظهائر والرسائل تؤرخ لفترات هامة من تاريخ القصبة. وتمتد من عهد المولى إسماعيل مرورا بعهد المولى محمد بن عبد الله والمولى سليمان وعبد الرحمان بن هشام ومحمد بن عبد الرحمان والحسن الأول ثم المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ.

تجمع الرواية الشفوية على أن مقر الزاوية كان بمثابة كنيسة لتعبد العائلات المسيحية المرافقة للأميرة البرتغالية زوجة المولى إسماعيل. لكن بعد اعتناق هذه العائلات للإسلام تحولت هذه المؤسسة المسيحية إلى مركز للطقوس الصوفية الربانية (ذكر، حضرة...). وقد لعبت هذه الزاوية أدوارا عديدة تراوحت بين ما هو اجتماعي وسياسي وديني، ويرجع لها الفضل في بلورة الفكر الصوفي في أوساط سكان القصبة. وشكلت، حسب الرواية الشفوية، مقرا لتدارس مختلف مشاكل القصبة، إضافة إلى دورها في خلق تواصل ثقافي (صوفي) بين حاضرة مكناس والقصبة[29].



الصورة 5: مقر الزاوية الذي تحول إلى فرع للهلال الأحمر

كما تحتوي القصبة أيضا على حمام قديم بني منذ العهد الإسماعيلي، لازال يشتغل حاليا ويتم تسخينه بالخشب. بالإضافة إلى فرن خاص بطهي الخبز لساكنة القصبة. ثم هناك مقرا لفندق قديم كان مخصصا لإيواء الغرباء عن القصبة، وحاليا يكتريه بعض الأشخاص من أجل ممارسة أنشطة تجارية.

تجدر الإشارة أيضا إلى وجود عين داخل القصبة "العين الدخلانية"، وهي عين دائمة الجريان وتستعمل لغسل الملابس على الخصوص ولا تستعمل للشرب. كما توجد "عين خارجية" تنبع من تحت القصبة، وتوجد خارجها بجانب السور الشمالي. بالإضافة إلى وجود سقاية في الشارع الرئيس للقصبة قرب المسجد، وهي مزخرفة بفسيفساء من الزليج العتيق الذي تعرض معظمه للإتلاف. وتخترق القصبة مجموعة من الزقاق الضيقة والصغيرة تفرق بين الأحياء الشعبية التي تضم مجموعات سكنية كبيرة ذات أصول متباينة (السكان العلوج، الأمازيغ، صحراوة...).

---

(29) – عادل البخاري وجواد أشيبان : م، س، ص: 15.

وتحتوي القصبة على سجن صغير يرجع عهده إلى المولى إسماعيل، وقد أصبح حاليا عبارة عن دكان، إضافة إلى مجموعة من الدكاكين الضاربة في القدم.

يلاحظ أيضا وجود مدفعين في الباب الرئيس للقصبة منذ عهد مولاي إسماعيل. وتفيد روايات السكان بوجود ثلاثة مدافع فيما قبل: مدفعين من الحديد في الباب الرئيس (الأمامي)، ومدفع من النحاس في الباب الخلفي، هذا الأخير أصبح مصيره مجهولا وتتضارب الروايات حول أسباب اختفائه ومكان تواجده[30].

والملاحظ أن أزقة القصبة ضيقة نسبيا ومتفاوتة من حيث العرض (بين متر ومترين). كما شهدت واجهات العديد من المنازل تغييرات أثرت سلبا على درجة الانسجام الجمالي داخل القصبة ودروبها.

5 - الخصائص المعمارية لقصبة أكَوراي



الصورة 6: بعض أبراج القصبة، مارس 2010

من بين المعالم التراثية التاريخية[31] المتسمة بخصوصيات معمارية متميزة نجد قصبة أكَوراي. ويختلف معمار القصبة التاريخية لأكَوراي عن المعمار المتواجد بالمنطقة (كَروان)، حيث يتميز بخصوصية تربطه بالعمارة الإسماعيلية، وتجعله غريبا عن المعمار السائد بالمنطقة.

---

(30) - صرح لنا بعض المستجوبين بأنه تم تحويل المدفع النحاسي في اتجاه مقر قيادة أكَوراي. وأكد البعض الآخر عدم وجوده بالمقر المذكور، وأن مصيره أصبح مجهولا. بل هناك من تحدث عن سرقته من القصبة في ظروف غامضة.

(31) - قبل مرحلة الحماية لم يكن تصور التراث يتم إلا باعتباره تراثا حيا. وهكذا فإن عدة مآثر وبنايات تم تشييدها خلال تعاقب مختلف السلالات على الحكم في المغرب، تمت "المحافظة "عليها بفعل تأثير استمرار قيامها بوظائفها وبفضل الممارسات الاجتماعية التي تشكل خلفية إقامتها. وكانت مؤسسة الأحباس والأوقاف، من خلال عملها الخيري، مكلفة بمهمة تدبيرها والمحافظة عليها، راجع: مجلة "الثقافة المغربية"، منشورات وزارة الثقافة، العدد27/26، فبراير2007، ص: 39.

وتجدر الإشارة إلى أن التنظيم المجالي للقصبات الإسماعيلية يتميز بكونها عبارة عن أراضي شاسعة وخالية، إلا ما كان من مسجد ومنزل لقائد الحامية العسكرية ومساكن الحراس. ولا تخرج قصبة أكَوراي عن هذه القاعدة. إلا أن المسجد وبعض البنايات المعمارية المتبقية الأخرى أصبحت تغمرها البنايات الجديدة. وتنخرط هذه المعلمة في إطار التقليد المعماري المغربي الأندلسي من حيث مواد وتقنيات البناء وهي تقنية الطابية التي عرفت انتشارا كبيرا في العمارة المغربية، منذ الفترة الموحدية في الغرب الإسلامي عامة.

كما تتميز عمارة مولاي إسماعيل ببناء أسوار عالية مدعمة بأبراج وشرفات (مسننة، هرمية أو مستطيلة) في أعلاها. أما من الناحية الوظيفية فهذه السلسلة من القصبات والقلاع التي بناها هذا السلطان عبر الأراضي المغربية، ترتبط جزئيا، حسب جورج مرسيه Georges Marçais، بما نجده بالشرق الإسلامي وكذلك بسلسلة القلاع التي بناها الخلفاء الأمويون بالأندلس. وقد تكون مستلهمة في نظره من المنازل ذات الطابع التركي[32].

تجسد هذه القصبة الطابع العام لقصبات الفترة بسورها المبني من التراب المدكوك أو الطابية وتصميمها المربع الشكل. تنتهي الأسوار في قمتها بشرافات مستقيمة في الجهة الشمالية والجنوبية والشرقية. أما من جهة الغرب فارتفاع سورها يزيد عن ارتفاع سور الجهات الأخرى، حيث تم ترميمه في فترة لاحقة عن تأسيسها، إلا أننا نلاحظ بقايا شرفات المرحلة الأولى تحت الإكليل الحالي. دعمت الأسوار من جهة الشمال والغرب والشرق بثلاثة أبراج مربعة الشكل ولا يتجاوز ارتفاعها ارتفاع الأسوار.

أما من جهة الجنوب، فالسور محصن ببرجين فقط. ونجد في الزوايا أبراجا أكبر حجما. ويتم الولوج إلى داخل القصبة عبر باب ذي مدخل قائم تم فتحه بواسطة سور الجهة الجنوبية تقريبا. الباب عبارة عن قوس يحيط به إطاران مستطيلان. في الجانب الشمالي الشرقي، تتوفر القصبة على باب أصغر من الأول.

---

(32) - راجع بهذا الخصوص:

- Barrucand, M, « Remarques sur l'architecture militaires alaouites au Maroc », in Revue des études islamiques, 2, 1980.
- Marçais, G, « L'architecture musulmane d'occident », Paris, Arts et métiers Graphiques, 1954, p : 407.

تحتوي أسوار القصبة على أربعة أبراج في كل واجهة متخذة أشكالا مختلفة، إما مربعة الشكل أو مستطيلة، وبطبيعة الحال تدخل ضمن القواعد التحصينية الدفاعية. ولقد ارتبط البرج في المغرب الإسلامي بسلسلة تطورية لعبت فيها النماذج الرومانية ثم البيزنطية عن طريق البلاد التونسية والأندلسية دورا كبيرا، وهناك ارتباط وثيق بين الإنجازات بالمغرب الأقصى والإنجازات الأندلسية من حيث الشكل وبعض مواد البناء[33].

بنيت معظم مرافق القصبة من الطابية والحجر. تبلغ عدد أبراجها 15 وهي من نفس الحجم، غير أن الأبراج الشمالية والغربية عريضة، وبين البرج والآخر حوالي 25 إلى 30 متر.

والملاحظ أن بعض المنازل المهدمة تمت إعادة بنائها بنفس الشكل المعماري القديم. أما الأبواب فبعضها من الخشب وبعضها من الحديد. بالنسبة للأبواب الخارجية يلاحظ وجود بابين مستديرين في الأعلى: الباب الرئيس ويتوفر على ثلاث دعامات، شكله مقوس في الأعلى، ينعرج نحو اليسار بعد الدخول. كما نلاحظ وجود ثلاثة أقواس بالباب الرئيس للقصبة.

تمت إحاطة القصبة بسياج حديدي لحماية أسوارها من الجهتين الشرقية والجنوبية، وهذا السور علوه حوالي متر. بعض الجدران مبنية بالحجارة. سقوف المنازل من الخشب، والعديد منها مهدد بالانهيار. تم استعمال الإسمنت في حالات قليلة لها علاقة بتسهيل جريان الماء. نسجل غزو أنابيب الماء وأسلاك الكهرباء لمرافق القصبة[34]. في البداية كانت عملية حفر أنابيب الماء تتم داخل الأرض، في محاولة لعدم إحداث تغيير في معالم البناء. وتطلب تزويدها بقنوات التطهير السائل القيام بحفر الأنابيب داخل الأرض.

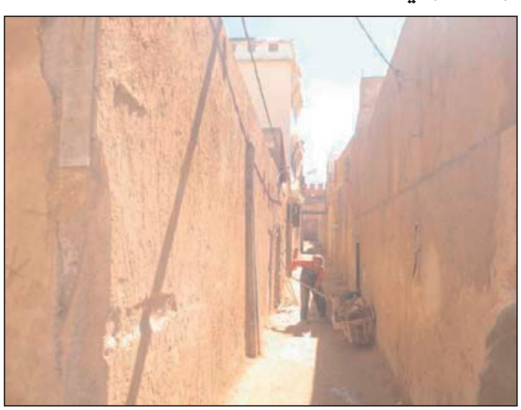
لم تختلف الهندسة المعمارية للقصبة عن باقي القصبات التي تتشابه فيما بينها إلى حد كبير من حيث الهندسة والمرافق المكونة لها. لقد شيدت قصبة أكَوراي في مساحة لا تتعدى 1.2 هكتار ممتدة على شكل مربع (أربع واجهات). مادة بنائها الأساس الحجر، تحتوي على بابين : باب يحتل واجهة القصبة، ويسمى بالباب القديم، وهو ضخم ولا زال يسارع الزمن. وتجدر الإشارة إلى وجود مدفعين خارج الأسوار يتوسطهما هذا الباب. ثم

(33) – البوخاري، م، س، ص: 20.

(34) – تم إدخال الماء والكهرباء إليها منذ فجر الاستقلال حسب ما صرح لنا به عون السلطة المحلية.

الباب الثاني الذي فتح في عهد الاستعمار على يد أحد قواد البلدة آنذاك، وقد سمي بالباب الجديد لحداثته(35).

6 - ترميم قصبة أكَوراي



الصورة 7: أشغال ترميم القصبة، مارس2010

إن أهمية الموقع التراثية استوجبت العناية به والمحافظة عليه. ولذلك عملت الجماعة الحضرية لأكَوراي، على تمويل مشروع ترميم القصبة وإبراز معالمها، وذلك بعد تهيء ملف تقني مفصل وافقت عليه مفتشية المآثر والمواقع التاريخية(36). هكذا شهدت القصبة عمليات ترميم شملت الأسوار والأبراج. وقام بعمليات الترميم تقنيون متخصصون. رغم أن دينامية هذه الترميمات والإصلاحات لم تستمر بشكل سريع يسمح بتأهيل القصبة لتلعب دورا تنمويا محليا.

أما المواد المستعملة في الترميم فتتمثل في التربة الحمراء التي يتم جلبها من منطقة زايدة والحاجب، ثم الجير الأبيض الذي يتم خلطه بالتربة الحمراء. وتستعمل تربة صفراء من أجل إصلاح الأنابيب، والإسمنت في ترميم الواجهات الداخلية لمنازل القصبة. وقد عمل المشرفون على الترميم على الحفاظ على الشكل المعماري الأصلي، كما عملوا على الحفاظ على جمالية القصبة خاصة من ناحية بابها الرئيس(37).

(35) – البوخاري، م، س، ص : 20.

(36) - « Architecture du Maroc », Revue bimestrielle, N°31, Février- Mars, 2007. pp :72-77.

(37) – تشير لوحة البيانات المثبتة أمام القصبة إلى أن إصلاح وتأهيل هذه المعلمة يدخل في إطار المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، برنامج محاربة الهشاشة 2008، ويشرف عليه كل من المجلس الإقليمي للحاجب وجمعية الأعمال الاجتماعية بإقليم الحاجب، بتكلفة تقدر ب: 479988.00 درهم، وحددت مدة الإنجاز في 8 أشهر. أما المهندسة المعمارية المكلفة بالمشروع فهي الفرنسية Claire pattete، ومكتب الدراسات: Si mico مكناس. والمقاولة المكلفة بالمشروع هي Schitay de travaux divers الحاجب.

لا يسمح للسكان بإدخال إصلاحات تمس الشكل المعماري للقصبة، ويرخص فقط بإدخال بعض الإصلاحات الخفيفة. ويتم استعمال الإسمنت في الترميم الداخلي. يتلقى المرممون تعليمات المشرفة على العملية[38]. ولا يعرف البناءون بالضبط متى ستنتهي أشغال الصيانة.

يلاحظ وجود عدادات الماء والكهرباء، وأنابيب صرف المياه في واجهات العديد من المنازل. كما نسجل بعض الاختلاف في طريقة الترميم (حمري +جير، ثم تربة +إسمنت). وحسب شهادات بعض السكان يتم الترميم فقط بالواجهات والأزقة، بينما داخل المنازل لا يتم ترميمه. وقد أعطيت أوامر لهدم بعض المحلات التجارية التي تؤثر على جمالية القصبة[39].

وتطرح مسألة صيانة قصبة أكَوراي مشاكل متعددة، فتجديد البناء وترميمه عملية تسعى إلى تمديد وتأخير تغير أصبح أمرا حتميا. وتتلخص مشاكل وعوائق صيانة هذا التراث أساسا في كون الأسر المستقرة بالقصبة، رغم قلة عددها، معوزة وغير قادرة على مواجهة تكاليف الصيانة. وفي صعوبة ربط الدور داخل القصبة بشبكات الماء الصالح للشرب والكهرباء دون إلحاق أضرار بها، نظرا لطبيعة المواد المستعملة في البناء المشكلة أساسا من الطين.

فقدت القصبة الكثير من رونقها وجماليتها، فالمواد المستعملة لم تحافظ بشكل كلي على الخصائص المعمارية الأصلية، خاصة بالمرافق الداخلية، ويتجلى ذلك في غياب التناسق بين المواد الأصلية والمواد التي يتم بها الترميم. كما أن المشاكل الاجتماعية، وانتشار بعض الخرافات، وغياب الوعي لدى بعض السكان، كل هذا يؤثر على المعمار[40]. بالإضافة إلى أن الكثافة السكانية المتزايدة تؤثر سلبا وتساهم في تردي أوضاع بعض مرافق القصبة.

(38) – يلقبها المشرفون على عملية البناء ب "النصرانية".

(39) – تساءل بعض المستجوبين عن إمكانية إعادة إصلاح أسوار القصبة، حيث اعتبروا أن الإصلاح الأول لم يتم بالشكل المطلوب وبدأت الأسوار في الاندثار. واعتبر البعض ترميم القصبة بشكل عام غير ذي جدوى.

(40) – من نماذج ذلك محاولة التنقيب عن الكنوز داخل أسوار القصبة ومسجدها.

7 - تحولات الحياة الاجتماعية والثقافية

مرت قصبة أكَوراي بعدة قرون من التحولات الوظيفية والمعمارية. فعلى مدى ثلاثة قرون لم تسجل القصبة أي توسع خارج أسوارها بسبب الحصار المفروض من طرف القبائل المجاورة، واعتمادها بشكل أساسي على إعانات المخزن. وخلال مرحلة الحماية تقلص رصيدها العقاري بسبب استحواذ المعمرين على أخصب الأراضي. ثم فقدت القصبة بعد الاستقلال دورها كثكنة مخزنية، وتحولت بفعل التقسيم الإداري إلى جماعة قروية ثم إلى جماعة حضرية[41] .

تتركب ساكنة المنطقة من عرب وأمازيغ، ويسود تعايش كبير بين الطرفين. فالسكان الذين يكترون بعض الدور بعضهم أمازيغ، لكن يمكن القول إجمالا بأن الواقع الحالي يعكس تنوعا لغويا وثقافيا. واللغة المتداولة بكثرة أثناء تواجدنا بالقصبة هي العامية المغربية[42].

ينتقل السكن بقصبة أكَوراي عبر الإرث، كما أن عدد الدور في تناقص نتيجة لقدم المنازل، حيث انهارت بعضها والبعض مهدد بالانهيار. نسجل أيضا فراغ بعض المنازل داخل القصبة رغم أن عددها قليل. وتم إعادة بناء بعض الدور المهدمة بنفس الشكل المعماري القديم. المنازل الداخلية كانت منذ بداية وجود القصبة، أما المنازل التي أعيد بناؤها فهي قليلة حيث بلغت سبعة منازل.

يبلغ عدد الدور بقصبة أكَوراي حاليا 101 منزل، يقطنها حوالي 1000 نسمة. ويمارسون في الغالب النشاط الفلاحي في المجالات المحيطة بأكَوراي، مع وجود بعض المتاجر والمرافق الخدماتية. أغلب السكان الأصليين أخلوا منازلهم بالقصبة، حيث تم كراؤها، أو إغلاقها بعد الحصول على سكن خارج القصبة.

تشكل بعض المنازل العتيقة خطرا على ساكنتها، الشيء الذي دفع مجموعة من القاطنين بها إلى هدمها وإعادة بنائها على شاكلة عصرية، ومع ذلك لا زالت مجموعة من المنازل العتيقة ذات طابع هندسي ومعماري تقليدي متناسق مع الشكل العام للقصبة تتوفر على شروط الأمان من الانهيار، كما يقسم الشارع الرئيس هذه التجمعات السكنية إلى

(41) – عبد الرحمان رحو، مادة أكوراي، م، س، ص: 637.

(42) – معظم السكان المستجوبين أمازيغ.

شطرين، كل شطر يحتوي على عدد من الدروب الضيقة المتداخلة فيما بينها خصوصا الشطر السفلي[43].

ويلاحظ غياب النظافة بالعديد من مرافق القصبة، حيث يتم استعمال الدواب في إدخال بعض السلع. بعض الجنبات الداخلية شبيهة بالمزابل، وبعض الأزقة تصدر منها روائح كريهة.

لا تهم قصبة أكَوراي حاليا إلا القاطنين بها، فالسكان في المحيط الخارجي يحتاجونها في بعض الحالات التي لها علاقة بالتجارة مثلا أو للصلاة في مسجدها. ويعتبر المسجد العتيق الذي يتمركز في وسطها أهم مرفق بالقصبة[44]. ومن مظاهر تتعدد الوظائف الاجتماعية للقصبة وجود بعض المرافق الأخرى مثل : سقاية، متاجر، مقرات لممارسة بعض الحرف، مخدع هاتفي...إلخ. ثم إن أغلب السكان يمارسون أنشطة أخرى خارج القصبة.

في البداية كان النشاط المهني الغالب داخل القصبة هو الصناعة التقليدية، حيث كانت مصدرا لعيش العديد من ساكنتها. ثم تحول أغلب السكان إلى ممارسة النشاط الفلاحي، ويتمثل في استغلال أراضي الجموع في المجال المحيط بالقصبة.

تتحدث الساكنة المحلية بنوع من الحسرة عما يمكن تسميته "بالعصر الذهبي للقصبة"، كان التضامن سائدا فيها بين السكان. وتبدو الصورة جميلة حينما نعلم بأن كل عائلة بالقصبة كانت لها عرصة بالخارج تستعمل غالبا للترفيه، كما كانت تتوفر على الأقل على بقرة، وكان الراعي يقوم بمراقبة جميعها دفعة واحدة ويلقب ب "سارح الدولة"، ولم تكن تباع لا الخضر ولا الحليب، بل يتم تبادلها بين سكان القصبة. وفي هذا الواقع كانت تغيب النزاعات الاجتماعية[45].

ومثل ما حدث في العديد من القبائل التي كانت متماسكة، انقسم سكان القصبة لدواع سياسية ترتبط أساسا بالظروف الانتخابية، حدثت معها صراعات داخل العديد من العائلات، وهذه النزاعات السياسية أثرت في الواقع الاجتماعي داخل القصبة. كما أدت

(43) – البوخاري، م، س، ص: 22.

(44) – للمسجد جمعية تسيره تسمى "جمعية القصبة العليا".

(45) – استقينا هذه المعطيات من مقابلات مع بعض المسنين بالقصبة.

هذه النزاعات إلى هجرة بعض الأعيان من القصبة. ودخل العديد من "الغرباء" إليها. وهذا الواقع لا زال مستمرا لحد الآن[46].

يعتبر "العلوج" بأن أغلبية المستفيدين من الأحباس من أصل بخاري، وأنهم لا ينتفعون من المرافق المحبسة على المسجد، مما دفع العديد منهم إلى هجرة القصبة، خاصة وأن نعت "البرطقيز"، أي البرتغاليين، كان ولا زال يلازمهم. وإلى جانب ذلك يبرز بحدة مشكل أراضي الجموع، حيث صرح لنا البعض ببيع مساحات كبيرة منها.

ولعل محور الصراع داخل القصبة يتجلى في استغلال الأملاك التابعة للمسجد[47]، وكذا تسيير الأراضي الجماعية[48]. وتشمل انتقادات بعض ساكنة القصبة أيضا بعض ممتلكات المسجد، حيث يعتبرون بأنه لا يستفيد منها. وأكد العديد منهم بأن بعض الممتلكات الخاصة به تمت سرقتها، ومن بينها المحراب الأصيل وساعة حائطية ضخمة مصنوعة من الخشب، بالإضافة إلى جاموز الصومعة.

كان العزاب يمارسون حراسة القصبة، ففي كل ليلة كان يعين من يمثل بعض الدور للحراسة، وكان ذلك يتم بالتناوب. أما الواقع الحالي فيثير اشمئزاز السكان، فالقصبة لم تعد محروسة والأبواب تترك مفتوحة، مما يؤثر سلبا على سيادة الأمن والاطمئنان داخل القصبة.

(46) – أفادنا بعض المستجوبين، وخاصة بعض أعضاء جمعية القصبة الشريفة للتاريخ والتراث، بأن حزب الاستقلال هيمن على تسيير منطقة أكَوراي، بما فيها المرافق المرتبطة بالقصبة، منذ الحصول على الاستقلال. وفي مرحلة ثانية أصبح لحزب الحركة الشعبية نفوذ بالقصبة. وأدى النزاع بين الحزبين إلى حدوث انشقاقات داخل العائلات القاطنة بها.

(47) – أكد لنا بعض المستجوبين بأن حوالي 740 هكتار من الأراضي الجماعية تابعة للسلالة الأصلية، بالإضافة إلى 37 هكتار محبسة على مسجد القصبة.

(48) – نذكر على سبيل المثال أن "جمعية القصبة الشريفة للتاريخ والتراث" قدمت شكايات إلى العديد من المسؤولين وإلى بعض الوزارات والمؤسسات حول هذا الموضوع.

8 - الواقع الراهن وآفاق المستقبل



الصورة 8: تجمع الأوساخ داخل وخارج القصبة، مارس 2010

مما لا شك فيه أن للقصبة التاريخية لأكَوراي، أحد أقدم المراكز الحضرية في القرن17م، ماض مشرق وتاريخ زاخر. بيد أن تحولات الزمن فعلت فعلها في القصبة ومحيطها. فإذا كان المولى إسماعيل قد أدرك منذ القرن17م أهمية الموقع الاستراتيجي لأكَوراي، فشيد بها قصبته التاريخية لتشكل حصنا منيعا ضد غزوات قبائل زيان وقطبا عائليا لزوجته البرتغالية، فإن واقعها الحالي جعل منها مجرد قرية كبيرة يتفشى فيها البؤس والبطالة وتردي البنيات التحتية، رغم توفرها على ثروة فلاحية ومائية وغابوية مهمة(49).

إن الشكل المعماري الذي تأخذه القصبة والمرافق التي تحتويها جعلها تترك طابع الإعجاب لدى الزائر، حيث لا زالت الساكنة تتذكر تقاطب مجموعة من حافلات السياح الأجانب من حين لآخر قصد زيارة هذه المعلمة، لكن قل توافدهم بشكل كبير منذ أواخر الثمانينات(50). ويرجع هذا العزوف إلى الحالة المتدهورة التي آلت إليها القصبة على مستوى أسوارها، أو ما يوجد بداخلها مثل مشكل تسرب مياه الصرف الصحي من داخل

(49) - تبقى من جملة عوائق التنمية بأكَوراي البنية العقارية التي تعرف هيمنة لافتة لأراضي الجموع والحبوس، وتعد عائقا أساسيا أمام الاستثمار خاصة في الصناعة الغذائية، إذ تضم أكَوراي أجود الأراضي الفلاحية، وتحضى بثروة مائية هائلة: "العين البرانية، العين الدخلانية، عين أفردي، عين المحسنين، عين يشي وعين معروف الواقعة على بعد 10 كلم في اتجاه الحاجب المنبع الرئيس لواد بوفكران". أنظر : جريدة "الوطن الآن"، العدد 330، بتاريخ 19 مارس 2009.

(50) - أكد العديد من قاطني القصبة ندرة السياحة بها، حيث أن عدد السياح الأجانب الوافدين عليها في تناقص كبير.

الواجهة الجنوبية للسور، إضافة إلى حالة التدهور التي تشهدها العديد من مرافقها. الأمر الذي يشكل عائقا أمام التنمية المحلية للقصبة ومحيطها. وكان من المفروض أن تشكل القصبة، باعتبارها معلمة تاريخية هامة، ورقة رابحة بالنسبة للمنطقة من خلال استغلالها سياحيا، ولا يمكن ترجمة هذا على أرض الواقع إلا بترميمها وصيانة هذا الإرث التاريخي وحمايته[51].

إن الواقع المزري للقصبة التاريخية لأكَوراي لا يشجع على السياحة الوطنية والدولية. فلم تعد تستقطب سياحا أجانب إلا في الحالات النادرة، رغم أن هذا القطاع كفيل بالدفع بالقصبة ومحيطها في اتجاه خلق تنمية محلية تدعم الإنسان وتساعد على الحفاظ على مثل هذا التراث.



الصورة 9 : إهمال العديد من مرافق القصبة، مارس 2010

من مظاهر تردي أوضاع القصبة تجمع الحافلات والشاحنات في واجهتها الأمامية والجنوبية. وغياب النظافة بالعديد من مرافقها، حيث تتجمع الأوساخ بالواجهة الرئيسية. ويلاحظ تواجد الطيور بالحفر المنتشرة في الأسوار. كما تنتشر تشققات في واجهتها الجنوبية. وقد طالب بعض السكان بمنحهم سكنا خارج القصبة مقابل تخليهم عن منازلهم بالداخل[52]. فبعد انهيار العديد من المنازل أصبحت دور أخرى مهددة بالانهيار. كما بدأت سقوف الأبواب المكونة من الخشب في الاندثار.

(51) – البوخاري، م، س، ص: 22.

(52) – خلال زيارتنا للقصبة كان العديد من السكان يلحون على عون السلطة المحلية بتسجيل منازلهم ضمن الدور التي تستوجب الإصلاح.

تكتسي القصبة التاريخية لأكَوراي أهمية قصوى بالنسبة للدولة والمجتمع على حد سواء. لكن غالبا ما ينظر إلى مثل هاته البنايات كمآثر تاريخية خالية من روح التناغم بينها وبين محيطها، مما يضفي عليها صورة الاندحار والتدهور. إن صيانة ونقل الأصالة الهندسية في القصبة أمر يهم بالدرجة الأولى السلطات المركزية والمحلية وهيئات المجتمع المدني، على أن يقوم كل طرف بما يلزم من أجل المحافظة على تراث تاريخي يهم الجميع(53).

خاتمة

تقتضي وضعية القصبة ضرورة إيجاد حلول ناجعة للحفاظ على هذا التراث الحضاري الذي يشكل مدعاة للافتخار والاعتزاز لساكنة المنطقة وللمغاربة أجمع. من أجل تحقيق هذا الهدف تستدعي الضرورة إجراء ترميم يأخذ بعين الاعتبار طبيعة مواد البناء، وذلك قصد تثمين المعالم العمرانية. ولعل صيانة مآثر من هذا القبيل تفرض أن تكون التكنولوجيا العملية والمتعلقة بالزخرفة وفية للتاريخ فيما يهم الأصالة الحقيقية لصلات الأبنية المحفوظة بمجتمعها المحلي وبعصره الذي انقضى وولى(54) .

ويجب أن تتكاثف جهود الجميع من أجل إحياء وتثمين مثل هذا التراث المعماري، وإنعاش المآثر التاريخية، والارتقاء بها إلى مستوى العالمية، والبحث عن الإشعاع الدولي لهذا التراث. والعمل على إيجاد وظائف سياحية وسوسيو تربوية وثقافية جديدة لهذه المعالم التاريخية، وهو ما سيفتح أمامها إطارا جديدا للاستمرار بعد أن باتت تحتضر في صمت(55). وكل هذا يستوجب توعية المجتمع، خاصة المحلي منه، بأهمية المحافظة على هذا التراث(56).

---

(53) – أبنية القصور، م، س، ص: 84.

(54) – نفسه، ص: 84.

(55) – "قصبات وقصور جنوب المغرب تبحث عن وظائف جديدة"، م، س، ص:11.

(56) – راجع : "الحفاظ على التراث الثقافي"، عالم المعرفة، عدد 322، دجنبر 2005.

البيبلوغرافيا

– ابن زيدان، عبد الرحمان : "المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف"، مطبعة إديال، 1993.

– ابن عبد الله، عبد العزيز: "القصبات والقلاع الإسماعيلية"، مجلة دعوة الحق، العدد 268، مارس 1988.

– أبو إدريس، إدريس: "رفع الالتباس عن وضع الأسرى المسيحيين بمدينة مكناس (أواخر القرن 17م بداية القرن 18م)"، أعمال ندوة الحاضرة الإسماعيلية، 16-19 أكتوبر 1986، منشورات كلية الآداب بمكناس، 1988.

– البوخاري عادل، وأشيبان جواد : "قصبة أكَوراي : التاريخ، الواقع والآفاق"، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، 2004/2003.

– بنطالب، علي: "المخزن والقبائل الضغط الجبائي وتداعياته 1894-1912"، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2013.

– بوطالب، إبراهيم: معلمة المغرب، مادة "المولى إسماعيل"، نشر مطابع سلا، 1989/1410، ج 2.

– الناصري، أحمد بن خالد: "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1965/1954، ج7.

– الفرخ، حميد: "تطور المجال الدفاعي المعماري بالمغرب"، ضمن أعمال ندوة: "تاوريرت–واد زا /القصبة التاريخ والمجال والتنمية"، تاوريرت 8-9 ماي2007.

– عبد الرحمان، رحّو : مادة "أكَوراي"، معلمة المغرب، ج 2، نشر مطابع سلا1989.

– علبوش، سعيد: "قبائل أحواز مكناس على عهد الحماية: 1912-1956، نموذج قبيلة كَروان"، دكتوراه، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، 2006.

– اللحية، محمد: "التدابير العسكرية في القرن التاسع عشر"، مجلة السفير المكناسي، العدد 10-11، السنة الأولى، نونبر–دجنبر 1986.

– شقير، محمد: "تطور الدولة في المغرب، من القرن الثالث ق. م إلى القرن العشرين". مطبعة الشرق، 2000، ص 254.

- مجلة "الثقافة المغربية"، منشورات وزارة الثقافة، العدد 27/26، فبراير 2007.
- جريدة "الوطن الآن"، العدد 330، بتاريخ 19 مارس 2009.
- "الحفاظ على التراث الثقافي"، عالم المعرفة، عدد 322، دجنبر 2005.

******

- « Architecture du Maroc », Revue bimestrielle, N°31, Février- Mars, 2007. pp : 72-77.
- Barrucand, M, «Remarques sur l'architecture militaire alaouite au Maroc», in Revue des études islamiques, 2, 1980.
- De Lachapelle, F, «Moulay Ismail et les Berbères Sanhaja du Maroc Central», in : Archives Marocaines, vol. XXVIII, 1931, pp : 179-210.
- Kamal (Said), «Signification des Toponymes de la région de Meknes», la tribune de Meknes- Tafilalt, n°44.
- Marçais, G, « L'architecture musulmane d'occident », Paris, Arts et métiers Graphiques, 1954.
- Morsy Magali, «Moulay Ismail et l'armée de métier», in : Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine, XIV, 1967, pp : 97-122.

قصور واحة تودغى، إلى أين؟

ذ. مصطفى عبد شافق

باحث، تنغير

تقع واحة تودغى في منطقة أريد لها أن تكون تنميتها المحلية ومساهمتها في التنمية الوطنية مبنية على أساس إنعاش القطاع السياحي بالدرجة الأولى. وهنا تبرز خاصية أساسية موجهة لمثل هذا الإدراك: يتعلق الأمر بانتظام قصور على امتداد شريط أخضر عند ضفاف واد تودغى وعلى مسافة تقارب 30 كلم داخل وسط طبيعي يغلب عليه الطابع الصحراوي ويشكل فيه الماء موردا حيويا ونادرا. وتثير هذه الخاصية سؤالا أساسيا هو: هل يمكن الاستمرار في المرحلة الراهنة في التعامل مع القصور كعنصر مجالي أساسي في المنطقة، يوجه البرامج والسياسات التنموية المحلية؟ بمعنى آخر : هل لا تزال القصور تشكل عنصرا ضروريا يضمن الطابع الواحي لتودغى؟ وهل الحفاظ على مثل هذه الخصوصية المجالية مرتكز ضروري لكل عملية تخطيط يقوم بها الفاعلون بالمنطقة (الجماعات المحلية، المجتمع المدني)...؟

إن الزاوية التي نريد أن ننظر من خلالها إلى القصور، باعتبارها موروث ثقافي وذاكرة جماعية تلخص تجارب في الحياة وتعكس قوة العلاقة بين الإنسان ومجاله، تتبني بالأساس على مسلمة مفادها أن أي فعل تنموي يجب أن يكون خطوة إلى الأمام داخل إطار مهيأ من قبل، يخفي تجربة أو تجارب سابقة لا يجب إقصاؤها أو تجاوزها لمجرد أنها تعرضت بنسبة كبيرة للدمار، أو بدعوى أنها "لم تعد تستجيب لمتطلبات العصر" . من هنا فإن سؤالنا عن الموقع الذي يحتله العمران الأصيل ضمن نسيج الواحة وعن الوظائف التي يؤديها حاليا ليس مقصودا لفتح الباب أمام التأريخ من جديد للتجربة التي أفرزته، أو لإعادة رسم صورته بشكل وفي للجوانب المورفولوجية، بل هو في العمق محاولة تستهدف ما يلي:

أولا، إبراز بعض مكامن قوة هذه التجربة الأصلية في التعمير، من خلال استحضار بعض ضوابطها عند السكان المحليين، ومدى ملاءمتها لخصوصيات الواحة.

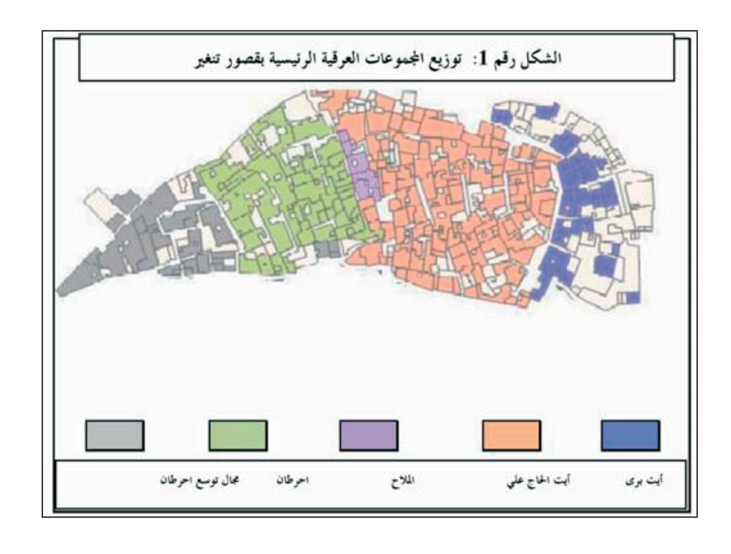
ثانيا، رصد الوضع الحالي للقصور، وتقييم قوة التدهور الذي تتعرض له، وتسرب مجموعة من الأنشطة إلى نسيجها التي تستنزف وظائفها الأصلية ومقوماتها التاريخية.

ثالثا، مقاربة المعرفة التي يحملها الفاعلون والقائمون على مجال التعمير، عن البنية المكانية (انطلاقا من تدخلاتهم الفعلية للمحافظة على القصور أو إعادة تأهيلها)، وانعكاسات هذه المعرفة على اختياراتهم وممارساتهم، وبالتالي على مسار التنمية المحلية وعلى مصير الواحة.

1 - القصور عنصر من عناصر هوية الواحات

يعكس التعمير في أحد معانيه القيمة التي يعطيها القائمون به للإنسان وكرامته. وتترجم هذه القيمة إلى إدراك معين لحاجيات السكان ورغباتهم، وإلى فعل مجالي يسعى إلى الاستجابة لها بما يوافق قيمهم الأخلاقية وتنظيماتهم المتنوعة وتركيبتهم الاجتماعية، مع الأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات المجالية حفظا لتوازنات المنظومة ككل.

والقصور بدورها تجربة تعكس عمق العلاقات بين الواحيين ومجالهم. الأمر هنا يتعلق بنمط من السكن، ذي أبعاد اجتماعية، متناغم مع الظروف الصحراوية بمناخها القاسي، ومواردها المائية المحدودة جدا: فأحياء القصر الواحد - وإن لم تشيد دفعة واحدة - متعددة تعدد المجموعات البشرية التي تقطنه(الشكل 1).



ويترجم تشييدها على مراحل من جهة أهمية الجهد الجماعي المبذول من طرف ساكنة واحة تودغى لإقامته، ومن جهة ثانية يؤرخ للموجات البشرية التي توالت على المنطقة منذ قرون[1]، وللتعايش الذي حصل بينها رغم تعدد أصولها وأعراقها واختلاف معتقداتها أحيانا. فتقاسم هذه المكونات الاجتماعية لمجال وموارد مشتركة فرض عليها نوعا من التعاقد حول أشكال الاستغلال التي تضمن في نفس الوقت قوة ووحدة كل عظم (ايخس) وقبيلة. لكن مورفولوجية القصر تعكس كذلك جانبا من الصراعات والتوتر بين القبائل حول الموارد الأساسية بالمناطق الواحية، كالماء والأراضي المخصصة للزراعة وللرعي[2].

وبصرف النظر عن بساطة المواد الأولية المستعملة في البناء (التراب المبلل، التبن، القصب، جذوع النخيل)...، والوسائل التي تستدعيها هذه العملية، فإن الأشكال المعمارية للقصور وخاصة القصبات (تغرماتين) غنية إلى حد أنها تكشف عن الفوارق الاجتماعية الخفية للمجتمع المحلي[3]. فضلا عن ذلك، فتجميل واجهات المنازل والغرف المخصصة للضيوف بزخارف وأشكال هندسية "تربط البناء من حيث زخرفته بغيره من فنون التعبير الفني التقليدي، إذ تندرج الأشكال ضمن سجل معتاد، نجد تمظهراته ... في تزيين الفخار ونحت أو صباغة بعض القطع الخشبية من أبواب وسقوف وغيرها"[4].

ويلتحم بناء القصور في واحة تودغى بالمواد الخام المتوفرة محليا مما يقلص تكلفة الانجاز ويساعد على الانسجام القوي بين مجال العمران والأنشطة التي يزاولها السكان. بل إن متطلباته من الماء ضئيلة إلى الحد الذي يتوافق مع ندرة هذا المورد الحيوي في مثل هذه المناطق الشبه صحراوية. كما أن اختيار البناء العمودي يتوافق بدوره مع ضيق

(1) – يذهب روجي ميمو مثلا إلى حد القول بأن "تاريخ الوجود اليهودي بواحة تودغى حيث التجارة وصناعة الفضة ربما يعود إلى ثلاثة أو أربعة قرون قبل ميلاد المسيح". أنظر مقاله: المسكن التقليدي في وادي تودغة بالمغرب. ترجمة إبراهيم الخطيب. مجلة المناهل، السنة 27، العدد74/73، فبراير 2005.

(2) – تتميز القصور بالواحات بأسوارها (هناك من القصور ما يحيط به سوران كقصر أسفالو أو تاغزوت)، أو واجهاتها الخارجية "العمياء" ذات الوظيفة الوقائية والدفاعية، وبأبوابها الضخمة لكن القليلة العدد (تكاد كل قصور واحة تودغى تقتصر على بابين رئيسيين: الأول إلى جهة المجال الزراعي والثاني إلى جهة المجال الرعوي).

(3) – تبين من خلال أبحاث ميدانية قمنا بها أن أغلب المنازل المميزة بمثل هذه الأشكال الهندسية في مختلف قصور واحة تودغى هي في ملكية أسر موسرة. و هي التي تحظى أيضا بأدوار اجتماعية ومناصب تنظيمية قوية داخل مؤسسة القبيلة (أمغار القبيلة مثلا).

(4) – عبد العزيز توري: "العمارة المغربية، مادة البناء في بعض استعمالاتها عبر العصور"، مجلة المناهل، السنة 27 العدد74/73 ، فبراير2005 ، ص 22.

المساحة الزراعية. وفي الأمرين دلالة قوية على قدرة الواحيين على ملائمة ممارساتهم وتدخلاتهم لإعداد المجال بشكل يتوافق مع الإمكانات المحلية.

وعلى عكس ما يمكن أن يتبادر إلى الدهن من أن التراب له قدرة ضعيفة على مقاومة تطرف القيم الحرارية بالمنطقة (مرتفعة في الصيف ومنخفضة في الشتاء)، فإن سكن القصور يبدو أكثر ملاءمة لخصائص المناخ الشبه الصحراوي بفضل التقنيات والأساليب المستعملة في البناء: فموقعه على وسط أو على مشارف المجال الزراعي يسمح بالاستفادة من المناخ المحلي للواحة. كما أن سمك اللوح يشكل في نفس الوقت عازل وخزان حراري يمكن من تعديل القيم الحرارية. ثم أن تراص سكن القصور وطلاء واجهاته بالطين الممزوج بالتبن يجعله أكثر تماسكا وأقل عرضة لعنف الزخات المطرية التي تشهدها المنطقة من فترة لأخرى، خاصة إذا كان هناك تجديد لهذا الطلاء.

نتيجة لكل ذلك، فالقصور هي أكثر من مجرد مجال للسكن: فهي تمثل البنية الاجتماعية التقليدية للمجتمع الواحي، تعكس تنظيم وتفاعل وتمازج مكوناته داخليا ومع المحيط الخارجي. توفر الراحة المادية والنفسية وتحفظ الخصوصية الفردية والجماعية للساكنة المحلية. ورغم هذه الحمولة الثقافية والتاريخية، فإنها تتعرض باستمرار لأشكال تدهور متنوعة لعدة أسباب نحاول في القسم الثاني من هذا البحث توضيحها.

2 – تدهور القصور: المظاهر والأسباب

تتفق كل الدراسات الميدانية التي استهدفت الوقوف على الصورة الراهنة للقصور في المناطق الواحية على حقيقة التدهور السريع الذي تتعرض له منذ عقود .ورغم ما يمكن أن يلاحظ من اختلاف بين قصور واحة تودغى في وتيرة ودرجة هذا التدهور (الجدول1)، فإن الواقع يفصح عن عمق واضح لهذه الظاهرة .ففي المتوسط يمس هذا التدهور في جميع جماعات الواحة أكثر من نصف المنازل في كل قصر (الجدول2).

الجدول 1 : حالة القصور بواحة تودغى

الفئة	القصور	نسبة التدهور	٪ من مجموع القصور
1	تاغزوت، تاغيا، اغرم الجديد، تنغير، تاسكا، ايت ارجدال	أقل من 30 ٪	٪15.38
2	ايت بوجان، تيكوتار، الكان، تيزكي، اشماريرن	بين 30 ٪ و50 ٪	٪ 12.82
3	باقي قصور الواحة	أكثر من 50 ٪	٪ 71.80

المصدر : CERKAS 1998/2001، مصطفى عبد شافق ومحمد نعيم،2007[5]

الجدول 2: حالة القصور بالجماعات المحلية لواحة تودغى

الجماعة	متوسط نسبة المنازل الساكنة (٪)	متوسط نسبة المنازل المتدهورة (٪)
تودغى العليا	25	55
بلدية تنغير	28.4	57.25
تودغى السفلى	4.5	80.83
تاغازوت	19.45	59.09

نفس المرجع السابق

(5) – اعتمدنا في وضع الجدول على نتائج بحثين ميدانيين، الأول أنجز من طرف مركز ترميم وإعادة تأهيل المناطق الأطلسية CERKAS أنظر بهذا الخصوص :

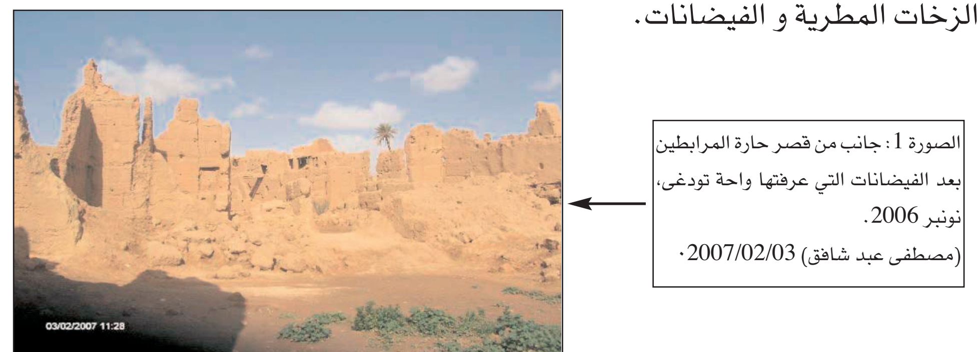
- Etat du patrimoine architectural à l’oasis Toudgha, selon l’étude réaliser par CERKAS et / UPC / COL·LEGI D'APARELLADORS I ARQUITECTES TÈCNICS DE BARCELONA MAROC, 1998-2001. عمل غير منشور

الثاني أنجز من طرف مصطفى عبد شافق ومحمد نعيم. 2007:

- Habitat traditionnel: patrimoine en cours de disparition dans la vallée du todrha (sud marocain), in 1ere conférence régionale euro-méditerranéenne architecture traditionnelle. Barcelone, du 12 au 15 juillet 2007.méditerranéenne présent et futur.

وما يرشح هذا التدهور للتزايد ضعف نسبة المنازل الساكنة. بل إن قصور الواحة خلال العقدين الأخيرين صارت تنفض ساكنتها الأصلية لتحتضن ساكنة جديدة متباينة الأصول الجغرافية(أيت هاني تاغبالت)...، لكن يوحدها إلى حد كبير انتماؤها إلى الفئة الفقيرة، وكذلك تطلعها إلى تحسين ظروف عيشها، مما سيمكنها بعد ذلك من الحصول على سكن جديد خارج القصر. الأمر إذن يتعلق فقط بساكنة عابرة لا تحمل نفس القدر من التشبث العاطفي بسكن القصور. وبالتالي لا يمكنها أيضا أن تحمل هم المحافظة عليه وترميمه إلا إذا كان السكن لم يعد يوفر حدا أدنى من شروط الإقامة[6].

ومع تراجع الكثافة السكانية بالقصور وتغير محتواها البشري، رغم النمو الديمغرافي السريع الذي عرفته المنطقة إلى حدود بداية التسعينات من القرن الماضي، أصبحت أكثر عرضة للمؤثرات المناخية: تنحت ملامحها أشعة الشمس اللافحة، وتهد ما تبقى منها الزخات المطرية و الفيضانات.

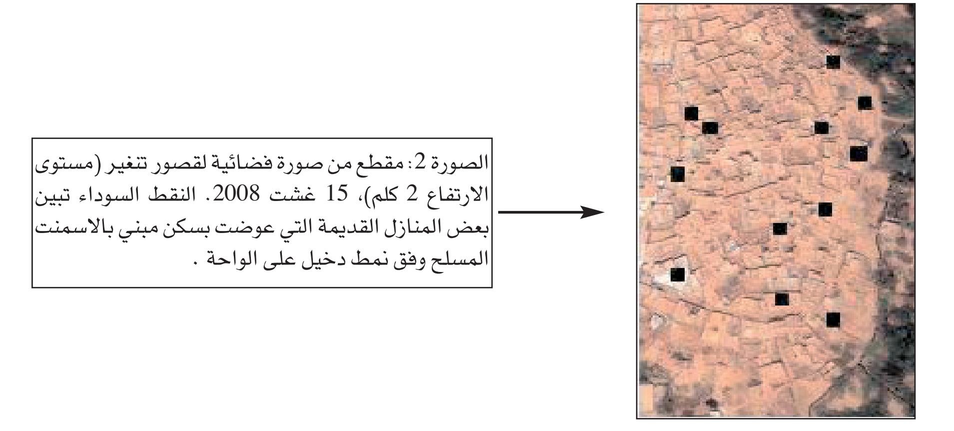


الصورة 1 : جانب من قصر حارة المرابطين بعد الفيضانات التي عرفتها واحة تودغى، نونبر 2006.
(مصطفى عبد شافق) 2007/02/03.

وعلى حساب العمران الأصيل بدأ السكن الفردي يغزو مجال الواحة "موليا وجهه صوب الطرق، متنكرا لموضع السكن القديم ومواده وهندسته ووظائفه"[7]. بل إن المواد الدخيلة التي تميز العمران الجديد بدأت تكتسح شيئا فشيئا وسط القصور، معلنة بداية تحول أعمق ينذر بالقضاء على ما تبقى من المعمار المحلي.

(6) – لوحظ في أغلب القصور بالواحة أن المالكين الأصليين يميلون لمنح امتياز السكن مجانا للعابرين كإغراء لضمان عملية الترميم. لكن بالمقابل لاحظنا أن العابرين لا يقومون إلا ببعض الترميمات الداخلية البسيطة (أما الأشغال الكبرى كإعادة تبليط الواجهة الخارجية فيقوم بها المالك). وعندما يتداعى السكن للسقوط يغيرونه بوجهة أخرى.

(7) – محمد أيت حمزة: ملامح التحولات السسيومجالية بحوض أسيف امكون. السفح الجنوبي للأطلس الكبير الأوسط مجلة دراسات، عدد 4-1990. منشورات كلية الآداب بأكادير. ص 112.



الصورة 2: مقطع من صورة فضائية لقصور تنغير (مستوى الارتفاع 2 كلم)، 15 غشت 2008. النقط السوداء تبين بعض المنازل القديمة التي عوضت بسكن مبني بالاسمنت المسلح وفق نمط دخيل على الواحة .

ولمثل هذا التوجه الجديد ما يسانده في التفكير الذي بدأ يستبد بالساكنة المحلية بعد حلول المستعمر الفرنسي بالمنطقة واهتمامه بضرب مقومات القبيلة لفرض سيطرته(8)، وبفعل نشاط حركة الهجرة (خاصة الخارجية) وما رافقها من تدفق للعائدات والتحويلات المالية، ومن سلوكات مجالية جديدة أدت إلى تفجير القصور والروابط الاجتماعية التي كانت تشكل أحد مرتكزاتها. ويسعى هذا التفكير إلى مزيد من الكسب المادي وترجمته إلى منشآت عمرانية تحاكي نماذج جديدة للبناء لا علاقة لها بالبيئة الواحية. وبهذا التحول العميق بدأ سكن القصور يقترن لدى الساكنة المحلية (خاصة فئة الشباب) ببعض الصفات السلبية كاعتباره "مجالا للفقر" أو "صورة لمجتمع قديم لم تعد تستجيب لمتطلبات العصر"....

أمام هذا التردي المستمر الذي تشهده القصور، مع ما يحيل عليه من طمس للذاكرة المحلية، تبرز بعض محاولات إنقاذ لجزء من التراث المعماري للواحة. تقودها أطراف متباينة التصورات والإمكانيات: يتعلق الأمر هنا بالجماعات المحلية وجمعيات المجتمع المدني والخواص.

3 – كيف يعالج مشكل تدهور الواحات؟

3-1- الجماعات المحلية تفتقر لتصور واضح حول إعادة هيكلة القصور

انطلقنا في تقييم دور الجماعات المحلية في ترميم أو إعادة هيكلة القصور من محاضر الدورات العادية والاستثنائية للمجالس الجماعية منذ إحداثها إلى حدود 2009،

(8) – من بين التغيرات المهمة التي رافقت التواجد الاستعماري بالمنطقة نجد توسع دائرة التعامل النقدي على حساب أسلوب المقايضة الذي كان مهيمنا، وربط الواحة بمحيطها بطريق معبدة، وإقحام مؤسسات إدارية جديدة.

ومن الإنجازات الفعلية التي تهم هذا الجانب. ومن خلال المصدرين يمكن أن نلخص حصيلة الجماعات في ما يلي:

أ – صنف تصميم تهيئة بلدية تنغير، القصور "مناطق سكن قديم مقترحة لإعادة الاعتبار"[9] وبمقتضى هذا التصميم "يمنع النمط الأوربي (داخل القصور). ويجب أن تتوافق البنايات مع الأشكال المعمارية المحلية". و في حالة استعمال مواد بناء أخرى "يجب طلاء الأسوار الخارجية بطلاء من الطين[10]". كما تصنف قصبات وقصور[11]، معالم أثرية يخضع أي عمل بناء أو تأهيل أو ترميم لها للضوابط القانونية الخاصة بالآثار العمرانية.

وعلى الرغم من إلزامية تنفيذ واحترام مضامين هذا التصميم، باعتبار طابعه القانوني، نجد أن بلدية تنغير لم توجد أية آليات قمينة بالقيام بذلك. فكما سبقت الإشارة بدأت القصور تشهد زحفا متواصلا للإسمنت[12]. كما اقتحمت الشرفات الواسعة هذا الفضاء. وتشتد هذه الظاهرة في قصور عالية واد تودغى كتيزكي وأيت سنان واحجامن، حيث الوعاء العقاري يطرح مشاكل مهمة جدا.

ولنا في المعطيات التالية ما يؤكد عدم احترام هذا الضابط القانوني المجالي:

نسبة المباني القابلة للترميم في القصور المصنفة معالم أثرية حسب تصميم تهيئة بلدية تنغير:

القصر	أسفالو	أيت بوجان	تاوريرت	تاسكا	تيدرين	افانور	احرطان	تماسينت	افري
% القابلة للترميم	20	60	20	0	30	0	10	20	10

المرجع: CERKAS 1998/2001[13]

(9) – تصميم تهيئة بلدية تنغير، ضوابط الإعداد. التقرير النهائي. تمت المصادقة على هذا التصميم بظهير رقم 2-99-1121، بتاريخ 29 ذو القعدة 1420 الموافق لـ 06 مارس 2000.

(10) – نفس المرجع السابق، ص 34.

(11) – القصبات المعنية بهذا التصنيف هي قصبة الكلاوي وسالمي باسو. أما القصور فهي أسفالو، ايت بوجان، تاوريرت، تاسكا، تيدرين، افانور، احرطان، تماسينت، افري.

(12) – أنظر مقطع من الصورة الفضائية لقصور المركز.

(13) – Etat du patrimoine architectural à l'oasis Toudgha, Op. cit

ب – تغطية قصور بشبكة الماء الصالح للشرب والكهرباء. وتظل هذه العملية محدودة لخصوصيات معمار القصور، ولأن هذه العملية انطلقت بعد أن هجرت عدة أسر هذا الفضاء. كما أننا نسجل ضعفا قويا على مستوى التغطية بشبكة الصرف الصحي. وهذا الضعف يشمل ليس فقط القصور وإنما يهم كل الواحة.

ج – ترميم ساحة "أيت بنعيم" بمركز تنغير بطلاء واجهاتها بطلاء طيني يميل إلى اللون الأصفر منه إلى لون التراب المحلي، مع تغطية أرضيتها بلخاف (صفائح الحجارة). وقد وضعت هذه العملية في سياق دعم النشاط السياحي بالمنطقة، وذلك بالعناية ببعض الفضاءات التي يرتادها السياح. لكن ما يعاب على هذه العملية محدوديتها المكانية وفقرها المعماري وإسنادها إعدادا وتنفيذا لأطراف ليس من صلب اهتمامها المحافظة على التراث المعماري المحلي. فظلا على ذلك، لم تأخذ هذه المبادرة بمبدأ إشراك الساكنة حتى تتحول إلى نموذج يمكن الاقتداء به.

وفي انتظار إنجاز الوكالة الحضرية بورزازات لميثاق الهندسة المعمارية لمدينة تنغير سيظل عمل الجماعات المحلية محتشما لا يرقى إلى حجم الانتظارات والأدوار التنموية المنوطة به. كما يكشف افتقار المجالس الجماعية لرؤية واضحة حول ما يجب أن يكون عليه تدبير شؤون جماعات تتميز بطابعها الواحي.

3-2- دور المجتمع المدني

أصبح المجتمع المدني فاعلا أساسيا في تدبير جانب غير يسير من القضايا المحلية خاصة التي لها طابع اجتماعي. ويعود تنامي دوره إلى فشل المبادرات الفوقية والقطاعية، وضعف أداء المجالس الجماعية أو ابتعادها عن القضايا التي تؤرق الساكنة المحلية، وإلى احتكاكه بالواقع مما يؤهله أكثر للقيام بأدوار تنموية. وإذا كان هذا الطرف قد تمكن محليا من تحقيق بعض الانجازات الهامة في بعض المجالات، فإن أنشطته بدوره لا تزال بعيدة عن الانشغال برد الاعتبار للمعمار المحلي إلا من بعض العمليات المحدودية ومنها:

- استغلال جمعية "مقورن" للطابق الذي يعلو باب قصر أيت الحاج علي لإقامة "مركز المواطنة والديمقراطية"[14].

---

(14) – تم افتتاح هذا المركز في 26 فبراير 2010. و أنجز في إطار مشاريع برنامج جبر الضرر الجماعي. وموّل بمبلغ 146.650.00 درهم من طرف المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان ومؤسسة صندوق الإيداع والتدبير وبدعم من الاتحاد الأوربي وبمساهمة من جمعية مقورن للتنمية.

- توظيف عدد من الجمعيات المحلية لمنازل بقصورها كمقرات لها أو لتنفيذ بعض أنشطتها المتعلقة بمحاربة الأمية أو كمدارس قرآنية أو لإقامة وحدات لنسج الزرابي والخياطة...
- محاولة جمعية السلام افري استرجاع بعض خصوصيات العمارة المحلية عند تشييد مقرها الجديد بدوار إفري.

وإذا تفحصنا مختلف المشاريع التنموية التي تقدمت بها الجمعيات المحلية بالواحة للحصول على دعم في إطار المبادرة الوطنية للتنمية البشرية منذ انطلاقها، أو في إطار برنامج جبر الضرر الجماعي[15]، فإننا سنلمس بوضوح بأن المشاريع التي تستهدف ترميم أو تأهيل القصور محدودة وتقتصر على مشروعين :

الأول مشروع تجهيز ورشة الزرابي بدوار قصر الجديد. وهو اقتراح لجمعية "أسكتر".

والثاني تقدمت به جمعية المنهل للتنمية والتعاون بقصر حارة المرابطين وعنونته ب "فضاء الواحة: تجاري، ثقافي، سياحي". وهو مشروع طموح للغاية استهدف إعادة الاعتبار لقصر حارة المرابطين انطلاقا من تأهيل وظائفه وربطها بموسم الحاج عمرو الذي يقام سنويا بالمنطقة[16]. إلا أن هذا المشروع لم يخرج بعد لحيز التنفيذ، لغلافه المالي الكبير وغياب جهات مانحة يمكن أن تمول إنجازه.

يدعو مثل هذا الشح على مستوى مشاريع الجمعيات إلى التساؤل :هل الأمر يتعلق بسوء تقدير لهذا المكون المجالي؟ أم أن الإمكانيات المالية والبشرية المحدودة هي التي لا تسمح إلا باستغلال العمران الأصيل كمقرات لجمعيات محلية ؟.

3-3- المبادرات الفردية

في الوقت الذي تولي فيه الساكنة والجماعات المحلية والجمعيات وجهها صوب انشغالات أخرى "متنكرة" للسكن القديم، بدأنا نلمس بعض المبادرات الفردية التي تسعى إلى استثمار القصور أو جوانبها المعمارية لأغراض سكنية أو اقتصادية :

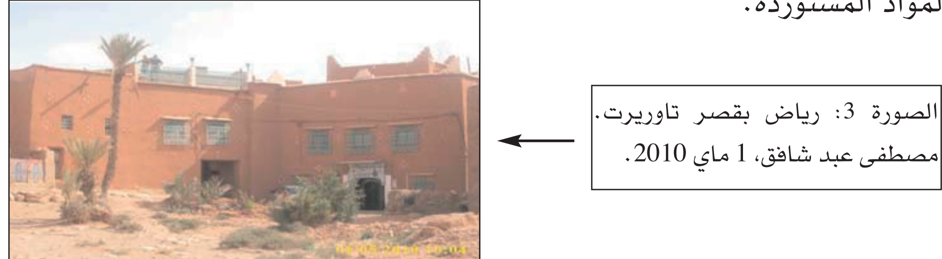
---

(15) – أنظر بهذا الخصوص تقرير اللجنة الإقليمية للتنمية البشرية في عمالة ورزازات، في إطار الدراسة والمصادقة على المشاريع المقترحة برسم سنة 2006، 28 يوليوز 2006.

(16) – قدم المشروع على شكل ملصق من طرف مصطفى عبد شافق ومحمد نعيم في إطار المؤتمر الجهوي الأورو-متوسطي حول العمارة التقليدية المتوسطية. مرجع سابق.

فمجموعة من الأسر الوافدة على منطقة تنغير، تحت تأثير الجفاف أو بحثا عن ظروف عيش أفضل، وجدت في القصور ملاذا مجانيا للاحتماء من ارتفاع أسعار الاكتراء. بل وفرصة لاستغلال الخيرات الزراعية للواحة ما دام مالكوها الحقيقيون لا يهمهم غير أن لا تظل حقولهم "بائرة" وسط استغلاليات الآخرين. لكن الإقامة بالقصور بالنسبة لهذه الأسر لا يعني بالضرورة الرغبة في الحفاظ على البناء الأصيل. فقد لوحظ في كثير من الحالات أن من بين هذه الأسر من تمكن من اقتناء منزل بالقصر وسارع إلى تحويله كليا إلى بناية بمواصفات جديدة على النمط الأوربي.

أما مجموعة ثانية (غالبا ما تتشكل من مهاجرين أو مرشدين سياحيين أو أجانب) فمنشغلة بالاستغلال السياحي للقصور لإدراكها لجاذبيته وأهميته كمنتوج سياحي غير مستثمر بعد بشكل جيد. وإذا كانت فئة أولى من هذه المجموعة حريصة على القيام بترميمات ضرورية مع الحفاظ على القالب الأصلي، فإن ثمة مجموعة ثانية تراهن فقط على استثمار موضع الدور القديمة وسط القصر، وعملت على إعادة بنائها بالمواد المستوردة.



الصورة 3: رياض بقصر تاوريرت. مصطفى عبد شافق، 1 ماي 2010.

تبعا لذلك صرنا نلمس ظهور دور ضيافة و بازارات كالفطريات وسط القصور، خاصة في عالية الواحة حيث مضايق تودغى المشهورة، و في المركز.

وخارج القصور، برزت فئة جديدة مبدعة ومجددة اهتمت بإعادة الحياة لبعض القصبات المحلية كقصبة السالمي باسو (حاليا فندق تومبوكتو) وفندق الحسناوي بتاوريرت، أو شيدت وحدات سياحية جديدة مستلهمة خصائص معمار الواحات (فندق قصبة الامراني). لكن يبقى إبداعها مبالغا فيه أحيانا إلى حد دمج بعض المرافق (كالمسابح) التي لا تراعي التوازنات الهشة التي تقوم عليها المنظومة الواحية.

إن الاستهلاك السياحي للقصور على نحو ما يتم به حاليا يعكس انشغال القائمين به باستثمار جوانبه المورفولوجية مع إغفال المضمون. فهل يشكل مثل هذا التوجه الحل الأمثل للحفاظ على العمارة المحلية ؟.

4 - اقتراحات

في البداية، لا بد أن نجزم بأن العودة إلى العمارة المحلية هي عودة إلى استثمار معطيات البيئة المحلية: المناخية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية وتوظيفها في عمارة معاصرة عناصرها ومفرداتها تحقق رؤية المجتمع ومتطلباته وقيمه وعاداته وتقاليده وفق مرجعية واضحة. والمرجعية لا تعني التقليد ولكن تعني الاستثمار والاستفادة والاستلهام والاسترشاد.

و لتحقيق ذلك، نقترح المنطلقات التالية كمدخل لإعادة تأهيل القصور:

- يجب الإقرار بأن الوظائف التي كانت تؤديها القصور صارت من اختصاص مؤسسات أخرى. وبأن الميول الفردية في العيش صارت واقعا بالواحة كما في مختلف المناطق المغربية. ولأن الأمر كذلك فتأهيل القصور يقتضي مقدارا كبيرا من الخيال والإبداع قصد تصور وظائف يمكن للقصر أداؤها دون أن يكون ذلك على حساب توازنات المنظومة الواحية.

- المجال الزراعي لم يعد قادرا على توفير المادة الأولية بالكميات التي يمكن أن تغطي حاجيات الساكنة المحلية في مجال البناء. من هنا ضرورة إدراج تأهيل القصور ضمن دينامية التطور والتكيف التكنولوجي. فلا مناص للمجتمعات النامية أو الفقيرة من استعمال التكنولوجيا المتوافقة في البناء، والتي تعتمد على المواد المحلية، وعلى المهارات المحلية في التشييد، مع العمل على تجديدها وإغنائها بما يساعد على مواجهة كل المتطلبات المعيشية للإنسان، وظيفيا ومناخيا وبالوسائل الذاتية [17].

- اعتبار ترميم القصور مجرد عملية تقنية لا يمكن أن تصمد ما لم تؤخذ في إطار عملية تهيئة مندمجة تستحضر الأبعاد البشرية والاجتماعية والاقتصادية. أي عملية تتجاوز البحث عن الأصالة الشكلية والنظرة العاطفية، وتستحضر التطور الحاصل في المجتمع وتزايد الطلب على حفظ مقومات الهوية، دون الإغراق في إعطائها طابعا فلكلوريا.

- القصور عنصر من عناصر البيئة المحلية. ولا يمكن ادعاء المحافظة على البيئة وحفظ توازناتها بإغفال الاهتمام بالتراث المعماري المحلي.

(17) – عبد الباقي إبراهيم: المعماريون العرب، حسن فتحي. مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية،1987، ص 14.

- إعادة تأهيل القصور عملية معقدة تقتضي تضافر عمل مجموعة من الأطراف على مختلف المقاييس (مركزي، جهوي ومحلي)، مع إشراك فعلي للساكنة في مختلف مراحل العملية (الإعداد والإنجاز والتتبع). ويشكل هذا المبدأ ركنا أساسيا لن تستديم العملية بدونه.

خاتمة

تفرض اليوم الانشغالات البيئية وتعالي الأصوات المطالبة بتعزيز مقومات الهوية الوطنية على المجتمعات المحلية والمؤسسات إعادة النظر في نظرتها للقصور. كما تفرض الخصوصيات المجالية للمناطق الواحية وسرعة وعمق التحولات التي تشهدها، على الفاعلين بمختلف توجهاتهم الرفع من إيقاع نشاطهم، مع إعادة صياغة برامجهم ومشاريعهم حتى تكون رافعة واقعية موافقة للتنمية المحلية.

البيبلوغرافيا

– محمد أيت حمزة : "ملامح التحولات السوسيومجالية بحوض أسيف امكون، السفح الجنوبي للأطلس الكبير الأوسط". مجلة دراسات، عدد 4-1990. منشورات كلية الآداب بأكادير. ص 112.

– عبد العزيز توري: "العمارة المغربية، مادة البناء في بعض استعمالاتها عبر العصور"، مجلة المناهل، السنة 27 العدد 74/73، فبراير2005 ، ص 22.

– عبد الباقي إبراهيم: "المعماريون العرب، حسن فتحي". مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، 1987، ص 14.

– روجي ميمو: "المسكن التقليدي في وادي تودغة بالمغرب"، ترجمة إبراهيم الخطيب، مجلة المناهل، السنة 27، العدد 74/73، فبراير2005.

– "تصميم تهيئة بلدية تنغير، ضوابط الإعداد، التقرير النهائي". تمت المصادقة على هذا التصميم بظهير رقم N°2-99-1121 بتاريخ 29 ذو القعدة 1420 الموافق لـ 06 مارس 2000.

– "تقرير اللجنة الإقليمية للتنمية البشرية في عمالة ورزازات"، في إطار الدراسة والمصادقة على المشاريع المقترحة برسم سنة 2006. 28 يوليوز2006.

******

- Abd Chafik, M. et Naim, M, « Habitat traditionnel: patrimoine en cours de disparition dans la vallée du todrha (sud marocain) », in 1ère conférence régionale euro-méditerranéenne architecture traditionnelle méditerranéenne présent et futur. Barcelone, du 12 au 15 juillet 2007.

- « Etat du patrimoine architectural à l’oasis Toudgha », Etude réalisée par CERKAS et / UPC / COL·LEGI D'APARELLADORS I ARQUITECTES TÈCNICS DE BARCELONA MAROC, 1998-2001. (عمل غير منشور)

إشكالية التدبير التقني والقانوني للتراث المعماري بمنطقة محمية المحيط الحيوي لواحات الجنوب المغربي: (نموذج القصور)

ذ. أبا صادقي
محافظ المباني التاريخية والمواقع
المفتشية الجهوية للمباني التاريخية - مكناس

تمهيـد

بعد حوالي قرن من الزمن على وقوعها تحت تأثير المدينة الأوروبية، تعيش المجالات الأمازيغية المغربية في الوقت الراهن لحظة حاسمة في تاريخها الحضري والمعماري. ولا أحد يجادل في أن انتشار أساليب التعمير الحديث وأدواته التقنية ومؤسساته الإدارية ونظمه القانونية وما تحمله من مفاهيم جغرافية وإيديولوجيات مجالية في أرجاء المجالات الأمازيغية، قد انطلق في سياق تهيئة التراب الوطني لأغراض الهيمنة الإستعمارية. تصدى الباحثون المغاربة والأجانب من شتى التخصصات العلمية والمشارب الفكرية لمختلف الإشكالات المتصلة بهذه التحولات[1]. وقد حظي المعمار بقسط وافر من البحث والدراسة والتوثيق في سياق أسئلة وقضايا كثيرة أثيرت ولا تزال حول المحافظة على المكونات الأثرية والتراثية والمعالم العمرانية المادية والرمزية التي أصبحت عرضة للتدهور والاندثار[2]. في الآونة الأخيرة ظهرت في المجالات الأمازيغية مبادرات تنموية محلية و وطنية و دولية جعلت من المعمار قطب الرحى في إشكالية التنمية المحلية. في واحات الجنوب الشرقي المغربي، و بالتحديد منطقة محمية المحيط الحيوي التي تشمل درعة و تافيلالت، وهي الإطار الجغرافي التطبيقي

(1) - فيما يخص هذه التحولات في مجال الواحات أنظر على سبيل المثال : المجال والمجتمع بالواحات المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، سلسلة الندوات 6، 1993 (عربي -فرنسي). وكتاب:

A. Bencherifa et H. Popp. L'oasis du figuig: persistance et changement, Passau, 1990.

(2) - نستخدم مصطلح العمران كما يفهم من مقدمة إبن خلدون والذي يعني الحضارة بأبعادها المادية وقيمها الرمزية. والمقصود هنا بالعمران الرمزي مجموع النظريات والمفاهيم المعمارية المتصلة بالنسق الإجتماعي والوجداني والنفسي، وبنمط العلاقات والمعاملات ونظم الأخلاق والأعراف والقوانين والمعتقدات والعادات التي قام عليها مجتمع الواحة. أما العمران المادي فنقصد به تقنيات الهندسة والبناء وأنماط التعمير وأساليب تهيئة المجال التي أبدعها إنسان الواحات وتناقلتها الأجيال، وهي نظريات ومفاهيم وتقنيات تعبر عن الخصوصيات الإنسانية لمجتمع الواحة وتعكس معالم شخصيته الحضارية وطبيعة تفاعل الإنسان فيه مع محيطه البشري والطبيعي ونظرته إلى الحياة وتصوره للعالم.

للإشكالية المطروحة في هذا المقال، لم يكن احتلال المعمار لموقع الصدارة في الخطاب التنموي وليد الصدفة. فقد حظي التراث المعماري في هذه المجالات باهتمام واسع ومتعدد الاتجاهات، أولا لأنه تراث عريق وغني ومتنوع وفريد من نوعه في العالم، ولارتباط الوثيق ثانيا بالمجتمع الإنساني والاقتصاد المحلي وبالمحيط الحيوي، وهي أسس مفهوم التنمية المستدامة. إلا أن السمة الغالبة لمعظم هذه المبادرات التنموية كونها تنطلق من مرجعيات مختلفة عن هموم الإنسان المحلي وحاجاته الأساسية، وتعتمد تصورات ومناهج عمل يغلب عليها الطابع التقني والبيروقراطي(3). أما الدراسات الميدانية فتطغى عليها لغة البحث الأكاديمي "الباردة" التي تنتهي نتائجها إلى الركون على رفوف الجامعات ومراكز البحث، كما يغلب عليها النقل والتكرار والأسلوب الوصفي، مع إغفال الأبعاد السوسيولوجية والرهانات الاقتصادية والسياسية لعلاقة المعمار بالمجال. هذه العيوب في مقاربة المعمار في المجالات الأمازيغية، جعل إشكاليته في الواحات عرضة لتفسيرات وتأويلات تفتقر إلى الدقة والعمق الكافيين لمقاربة أزمة الهوية التي تزداد حدتها في المجتمع الواحي. فغالبية الأدبيات المتوفرة حول القصور والقصبات مثلا، خصوصا الأبحاث الجامعية، محدودة العمق وسطحية التحليل وقاصرة عن الإلمام بالرهانات الإقتصادية والسياسية والتنموية التي تحيط بأزمة الهوية الثقافية والمجالية، وتفتقر للمنظور النقدي والتحليلي وتغفل بسبب ذلك أبعاداً كثيرة للمشكلات المعقدة التي تتصل بتدبير التراث المعماري.

إن هذه المساهمة هي مجرد مقاربة أولية، بالاستناد إلى أكثر من عشر سنوات من التجربة المهنية في الميدان، لإشكالية إدارة التراث المعماري في سياق المشاكل التقنية والمجالية والحضرية التي رافقت الانتشار العشوائي للتعمير الحديث في الواحات. لذا سنحاول في هذا البحث، تحليل لجانب واحد من جوانب تدهور المعمار في المجالات الأمازيغية المغربية وأسباب اندثاره، وهو "**التدبير التقني والقانوني للتراث المعماري**

---

(3) – تكمن خطورة التدخلات التقنوقراطية والبيروقراطية في مجال التراث الثقافي والتنمية المحلية في تبنيها لمنطلقات ومفاهيم غربية حول مفهوم التنمية وأهدافها المستقبلية. كما أنها تعتمد أدوات تحليل و تقنيات معالجة غير مستمدة من الخبرات المحلية و لا من تجارب السكان و أدواتهم الخاصة في تدبير قضايا التنمية. ومن أكبر عيوب المقاربة التقنوقراطية للتراث الثقافي والمعماري في مجالات تراثية مثل الواحات، هو عدم الإعتراف بكون الخبرات والتجارب المحلية في إدارة الموارد واستعمالها رصيدا تراثيا لا ينبغي التفريط فيه في وضع الخطط التنموية. وأثبتت التجارب أن إغفال هذه الخبرات والتجارب المتراكمة عبر التاريخ لدى السكان المحليين يؤدي إلى تهميش السكان وإبعادهم عن دائرة المشاركة في اتخاذ القرار مما يتعارض مع أبسط مبادئ التنمية المستديمة التي تدور هذه التدخلات في فلكها، وإحساس السكان المعنيين بالتنمية بالإقصاء والإبعاد يترتب عنه فشل الخطط التنموية.

للواحات" مع التركيز على "قصور" منطقة تافيلالت. سنطرح قضايا مختلفة من بينها أسباب أزمة الهوية المجالية والعمرانية في الواحات. وسنرى أن هذه الأزمة لم تكن وليدة تحول مجالي أو إجتماعي-اقتصادي محلي طبيعي، وإنما فُرضت من الخارج لغرض إدماج المجالات الأمازيغية في دورة الإقتصاد الرأسمالي وربط مصيرها الحضري بمصير المدينة الأوروبية الحديثة. بهذا الربط المجالي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي بين المجالات الأمازيغية والمجال الحضري الذي ولد في أحضان السيطرة الإستعمارية، انتقلت الإشكاليات التي تعيشها المدينة الحديثة إلى المجالات المحلية وعلى رأس هذه إشكالية التراث المعماري. فالطابع الراهن للمجالات الأمازيغية وإشكالاتها المجالية والاقتصادية والحضرية والتراثية الكبرى لا تنفصل عن ملابسات الحدث التاريخي الهائل الذي شتت هذه المجالات و دمر نظمها و مؤسساتها التقليدية و هو الظاهرة الإستعمارية. لذلك لا يمكن فهم إشكالية المعمار في المجالات القروية في المغرب عامة، إلا من منظور حل مشكل الصدام بين نظم حضرية وافدة من بيئة غربية تمتد أصولها إلى المدينة الرومانية واليونانية ونظم حضرية محلية هي ثمرة خبرات وتجارب وتفاعلات بين الإنسان المحلي والمجال الذي يعيش فيه. إن الرهان الكبير يتعلق بالتوفيق داخل المجال الواحد بين مرجعيات ثقافية وتصورات حضرية وحاجات اقتصادية متنافرة. وسنقف على حقيقة أن المشاكل المترتبة عن غياب الانسجام والتفاعل في البناء بين المكونات المجالية المحلية و العناصر الوافدة، سببها عجز المقاربات المعتمدة في إنهاء الصدام والتنافر بين التعمير الحديث والتعمير القديم أو بين "ثقافة القصور" و"ثقافة المدينة الحديثة".

1 - المجـال الجغرافي للبحث

إن موضوع "المعمار في المجالات الأمازيغية" يحتم علينا ونحن نتطرق لعمارة "القصور" تحديد مجال انتشار هذا النمط من المعمار التراثي. وهذا ليس بالأمر الهين بسبب تعدد الأنماط الهندسية والتشكيلات المعمارية التي تنتمي إليها "القصور". فعلى الرغم من أن واحات الجنوب الشرقي هي المجال التاريخي لظهور وانتشار هذا النمط المعماري، إلا أن الأشكال المعمارية المبنية بالتراب التي تصنف من ضمنها "القصور" تنتشر في مجال جغرافي أوسع من واحات النخيل. ويمتد هذا المجال على شكل هلال من منطقة سوس (تزنينت وتارودانت) إلى تخوم الجهة الشرقية (فكيك). وهو المجال الذي تتخلله الواحات الممتدة على طول الأودية شبه الصحراوية المنحدرة من الأطلس الكبير الشرقي على شكل خطوط متوازية تضيع بين الكثبان الرملية على الحدود المغربية-

الجزائرية. والأودية الرئيسية هي بالتتابع من الجنوب - الغربي إلى الشمال - الشرقي (درعة، تودغة، دادس، فركلة، غريس، زيز وكير)، ومنها تستمد الواحات أسماءها. يمتد هذا المجال عرضا ليصل إلى الأطلس المتوسط وملوية العليا. ويرجع سبب امتداد المعمار شبه الصحرواي إلى هذه المناطق الجبلية الرطبة إلى هجرات جماعية اضطرارية، التجأ إليها سكان الواحات خلال القرن التاسع عشر بسبب انعدام الأمن في مجالاتهم الأصلية، وهم الذين نقلوا معهم تقنيات العمارة شبه الصحراوية إلى مجالات خارج الإطار التاريخي للعمارة المبنية بالتراب[4].

هذا ما نلمسه في ملاحظة أبداها الباحث الفرنسي (هنري طيراس)، حينما تخطى لأول مرة عام 1938 حدود الأطلس الكبير في اتجاه الجنوب الشرقي حين قال : "بمجرد تجاوزنا لمضايق الأطلس الكبير أدركنا أننا على أبواب بلد جديد. هنا ينتهي العالم المتوسطي، وهنا يبدأ العالم الصحراوي. هنا، على الرغم من القرب الشديد من سواحل شمال إفريقيا، موقع الحدود بين أوروبا وإفريقيا الحقيقية[5]". وقوله "بلد جديد" و"إفريقيا الحقيقية" عند عبوره لمضايق وفجاج الأطلس الكبير دلالة على أن المجالات التي تلي الأطلس الكبير في اتجاه الجنوب الشرقي تشكل من الناحية المعمارية وعلى مستوى الخصوصيات الثقافية والمجالية والمؤسسات الاجتماعية، عالما فريداً من نوعه وشديد التباين مع المجالات الواقعة شمال سلسلة الأطلس الكبير. هذه الملاحظة الدقيقة من باحث أجنبي زار المغرب في زمن ما قبل انتشار التعمير الحديث، تجعل بالفعل سلسلة الأطلس الكبير حدا طبيعيا وثقافيا فاصلا بين معمار المجال الصحراوي وشبه الصحراوي "إغرم - تغرمت"، (القصر والقصبة) ومعمار المجالات الداخلية والساحلية "المدينة العتيقة -الدوار"[6]. من الناحية البيئية والمجالية تمثل الواحات كذلك نظاما إيكولوجيا شديد التميز والتفرد عن باقي الوحدات المجالية التي يتكون منها التراب الوطني.

---

(4) - في قلب مدينة أزرو مثلا توجد إلى اليوم بقايا أسوار قديمة لقصر يسمى قصر أيت غريس. وهو القصر الذي بناه واستقر فيه السكان الذين هاجروا من واحة غريس في عهد السلطان الحسن الأول بسبب الحروب والصراعات بين قبائل أيت مرغاد وأيت عطا حول السيطرة على بعض قصور واحة غريس.

(5) - Cf. Le Maroc présaharien : Habitat et patrimoine, Barcelona, Unesco (SD), P. 5.

(6) - حول كون الأطلس الكبير حدا فاصلا بين الواحات والداخل، راجع ما كتبه ستيفان كزيل في كتابه حول التاريخ القديم لإفريقيا الشمالية، الجزء الأول، ابتداء من الصفحة 3 حول كون الأطلس الكبير بداية من جنوب ملوية العليا هو الحاجز الطبيعي بين المغرب الأطلسي ومغرب الواحات.

Stephan Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du nord, Tome 1, page 3 et suiv.

ويشمل مجال البحث أماكن انتشار "القصور" على امتداد واحات درعة وتافيلالت. من ناحية التقسيم الإداري يضم هذا المجال ثلاثة أقاليم هي زاكورة و ورزازات ضمن جهة سوس – ماسة – درعة، والراشيدية ضمن جهة مكناس – تافيلالت. وتشكل هذه الأقاليم الإطار الترابي لبرنامج (الإنسان والمحيط الحيوي) التابع لليونسكو والذي يرعى محمية المحيط الحيوي لواحات الجنوب المغربي منذ تصنيفها عام 2000[7]. إن وقوف البحث عند الحدود الترابية لهذا البرنامج بالذات، يستجيب لضرورة منهجية، الهدف منها حصر إشكالية البحث داخل وحدة ترابية و بيئية وثقافية–اجتماعية متجانسة وواضحة المعالم.

2 – العصر الذهبي للواحات

نجح إنسان الواحات بفضل خبرته الطويلة ومعرفته العميقة بخبايا محيطه الحيوي أن يحول بقعا من الأرض القاحلة المنعزلة إلى مرافئ حضارية ومراكز تجارية وحرفية كانت لها الريادة الإقتصادية والإشعاع الحضاري في مراحل التاريخ المغربي المختلفة، بل وفي تاريخ إفريقيا الشمالية والعالم القديم. وتمثل "القصور" مراكز إشعاع هذه الحضارة وبوابات المجتمع الواحي إلى العالم الخارجي الذي امتد في العصور الوسطى إلى الممالك الإفريقية والشرق الإسلامي وبلاد الأندلس. وإذ أنها أيقونات الحضارة الصحراوية، تعتبر "القصور" ظاهرة معمارية وعمرانية فريدة، ونموذجا ناجحاً من تفاعل الإنسان مع المحيط الحيوي. كما أنها من ناحية الشكل المعماري والوظيفة العمرانية تلخص الخبرات التقنية والمعارف الحضرية التي قام عليها التخطيط العمراني الواحي الأصيل. بالإضافة إلى أنها تجسيد حي للانسجام بين الإنسان والمجال ولتماسك وتلاحم أفراد المجتمع واعتمادهم على قدراتهم الذاتية في تهيئة المجال وعمارته[8]. والسمة البارزة لهذا المعمار هي الاعتماد على تقنيات هندسية وخبرات معمارية هي ثمرة إبداع الإنسان المحلي وتصوره للحياة،

(7) – يختصر هذا البرنامج في عبارة Mab وهي الحروف الأولى للعبارة الإنجليزية Man and Biosphere أو (الإنسان والمحيط الحيوي) ومقابلها بالفرنسية L'homme et la biosphère . يشكل هذا البرنامج الإطار الدولي الذي تقوم عليه محميات المحيط الحيوي التي ترعاها اليونسكو عبر العالم. يتوفر المغرب بالإضافة إلى محمية المحيط الحيوي لواحات الجنوب المغربي على محميتين أخريين من هذا النوع هما محمية شجر أركان بمنطقة سوس، ومحمية بحرية – قارية عابرة للحدود مشتركة بين منطقة الأندلس جنوب إسبانيا وجهة طنجة – تطوان شمال المغرب وهي مخصصة لحماية الأنظمة البحرية والقارية المتوسطية لغرب البحر المتوسط.

(8) – للتوسع في الموضوع، راجع بحثنا لنيل دبلوم الدراسات العليا من المعهد الوطني للتهيئة والتعمير تحت عنوان: التعمير والمحافظة على التراث الثقافي في المغرب شبه الصحراوي: نموذج قصور منطقة تافيلالت (بالفرنسية:)
Aba SADKI, Urbanisme et conservation du patrimoine culturel Présaharien : l'exemple des Ksour du Tafilalet, Mémoire pour l'obtention du Diplôme des études supérieures, INAU – Rabat, 2003.

وهي تجسيد للحلول التي اخترعها هذا الإنسان لمواجهة المعيقات الطبيعية والاقتصادية التي فرضتها البيئة المحلية. واستمد الإنسان من البيئة المباشرة، رغم قسوتها وشح مواردها، كل مقومات حياته المادية والمعنوية ووظف خصوصياتها المناخية والجغرافية خير توظيف، فنجح في ابتكار تقنيات معمارية وفي اختراع حيل هندسية وبنائية مكنته من تسخير المحيط لضمان بقاءه واستمراره في الوجود.

لهذه الخصائص الرئيسية، تملك عمارة "القصور" كل شروط النظرية المعمارية والحضرية الفريدة. ففي أبعادها التقنية والفنية والإنسانية تختزل تجربة حضارة عريقة ومسيرة إبداع وابتكار طويلة تشهد على خبرة إنسان الواحة في التأقلم المثمر مع ظروف المحيط الصحراوي القاسية، وفي قدرته على خلق التوافق والانسجام بين المكونات الطبيعية والمناخية والمجالية وبين النظم الاقتصادية والاجتماعية والأنساق الثقافية والذهنية التي بني عليها نمط الحياة في الواحة.

تمثل عمارة "القصور" من زاوية أخرى، رصيدا حيا وهائلا من الوثائق الأثرية والتاريخية والعلمية. ولا نبالغ إن قلنا إن كل "قصر" يضم قاعدة معلومات خامة لدراسة تاريخ الفن وتاريخ الوقائع والمؤسسات الاجتماعية للواحة. ومن الناحية التقنية والفنية لا تخلو عمارة "القصور" من مؤثرات ثقافية وتقنية قادمة من المحاور الحضارية المختلفة للعالم القديم والوسيط. من هنا الأهمية الكبرى للمحافظة على التراث المعماري للقصور وحسن إدارته واستثماره. فالخبرات التي أنتجت "القصور" والمؤثرات الثقافية والحضارية التي طعَّمت تجربة إنسان الواحات تجعل من كل وحدة معمارية في المجال الواحي الواسع متحفا أثريا يختزل تجربة إنسانية متفرعة الأصول الفنية والمشارب الثقافية. أما من ناحية الأسلوب المعماري والفني، فعلى الرغم من أن بعض الباحثين، هنري طيراس مثلا في كتابه (قصبات الأطلس والواحات)[9]، قد ذهب إلى التمييز بين مدارس معمارية وفنية مختلفة، وذكر "مدرسة درعة" و"مدرسة تافيلالت" على أساس فروق هندسية وخصوصيات تقنية وفنية ووظيفية في الفن المعماري للمنطقتين، إلا أن آخرين، منهم على سبيل المثال المبعوث الفرنسي المعروف شارل دو فوكو، الذي لا يرى اختلافا يصل حد الفصل بين معمار درعة ومعمار تافيلالت. ويؤكد، على عكس ذلك تماما على التشابه الواضح الذي يبلغ حد التطابق بين المعالم المعمارية والفنية لدرعة وتودغة وفركلة

(9) - Henri Terrasse, Kasbas berbères de l'Atlas et des Oasis, éd. Horizons de France, 1938

وغريس وزيز، باستثناء ما أشار إليه من تفرد الفن المعماري لواحة غريس بالطابع الدفاعي الواضح والارتفاع البارز لأبواب القصور وأبراجها(10).

عاشت الواحات على هذا الإيقاع الحضاري الحيوي والمتميز إلى أن لاحت في الأفق جحافل جيش الاحتلال الفرنسي، انطلاقا من ثلاثينيات القرن الماضي، وكان ذلك بداية نهاية ما تبقى من العصر الذهبي للواحات بعد انهيار تجارة القوافل.

كان الاحتلال الاستعماري بالفعل نقطة البداية في مسلسل التحول المجالي غير المسبوق الذي عاشته الواحات في تاريخها الحضري. وكان لهذا الحدث الهائل انعكاس عميق الأثر على الفكر العمراني المحلي وعلى تقنيات العمارة وأساليبها. فقد أقحم التعمير الحديث في عرف المجتمع المحلي أنماطا معمارية وسكنية وتقنيات هندسية وحضرية وأساليب التهيئة المجالية أحدثت صدمة ثقافية واجتماعية واقتصادية قوية غيرت وجه الواحات، وقلبت نظامها القديم رأسا على عقب. وكان إحداث المراكز الحضرية الجديدة إيذانا باستقطاب السكان وإفراغ القصور من محتواها البشري وإهمالها بعد أن فقدت نقط ارتكازها. وترتبت على هذا الواقع الجديد تفكيك للنسق المجالي والعمراني الذي ارتبطت به حياة القصور. يختصر هذا التحول المعماري في عبارة "انفجار القصور"، التي سنأتي على تفصيلها فيما بعد، وهو تعبير عن تدني قيمة السكن الجماعي القديم وما اتصل به من قيم معنوية ومؤسسات اجتماعية. وسنرى الآن الوجه الجديد للمجال الواحي بعد اتصاله بالمدينة الحديثة عبر الظاهرة الاستعمارية.

3 - الواحات تحت السيطرة الإستعمارية

لا يجب أن نغفل أن "الظاهرة الإستعمارية" بالإضافة إلى أبعادها الإقتصادية والسياسية والثقافية هي ظاهرة مجالية وحضرية بامتياز. بل إن الهيمنة المجالية هي أصل الهيمنة على الإقتصاد والثقافة والقيم الإجتماعية. والاستعمار في معناه المجالي والحضري مبني على هدم أسس النظام المجالي القديم وإسقاط نظام مجالي وحضري جديد في مكانه. والمعروف لدى الجغرافيين أن تغيير بنية المجال إجراء ضروري لبسط النفوذ العسكري والسياسي الممهد للهيمنة الثقافية والحضرية(11). في واحات درعة

(10) - راجع كتاب شارل دو فوكو "Reconnaissance au Maroc" الفصل التاسع، الصفحات 218-238، طبعة Challamel، 1888.

(11) - للوقوف على علاقة الجغرافية و(العلوم المجالية عموما) بالسيطرة والهيمنة، يرجى مراجعة كتاب Yves Lacoste تحت عنوان: La géographie ça sert d'abord pour faire la guerre طبعة Maspero، باريس 1976. وفيه يعتبر الكاتب (الجغرافية) معرفة استراتيجية وأداة من أدوات إدارة الحرب ووسيلة من أنجع وسائل ممارسة السلطة والسيطرة وبسط النفوذ.

وتافيلالت وفي سياق هذا الإجراء العسكري-المجالي، جعل المستعمر من المعمار ومن التعمير أدوات لضبط السكان والسيطرة على مؤسساتهم. فعمد منذ الوهلة الأولى إلى إعادة تنظيم العلاقات بين الإنسان والمحيط لتثبيت أركان المشروع الاستعماري. من أجل ذلك أعاد رسم خريطة المجال المحلي بإحداث نظم ومؤسسات وشبكة علاقات جديدة على أنقاض البنيات والمؤسسات وشبكة العلاقات القديمة، (**أنظر الوثيقة رقم 1**).

ومن الناحية الاقتصادية، أدى إعادة تنظيم المجال إلى هدم الإقتصاد الزراعي المحلي وتحويله من اقتصاد اكتفاء ذاتي إلى اقتصاد تابع للمدينة، وتحويل العلاقات التجارية من التبادل بين السكان المحليين المستقرين (سكان الأودية) والرحل (سكان الجبال) إلى اعتماد هؤلاء جميعا على الإستهلاك السلبي للمنتجات الحضرية. هكذا انتقلت الواحات من الناحية الاقتصادية من مجتمع مركزي، تضامني ومنتج إلى مجتمع هامشي استهلاكي متفرق. أما من الناحية السياسية، فقد أُلغي العمل تدريجيا بالمؤسسات المحلية ونُقلت الواحات من الإدارة الذاتية للشؤون المحلية القائمة على ما يمكن أن نصطلح عليه "ديمقراطية تمثيلية" داخل جماعة القصر وفق مبادئ التشاور والتوافق والتناوب والإصدار الجماعي للقرارات، إلى الخضوع لقوانين الإدارة الاستعمارية بظهور ما سمي بـ "بيرو عرب". وكان الهدف من هذه الإجراءات الإقتصادية والمؤسساتية، بسط النفوذ على كل مفاصل الحياة الواحية.

من الناحية الحضرية والمعمارية تجسدت إجراءات الهيمنة بإحداث نواة إدارية-عسكرية في مواقع مفصلية داخل الواحات المهمة. وقد أدت الأهمية الإدارية والسياسية لهذه المراكز واحتلالها مواقع استراتيجية إلى تقاطر سكان القصور إليها من مجالهم الأصلي الذي يمثل قلب المنظومة المجالية والإجتماعية والثقافية والاقتصادية القديمة. وأدى هذا الاستقطاب إلى انطلاق مسلسل تدهور الأنماط المعمارية العتيقة مما مهد الطريق أمام تفاقم انفجار "القصور" وميلاد الحي السكني مع انتشار ثقافة مجالية ومعمارية وحضرية جديدة[12]. فكيف تحول المجال الواحي من التمركز حول القصر إلى التمركز حول المدينة الحديثة ؟

(12) يمثل قصر إكلميمن وهو أقرب قصور واحة غريس إلى المركز الإداري (كلميمة) الذي أحدثه المعمرون، نموذجا فريدا للتحول من مجتمع القصر إلى مجتمع الحي الجديد. ففي ضواحي هذا القصر ظهر أول حي (حي أعثمان) خارج الأسوار العتيقة للقصر، على شكل كن فردي معتمدا مواصفات جديدة للسكن مستمدة من أسلوب الهندسة الإستعمارية (منازل واسعة داخل المزرعة محاطة بسور يجعلها على طراز الفيلات). ويعود ظهور هذا الحي النموذجي للسكن الفردي ما بعد-القصر إلى أن المستعمر اختار المجال الفاصل بين "قصر إكلميمن" وموضع مركز كلميمة الحالي لإحداث النواة=

3-1- من القصر إلى "المدينة الحديثة"

من الناحية التاريخية نعتقد أن معمار "القصر" مرحلة معمارية وعمرانية وسطى بين مدن التجارة الصحراوية (أو ما يسمى "المدن المندرسة" مثل سجلماسة وتامدولت) والمراكز الإدارية - الحضرية الحديثة التي أحدثت في الصحراء في الفترة الإستعمارية. وسنحاول في هذا المحور الإجابة عن سؤال مهم يتعلق بملابسات وظروف ودواعي ميلاد المركز الإداري-الحضري الحديث الذي شكل نواة "المدينة الحديثة" في الواحات.

- كيف ولماذا ظهرت المراكز الحضرية الحديثة في الواحات؟

رأينا سالفا كيف انتقلت (أو نُقلت) الواحات، في سياق الظاهرة الكولونيالية، من نمط حضري ومعماري أصيل، هو ثمرة نمو مجالي محلي طبيعي ونتيجة صيرورة معمارية فنية ذاتية، إلى نمط جديد يعتمد على مرجعيات الفكر الغربي -الرأسمالي في التخطيط الحضري والتهيئة المجالية. ورأينا أن هذا النمط الجديد كان من ضرورات تثبيت الاستعمار، مما أدى إلى تغيير مفاصل الجغرافية المحلية لأغراض الهيمنة[13]. في هذا السياق يمكن إجمال دوافع ميلاد "المدينة الحديثة" في الواحات تحت العناصر التالية :

- لم تكن "المدينة الحديثة" في الواحات استجابة لحاجات محلية دعت إليها ضرورة إجتماعية أو اقتصادية أو سكانية، ولا هي ثمرة صيرورة وتطور طبيعي للمنظومة العمرانية المحلية. بمعنى أن ظهور الشكل الأول لمفهوم "المدينة الحديثة"

=الأولى للمركز الإداري لكلميمية. ففيه بني مقر الإدارة المحلية (بيرو عرب) مقر ضابط الشؤون الأهلية الذي تحول بعد الاستقلال إلى مقر القائد ورئيس الدائرة، ومقر الحاكم المحلي (المحكمة العرفية التي كانت تسمى محكمة أيت مرغاد Tribunal des Ait Morghad نسبة إلى سكان الانتماء العرقي لسكان قصر إكلميمن) والتي تحولت بعد الاستقلال إلى مقر قاضي المحكمة الابتدائية ومقر المحتسب، ثم مقرات عسكرية كالثكنة وبيوت المعمرين وضباط الجيش. والبناء اليوم متصل من الساحة العمومية في مركز المدينة إلى الساحة أمام باب القصر. ولهذا السبب كان هذا القصر من الناحية العمراينة القصر الوحيد في واحة غريس الذي شمله المدار الحضري لتصميم التهيئة وهو القصر الوحيد الذي شملهأيضا برنامج ترميم قصور تافيلالت الذي تشرف عليه مجموعة العمران. كما هو شأن قصر تاركة في الرشيدية وأبو عام في الريصاني والمعاضيد في أرفود، وهي جميعا قصورا قريبة من الطريق ومن المركز الحضري يشملها المدار الحضري لتصميم التهيئة. مما يعني اعتماد مقاربة حضرية لصيانة التراث المعماري لا تراعي القيمة التاريخية والعلمية والحضارية والأثرية كما يصرح بذاك القانون 22-80 وإنما تراعي اعتبارات انتخابية وسياسية وتنموية بعيدة عن روح المحافظة على التراث الثقافي.

(13) - و هذا ما سمي آنذاك بمسلسل التهدئة الذي هدف إلى إخضاع مناطق نفوذ القبائل للحكم المركزي بعد فترة من الانفصال عن هذا الحكم، وهو ما يعرف في تاريخ المغرب بـ "بلاد السيبة" مقابل "بلاد المخزن". وللإطلاع أكثر على علاقة الجغرافية بالهيمنة أنظر:

David Harvey, Géographie de la domination, Les Prairies Ordinaires, 2008

المعروفة محليا باسم (الفيلاج) في الواحات كان ابتداعا استعماريا صرفا نتيجة نقل وغرس مظاهر الإدارة الترابية الإستعمارية-الرأسمالية في المجتمع المحلي. أي أن الدواعي إلى إنشاء شبكة المراكز الحضرية في الواحات، وفي العالم القروي عموما، كان حاجة استعمارية ترتبط بضرورة فرض الأمن والتهدئة الضمنة لاستنزاف الموارد. وقد تحقق ذلك بالفعل بفضل التوسع الإستعماري استنادا إلى تقنيات التعمير وتهيئة المجال. بناء عليه، نجح ضباط الإستعمار في توظيف المعرفة الجغرافية والمجالية وعلى وجه الخصوص، التخطيط العمراني والإدارة الترابية في إحكام السيطرة على الإنسان عبر ضبط المجال.

- تطور "المدينة الحديثة" في الواحات من نواة إدارية-عسكرية قوامها ثكنة للجيش، مكتب لإدارة "الشؤون الأهلية" (بيرو عرب)، محكمة عرفية، مركز للاعتقال. وأبرز خصائص هذه" المستوطنات "التي تحولت إلى مدن، تمحورها حول الوظيفة الإدارية التي انضافت إليها تدريجيا مرافق تعليمية وصحية واجتماعية واقتصادية جعلت منها في النهاية محاور استقطاب حضرية أفقد "القصور" حيويتها الإجتماعية ومركزيتها الاقتصادية القديمة[14].
- ظهور هذه" المدينة الحديثة "ونموها السريع أوجد داخل الواحات شبكة من المراكز الحضرية الصغرى المرتبطة اقتصاديا وتجاريا ومعماريا وحضريا بالمدن الوطنية الكبرى في الداخل وعلى الشريط الساحلي.
- مزج المستعمر بين التخطيط الحضري المحلي وتهيئة التراب الوطني لتحقيق مصالحه التوسعية وربط التراب الوطني وموارده الاقتصادية والبشرية بالميتروبول[15]. هذا التشبيك بين المراكز الحضرية المحلية والمدن الكبرى على

(14) - للإطلاع أكثر على أثر التهيئة المجالية الرأسمالية على تدمير المجتمعات القروية أنظر:
J. Le Coz, « Régime capitaliste et organisation de l'espace rural », in. Économie rurale, Numéro 1, Volume 119, Année 1977. http://www.persee.fr

(15) - إن الربط بين المدن المحلية والوطنية وهما معا بالبلد الأم (الميتروبول) هي إحدى أبرز خصائص الإقتصاد الكولونيالي. كانت هذه السياسة في المغرب السبب في اختلال توازن التراب الوطني. ذلك أن تركيز الأنشطة الإقتصادية والتجهيزات و الخدمات على محور ساحلي لا يتعدى 200 كلم هو محور، (القنيطرة - الدار البيضاء) أفضى إلى ربط مصير الإقتصاد الوطني بمصير هذا المحور الحضري المركزي الموصول عبر الموانئ باقتصاد الإمبراطورية الإستعمارية. قياسا على ذلك، أدى تركيز الأنشطة الإقتصادية في محور حضري واحد إلى إلحاق المدن الصغرى و المتوسطة بذلك المحور عبر شبكة المواصلات و من ثمة تدمير الاقتصاديات المحلية و تحفيز السكان إلى الهجرة، مما عجل من إتلاف المعمار المحلي وتدهور الأنشطة الإنتاجية المتصلة به أمام فتح الأسواق المحلية أمام المنتجات الحضرية.

الصعيد الوطني، كان الهدف منه ربط المغرب اقتصاديا وتجاريا وثقافيا وسياسيا مع المستعمر. وقد لعب توسيع شبكة الطرق والمواصلات دورا حاسما في هذا التشبيك (المحلي-الوطني) و(الوطني-الدولي) الذي به اكتمل مسلسل إدخال الإقتصاد الوطني في دورة الإقتصاد الكولونيالي-الرأسمالي.

- دُشن ميلاد "المدينة الحديثة" في الواحات بتدمير المركزية المحلية القديمة للقصور الرئيسية وبإسقاط أساليب التخطيط الحضرية والإدارية الترابية الغربية على مجال زراعي تقليدي (ما قبل صناعي) وبذلك أقحمت الواحات في دورة انحطاط عمراني متدرج وشامل. في واحة غريس على سبيل المثال، تجلى تحطيم المركزية القديمة في نقل السوق الأسبوعي من مكانه الأصلي قرب مدخل قصر أيت يحيى وعثمان إلى المركز الإداري لكلميمة[16]. حطم هذا الإجراء القلب التجاري القديم للواحة وسقطت معه الوظيفة المركزية للقصر بعدما انتقلت تلك الوظيفة الرمزية والمادية إلى المركز الحضري الجديد. فكان ذلك إيذانا بتحول الريادة والاستقطاب من القصر إلى المدينة الحديثة. (**أنظر الوثيقة رقم 2**).

ولا يجب أن ننسى أن اختيار "قصر السوق" (الإسم القديم لمدينة الرشيدية) مركزا للقيادة العسكرية أيام الإستعمار ولإحداث أكبر مركز حضري متصل بالجهات الأربع لتافيلالت، كان يهدف إلى تحقيق هدف استراتيجي هو توظيف مركزية قصر السوق باعتباره منطقة جذب تجاري وتبادل بين سكان الوحدات الجغرافية الثلاث (الجبل والسهل والصحراء) في إحداث نواة استقطاب جديدة على قواعد مجالية وأسس اقتصادية وسياسية تخدم مخطط السيطرة. إن استغلال الحركية الإقتصادية والتفاعل الثقافي والاجتماعي والسياسي، واستثمار شبكة العلاقات المتصلة بالمركزية المجالية القديمة (السوق وشبكة الطرق التجارية القديمة) التي كان يلعبها "قصر السوق" في تأسيس مركزية جديدة مكانها، أدى إلى هدم تلك المركزية القديمة لحساب مركزية

(16) - في شهر ماي من عام 1884، تاريخ مرور شارل دو فوكو بواحة غريس، لا يزال هذا السوق نشيطا في مكان تجمعه الأصلي في مدخل قصر أيت يحيى أعثمان يومين في الأسبوع هما الاثنين والخميس. و قد عمل المستعمر على نقل هذه الأسواق من القصر المركزي هذا إلى المركز الحضري الجديد محتفظا بنفس مواعيده السابقة. و مما يؤكد مركزية قصر أيت يحي أعثمان حسب معلومات عسكرية أوردها شارل دو فوكو هو إحتواء هذا القصر على 400 مقاتل وهو أكبر عدد من المقاتلين في واحة غريس مقابل 250 مقاتل لقصر إكلميمن. راجع كتاب Reconnaissance au Maroc، مرجع سابق، صفحة 360.

جديدة وعلاقات وتفاعلات تناسب الواقع الأمني والعسكري والسياسي والاقتصادي والمجالي والحضري الجديد. وإحداث هذه المراكز عادة في مواقع مفصلية بعيداً عن مجال تأثير القصور المركزية كان، كما قيل عن سبب ابتعاد المراكز الحضرية الحديثة عن أسوار المدن العتيقة، تحت ذريعة الحفاظ على الخصوصيات المعمارية والعمرانية والتراثية والجمالية والمنظرية للقصور. لكن، تبين أن هذه السياسية "الحمائية"[17] كان لها أثر عكسي بسبب أن تركيز الاهتمام على تنمية وتطوير وتوسيع المراكز الحضرية المحدثة وتزويدها بالخدمات والمرافق الحديثة أدى إلى جلب أعداد متزايدة من السكان من القصور إلى المركز الحضري، وبالتالي تحول وجهة السكان من الفضاء العتيق إلى الفضاء الحديث إلى الإسراع في تراجع تأثير القصر في الحياة المحلية بسبب تراجع وظائفه السكنية والاجتماعية والاقتصادية وفقدان قيمه الرمزية وحمولته الثقافية. إلى أن أصبح القصر رمزا للبؤس والفقر والتهميش والهشاشة والتدني الإجتماعي. هكذا ظهر وسط كل واحة شبكة من المراكز الحضرية المستقطِبة.

خلاصة القول، أن ظهور ونمو "المدينة الحديثة" في الواحات كان استجابة لحاجات وأهداف أجنبية تتعلق بملابسات التوسع الإقتصادي الإستعماري ومجريات سياقه التاريخي الخاص. فهي لا تنتمي للثقافة الحضرية المحلية ولا هي نتيجة تطور عمراني أو تحول مجالي طبيعي. لذلك من الضروري للباحث النظر إلى ''المدينة الحديثة'' في الواحة على أنها جسم حضري ظهر في سياق تاريخي شاذ وغير منسجم مع التطور الطبيعي للمجتمع المحلي. لذلك نعتقد أن التعمير الحديث وظروف ظهوره والأهداف التي حكمت توسع ''المدينة الحديثة''، هي أصل إشكالية تدبير التراث الثقافي والمعماري في الواحات. فبازدهار حركة التمدين انحدرت قيمة المعمار العتيق وتدهورت وظائفه المادية والرمزية. ولا يمكن معالجة قضية التراث الثقافي والمعماري ولا استثماره وصيانته أو توظيفه على الوجه الصحيح بمعزل عن إشكالية التعمير وما ترتب عليها من تحولات مجالية واقتصادية واجتماعية وسياسية ونفسية عميقة. وهذا ما سنناقشه فيما يلي.

(17) – تستجيب السياسية الحمائية للتراث المعماري والعمراني لحاجات جمالية و فنية ومشهدية وسياحية –عجائبية خاصة بالثقافة الغربية المبنية على أسس الأنتروبولوجية الكولونيالية ونظرتها إلى نمط عيش الآخر الجنوبي على أنه طور حضاري متخلف.

- المحور الثالث : الواحات بعد الاستقلال

يعرف ميداني التعمير والمحافظة على التراث المعماري مشاكل إدارية وتقنية متشعبة. أولها اعتماد أسلوب موحد في إنجاز وتنفيذ وثائق التعمير وعدم احترام ما تنص عليه قوانين المحافظة على المباني التاريخية والمواقع ومدونة التعمير من احترام للخصوصيات المعمارية المحلية والجهوية(18).

- لمحة عن إشكالية التراث المعماري و التعمير في الواحات

صدرت النصوص القانونية الأولى المتعلقة بالمحافظة على التراث الثقافي منذ السنوات الأولى من الحقبة الإستعمارية (ظهير 26 نونبر 1912(19)، وظهير 13 فبراير 1914)(20) والتي على أساسها بني القانون الوطني (قانون 22-80) الجاري به العمل اليوم(21). لا غرابة، والحالة هذه، في أن تظل التبعية قائمة للمدرسة الفرنسية ولأدواتها المعرفية والتقنية في حماية التراث الثقافي ومعالجة إشكالاته. هذه التبعية في حد ذاتها تطرح إشكالا كبيراً يتعلق بافتقار المغرب لحد الآن لتصور واضح ولمنهجية مستقلة نابعة من الحاجات الحقيقية للمجتمع المغربي حول استثمار الرأسمال الأثري والمعماري الوطني وإيجاد أجوبة خاصة لإشكاليات تدبيره وإنقاذه. ويتجلى مشكل تدبير التراث المعماري في كون مفهوم "المحافظة"(La conservation) الذي ورثناه من الحقبة الإستعمارية لم يعد اليوم قادرا على الإحاطة بجميع قضايا وأبعاد إشكالية تدبير التراث الثقافي في سياق حضري واقتصادي وثقافي واجتماعي مختلف تمام الاختلاف عن تلك الظروف التي ظهر فيها هذا المفهوم وعن الغايات التي جاء لتحقيقها. وفي مجال التعامل

(18) - Dahir du 28 juin 1954 (B.O 2177 du 16 juillet 1954, page 1006) modifiant le dahir du 21 juillet 1945 relatif à la conservation des monuments historiques et des sites, des inscriptions, des objets d'arts et d'antiquité, et à la protection des villes anciennes et des architectures régionales (B.O 1713, 24 Aout 1945, Page 571). L'arrêté d'application du présent Dahir (B.O 1738 du 15 février 1946 page 134).

(19) – ظهير 26 نونبر 1912 (ج. ر عدد 5 بتاريخ 29 نونبر 1912) المتعلق بالمحافظة على المعالم التاريخية والكتابات المنقوشة والتحف الفنية والعاديات. ولا يزال القانون الجاري به العمل اليوم في ميدان المحافظة على المباني التاريخية والمواقع (القانون 22-80) يحتفظ بنفس الإسم ولم يخضع إلا لتعديلات شكلية لم تمس جوهره منذ أن وضع في الحقبة الإستعمارية.

(20) – ظهير 13 فبراير 1914 ، ج. ر عدد 43 بتاريخ 27 فبراير 1914.

(21) – إذا كانت فترة زمنية أقل من سنتين (من نونبر 1912 إلى فبراير 1914) كافية لتدرك السلطات الإستعمارية عجز قانون حماية التراث عن مسايرة النمو الحضري والاقتصادي الجديد للمدن المغربية، أدى إلى ظهور الحاجة إلى تعديلات وإضافات منها خصوصا حماية المناطق المحيطة بالمعالم التاريخية والحفاظ على التراث الطبيعي والمناظر، فإن القانون المعمول به اليوم في المغرب لم ير تعديلا ولا إضافة منذ عام 1980.

مع التراث الثقافي تشكو المدرسة الفرنسية من نواقص كثيرة منها اعتبار "التدبير" (la gestion) جزءً من "المحافظة"، مما يترتب عنه التركيز على الترميم (la restauration) والصيانة (la rehabilitation). لذلك يقتصر مفهوم المحافظة على التراث الثقافي، كما هو معمول به في بلادنا، على التدخل التقني والمعماري الصرف. وهذا يجعل عمل المحافظين على المباني التاريخية والمواقع أقرب إلى الهندسة المعمارية منه إلى إدارة التراث الثقافي على أسس علمية وقواعد حديثة معمول بها في مناطق أخرى من العالم[22]. فالمدرسة الأمريكية، على سبيل المثال، جعلت من "المحافظة" جزء من الإدارة والتدبير وليس العكس. لذلك تدور سياسة التراث الثقافي حول مفهومين مركزيين هما: تدبير **التراث الثقافي** أو Cultural Heritage Management و**تدبير الموارد الثقافية** Cultural Ressources Management. والملاحظ، على عكس ما نقوم به في بلادنا، أن الحفاظ على التراث الثقافي في سياق هذه المدرسة يقوم على (التدبير أو الإدارة) Management وليس على (المحافظة) Conservation كما يقوم على تنمية (الموارد الثقافية) culturelles ressources وليس ترميم (المباني التاريخية) Monuments historiques. لذلك تضع المدرسة الأمريكية استثمار التراث الثقافي وتوظيفه ضمن خطط عمل شركات ومقاولات متخصصة في تحفيز الإقتصاد ودعم التنافسية الحضرية.

وهذا نقيض الترميم والدعاية السياحة التي يغلب عليها الطابع العجائبي والفلكلوري والموكولة لوكالات الأسفار وشبكات الفنادق ودور الضيافة وشركات التصوير وشركات الإنتاج السينمائي التي تستغل المشاهد التراثية دون أن تترك أثرا اقتصاديا في حياة السكان المحليين. والفرق هنا واضح بين النظرة الاستثمارية النفعية إلى التراث الثقافي الذي يُتعامل معه كمورد اقتصادي وعامل رافع للتنمية أو أصل تجاري مدر للثروة، والنظرة الإثنوغرافية الفلكلورية الإستشراقية بلا أثر اقتصادي على حياة الناس. إن الافتقار إلى سياسة تدبير وإدارة واضحة للتراث الثقافي يدفعنا إلى الحديث عن دور المحافظين وهم المكلفون، مبدئيا، بتنفيذ السياسة الوطنية في مجال المحافظة على التراث الثقافي. أشرنا إلى أن المحافظة، عملية إشراف تقني واستشاري يفتقر إلى الفعالية واتخاذ القرار

(22) – تقتصر مهام المحافظين على أداء أدوار تقنية مثل مراقبة الخروقات ورفع التقارير للمصالح المركزية عن حالة المآثر والمباني التاريخية والجرد والتوثيق أو الإشراف على المتاحف والمواقع الأثرية. ونسبة كبيرة من المحافظين الذين تلقوا تعليما متخصصا في مجالات عديدة من علوم الآثار والتراث يعملون بعيدا عن مجال التخصص، فمنهم من يزاول مهام إدارية في المراكز الثقافية أو الخزانات والمديريات الجهوية.

وتنفيذه، وهذا يحد من صلاحيات المحافظين ويقلص هامش المبادرة والإبداع لديهم ويجعلهم على هامش المشاركة الفعالة في وضع المشاريع التنموية ورسم الخطط الاستثمارية لتوظيف الموارد التراثية. حتى في المدن التي فيها مفتشيات جهوية للمباني التاريخية، لا ترقى مهام المحافظين إلى ممارسة التدبير وتقنيات الإدارة بشكل يجعل من التراث الثقافي موردا ثقافياً رافعا للتنمية. هذه النواقص، تفسر لماذا لا يحتل المعمار التراثي المكانة المناسبة في السياسة التنموية في المغرب التي تغفل دور الموارد الثقافية في تحقيق التنمية.

فمشاريع التنمية المحلية في الواحات (كمشروع محمية المحيط الحيوي نفسه) لا تدرج المعمار والمناظر الثقافية والخصوصيات المجالية ضمن أولويات التنمية المحلية، ولا ينظر إليها كموارد إقتصادية قابلة للاستثمار. بل ينظر إليها، بسبب تجدر النظرة الفلكلورية والغرائبية إلى التراث المعماري والثقافي المحلي، نظرة تختزلها إلى رموز للهوية وعلامات للثقافة المحلية. لذلك يقتصر التعامل مع المعمار وما يتصل به من موارد ثقافية على أشكال من الاستغلال لا تخرج عن كونها مادة فلكلورية لجلب السياح وإشباع فضول المستكشفين وإثارة الإعجاب والرغبة في الإطلاع على عوالم الصحراء التي تحيل إلى المشاهد والصور النمطية التي رسخت في الذهنية الغربية عن إنسان الجنوب بفعل الإثنولوجية الإستعمارية[23].

(23) - لا يتورع القائمون على السياسة السياحية في بلادنا كثيرا عن تشجيع هذا التصور المجحف في حق التراث الثقافي الوطني خصوصا في منطقة الواحات. فالتراث مادة موجهة في سياق هذه السياسة لاستقطاب الأجانب أكثر مما هي لحماية رافد من روافد الهوية الوطنية. كما أن التراث عامل يوظف في إثارة شغف السياح والتأثير على اتجاهات أسفار السياح في السوق العالمية لا البحث عن مشاريع استثمارية حقيقية كفيلة بتنمية الإقتصاد المحلي وبعث فنونه وحرفه. كل ذلك يتم عبر الاستخدام الفلكلوري للتراث الثقافي عبر تقنيات الدعاية والإشهار والسينما والتصوير والفن التشكيلي. وبالنظر إلى العنوان البارز للسياسة السياحية وهو (جلب 10 ملايين سائح) في أفق 2010، يتضح أن العناية بالاستقطاب السياحي الكمي تفوق الاهتمام بالاستثمار لأغراض تعود بالنفع على تحسين مستويات التنمية البشرية المحلية. لذلك يعتمد على الإشهار والفلكلور أكثر من المشاريع التنموية المحلية الموظفة للتراث. ويلعب التراث المعماري للوحات في هذا الباب دورا مهما في استمالة السياح دون أن يكون لذلك وقع حقيقي على الحياة الإقتصادية المحلية. فعلى الرغم من أن الواحات موطن تراث ثقافي ذو قيمة إنسانية (موقع أيت بن حدو والمحمية ضمن برنامج عالمي حول الإنسان والمحيط الحيوي) إلا أنها تحتل المراتب الأخيرة في مؤشرات التنمية البشرية وعلى قياس نسبة الفقر والهشاشة، كما جاء في الخريطة الوطنية المعدة لهذا الغرض.

وللوقوف على إشكالية التعمير والتراث المعماري سنقتصر فقط على الفصل 19 من القانون 90.12 المتعلق بالتعمير، وهو الفصل المخصص للغرض من تصميم التهيئة[24]. يكتسي هذا الفصل أهمية خاصة لفهم الإشكالية المطروحة في هذا المقال، لأنه ترك فجوة واسعة للمنعشين العقاريين للتملص من مسؤولياتهم تجاه حماية التراث المعماري والطبيعي الوطني، ومن ثمة تعطيل العمل بالقانون 80.22 المتعلق بالمحافظة على المباني التاريخية والمواقع. ينتهي الفصل 19 من قانون التعمير بالفقرة التالية : "وينص تصميم التهيئة، **إن اقتضى الحال ذلك**، على التغييرات التي يجوز إدخالها على الأحكام الواردة فيه تطبيقا لمقتضيات البنود 1 و9 و11 من هذه المادة **بمناسبة طلب إحداث تجزئة أو مجموعة سكنية** ويحدد شروط القيام بتلك التغيرات". أول ما يثير الانتباه في هذه الفقرة هو جواز التصرف في الأحكام الواردة في نفس الفصل لتعديل بعض أحكامه بمناسبة واحدة هي طلب إحداث تجزئة أو مجموعة سكنية؛ بمعنى أن الأحكام الواردة في البنود 1 و9 و11 من نفس الفصل من شأن تنفيذها إبطال مفعول هذا النص تلبية لطلب مضارب أو مجموعة عقارية بإحداث تجزئة أو مجموعة سكنية. إن إدخال التغييرات المشار إليها يتم باللجوء إلى ما يسمى بمسطرة الاستثناء (derogation) التي من شأن الحصول عليها من طرف مضارب أو مقاول عقاري تغيير بعض الأحكام المتعلقة بالتنطيق (zoning) المحدد في تصميم التهيئة. وبالعودة إلى مضامين البنود الثلاثة التي تشير إلى الحالات الاستثنائية الموجبة لتغيير أحكام الفصل 19، نقف على الفجوة المتروكة للمضاربين وللمجموعات العقارية لتحويل طبيعة الأراضي الخاضعة لتصميم التهيئة من مناطق تراثية أو زراعية أو طبيعية إلى مناطق سكنية. واستخدام عبارة "إذا اقتضى الحال ذلك" يمنح مسطرة الاستثناء قابلية للتنفيذ في جميع الحالات المراد منها تغيير طبيعة الأحكام الواردة في الفصل 19 تحت ذريعة الصالح العام، وهذا ما سيتضح في البنود الثلاثة المشار إليها والمتعلقة بأهداف تصميم التهيئة[25].

البند الأول: "تخصيص مختلف المناطق بحسب الغرض الأساسي الذي يجب أن يستعمل له أو طبيعة النشاطات الغالبة التي يمكن أن تمارس فيها. وذلك بإحداث منطقة سكنية ومنطقة صناعية ومنطقة تجارية ومنطقة سياحية ومنطقة لزراعة الخضروات

---

(24) – راجع القانون رقم 12.90 المتعلق بالتعمير الصادر بتنفيذ الظهير رقم 1.92.31 المؤرخ في 15 من ذي الحجة عام 1412 موافق 17 يونيو 1992.

(25) – للمزيد حول هذا الموضوع راجع كتاب:

M'Hammed DRYEF, Urbanisation et urbanisme au Maroc, éd. CNRS, 1993, page 170 et s.

ومنطقة زراعية ومنطقة غابوية على سبيل المثال". لكن رغم هذا التخصيص وتنويع الأغراض المخصصة لها الأراضي، من الممكن، **إذا اقتضى الحال ذلك**، تغيير منطقة من المناطق إلى منطقة سكنية "**بمناسبة طلب إحداث تجزئة أو مجموعة سكنية**". أي أن لا قيمة للأرض تعلو فوق القيمة العقارية.

البند التاسع: "الضوابط المطبقة على البناء خصوصا تحديد العلو الأدنى والأقصى للمبنى ولكل جزء من إنجازاته وطريقة تسييجه وشروط إقامة العمارات وتوجيهها... والمسافات الفاصلة بين المباني ونسبة المساحة الممكن إقامة البناء عليها بالقياس إلى مساحة الأرض جميعها والإرتفاقات المعمارية". مما يعنى إمكانية إلغاء الارتفاقات المعمارية التي ينص عليها قانون المحافظة على المباني التاريخية والمواقع، بعد الحصول على موافقة لجنة الاستثناءات[26]، وهي ارتفاق منع البناء وارتفاق منع التعلية وارتفاق منع حجب الرؤية على المباني التاريخية المرتبة. كما يعني إمكانية إبطال البند الثامن من الفصل 19 من قانون التعمير نفسه، والذي يشير إلى "الأحياء والآثار والمواقع التاريخية أو الأثرية والمناطق الطبيعية كالمناطق الخضراء العامة أو الخاصة الواجب حمايتها وإبراز قيمتها لأغراض جمالية أو تاريخية أو ثقافية، وكذلك القواعد المطبقة عليها إن اقتضى الأمر ذلك".

البند الحادي عشر: "المناطق المفتوحة لإنجاز أعمال عمرانية بها بحسب توقيت معين ."أي جواز إحداث تجزئة سكنية أو عمارة على الأراضي المفتوحة المجاورة للأنسجة العتيقة، مما يشجع على مضاعفة المخالفات القانونية التي يتعرض لها التراث المعماري بسبب التعمير وتضييق الخناق على المعمار التراثي. بهذه الاستثناءات الواردة في البنود الثلاثة، يتضح من الفصل 19 من قانون التعمير فتح المجال أمام إمكانية تحويل المجال التراثي والبيئي إلى مجال للسكن والتجهيز العقاري.

إن ربط مفهوم التنمية بالتوسع الحضري يجعل التعمير عملية اقتصادية تختزل المجال في البعد السكني فقط وتحوله إلى سلعة عقارية. فلا القيمة التراثية ولا التاريخية والجمالية ولا البيئية للمجال تستطيع الصمود أمام جرافات المقاولات العقارية. لذلك ينظر إلى الحيز المجالي الذي يشغله المعمار التراثي لا على أنه مورداً اقتصاديا، بل كحاجز أمام حركة التوسع الحضري ومن ثمة كعائق للتنمية. إن ما ينص عليه الفصل 19

(26) – لجنة الاستثناءات (commission de derogation) هي لجنة إقليمية يترأسها العامل أو الوالي لها صلاحية دراسة مشاريع تصاميم التهيئة.

من قانون التعمير من استثناءات في الأغراض المخصصة لها الأراضي بمناسبة طلب إنجاز عملية عقارية يجعل جميع الأغراض الأخرى أقل أهمية من غرض البناء من أجل إنتاج السكن. ومن هذا المنطلق تصبح المجالات التراثية والبيئية مهددة بالتغيير كلما اقتضى الحال ذلك. وهكذا فتح القانون الباب أمام المجموعات العقارية لاستغلال كل أنواع الأراضي المخصصة لأغراض غير عقارية من أجل إنجاز المشاريع السكنية. لذلك تحل التجزئات والمجموعات السكنية محل الأراضي الزراعية والمساحات الخضراء وتقتحم الأحياء السكنية المجالات التراثية والأثرية. والملاحظ اليوم أن توسع المجال المبني يقابله تقلص في الأراضي الزراعية والغابوية ومجالات المعمار التراثي التي تتمو المدينة الحديثة على أنقاضها، فتفقد أهم عنصر من عناصر التنافسية والاستقطاب السياحي الذي تراهن عليه السياسات العمومية في مجال التنمية الإقتصادية. وللوقوف على جانب آخر من جوانب إشكالية تدبير التراث الثقافي والمعماري في الواحات، ننتقل من الهفوات القانونية إلى العيوب التقنية في إعداد وتنفيذ وثائق التعمير من خلال شرح مقتضيات "ضابطة التهيئة"[27].

تطبق ضابطة التهيئة على الجماعات المحلية المغطاة بوثيقة تعمير "تصميم التهيئة" في المراكز الحضرية و"تصميم التنمية" في الجماعات القروية. وهي وثيقة ملزمة للإدارة وللأفراد. كما يدل إسمها على ذلك، تهدف "ضابطة التهيئة" إلى ضبط حدود ومحتويات التهيئة الحضرية للمجال المراد تغطيته. فهي على شكل نص قانوني يشتمل على ضوابط استعمال الأراضي، ومختلف الارتفاقات المفروضة داخل هذا المجال وجميع التوجيهات الأخرى المتعلقة بالتخطيط الحضري، بالإضافة إلى مساطر البناء التي قد تختلف من منطقة إلى أخرى تتضمن "ضابطة التهيئة" كذلك شروحا كافية حول أهداف وثيقة التعمير موضوع الإنجاز، وإبراز المميزات المجالية والجغرافية للجماعة وخصائصها المعمارية والطبيعية والمنظرية. وتطبق مضامين الضابطة على التجزئات والمجموعات السكنية ولجميع البنايات الجديدة وعلى كافة التغييرات المعمارية من توسيع أو تأهيل أو إعادة البناء التي تتعرض لها البنايات الأصلية. وفي كلمة واحدة تحدد" ضابطة التهيئة "الحقوق

---

(27) – ضابطة التهيئة règlement d’aménagement هو وثيقة أساسية من وثائق تصميم التهيئة، على شكل نص قانوني يتضمن بنود تصميم التهيئة من تجهيزات وبنى تحتية ومشاريع، وهو الإطار القانوني المنظم للمجال الذي يغطيه تصميم التهيئة .كما يتضمن تفصيلات حول تهيئة المجال المراد إخضاعه لتصميم التهيئة، بمعنى توزيع هذا المجال وتصميم التنطيق plan de zonage أي تحديد كافة مناطق واستعمالات الأراضي وتحديد الأغراض المعدة لها.

والواجبات المتعلقة باستعمال الأراضي موضوع التهيئة[28]. ومن الضروري ربطها بالتصاميم والمشاريع الأخرى الجاري بها العمل داخل مدار التهيئة.

في المجال الواحي تحدد "ضابطة التهيئة" الارتفاقات المعمارية المختلفة المطبقة على البناء في محيط "القصور"، وتسمى (حُرمة القصر) لكن ضابطة التهيئة لا تطبق كما أسلفنا إلا على الجماعات المغطاة بوثيقة تعمير مصادق عليها. وعلى الرغم من أن جل المراكز الحضرية (البلديات) في منطقة محمية المحيط الحيوي تتوفر على وثائق تعمير، إلا أن المشكل الأساسي يتمثل في أن الغالبية الساحقة للقصور توجد خارج مدار التهيئة لهذه البلديات لكون نواتها الأولى أحدثت في الأصل خارج مجال "القصور". وعدم إدراج "القصر" في مدار التهيئة الحضرية يعني خروجه عن نطاق ضابطة التهيئة ومسطرة رخصة البناء وفرض الارتفاقات المعمارية.

القصر الوحيد في واحة غريس على سبيل المثال الذي يشمله تصميم التهيئة هو "قصر إكلميمن". ومع ذلك لا يخلو محيط هذا الأخير من تجاوزات للارتفاقات المعمارية التي تفرضها ضابطة التهيئة. والمجلس البلدي الساهر على تنفيذ مقتضيات تصميم التهيئة لا يملك الآليات القانونية الكافية لفرض احترام هذا التصميم، لكون إعداده متأخر جدا بعد أن فرضت التحولات الحضرية واقعا يستحيل معه فرض احترام مساطر التعمير أو قانون المحافظة على المباني التاريخية و المواقع.

على مستوى تدبير التراث الثقافي، فإلى جانب جهل عموم السكان بالنصوص القانونية والإجراءات الإدارية المتعلقة بذلك، وافتقار الجماعات المحلية للأطر المتخصصة في المحافظة على التراث الثقافي والمعماري، وقلة وعي المنتخبين بأهمية المحافظة على التراث الثقافي ودوره في تنمية الموارد المالية للجماعات، فإن منطقة محمية المحيط الحيوي تشكو من غياب مؤسسة متخصصة في السهر على تنفيذ قانون المحافظة على التراث الثقافي ومراقبة الخروقات التي يتعرض لها المعمار التراثي. وللتقسيم الجهوي لمنطقة محمية المحيط الحيوي نصيب من المسؤولية في هذا الوضع. فإقليم الرشيدية يرتبط بجهة مكناس، أي بمجال تدخل المفتشية الجهوية للمباني التاريخية بمكناس، في حين أن إقليمي وارزازات وزاكورة يرتبطان بجهة سوس-ماسة-درعة، أي بمجال تدخل المفتشية الجهوية للمباني التاريخية بأكادير. ورغم وجود مرجعيات قانونية تنص على

---

(28) – للمزيد حول إعداد وتنفيذ وثائق التعمير ومحتوياتها أنظر : MHammed DRYEF, Op, Cit.

ضرورة تنسيق المندوبيات الإقليمية لوزارة الثقافة مع المفتشيات الجهوية في مجال المحافظة على التراث الثقافي، وخاصة مراقبة الخروقات التي تتعرض لها المباني التاريخية والمواقع الأثرية، إلا أنها لم تترجم إلى ممارسات على أرض الواقع[29]. أما مركز دراسة وصيانة التراث المعماري لمناطق الأطلس وجنوب الأطلس (CERKAS)، فعلى الرغم من أن منطقة تافيلالت تدخل ضمن مجال نفوذه، إلا أن التراث المعماري لهذه المنطقة لا يحظى بأي اهتمام يذكر في برامجه. هذا بالإضافة إلى غياب كامل لقنوات التواصل المؤسساتي والإداري بين قطبي محمية المحيط الحيوي، وارزازات والرشيدية، على مستوى تدبير التراث الثقافي. لا نستطيع في هذا الصدد أن نذكر مثالا واحدا على التنسيق بين مركز الصيانة بوارزازات والمندوبية الإقليمية لوزارة الثقافة بالرشيدية أو بينه وبين مركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني. مع ذلك، نسجل دور هذه المؤسسات في صيانة التراث المعماري خاصة ما يتصل بالتوثيق وإعداد التقارير ورصد الخروقات وإبداء الرأي كلما دعت الضرورة إلى ذلك داخل اللجان الإقليمية الموكول إليها دراسة وثائق التعمير. لكن رأي المؤسسات الساهرة على المحافظة على المباني التاريخية والمواقع بشكل عام داخل اللجان الإقليمية ولجنة الاستثناءات بالتحديد رأي استشاري، يفتقر للآليات القانونية اللازمة للتأثير على مجريات تنفيذ وثائق التعمير وتغيير توجهات السلطات العمومية في هذا الشأن. هذا الوضع، يجعل قطاع المحافظة على التراث المعماري الوطني في عجز مؤسساتي وإداري وتقني وقانوني كبير أساسه الافتقار إلى القوة القانونية والفعالية المؤسساتية للتأثير على الاستثناءات التي يفرضها الفصل 19 من قانون التعمير، كما أسلفنا، والتي على أساسها تقع تجاوزات على المجالات التراثية باسم المصلحة العامة. هذا كله إلى جانب أن عمليات السكنى والتعمير في الواحات، لا تراعي مقتضيات النصوص القانونية المتعلقة بتصنيف الواحات تراثا ثقافيا وطبيعيا وطنيا وإنسانيا[30]. وعلى الرغم من وجود موقع للتراث العالمي في منطقة محمية المحيط الحيوي، وهو قصر أيت بن حدو بوارزازات الذي أدرج ضمن لائحة التراث الثقافي

(29) - وهذه حقيقة عشتها من خلال تجربتي المهنية الشخصية. فطيلة عشر سنوات (1995-2005) من العمل داخل المندوبية الإقليمية لوزارة الثقافة بالرشيدية، لم يحصل أن نسقت المندوبية الإقليمية مع المفتشية الجهوية بمكناس حول مراقبة الخروقات التي تتعرض لها القصور من جراء البناء بالمواد الحديثة، حتى في القصور التي تشملها وثائق التعمير و الخاضعة لمسطرة ارتفاق منع البناء.

(30) - Aba SADKI, Urbanisation et dégradation du patrimoine culturel et naturel dans la Réserve de Biosphère des Oasis du Sud marocain, Journée d'information sur la Réserve de Biosphère des Oasis de Sud Marocain (6 Octobre 2003) ORMVA-Ouarzazate. Publié sur le site web de la RBOSM (séminaires) http://rbosm.africa-web.org

الإنساني منذ سنة 1987، إلا أن الغاية من هذا التصنيف في خلق مشروع نموذجي لتحفيز المحافظة على التراث المعماري وتشجيع التنمية الثقافية على امتداد المجال الواحي، لم تقابل بالحزم الكافي لمراقبة عمليات البناء والمواد المستعملة وضبط حركة التعمير وإخضاعها للمساطر القانونية للحيلولة دون تشويه المجال المعماري والطبيعي وإتلاف قيمه الجمالية والتاريخية والتراثية. وهذا يتنافى مع القوانين الصادرة في تصنيف الواحات ضمن التراث الثقافي الوطني، والتي من ضمن ما تنص عليه: منع البناء ذو الطراز الأوروبي، وضرورة الحصول على رخصة إدارية من المفتش الجهوي للمباني التاريخية عند كل عملية بناء، والحفاظ على الخصائص النباتية والصخرية للمجالات المرتبة وهي (مضايق دادس، وادي بوكافر، وادي مكون، وادي تودغى)[31].

على مستوى التنطيق (zoning) تتناول ضابطة التهيئة المعمار التقليدي من زاوية ضيقة تتمحور حول تخصيص "منطقة سكن تقليدي" zone d'habitat traditionnel أو "منطقة سكن شبه قروي للتجديد" zone d'habitat semi rural à restructurer والتنصيص على أن البناء داخل هذه المنطقة أو إدخال أي تغيير على المعمار الأصلي يستوجب الحصول على رخصة إدارية، وأن يوافق البناء الجديد خصوصيات المعمار الأصلي باحترام أحجام وعلو البنايات المجاورة، وأنواع الفتحات (النوافذ والأبواب)، والتبليط الخارجي للجدران وألوان البنايات وعناصرها الزخرفية، بالإضافة إلى اعتماد نفس مواد البناء التقليدية، ومنع استخدام المواد الحديثة خصوصا على الواجهات كالزليج العصري. وبمقتضى الضابطة كذلك، تخضع أعمال التوسعة خارج الأسوار في محيط القصر لهذه الضوابط[32]. لكن للأسباب القانونية والمؤسساتية والإدارية المذكورة سالفا، يصعب التوفيق بين الحاجة إلى

---

(31) - Dahir du 27 février 1943 portant classement des gorges du Dadès (B.O 1588 du 2 avril 1943, page 282). Dahir du 1er mars 1943 portant classement du massif de Bou-Gafer (B.O 1588 du 2 avril 1943, page 283). Dahir du 1er mars 1943 portant classement de la vallée de l'oued Mgoun (B.O 1588 du 2 avril 1943, page 283. Dahir du 3 mars 1943 portant classement de la vallée de l'oued Todgha (B.O 1588 du 2 avril 1943, page 283).

Le classement à pour effet de créer à l'intérieur du périmètre de protection les servitudes suivantes : (i) Interdiction de toute publicité Interdiction des constructions de style européen. (ii) Visa des constructions de l'inspection des monuments historiques qui pourra déléguer ses fonctions aux autorités locales du contrôle (délégation municipale). (iii) Maintien du caractère de la végétation existante et conservation des roches dans leur état actuel. (iv) Établissement des lignes aériennes électriques, télégraphiques et téléphoniques soumis à l'accord du directeur de l'instruction publique (Inspection des monuments historiques).

(32) - Voir: « Règlement d'aménagement de Tinjdad », Art. 10, aliéna n°1, mai 1995, p. 6-7 et «Règlement d'aménagement de la municipalité de JORF », Art. 10, aliéna n°1 Zone d'habitat traditionnel (Ksour) (s.d).

إنتاج السكن الذي تقاس عليه درجة التنمية مع فرض احترام شروط الجودة المعمارية والخصوصيات التراثية وحماية البيئة. أما فيما يخص مشكل توسيع المدار الحضري على الأراضي الزراعية، فإن ضابطة التهيئة تحدد "منطقة للنخيل" zone de palmeraie لحماية المزرعة، وتؤكد على تخصيص هذه المنطقة لزراعة وتنمية النخيل فقط، مع التأكيد على المنع التام لقطع هذه الأشجار أو إتلافها. لكن مع ذلك، يسمح بالبناء داخل هذه المنطقة، وتخضع في هذه الحالة، لنفس الضوابط المطبقة على"منطقة السكن الفردي"، وفرض ارتفاق بمقدار 5 أمتار على الواجهة الرئيسية للسكن بين الجدار الخارجي وحدود القطعة الأرضية،[33] وإمكانية إضافة بنايات ملحقة لأغراض فلاحية[34]. وهذا بناء على الاستثناءات التي فرضها الفصل 19 من قانون التعمير الذي جوز تغيير استعمال الأراضي (مزارع النخيل في هذه الحالة) إلى مناطق سكنية، مع إغفال مخاطر فتح المجال للبناء المتفرق بلا خدمات ولا تجهيزات عمومية داخل الواحة على تلوث البيئة، رغم أن قانون التعمير ينص في المادة 47 أنه "لا تسلم رخصة البناء إذا كانت الأرض المزمع إقامة المبنى عليها غير موصولة بشبكة الصرف الصحي أو توزيع الماء الصالح للشرب". وهذا حال السكن الفردي المتفرق والمنتشر وسط الواحة الذي يعتمد على الحفر في الصرف الصحي، مما يشكل تهديدا خطيرا على تلويث الفرشة المائية. لكن نفس الفصل يستدرك فيقول: "بيد أنه يمكن تسليم الرخصة وإن لم يتوفر الشرط إذا كانت طريقة الصرف الصحي والتزويد بالماء تتوفر فيها الضمانات التي تستلزمها متطلبات النظافة والصحة وذلك بعد استطلاع رأي المصالح المختصة في هذا الشأن". وهذه الفقرة تفتح المجال أمام انتشار البناء "العشوائي" الذي لا تتوفر فيه شروط النظافة والصحة المنصوص عليها.

---

(33) – فيما يخص منطقة السكن الفردي (habitat individuel semi rural) تنص ضابطة التهيئة على مراعاة قاعدة واحدة هي ألا تتجاوز المساحة المبنية داخل المزرعة ضعف عشر (1/20) المساحة الإجمالية لقطعة الأرض الزراعية، على أن يكون الحد الأدنى لمساحة الأرض 2500 متر مربع وألا تتجاوز المساحة المبنية 600 متر مربع وأن الحد الأدنى لمساحة الأرض 500 متر مربع، وأن الحد الأدنى لطول البناية 20 متر في الواجهة الرئيسية، المساحة المبنية في الطابق السفلي لا تتجاوز ربع المساحة الإجمالية للقطعة الأرضية. السكن الفردي لا يتجاوز طابقين وارتفاع أساسي أقصاه 0.08 متر وألا يتجاوز الارتفاع الإجمالي للبناية 9.5 متر .ويجب في السكن الفردي احترام ارتفاق بمقدار 5 أمتار في الواجهة الرئيسية بين الجدار الخارجي والطريق و 4 أمتار بين البناية والقطع الأرضية المجاورة في الجانبية. في حالة وجود مرآب للسيارة يجب أن يكون متضمنا داخل البناءة وألا يبنى في منطقة الارتفاق بين الجدار الخارجي للبناية وحدود الأرض. بناء معزول وسط المزرعة على شكل فيلات مما يؤدي إلى مشاكل بيئية خطيرة تتعلق بالصرف الصحي خصوصا. للمزيد من التفاصيل التقنية حول الموضوع أنظر :
Règlement d’aménagement de Ferkla Al Oulia (Tinjdad), mai 1995, p. 1

(34) - Voir : « Règlement d’aménagement de Tinjdad », (zone de la palmeraie), mai 1995, p.11.

يدفعنا هذا الأمر للحديث عن مشكل آخر يتعلق بتمديد مدار التهيئة على حساب الواحة. والشرارة الأولى في هذا التوسع انطلقت مع إحداث المراكز الحضرية في الفترة الاستعمارية في مواقع يؤدي امتدادها الدائري في المستقبل إلى اكتساح الواحة وإتلاف مجالها الحيوي. وهذا ما وقع بالفعل حيث توسعت التجمعات الأولى على شكل بقعة زيت بسبب استقطاب أعداد متزايدة من السكان إليها. وبذلك انطلق مسلسل قضم الأراضي الزراعية لحساب الأحياء السكنية. و لم يتوقف هذا المد منذ ذلك الحين، فكان من سمات التعمير في الواحات نمو "المدينة الحديثة" على أنقاض الأراضي الزراعية والغابوية والمجالات التراثية. كما أن تصاميم التهيئة نفسها كانت سببا في تشجيع هذا الامتداد بدفع حدود مدار التهيئة إلى داخل الواحة، (أنظر الوثيقة رقم 3) ومن غير الممكن اليوم إيقاف هذا المسلسل الذي أصبح عرفا بقوة القانون في الممارسات الحضرية المحلية. وتماشيا مع جواز تغيير طبيعة الأغراض المخصصة لها الأراضي لإحداث التجزئات والمجموعات السكنية كما جاء في المادة 19 من مدونة التعمير، تولي ضابطة التهيئة، ووثائق التعمير بشكل عام، الاهتمام الأكبر لتمديد المجال المبني بتوسيع نطاق التهيئة على الأصناف الأخرى من المجالات. وعليه فإن اعتماد سياسة التخطيط الحضري النمطية المطبقة على المدن الكبرى داخل الواحات، دون التفكير في إبداع حلول حضرية ملائمة لطبيعة مجال الواحة، المكون من شريط ضيق من الأرض الزراعية بكثافة سكانية عالية جداً، قد جعل وثائق التعمير في الواحات مصدر تهديد بيئي وثقافي حقيقي، باعتبارها تمهد الطريق لعمليات حضرية ينتج عنها إتلاف البناء لمساحات متزايدة من المجال الحيوي. فإلى جانب تعميق وزيادة تمركز الوظائف الإدارية والتجارية والخدمات والتجهيزات في المراكز الحضرية الجديدة على حساب "القصور"، فقد استكملت هذه الأخيرة آخر حلقات تدهورها بالانتشار الشامل لظاهرة "الانفجار"، بسبب التعمير الذي شجع على اكتساح المزرعة حتى في المناطق المغطاة بوثائق تعمير مصادق عليها. وقد كان ذلك حافزا قويا للبناء العشوائي المتفرق داخل المجال المزروع تماشيا مع موضة السكن الفردي الذي سمحت به ضابطة التهيئة في مناطق التعمير القانوني. ومرد ذلك، إلى أن السلطات العمومية لم تؤطر النمو الحضري المتزايد بوثائق تعمير فاعلة وموجهة لحركة التمدين توجيها عقلانيا، (أنظر الوثيقة رقم 4).

انفجار القصــور

تطلق ظاهرة "انفجار القصور" على تشتت البنية المعمارية للقصور، وهجرة السكان منها إلى أحياء سكنية من الطراز الجديد خارج الأسوار أو إلى أطراف المراكز الحضرية. وكان التراث المعماري وما يحمله من قيم تاريخية وأثرية وعلمية وفنية وجمالية، الضحية الأولى للتدهور والانحطاط الناتج عن إفراغ المعمار القديم من محتواه البشري. إن الإهمال الذي طال هذا المعمار في السياسات العمومية قد ترتب عنه بروز فجوة واسعة بين "القصر" والمركز الحضري الذي يستحوذ على القسط الأكبر من التجهيزات والخدمات والأنشطة الاقتصادية وجهود التنمية والتطوير. فبعد الاستقلال، لوحظ الاستمرار في تركيز الاهتمام على تنمية وتطوير وتوسيع المراكز الحضرية الحديثة، مقابل إهمال "القصور"، مما أدى الى تدهور الاقتصاد المحلي الذي فقد أهم مرتكزاته المجالية "القصور". ترتب عن هذه السياسة الحضرية، تزايد الضغط السكاني على المناطق الزراعية، والنزوح المتزايد من المناطق الجافة والقاحلة الواسعة للتمركز على أشرطة الواحات المسقية والضيقة، وبالتالي تعميق أزمة الواحات وتهديد نظامها البيئي، بعد تحطيم نظامها العمراني. كما أن هجرة السكان من "القصور" بسبب هذه الأوضاع الاقتصادية الصعبة نحو المدن الوطنية الكبرى، ضاعف من تراجع الاهتمام بالنشاط الزراعي، فزاد اعتماد المجتمع المحلي على الإنتاج الحضري بسبب انهيار وسائل الإنتاج بتقلص المساحات المزروعة التي يلتهمها التعمير أو تتلفها العوامل الطبيعية القاسية كالجفاف والتصحر.

خاتمة عامة

إن التراث الثقافي والمعماري بالتحديد، هو قطب الرحى في تنمية المجال الواحي، مما يجعل الإقتصاد متصلا بالتراث، إلى حد الجزم بأن تنمية الواحات رهينة بالمحافظة على التراث الثقافي وتثمينه. ففي المجالات المعتمدة على الاقتصاد الزراعي-الإيكولوجي، كمنطقة محمية واحات الجنوب المغربي، يكون الشرط الأول لنجاح السياسية التنموية هو استيعاب الترابط الوثيق بين خمس ثنائيات تشكل كل واحدة منها عنصرا أساسيا في المنظومة الواحية وينتج عن تفاعلها دورة محكمة. هذه الثنائيات هي: (المجتمع-الثقافة)/(الثقافة-البيئة)/(البيئة-الزراعة)/(الزراعة-الإقتصاد) و(الإقتصاد -المجتمع). إن الفصل بين عناصر هذه المنظومة المتسلسلة، أو التركيز على حلقة معينة وإهمال أخرى يفضي إلى إجهاض العملية التنموية. وهذه السلسلة من

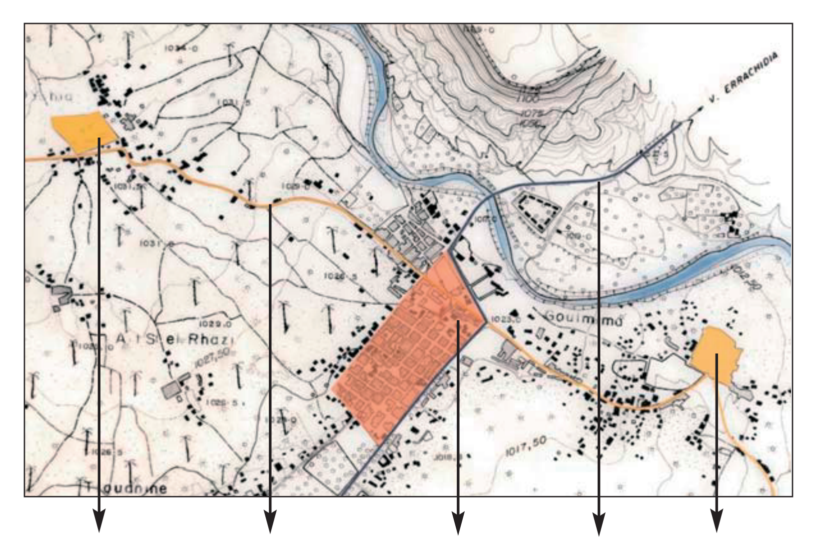
العناصر المتكاملة والمتداخلة تشمل قضايا التعمير والتهيئة المجالية وتدبير التراث الثقافي والمعماري. ذلك أن تناول قضية من قضايا التنمية مع أخذ هذه الجوانب بعين الاعتبار، يؤدي إلى الإحاطة بجميع الأبعاد المادية والمعنوية لإشكالية تنمية المجالات الواحية. بمعنى أن التركيز على ترميم الأشكال المعمارية بمعزل عن الثنائيات الخمس المذكورة التي تتشكل من (المجتمع - الثقافة - البيئة - الزراعة والاقتصاد) لن يخدم العملية التنموية في شيء، كما أن التركيز على السياحة الثقافية مثلاً وإغفال عنصر من عناصر هذه الدورة لا يبشر بتنمية حقيقية للواحات. ومن الضروري في نفس السياق، التأكيد على أن الواحات عمران شامل يتكون من عناصر بشرية-ثقافية ومجالية-طبيعية واقتصادية مترابطة على هيئة بناء مرصوص يجسد وحدة الإنسان مع مكونات المجال المحيط به التي هي جوهر برنامج الإنسان والمحيط الحيوي. وبالنظر إلى أن المعمار نفسه منظومة متكاملة تعبر عن تفاعل الإنسان مع المحيط، وأنه أداة لإثبات الذات عبر الإبداع المعماري، فلا يمكن للترميم التقني الصرف للمعمار أن يقود عملية إحياء التراث الثقافي مع إغفال ترميم البنى المادية والرمزية التي أنتجت هذا المعمار. فالقصور لا تعني فقط تجمعات سكنية، بل هي كذلك مجموع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والتفاعلات مع المجال التي استند عليها وجود هذا النمط من المعمار. وسياسة تدبير التراث المعماري التي تعتمد فقط على تدخل المهندسين المعماريين والتقنيين لا يمكن أن تعيد الحياة إلى القصور المتلاشية. وشأن المعمار الجماعي شأن الواحة برمتها، لأنها أيضا نظام بيئي وبناء اجتماعي ونسق ثقافي ونظرية اقتصادية فريدة. لذلك لا يمكن بعث الحياة في واحة على وشك الاندثار إلا إذا توفرت شروط التفاعل بين الإنسان والمجال والتي اختفت بسبب خضوع الواحات لسياسية مجالية جديدة لم تكن نتيجة للتراكم الطبيعي للخبرة المحلية ولا هي ثمرة تحول ذاتي للنظام الإقتصادي وللمؤسسات الاجتماعية المحلية. ومن الطبيعي أن يؤدي الواقع المعماري والمجالي الجديد للواحات إلى استناد الأدوات والمفاهيم المتعلقة بتدبير التراث الثقافي مثل "رد الاعتبار" و"التوظيف" و"الصيانة" و"الترميم" إلى المبادئ التقنية والمرجعيات الفكرية الغربية، وضرب "الموروث التقني" المحلي وأساليب التدبير الذاتي للمجال والمعمار عرض الحائط. ولعل السبب في اتساع الفجوة بين خطاب التنمية الثقافية للواحات والنتائج على الأرض، يرجع إلى عجز تلك المرجعيات والمبادئ النمطية للتدبير عن احتواء الإشكاليات التنموية التي أحدثتها التحولات العميقة التي خضعت لها الواحات بعد اندثار نظمها المجالية والحضرية والمعمارية. والملاحظ أن البحث عن "وظائف جديدة" للمعمار

التراثي لا يراعي الحفاظ على الخصوصيات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والبيئية المحلية، ويختزل مفهوم التراث الثقافي في المعنى الفلكلوري، مما يجعل عمليات توظيف المعمار لأغراض السياحة متصلا بمصالح إقتصادية ضيقة ومحدودة الأثر على مجتمع الواحات، إن لم يكن أثرها سلبيا على المدى البعيد من الناحية الثقافية والاجتماعية. لهذا السبب تأخذ المشاريع السياحية الموظفة للتراث المعماري والثقافي شكل عمليات تنموية مقطوعة عن المجتمع المحلي، مع أنها مفتوحة على المجتمع الدولي عبر السياحة. وزرعت هذه المشاريع السياحية كأجسام غريبة في جسم الواحات مما يزيد من مشاكله البيئية والاجتماعية والثقافية. فمساهمتها الاقتصادية محليا شبه معدومة، لأنها متصلة بالوكالات السياحية الدولية أكثر من ارتباطها بالجماعة المحلية التي أنشئت فوق ترابها. ويكتسي التراث الثقافي من هذا المنظور طابع "منتوج عجائبي" يستخدم في إشباع الحاجات الثقافية والجمالية الخاصة بالإنسان الأوروبي الذي لم تتغير كثيراً نظرته "الكولونيالية" إلى "الآخر". فبدلا من توظيف التراث الثقافي والمعماري لبعث رسائل حضارية وثقافية من موقع القوة والاعتزاز والافتخار بالثقافة المحلية وبرافد من روافد الهوية الوطنية، يوظف توظيفا لا يخدم التنمية ولا الثقافة المحلية ولا الهوية، فيأتي بأثر عكسي على المجتمع المحلي، لأنه من ناحية أخرى يرتبط بالسوق السياحية الدولية وبشروط الصناعة الثقافية التي تجعل من الثقافة وعناصرها سلعاً تخضع لقوانين العرض والطلب. لذلك تقتصر ثمار مشاريع توظيف التراث على دائرة ضيقة من المساهمين المباشرين في المشروع. ونادراً ما تتسع هذه الدائرة لتشمل تنمية الحرف والفنون المحلية، أو تثمين الأنشطة الاقتصادية المحلية المرتبطة باقتصاد "القصر". والعائد على المجتمع المحلي من مشاريع توظيف مواردهم الثقافية والطبيعية يكاد يكون منعدماً. فماذا يجني المجتمع المحلي من فائدة مباشرة من السياحة الإيكولوجية والثقافية بالنظر إلى كون الواحات متحفا مفتوحا تجول فيه مجموعات السياح وتقام فيه أنشطة رياضية وثقافية وفنية دولية، وتستغل مناظره الطبيعية النادرة ومشاهده الثقافية والاجتماعية وصور الحياة اليومية في صناعة السينما العالمية وفي مهرجانات ذات صيت عالمي؟ ماذا يجني السكان من استغلال التراث الثقافي والطبيعي المعروض مجاناً لهذه الأنشطة الاقتصادية المدرة لأرباح ضخمة ؟[35]

---

(35) – من الممكن جدا إذا توفرت الإرادة السياسية، إحداث صندوق للسياحة الثقافية والطبيعية تصرف مداخله من هذه الأنشطة الدولية في تمويل مشاريع تنموية محلية ذات الأولوية: خدمات صحية، تعليمية، تجهيزات، بنيات تحتية، ري، زراعة، تربية مواشي، ترميم التراث المعماري، تمويل مشاريع صغرى نسائية وحرفية، وفي مشاريع صغرى مدرة للدخل...

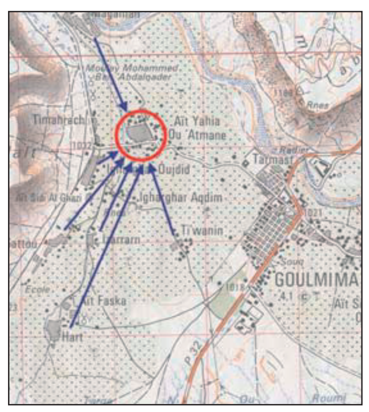
بناء على هذه الخلاصة، نعتقد أن التفسيرات التي تربط تدهور المعمار، والبيئة عموما، في المجال الواحي بالعوامل الطبيعية فقط، كالتقلبات المناخية والتصحر والجفاف، تفسيرات تفتقر إلى الدقة العلمية وللموضوعية، لأنها لا تنطلق من الأسباب الحقيقية التي أوصلت المجالات الواحية إلى ما وصلت إليه من هشاشة وتخلف. كما أن الحلول المقترحة لتجاوز تدهور المعمار لا تنطلق من تصور حقيقي للمشاكل التي تعيق التنمية الثقافية للواحات.



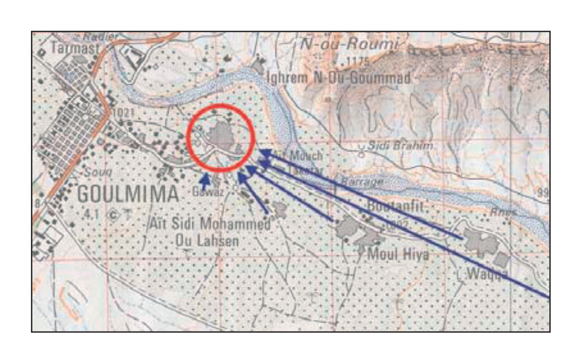
قصر إكلميمن /الطريق الوطنية 21/ المركز الحضري كلميمة /الطريق الرابطة بين القصور / قصر أيت يحيى وعثمان

الوثيقة رقم 1: احتلال المركز الحضري الحديث لموقع مركزي وسط الواحة جعل منه محور استقطاب لسكان القصور. كما أن إحداث هذا المركز أدى إلى رسم خريطة جديدة لمجال الواحة، بتحويل وجهة الشريان الرئيسي للتواصل بين السكان من طريق موازية لمجرى مياه الوادي والرابطة بين أعلى الواحة وأسفلها إلى طريق معبدة عمودية على الطريق القديمة، وتربط بين الواحة و المدن الداخلية.

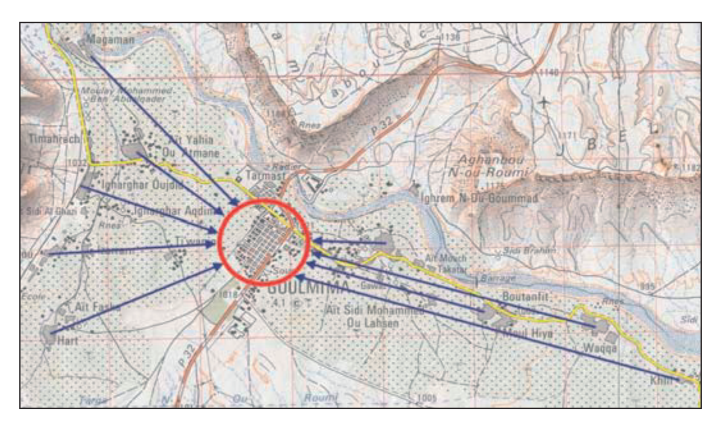
مركزية قصر أيت يحيى وعثمان داخل شبكة قصور غريس العلوي (تاركا وفلا)



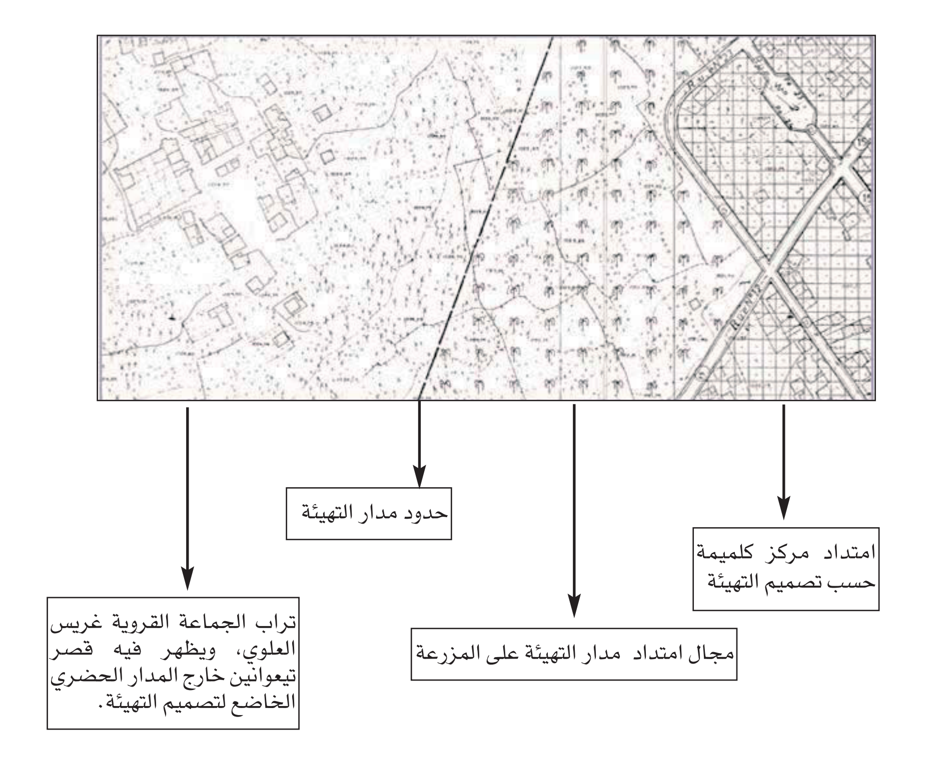
مركزية قصر إكلميمن داخل شبكة قصور غريس السفلي (تاركا ن يزدار)



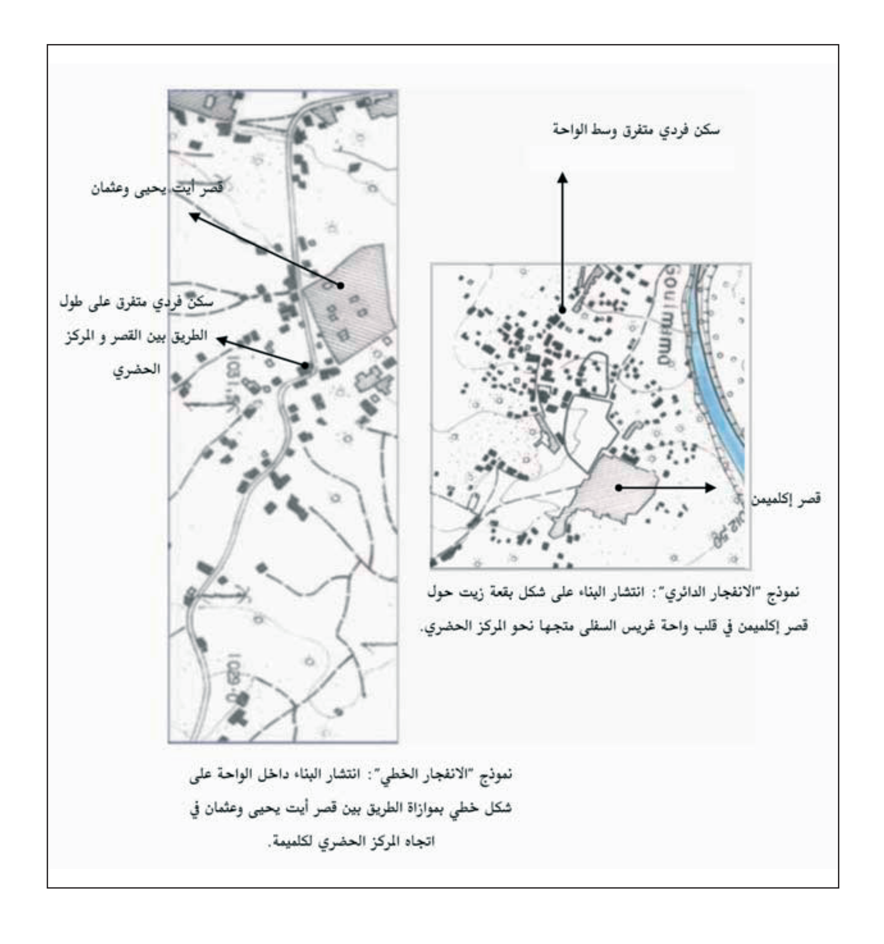
حلول مركزية "المدينة الحديثة" محل المركزية القديمة للقصور تحويل وجهة الطريق من طريق رابطة بين قصور أعلى الواحة وأسفلها إلى طريق رابطة بين الواحة والمدن الداخلية.



الوثيقة رقم 2: انتقال مركز الثقل من القصور إلى المدينة الحديثة.



الوثيقة رقم 3: تتوفر وثائق التعمير في منطقة محمية المحيط الحيوي، إلا أن المشكل الأساسي يكمن في كون الغالبية الساحقة للقصور توجد خارج مدار التهيئة لهذه البلديات لكون نواتها الأولى أحدثت في الأصل خارج مجال "القصور". وعدم إدراج "القصر" في مدار التهيئة الحضرية يعني خروجه عن نطاق ضابطة التهيئة ومسطرة رخصة البناء وفرض الارتفاقات المعمارية.



الوثيقة رقم 4: نموذجين لانفجار القصور الرئيسية في واحة غريس.

المصطلحات الأمازيغية المستعملة محليا في مجال المعمار

الاسم الأمازيغي	المقابل العربي
إغرم	القصر
تدارت	المنزل
تدويريت (البيت ن إنكباون)	غرفة الضيوف
أكادي	الحائط
أحانو	الغرفة
لعلو	الممر داخل القصر
تيزيت	منفذ الضوء في سقف الممر
ترحبات	الساحة العمومية داخل القصر
الحنية	المطبخ
تبرجيت	سقف الطابق العلوي للبيت
تيط ن تدارت	(عين الدار) منفذ الضوء والهواء في السقف
أطوب	الطوب
ألوط	الطين
أكان	التراب
أغانيم	القصب
ترطوين (جمع تارطا)	سعف النخيل
تكجديت (تكجدا)	العمود الخشبي (الأعمدة)
أنيم	التبن
التابوت (اللوح – الركز)	تقنية البناء باللوح
المركز	أداة دك التراب داخل اللوح
تخباط	أداة لتسوية واجهات الجدران
تزكاوت	كيس لحمل التراب
أكلزيم / تكلزيمت	الفأس
تدولي	السقف
أملس	التبليط
تملاس (ت)	أداة تبليط الجدران
تغوزي (إغزا)	الحفر (حفر)

البيبلوغرافيا

- "المجال والمجتمع بالواحات المغربية"، منشورات كلية الآداب مكناس، سلسلة الندوات رقم 6، 1993.

- روبير أوزيل، "فن تخطيط المدن"، ترجمة بهيج شعبان، الطبعة الثانية، بيروت 1982.

- جمال عليان، "الحفاظ على التراث الثقافي : نحو مدرسة عربية للحفاظ على التراث الثقافي وإدارته"، سلسلة عالم المعرفة، العدد 322، 2005.

******

- Aba SADKI, «Urbanisme et conservation du patrimoine culturel Présaharien : l’exemple des Ksour du Tafilalet», Mémoire pour l’obtention du Diplôme des études supérieures, INAU – Rabat, 2003.

- Aba SADKI, «Urbanisation et dégradation du patrimoine culturel et naturel dans la Réserve de Biosphère des Oasis du Sud marocain», communication présentée à l’occasion de la journée d’information sur la Réserve de Biosphère des Oasis de Sud Marocain (6 Octobre 2003) ORMVA-Ouarzazate. Publiée sur le site web de la RBOSM (séminaires). http://rbosm.africa-web.org.

- A.Bencherifa et H. Popp, «L'oasis du Figuig : persistance et changement», Passau, 1990.

- David Harvey «Géographie de la domination», Les Prairies Ordinaires, 2008.

- Henri Terrasse, «Kasbas berbères de l'Atlas et des Oasis», éd. Horizons de France, 1938.

- «Patrimoine et Mussées au Maroc», publication de l’IRCAM, série colloques et séminaires n°11, 2007.

- « Le Maroc présaharien «Habitat et patrimoine», Barcelona, Unesco (SD), P.5.

- Stephan Gsell, «Histoire ancienne de l’Afrique du nord», Tome 1, page 3 et suiv.

- Ch. De Foucault, «Reconnaissance au Maroc», éd.Challamel, Paric, 1888.

- Yves Lacoste, «La géographie ça sert d’abord pour faire la guerre», éd. Maspero, 1976.

- J. Le Coz, «Régime capitaliste et organisation de l'espace rural», in. Économie rurale, Numéro 1, Volume 119, Année 1977.

- M'Hammed DRYEF, «Urbanisation et urbanisme au Maroc», éd. CNRS, 1993.

- «Espace et société dans les oasis marocaines», Fac. Lettres et Sc. Hum, Meknès, séries colloques 6, 1993.

- «Règlement d'aménagement de Tinjdad», mai 1995.

- «Règlement d'aménagement de Ferkla Al Oulia (Tinjdad)», mai 1995.

المعمار الأمازيغي بالقسم الأوسط الشمالي للأطلس المتوسط على عهد الحماية (قبائل آيت يوسي وآيت سغروشن)

ذ. مصطفى أنور
باحث في التاريخ

تراكمت لدى الإنسان عبر التاريخ تجارب تقنية في مجال المعمار، واجه بها ظروف بيئته، فمن خلال تراكم الخبرات لديه توصل إلى بنائه لمأوى متوازن مناخيا، على شكل مساكن إما جماعية أو فردية.

وفي إطار الاستجابة البشرية للظروف البيئية المتنوعة، وخلق جو مناسب للعيش، حرص الإنسان منذ القدم على أن يوفر أثناء بنائه لمأواه عنصرين رئيسيين، هما: الوقاية من تأثيرات عناصر المناخ، ومحاولة تلطيف الجو الداخلي لمسكنه، حتى يوفر راحته. علما أن فكرة التصميم البيئي هاته لا تقتصر على الإنسان وحده، بل يمكن ملاحظتها أيضا في مأوى الكائنات الحية الأخرى، لاسيما : العنكبوت والنحل والنمل والأرانب... إلخ، فجميع هذه الكائنات تظهر مهارة فائقة في تصميم بيوتها واختيار مواقعها، بما يتلاءم مع حياتها وظروف البيئة التي تعيش فيها، شأنها في ذلك شأن الإنسان، الذي يأخذ في اعتباره العوامل والظروف البيئية المحيطة به ومحاولته التكيف معها. ولما استطاع المبنى أن يواجه المعيقات المناخية ويحقق راحة الإنسان، ظهر مفهوم القبيلة - كتجمع لعدد من السكان - التي شكلت إحدى مكونات الوجود المعماري بالمجالات الريفية.

إن موضوع نشأة المعمار الأمازيغي موضوع خصب، يحتاج إلى المزيد من الدراسة وتعميق النظر، للكشف عن الحقائق المغمورة المتعلقة بأهمية هذا التراث الأصيل، وعلى هذا الأساس سنحاول تسليط الضوء على مجال المعمار الأمازيغي بجزء من المجال الأطلسي نموذج: قبائل آيت يوسي وآيت شغروشن (ناحية مدينة صفرو)، نظرا لما يكتسيه هذا المجال الجغرافي الشاسع من أهمية، ترتبط بدراسة ظاهرة التجمع القبلي الأمازيغي عبر الحقب التاريخية، ولا مراء في أن فهم العمارة الأمازيغية بهذا الجزء من الأطلس المتوسط، لا يمكن أن يتم إلا بنظرة أكثر شمولية وأكثر تعمقا للجوانب الإثنية والإدارية والجغرافية والديموغرافية، ذات العلاقة بفهم الحياة الاجتماعية بهذا المجال في الفترة

الاستعمارية، قصد الوقوف عند أهمية استغلال قبائل آيت يوسي وآيت سغروشن لعناصر وموارد البيئة الطبيعية، وكيفية الانتفاع بها في تشييد سكناها.

I - المسألة الإثنية والإدارية وأثرها على التجمعات السكنية بقابل آيت يوسي وآيت سغروشن

تسكن بالقسم الأوسط الشمالي من الأطلس المتوسط مجموعات من القبائل الأمازيغية تشتغل بالزراعة وتربية المواشي، وتستوطن مساكن تكون في الغالب على طرف البادية، قريبة من الماء والمراعي، وتضم أسر نووية ممتدة، تتجمع حول الأراضي ذات الملكية الجماعية. من هذه القبائل، قبائل آيت يوسي وآيت سغروشن:

حيث تتكون قبيلة آيت يوسي من ثلاث تجمعات قبلية كبرى هي:

- آيت يوسي أمكلا (آيت يوسي غرابة)
- آيت يوسي كيكو (آيت يوسي الجبال)
- آيت يوسي انجيل[1]

كما تنقسم قبيلة آيت سغروشن إلى ثلاثة أقسام هي :

- آيت سغروشن سيدي علي (تيشوكت)
- آيت سغروشن حريرة (عند بني وراين)
- آيت سغروشن إيموزار كندر[2]

أ. الأصل وإشكالية القرابة والاندماج

1. أصل آيت يوسي وآيت سغروشن

• آيت يوسي

يمثل آيت يوسي "تجمعات قبلية كبرى نزحت من الجزائر في اتجاه المغرب، وهذا ما ذهب إليه ابن خلدون، حيث أشار إلى أن قبيلة "بني يوسف" التي كانت تقطن بجبال وهران

(1) - Renseignements politique sur la tribu des Aït Youssi, 1913, p : 1, D.A.I Carton 428, C.A.D Nantes, et voir aussi : Cp. Reisser : Notice sur les tribus des environs du poste de Sefrou le 06/07/1912. D.A.I. Carton 428. C.A.D. Nantes.

(2) - Fiche de tribus Aït Seghrouchen de Sidi Ali, 1947, p : 31. D.A.I. Carton 398. dossier N° 114. C.A.D. Nantes.

قد طردت من طرف الأسر الحاكمة المتنازعة بتلمسان مع بني مرين وبني حفص، لكونها قبائل خارجية لا تنتمي إلى الأصل التلمساني، وعلى إثر ذلك توجهت هذه القبيلة المطرودة نحو الأطلس الصحراوي خلال القرن 14م واستقرت بواد كير وواد الشعير (منطقة بودنيب) في أواسط القرن15 م[3]".

بلغت قبائل آيت يوسي بتنقلاتها إلى واد زيز، الذي غادرته حوالي سنة 1660م. ومنذ هذا التاريخ بدأت تتجه نحو الشمال لتستقر بمنطقة ملوية، خاصة بالقصابي وسهل انجيل وألميس مرموشة، حيث اندمجت وتلاحمت مع المخزن. وعندما أخضع المولى رشيد (1666-1672م) الدلائيين، أمر آيت يوسي بتأمين سلامة الطريق الرابط بين فاس وقصبة المخزن، والطرق المتفرعة عنها نحو صفرو وألميس ملوية[4].

• آيت سغروشن

تعتبر المنطقة الجبلية تيشوكت مهدا لآيت سغروشن، الذين استقروا بهذه المنطقة منذ حوالي 200 سنة، على عهد الشريف مولاي أحمد بن علي، وهم شرفاء أدارسة بواسطة جدهم الأول مولاي علي بن عمور، الذي أقام بنواحي بودنيب، حوالي سنة 1500م. امتد نفوذ آيت سغروشن في كل الاتجاهات، خاصة نحو الشمال. حيث استحوذوا على مجموعة من الأراضي بالضفة اليسرى لواد كيكو، الممتدة بين تاغزوت وتاكنانايت وسكورة. ومع بداية التدخل الفرنسي استقروا بواد أمكلا[5].

2. إشكالية روابط القرابة والاندماج

إن دراسة قبائل آيت يوسي على مستوى القرابة والتجمع والتقسيم الثنائي الذي خضعت له، والمتمثل في آيت يوسي غرابة وآيت يوسي الجبال، يطرح عدة إشكالات ما دامت كل القبائل قد اختلطت فيما بينها ولها ممثلين في السهل والجبل، لهذا يصعب تعيين حدود قبائل آيت يوسي الذين اختلطوا في عدة مواقع مع قبائل آيت سغروشن، ويبقى تعيين اسم وحدود وموقع هذين التجمعين القبليين الكبيرين مرهونا بعدد فخذاتهما[6].

(3) - Fiche de tribus Aït Youssi du guigou, 1953, p : 16, carton 3H 1473, S.H.A.T, Paris.
(4) - Ibid.
(5) - Cp. Vernay : tribu des Aït seghrouchen Sidi Ali, Boulemane le 25/01/1928, p :12, carton 3H 871. S.H.A.T. Paris.
(6) - Cp. Reisser : Notes concernant les populations du cercle de Sefrou et les tribus de la périphérie. Sefrou, le 28/12/1916, p : 3, D.A.I. Carton 428, Dossier N° 25. C.A.D. Nantes.

ب - انعكاسات التنظيم الإداري والتوزيع الديموغرافي على مكونات آيت يوسي وآيت سغروشن على عهد الحماية

في إطار تشكيل المراكز أو الفروع الإدارية من طرف إدارة الحماية، عملت سلطات المراقبة على إعادة تنظيم التجمعات السكنية المحيطة بمدينة صفرو إداريا وسياسيا وديموغرافيا.

1- التقسيم الإداري والتوزيع الديموغرافي

يتلخص التقسيم الإداري والتوزيع الديموغرافي لقبائل آيت يوسي وآيت سغروشن منذ سنة 1916 في الجداول التالية:

تقسيم قبيلة آيت يوسي سنة 1916(7)

القبائل	أيت أومناصف	أيت عمور أويحيى
عدد الخيام	1275	2272
عدد الفخذات	7	19

تقسيم قبيلة آيت سغروشن إيموزار كندر سنة 1916(8)

الفخذات	عدد الدواوير	عدد الخيام
أيت عبد الله	18	507
أيت إخلف	7	2
أيت سغروشن من أصول مختلفة	3	3

تقسيم قبيلة آيت سغروشن سيدي علي سنة 1916(9)

القبائل	عدد الفخذات	عدد الخيام
أيت امحمد الزاوية	9	816
إدراسن	6	275
أيت سغروشن أخرون	4	375
أيت سغروشن من أصل خارجي	6	240

(7) - Ibid, p: 29.
(8) - Ibid, p: 74.
(9) - Ibid, p: 82-83.

2. مكونات اتحاديتي آيت يوسي وآيت سغروشن

• الأسـرة

تأوي كل خيمة عادة أسرة، تتكون من الأب والأم والأطفال، وعندما يكبر الأطفال يستمرون في العيش في نفس الخيمة مع آبائهم ويولجون زوجاتهم وأبنائهم في هذه الخيمة، فالأسرة إذن تتكون من جميع الأشخاص الذين ينحدرون من نفس الشخص.

• الـدوار

يشتمل الدوار على العديد من العشائر (Les clans) أو جزءا من العشيرة فقط، وهو يطابق وحدة إدارية، يديره ما يسمى بالجاري الذي يعينه القائد ويتلقى أجرة من طرف السكان. ففي قصبة إيموزار كندر مثلا، يتقاضى الجاري إلى حدود سنة 1946 عشر فرنكات لكل أسرة في الشهر. وبالإضافة إلى مهمة الجاري تجتمع جماعة الدوار أو مجلس الأعيان لإعطاء الرأي في كل القضايا الهامة التي تخص الدوار. إن هذه المكونات الاجتماعية: (الأسرة، الدوار...) تحكمها عادات وتقاليد وقيم إنسانية، ترتبط بسلوك الإنسان وعلاقاته مع الآخرين، والمجتمع ككل، وبالتالي تساهم في إفراز وظهور طابع أو طراز معماري معين، ذو صلة وثيقة بالمجتمع، يتأثر به ويؤثر فيه.

II – الفن المعماري الأمازيغي وخصوصياته الجمالية والهندسية بقائل آيت يوسي وآيت سغروشن

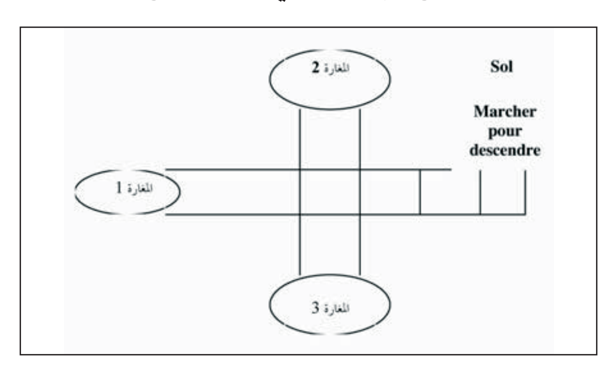
أدت الظروف البيئية والمناخية المتنوعة إلى تطوير طرق متعددة للحياة، ففي قبائل آيت يوسي وآيت سغروشن، نلاحظ أن الحياة تقوم على الارتحال الدائم بين المناطق الزراعية، تبعا للمواسم المختلفة، شأنهم في ذلك شأن جميع المناطق الريفية. وتعتبر العائلة الوحدة الاقتصادية الأساسية. وتشكل القبيلة الوحدة التي تعلو مجموع العائلات، وقد انعكس هذا على أنماط المعمار في هذه المناطق، حيث أدى ثبات عوامل البيئة الطبيعية إلى وجود أنماط من المباني التقليدية تفي بالاحتياجات الوظيفية للإنسان، من خلال معطيات البيئة المحلية والخبرات المتوارثة عبر الأجيال، محاولة للوصول إلى المثالية في تصميم وتشكيل المباني بصورة معمارية جميلة.

أ. أنماط المعمار بقبائل آيت يوسي وآيت سغروشن

1. المغارات

تسمح التكوينات الرسوبية التي تتشكل منها تربة قبائل آيت يوسي وآيت سغروشن في العديد من المواقع بحفر المغارات من أجل السكن .ويكثر سكان الكهوف خصوصا في إيموزار كندر، حيث تتواجد بعض المغارات القديمة، استمر آيت سغروشن في تهيئتها واستغلالها إلى حدود فترة الحماية .وتتم عملية حفر المغارات بواسطة اتفاق مبرم بين مالك الأرض وبين "المعلم" الذي يقوم بعملية الحفر، مفاد هذا الاتفاق أن مالك الأرض يحصل على مغارة جاهزة بدون أتعاب، مقابل التنازل عن التربة المستخرجة من المغارة لفائدة "المعلم"، وهذه العملية رفعت من عدد المغارات بالمنطقة. كما لعبت الأعراف والتقاليد المحلية دورا كبيرا في تسهيل وتوسيع نطاق مجال المغارات، إذ تسمح بالحفر تحت أرض ما، مجاورة لأرض أخرى، شريطة أن يكون باب المغارة قائما في أرض صاحبها، وينتج عن هذه الأعراف انتشار ظاهرة تشابك المغارات.

وبصفة عامة، فإن كل درج تم حفره في التربة يفتح منفذا إلى ثلاث مغارات:



عرفت هذه المغارات على عهد الحماية تحولات جوهرية، حيث زودتها إدارة الحماية بآليات الإنارة والتدفئة.

2. الخيـام

تحضر الخيمة بقبائل آيت يوسي وآيت سغروشن بصفة مماثلة ومطابقة لنظيرتها في القبائل الأخرى بالأطلس المتوسط، وهي ذات أعمدة مركزية متقاطعة، يغطيها القماش المغزول أو الصوف الممزوج بشعر الماعز، بعد عملية لفه وغزله وتحويله إلى لفافة من

النسيج (des bandes d'étoffes) وتسمى بالأمازيغية بـ "فليج" (Flijs) مصبوغة باللون الأسود. تتميز خيمات الفخذات الكائنة جنوب إيموزار كندر بأهمية سعتها وحجمها، إذا ما قورنت بخيمات آيت سغروشن، الذين يقطنون المناطق الأقل ارتفاعا شمال مركز إيموزار كندر، ففي فخذة حجاج يبلغ قياس حجم الخيمة حوالي 20 متر x 7 متر، مقابل حوالي 8 متر x 5 متر بفخدة آيت عبد الله [8].

ولكي تستغل هذه الخيام استغلالا مناسبا ومنظما فإنها تخضع لهندسة معينة، فمن الناحية التقنية تفصل ضفيرة "حصير" مصنوعة من نباتات عشبية ـ وهي من فصيلة الأسليات (Natte de joncs) ـ الخيمة إلى جزئين، أحدهما خاص بإيواء النساء وحفظ أدوات المطبخ والذخائر والمؤن، والآخر خاص بإيواء الرجال خلال النهار، كما يستغل في إيواء الماشية خلال فصل الشتاء القارس عندما تتساقط الأمطار والثلوج.

وإذا كان فصل الشتاء يفرض على السكان صنع كل أجزاء الخيمة من الوبر والصوف لتقيهم قساوة برودته، فإن فصل الصيف يسمح بإدخال تعديلات بنيوية وطبيعية على أجزاء الخيمة، فالأطراف السفلى للخيمة التي تسمى باللغة الأمازيغية بأسكلف (Asglef)، والتي تتكون من مادة الصوف خلال فصل الشتاء، تعوض بحصائر مصنوعة من مواد نباتية خلال فصل الصيف.

هكذا شكلت الخيمة ولا تزال عبر مرحلة طويلة من حياة هذه القبائل الأمازيغية جزءا من نمط عيشها، بحيث كانت بمثابة دواوير تعكس - بالإضافة إلى الخصوصيات الجغرافية - روح الأخوة وروابط القرابة وحسن الجوار، وتجدر الإشارة إلى أن الخيمة بصفة أساسية تستخدم للإقامة، كما تستخدم أيضا في المناسبات الخاصة كالأعياد والزفاف والمناسبات الدينية.

3. القصور والقصبات

عرفت صناعة الخيمات خلال الحرب العالمية الثانية (1939-1945) تراجعا كبيرا لعاملين أساسيين:

ـ المصادرة الكبيرة لمادة الصوف من قبل إدارة الحماية، التي كانت تصدر هذه المادة الحيوية بكثافة على الميتروبول، فعمت أزمة الصوف مناطق الأطلس المتوسط خاصة والمغرب عامة، مما لم يسمح للحرفيين التزود بهذه المادة التي أصبحت نادرة لصناعة الخيام.

(8) - Ibid. p: 27.

- ارتفاع عدد سكان آيت يوسي وآيت سغروشن، مثل باقي مناطق المغرب، فرض - بالإضافة إلى القصور والقصبات - بناء منازل من المواد البسيطة المحلية، هذا التحول الذي حصل في مجال المعمار الأمازيغي على عهد الحماية ينطبق تماما على التحولات العامة التي شهدتها البادية المغربية خلال هذه المرحلة الاستعمارية المضطربة. واكبت هذه التحولات بداية ظاهرة المضاربات العقارية، وأصبحت للأرض قيمة لدى مالكيها لم يسبق لها مثيل، وصار المجال المعماري مقننا بالإجراءات القانونية ومتأثرا بالتقلبات الطارئة في الثقافة الأمازيغية على عهد الحماية الفرنسية، فكانت الانطلاقة الفعلية لظهور مواصفات جديدة للمعمار الأمازيغي، الذي بدأ يأخذ وبوتيرة شبه سريعة اتجاها مستمرا نحو التحديث، وازدادت هذه الوتيرة مع تقلبات الحربين العالميتين واتساع النفوذ الفرنسي بالمجالات الأمازيغية.

4. المنـازل

يحيط بالمنزل في الأراضي الجبلية المرتفعة (مثل أراضي آيت يوسي الجبال وآيت سغروشن تيشوكت) سور من نباتات الصبار أو الحجارة، يأوي بستان صغير، وغالبا ما يضم المنزل غرفتين أو ثلاثة، بالإضافة إلى مخازن الحبوب، وإسطبلات الحيوانات، يبنى المنزل من الحجارة - التي تعتبر من أهم مواد البناء المستخدمة في العمارة على مر العصور- والطين، وأحيانا أخرى يبنى من الحجارة المغطاة بالجير، لكون هذه المادة رخوة هشة قابلة لامتصاص رطوبة الهواء، سقفه من أغصان الأشجار والقش (Le chaume)، وغالبا ما تكون الأسقف في اتجاه منحدر، لكي تساعد على التخلص من الأمطار الغزيرة التي تتميز بها مناطق قبائل آيت يوسي وآيت سغروشن. وتبعا لظاهرة التنقلات القبلية عبر مراحل تاريخ المغرب، وطبقا للأصل الحقيقي لهذه القبائل الذي يرجع إلى المناطق الجنوبية، فإن منازل بعض فخذات آيت يوسي وآيت سغروشن، كما هو الشأن بالنسبة لقبائل آيت السبع بإموزار كندر مثلا، تنتمي إلى التراث الصحراوي حيث أسوارها قائمة بالتراب المدكوك باليد[9]، توفر هذه المواد المحلية الوقاية من الحر والبرد، لذلك يجب بذل عناية كبيرة في اختيار مواد الجدران والسقوف وضبط سمكها، بحيث يتناسب ذلك مع خصوصياتها الفيزيائية بالنسبة للتوصيل الحراري والمقاومة الحرارية والإنفاذ الحراري وعكسية الضوء. هذه الأساليب الفطرية، هي نتاج التفاعل بين عنصرين

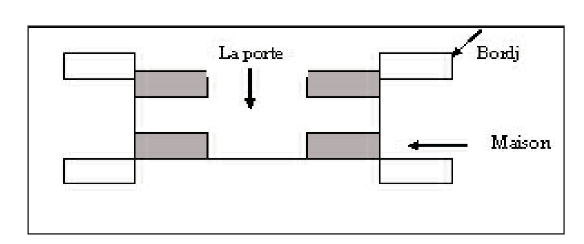
(9) - Ibid. p: 28.

أساسيين، يتعلق الأول بالثروات الطبيعية من المواد الخام المتوفرة في البيئة المحلية، والثاني يرتبط بطبيعة المناخ السائد في المنطقة، ونظرا لقساوة المناخ، وبسبب المخاطر التي يمكن أن تنجم عن الفيضانات والسيول الجارفة، فإن السكان يختارون بناء منشآتهم على ربوات مرتفعة.

5. إخمس (المخازن الجماعية)

يتخذ آيت سغروشن تقريبا من الخيمة نمطا من سكناهم، ويستعملون المخازن الجماعية Magasins collectifs أو إخمس (Ikhmes) داخل الفخذات أو الفخذات الفرعية. تعرضت هذه المخازن الجماعية إما للدمار الشامل من طرف الجيوش الفرنسية أثناء عملية "تهدئة المنطقة"، أو غادرها أصحابها منذ أن خيم "الأمن" . كما تزعم إدارة الحماية. ولم يبق منها إلا جزء بدوار آيت السبع ودوار آيت عبو امحمد[10].

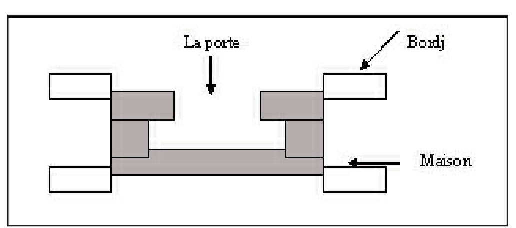
تصنف هذه المخازن الجماعية إلى نموذجين اثنين، طبقا للأصول الإثنية لمختلف عناصر القبيلة. يوجد النموذج الأول بفخذة آيت داود أوموسى إخديان، تمتد على مساحة 30 متر/ 35 متر، محاط بسور من التراب المدكوك[11]، محصن ببرج من كل زاوية، له باب جماعية واحدة تسمح بالدخول إلى الفضاء المسور الذي تملك فيه كل أسرة مستودعا خاصا بها في إحدى ممري المستودع الجماعي اللذان تتقاطع معهما هذه المخازن الجماعية، والتي تشكل زاوية قائمة وسط إخمس، وفي ما يلي الرسم الهندسي التوضيحي الذي يبرز المرافق الأساسية للمخازن الجماعية[12].



توجد بقايا لآثار مستودعين جماعيين تابعين لفخذة آيت داود أوموسى إخديان بالقرب من بحيرة ضاية إفرح.

(10) - Ibid. p : 25.
(11) - Ibid. p : 25.
(12) - Ibid. p : 28.

أما النموذج الثاني من هذه المخازن الجماعية فيوجد في باقي فخذات قبيلة آيت سغروشن إيموزار كندر، وهو نموذج يتوفر على نفس الأحجام والقياسات على نحو ظاهر، إلا أن هيئته الداخلية تختلف عن هيئة النموذج الأول، حيث البيوتات العائلية منظمة على طول المتارس (الأسوار)، وتوجد ساحة شاسعة وسط هذه الأسوار، ويبدو ذلك أكثر وضوحا في الرسم التوضيحي التالي(13).



تـوجـد البيـوتــات الفــرديـــة كـلهـــا فوقهـــا السطوح، تشتمل على طبق ســفلــي (Un Rez de chaussée) ، تتالف من غرفة للنوم ومستودع وأحيانا المطبخ.

تتوزع المخازن الجماعية داخل القبيلة على الشكل التالي(14):

الفخذات	عدد المخازن الجماعية	الموطن أو الموضع
حجاج	03	1 – قرب لالة ميمونة 2 – تريكت Tirregt 3 – أيت يوسف
أيت إيدر	03	1 – قرب دار علي أوطالب 2 – الحرارير 3 – أيت مزيان
أيت صالح	01	– قصبة إيموزار كندر
أيت لحسن أو إخلف	03	1 –أيت حمو ادير 2 –أيت بلقاسم 3 – عين جراح
أيت عبد الله	04	1 –أيت السبع 2 –أيت عبو محمد 3 – أيت واديل 4 – أيت صالح

(13) - « Monographie de la tribu des Aït Seghrouchen d'immouzer », D.A.L. Carton 155, C.A.D. Nantes. p : 26.
(14) - Ibid.

لا تشمل البيوتات الخاصة على العموم إلا على طبق أرضي غالبا ما ينقسم إلى غرف للتخزين وغرفة للسكن خاصة للعائلات الميسورة وغرفة للاستقبال ومطبخ، بالإضافة إلى الإسطبل.

إن فن العمارة بقبائل أيت يوسي وأيت سغروشن فن تلقائي بسيط بساطة مواد البناء، والتي استخدمت فيها الأحجار الطبيعية والتربة الطينية...إلخ. وكان لهذه المواد أثر كبير في مواجهة الظروف المناخية القاسية، وتهيئة بيئة صالحة للعيش. وحددت هذه المواد بشكل كبير طريقة إنشاء المبنى وأسلوب زخرفته وتزيينه.

البيبلوغرافيا

- «Renseignements politiques sur la tribu des Aït Youssi», 1913, D.A.I Carton 428, C.A.D Nantes.

- Cp. Reisser, «Notice sur les tribus des environs du poste de Sefrou», le 06/07/1912. D.A.I. Carton 428. C.A.D. Nantes.

- «Fiche de tribus Aït Seghrouchen de Sidi Ali», 1947. D.A.I. Carton 398. Dossier N° 114. C.A.D. Nantes.

- «Fiche de tribu Aït Youssi du guigou», 1953, carton 3H 1473, S.H.A.T, Paris.

- Cp. Vernay, «tribu des Aït seghrouchen Sidi Ali», Boulemane le 25/01/1928, carton 3H 871. S.H.A.T. Paris.

- Cp. Reisser, «Notes concernant les populations du cercle de Sefrou et les tribus de la périphérie», Sefrou, le 28/12/1916, D.A.I. Carton 428, Dossier N° 25. C.A.D. Nantes.

- «Monographie de la tribu des Aït Seghrouchen d'immouzer», D.A.L. Carton 155, C.A.D. Nantes.

مدخل (1) إلى تاريخ وخصائص المعمار بالريف

ذة. صباح علاش
المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

تقديم

يتميز المعمار المغربي بغناه وتنوعه واختلافه من منطقة لأخرى، وتطوره عبر الزمن، وتحكمت – ولا تزال – في هذا التنوع والتطور عوامل متعددة، منها الموارد البيئية المحلية المستعملة في البناء، والموضع والموقع الذين يوجد فيهما المعمار، والظروف المناخية التي تميز المنطقة، والأدوار والوظائف التي يضطلع بها المعمار المعني، والظروف التاريخية والسياسية والأمنية التي عرفها المحيط، والعلاقات الاجتماعية بين المكونات البشرية الأصلية والطارئة قي المجال المحتضن للمعمار، وكذلك الخبرات التقنية المكتسبة والمتراكمة، أو المنقولة عن شعوب ومناطق أخرى.

وقد ارتبط المعمار، ولا يزال، بالوجود الإنساني في جميع أبعاده، وخاصة علاقته بالمجال، من حيث موارده وأشكال تنظيمه واستغلاله.

ولا يمكن لأية دراسة تتخذ المعمار موضوعا لها، أن تقفز عن مجموع العوامل المذكورة أعلاه، ولا عن غيرها من العوامل التي ترتبط بالخصوصيات الثقافية والدينية للمجموعات البشرية، وقدراتها على الانفتاح والتأقلم مع مختلف التحولات السوسيواقتصادية.

والريف بموقعه شمال المغرب على الواجهة المتوسطية، وجزء من الواجهة الأطلنطية، شكل البوابة الرئيسة للمغرب على العالم القديم، وخاصة البحر الأبيض المتوسط وأوربا، وهو ما جعله من أقدم المناطق تعميرا.

(1) – اعتبرت هذا المقال مدخلا، إيمانا مني بضرورة تعميق البحث بعمل ميداني واسع، ولمدة كافية من جهة، وضرورة تضافر جهود باحثين من تخصصات متعددة، منها الهندسة المعمارية، والجغرافيا والانتربولوجيا والتاريخ...

وتقدم المصادر والأبحاث الأركيولوجية، رغم قلتها، تفاصيل عن أكثف شبكة حضرية بالشريط المتوسطي[2]، بعضها يعود إلى التاريخ القديم، وأغلبها مرتبط بالفترة الوسيطية، إضافة إلى معمار المناطق الداخلية، غير أن التحولات والتطورات التاريخية التي عرفتها المنطقة، قبل وبعد الاكتشافات الجغرافية، وصولا إلى الفترة الكولونيالية، خلال القرن العشرين، جعلت المعمار بالمنطقة يعرف تعددا وتنوعا كبيرين، وأصبح جزء منه مهددا بالضياع، مما يستلزم التعريف به، والعمل على صيانته وتثمينه.

سنحاول في هذا المدخل، مقاربة موضوع المعمار بالريف من خلال رصد بعض التطورات التاريخية التي عرفها، وكذلك استعراض أنواع وخصائص هذا المعمار.

1 - معطيات تاريخية حول المعمار بالريف

تتميز منطقة الريف بأهمية تاريخية كبيرة، اكتسبتها منذ العصور القديمة، ولا تزال مستمرة إلى يومنا هذا، ترتبط بأهمية موقعها، الذي درج على اعتباره استراتيجيا[3]، بالنظر إلى إشرافه على واجهتين بحريتين، واعتباره القاعدة الضرورية لكل طامع في احتلال باقي مناطق المغرب والمرور إلى الأندلس، خاصة بالنسبة للدول ذات القوة البحرية، وشكل الريف عبر التاريخ، وخاصة خلال العصر الوسيط، منتهى أهم المسالك التجارية الصحراوية، حيث تنقل عبر مراسيه مختلف البضائع في اتجاه أوربا، كما كان صلة وصل بين الشرق وأقصى الغرب الإسلاميين، وكان أيضا مسرحا لعدة صراعات سياسية قبل وبعد دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا، واحتضن أول كيان سياسي بالمغرب الأقصى بعد دخول الإسلام، أي إمارة بني صالح بنكور.

وكان للاكتشافات الجغرافية، واختلال موازين القوى لصالح الأوربيين بغرب البحر المتوسط دور كبير في توقف انفتاح الريف، ليصبح مع المرينيين منغلقا أواخر القرن 15م، نتيجة احتلال الإيبيريين للسواحل المغربية، وتحول المحاور التجارية نحو المحيط الأطلسي، ليساهم ذلك في اندراس وإتلاف معالم جل المدن الصغيرة والمتوسطة والمراسي.

---

(2) – صباح علاش، "الشبكة الحضرية بالشريط الساحلي المتوسطي للمغرب خلال العصر الوسيط"، مداخلة قدمت في الندوة الوطنية حول: "المدينة المغربية: المقومات الذاتية وإشكالية التدبير"، جامعة الحسن الثاني – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – المحمدية، بتاريخ 11-03-2008، وندوة "إشكالية العمران والتمدن بالريف" المنظمة من قبل "جمعية ذاكرة الريف" بالحسيمة يوم 16-05-2009.

(3) – صباح علاش، "غمارة/الريف في مرحلة الصراع الفاطمي (العبيدي) – الأموي (الأندلسي) من 296هـ/909م إلى 476هـ/1083م "بحث لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب ظهر المهراز، فاس، 2003-2004 ص 6-7.

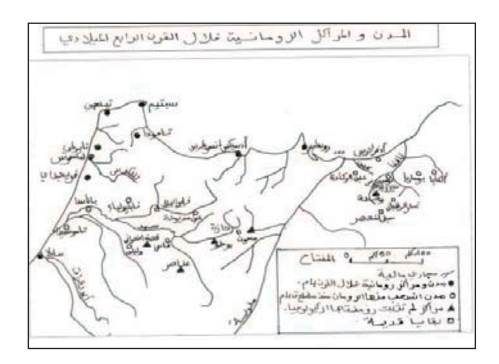
ومع توالي الأطماع الأجنبية خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة، توالت أشكال المقاومة التي بلغت أوجها خلال عشرينات القرن الماضي، وبتحالف قوات الاستعمارين الاسباني والفرنسي، تم إخضاع الريف للاستعمار الإسباني الذي حاول أن يترك بصماته على مختلف الواجهات، ومنها المعمار. ومع حصول المغرب على استقلاله، عرفت منطقة الريف عدة تحولات اجتماعية، ارتبط معظمها بالهجرة الدولية، التي مست المنطقة بشكل كبير، وانعكست على المعمار كذلك.

كل هذه التطورات التاريخية التي عرفها الريف، واكبتها خصائص معمارية متعددة ومتنوعة، وهو ما جعل المنطقة تزخر بتراث معماري متعدد، يجمع الرصيد الأركيولوجي، والديني والأمازيغي والكولونيالي...

سنحاول تقريبه من خلال التركيز على بعض النماذج من إقليم الحسيمة، وبشكل محدود من الناضور.

1-1- المواقع الأثرية

على غرار باقي المناطق التي كانت خاضعة للحماية الإسبانية، لم يستفد الريف من أبحاث وتنقيبات أركيولوجية منظمة وشاملة، سواء في مرحلة الاستعمار، أو بعد حصول المغرب على استقلاله، وركزت المقاربات الأولى على توطين المواقع التي ذكرت في المصادر اللاتينية القديمة(4).



المصدر : صباح علاش، غمارة /الريف، مرجع سابق، ص70.

(4) – منتصر لوكيلي، "تاريخ البحث الأركيولوجي بمنطقة الريف"، ندوة جمعية ذاكرة الريف المذكورة في الهامش رقم 5.

وقد أنجزت مجموعة من التنقيبات المحدودة، في عدة مواقع منها، تغساست (غساسة)، نكور، بادس. وخلال سنة 2000 انطلق مشروع بحث طموح(5)، تحت إشراف المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث، وجامعة المحمدية، وجامعة كاسينو، بهدف دراسة مظاهر الاستقرار البشري بالريف منذ العصور القديمة وخلال العصر الوسيط، وتوصل إلى معطيات هامة حول مجموعة من المواقع، منها موقع سيدي إدريس(6).

ولازالت عدة بنايات وأطلال أثرية صامدة في عدة مواقع منها: تازوضا، المزمة(7) (الصورة 1)، نكور، بادس (الصورة 2)، وقلاع يليش (الصورة 3).



الصورة 1 : جزء من أطلال مدينة المزمة (01-04-2009)

---

(5) - نفسه.

(6) - انتقد الباحث أحمد الطاهري هذه التنقيبات بحدة قائلا: "ثمة مبادرات ينقصها الحد الأدنى من الأخلاق العلمية والكفاءة المهنية والنضج المعرفي، دفعت بالبعض إلى الإسراع في توجيه بعثة "أثرية" بمشاركة مغاربة وأجانب للمعاينة والتنقيب في موقع إيذي بسيدي ادريس خلال نهاية الصيف الماضي اعتمادا على ما صدر حول أهمية هذا الموقع ضمن كتابنا: "إمارة بني صالح في بلاد نكور: الأصول التاريخية وبواكير النمو الحضاري والعمراني بالمغرب الإسلامي". وهو كتاب ما زال في أصله العربي لم تنقل محتوياته بعد إلى الجمهور الواسع من المختصين في التاريخ والآثار بالبلدان الأوروبية. ومن المعلوم أن المنهج القائم على اختلاس المعرفة لسرقة الأضواء قد يشهر صاحبه إلى حين، لكن غالبا ما لا ينتظر منه طائل على مستوى العطاء العلمي. انظر كتاب "التمدن والتعمير في جبال الريف بالمغرب"، منشورات مجموعة البحث الجغرافي حول جبال الريف، مطبعة الخليج العربي، تطوان 2002، سلسلة دراسات مجالية رقم 1، ص 14 هامش 21.

(7) - أوردنا في مقالنا المعنون "المؤهلات التاريخية والبيئية والثقافية ودورها في توجيه التنمية بالريف" ندوة ماي الحسيمة 2010 (تحت الطبع) عدة تفاصيل حول الموقع الأثري للمزمة، ضمن محور المؤهلات التاريخية، وعززنا معطياتنا المصدرية والميدانية، بعدة صور بينا فيها حدود السور الجنوبي لمدينة المزمة، وهو ما أكدته التنقيبات التي تجري حاليا تحت إشراف وزارة الثقافة وفريق من خريجي المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث، وهي التنقيبات التي جاءت بعد نضال مستميت من قبل المجتمع المدني بالمنطقة، أرغم الشركة العقارية العامة على إعادة النظر في مضمون مشروع السواني بخليج الحسيمة الذي يندرج ضمن تهيئة الساحل بالمنطقة الساحلية للريف الأوسط، وذلك باحترام الموقع الأثري والعمل على إبراز حدود مدينة المزمة.

• **المزمة**: بالعودة إلى مصادر العصر الوسيط، نجد حضور المدينة بشكل كبير في نصوص مؤرخي هذه الفترة، حيث يقول عنها ابن حوقل[8]: "ونكور مدينة مقتصدة.. ولها مرسى ترسى فيه المراكب في بطن جزيرة تعرف بالمزمة ".

بالنسبة للبكري[9] يشير إلى المزمة عند حديثه عن ذكر بلد نكور وحده: و"المراسي المنسوبة إلى نكور مرسى ملوية وهرك وكرط ومرسى الدار وأوفتيس من مراسي تمسامان، وهو الجبل المعروف بأبي الحسن الذي لجأ إليه بنو صالح. ووادي البقر والمزمة، بينه وبين مدينة نكور خمسة أميال، والمزمة في القبلة من المرسى". وفي نص آخر يجعل بلد نكور هي مدينة المزمة[10].

وقد أشار ابن عذاري إلى المدينة بقوله: "فتوطد الملك بالمغرب لصالح بن سعيد وبقي إخوته في البحر شهرا يترددون فيه إلى أن وصلوا بعد ذلك إلى نكور، وهي في وقتنا هذا مدينة المزمة أو قريبا منها"[11].

ذكرها ابن خلدون: "ثم اختط مدينة نكور لأول ولايته، (صالح بن سعيد) ونزلها، وهي..المزمة"[12].

وذكرها الشريف الإدريسي عدة مرات منها: "من المدن الواقعة في هذا الجزء (ضفة البحر الكبير) طنجة وسبتة ونكور وبادس والمزمة ومليلة"، "ومن بوذكور إلى المزمة عشرون ميلا، وكانت به قرية عامرة ومرسى توسق المراكب منه ومن المزمة إلى واد يقربها"، "مدينة مالقا يقابلها من الضفة الأخرى المزمة وبادس وبينهما عرض البحر[13]".

ووردت الإشارة إليها عند عبد الحق البادسي: "بطيوة هم من وادي النكور من حوز المزمة، إلى وادي ملوية"[14]. ويشير إليها في التصدي للمد الشيعي: "فأظهر الحاج عباس

---

(8) – ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي، "صورة الأرض"، منشورات مكتبة الحياة بيروت 1979، الطبعة الثانية ص 78.

(9) – البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز،" المسالك والممالك"، تحقيق أدريان فان ليوفر وأندري فيري، تونس 1992، فقرة 1280 ص. 763.

(10) – نفسه، فقرة 1298، ص. 774.

(11) – ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي،" البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، تحقيق ج. س كولان وليفي بروفنسال، بيروت لبنان 1980، الطبعة الثانية، الجزء الأول، ص. 180.

(12) – ابن خلدون، عبد الرحمان، "تاريخ ابن خلدون"، ضبط المتن الأستاذ خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر لبنان1981، الطبعة الأولى، الجزء السادس، ص. 252.

(13) – الإدريسي، أبو عبد الله المعروف بالشريف، "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، نشر دار الثقافة الدينية، القاهرة 1994، المجلد الثاني، ص.527-533-581.

(14) – البادسي، عبد الحق بن إسماعيل، "المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف"، تحقيق سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط 1984، ص 51.

دعوته يوم عاشوراء سنة ست وثمانين وستمائة، ودخل بادس عنوة وسبى وقتل، وتمادى إلى المزمة، فقتل بها يوم عشرين من صفر من العام المذكور، وصلبت جثته على باب المزمة[15]."

يقول عنها الحسن الوزان: "المزمة كانت مدينة كبيرة واقعة فوق جبل صغير على ساحل البحر المتوسط..كانت قديما في غاية الحضارة كثيرة السكان... لكنها دمرت ثلاث مرات.. والمزمة الآن خربة، لكن أسوارها قائمة سالمة، ويرجع تاريخ تدميرها الأخير إلى عام *872* للهجرة"[16].

من خلال النصوص السابقة، وغيرها مما تزخر به المصادر، تظهر الأهمية التاريخية التي كانت تتمتع بها المزمة سواء كمدينة أو كمرسى، ومساهمتها في الحياة الاقتصادية والسياسية والدينية للمنطقة التي تنتمي إليها، ولمختلف الدول التي تعاقبت على حكم المغرب.

● **بادس** : سنكتفي ببعض ما أورده المؤرخ الحسن الوزان حول بادس[17]: "بادس مدينة مبنية على ساحل البحر المتوسط يسميها الإسبانيون « فيليس دولاكوميزا»، وتضم زهاء ستمائة كانون. يقول بعض مؤرخينا أن الأفارقة هم مؤسسوها، ويقول آخرون أن القوط بناتها، ومهما يكن من أمر فإنها واقعة بين جبلين شاهقين. قرب واد سحيق يتكون فيه نهر عندما ينزل المطر .وفي داخل المدينة سوق يضم العديد من الدكاكين وجامع متوسط الكبر، لكن لا وجود للماء الصالح للشرب. وفي خارج المدينة بئر قريب من ضريح أحد الأولياء (الصورة *3*).. والجبال حول بادس شاهقة وعرة فيها خشب جيد صالح لبناء الزوارق والسفن الشراعية الحربية.. وما زال بالمدينة زقاق صغير يسكنه اليهود.. ولبادس قصبة جميلة، لكنها ليست متينة جدا، يسكنها الأمير الذي يملك أيضا خارج القصبة قصرا وحديقة بديعة".

(15) – نفسه، ص. 115.

(16) – الحسن الوزان، "وصف إفريقيا"، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان 1983، الطبعة الثانية، الجزء الأول، ص 328-329.

(17) – نفسه، الطبعة الثانية، ص.325-326.



الصورة 2: جزء من سور مدينة بادس (أبريل 2009)



الصورة 3: البئر والضريح الواردان في نص الوزان، وهما "ثرَا نْ بَادِس" ⵜⴰⵔⴰ ⵏ ⴱⴰⴷⵉⵙ " وضريح أبي يعقوب البادسي المولود بمدينة بادس حوالي650 هـ -1252م، والمتوفى سنة 734 هـ -1333م

ما زالت أطلال مدينة بادس شاهدة وخاصة الأسوار، من نماذجها السور الممثل في الصورة 2 ، والذي يظهر أنه بناء موحديا، والأطلال الموجودة في أعلى الجبل والمعروفة محليا "ذَاسِيرْثْ نْ وَضُو" ⵜⴰⵙⵉⵔⵜ ⵏ ⵡⴰⴹⵓ أي الطاحونة الهوائية أو الريحية (الصورة 4)، إضافة إلى المخازن الجماعية التي تتخذ شكل مطامير. (الصور 6-7-8)

أما يليش، فكانت "مدينة صغيرة على ساحل البحر المتوسط، بعيدة عن بادس بنحو ستة أميال. ميناؤها جيد إلا أنه صغير"[18]. لقد اندثرت معالم هذه المدينة ولم تبق إلا القلاع الأربعة (طوريس) شاهدة عليها. (الصورة 5)

(18) - نفسه، ص. 327.



الصورة رقم 4: جزء من أطلال الطاحونة الهوائية الموجودة في
أعلى الجبل ببادس (أبريل 2009)



الصورة رقم 5: قلاع شاطئ ياليش (قوس قزح) (أبريل 2009)

وبالنسبة لنكور[19] فهناك عدة قرائن حول امتداد جزء منها في المنطقة التي يغطيها سد محمد بن عبد الكريم الخطابي على وادي النكور، وهو ما أكدته التنقيبات الأثرية المنجزة[20].

1-2- المخازن الجماعية

على غرار المخازن الجماعية -إِكَودار- التي تميز جنوب المغرب وباقي المناطق الأمازيغية، توفر الريف على العديد من المخازن الجماعية، والتي انتظمت في شكلين أساسيين:

(19) – أنجز الباحث أحمد الطاهري دراسة قيمة عن إمارة بني صالح في بلاد نكور، راجع الهامش رقم 14 أعلاه.

(20) – نخص بالذكر أبحاث:

- PERES, Andrés Sánchez, " Estudios sobre la ciudad de Nakur y otros lugares históricos de la cabila de Beni Uriaghel", Madrid, 1934, p. 45.
- PERES, Andrés Sánchez, "Datos históricos sobre ciudades rifeñas", Tetuan 1952, p. 37.
- GOZALBES, Guillermo, "Estudios sobre Marruecos en la edad media", imprimet. G. ARTE, Granada 1983, p. 33.

1-2-1- المخازن المدفونة

تمثلت في المطامير (تِيسْرْفِينْ) ⵜⵉⵙⵔⴼⵉⵏ الجماعية[21]، التي تعددت أنواعها وطرق وأماكن إنشائها في الريف، وهي قديمة وحافظت على استمرارها، ففي موقع مدينة بادس الأثرية، ما زالت توجد مطامير مهجورة شاهدة على قدم استعمالها، (الصورتان 6 و7) وهي مطامير حجرية تم حفر أغلبها داخل الصخور أو التربة الصلصالية الصلبة، ويقارب عددها عشرين مطمورة متقاربة.

وبالنسبة للمكان الذي أنشئت فيه المطامير، يتميز بارتفاعه وتحصينه، وقربه من جرف صخري عال يشرف على الساحل مباشرة قبالة جزيرة بادس، ويصعب الوصول إليه دون تسلق الجبل عبر مسلك ملتوي، رسم بشكل دقيق عبر الفج الذي يفصل الجبلين المتجاورين، على الضفة الشرقية لواد َتلا بادس (الصورة 8)، الذي يصب في البحر الأبيض المتوسط بمحاذاة جزيرة بادس.

وهذه الخاصية مشتركة بالنسبة للمخازن الجماعية في المناطق الأمازيغية، هدفها حماية الإنتاج الفلاحي وباقي الممتلكات من النهب أثناء الهجومات الخارجية، وهو ما يشير إلى غياب الاستقرار الذي تميزت به.



الصورة رقم 6: فم أو مدخل إحدى مطمورات بادس، وهو أسطواني الشكل (أبريل 2009)

(21) – تكاد تنفرد قبيلة أيت ورياغل بظاهرة المطامير الفردية أو العائلية التي تشكل أحد مرافق المسكن.



الصورة رقم 7: منظر داخلي لإحدى مطمورات بادس (أبريل 2009)



الصورة رقم 8: موقع المخازن الجماعية المشرف على البحر، وجانب من المسلك الموصل إليها (أبريل 2009)

وبقرية أذوز توجد المطامير وسط المقبرة، في الطريق الرابط بين التجمع السكني، وضريح الولي الصالح سيدي الحاج حسون، بعضها لازالت مستغلة إلى يومنا هذا، (الصورة9)، وهذه المخازن تشبه في شكلها مطامير بادس، مما يدل على قدمها.



الصورة رقم 9: مطمورتان من قرية أذوز (أبريل 2009)

ويمكن تفسير اختيار مكان إنشاء هذه المطامير بضرورة أمنية، فوجودها وسط المقبرة يجعلها بعيدة عن أنظار العابرين من الغرباء، كما يتوفر المكان على رهبة تجعل اللصوص يخافون التنقيب عن الموارد المدخرة في المخازن، ووجودها بالقرب من ضريح الولي الحاج حسون يجعله الحارس المعنوي لها، بالنظر للكرامات التي تحكى عنه، والذهنيات السائدة.

وجل دواوير (رْذُشوٌر ⵔⴷⵛⵓⵔ) قبائل الريف كانت لها مخازن جماعية، على شكل مطمورات بعضها تسميها "رَماس ⵔⵎⴰⵙ "، وكانت تختار لها مكانا لا تمر عبره السيول الجارفة، ولا يتميز بالرطوبة، وفي الغالب يكون بالقرب من الطريق، ليتمكن الجميع من تفقدها ومراقبتها والتدخل عند الضرورة.

1-2-2- المخازن المبنية

انتشرت بشكل كبير في جبال الشاون، أهمها ما يعرف بأقرَارٌ ⴰⴳⵔⴰⵔ /بوقرار، ومن أشهرها بوقرَارٌ القلعة شمال الشاون[22]، وهو عبارة عن وحدات خزن، يتم بناؤها في مواقع محصنة ومنيعة وجد متضرسة، وسط الغابة الكثيفة وعلى انحدارات قوية، ويراعى في بنائها أن تكون معزولة عن الأرض لتفادي الرطوبة والسيول الجارفة، وتدعم جدرانها المبنية بالأعمدة الخشبية، سقوفها مزدوجة الانحدار مكونة من الخشب والزنك .ولتفادي الرياح تستعمل الأسلاك لربط الأعمدة فيما بينها ومع الصخور[23].

1-3- الجزر والقصبات :

1-3-1- جزيرتا بادس ونكور

كثيرا ما يقع الخلط بين جزيرتي بادس ونكور من جهة، ومدينتي بادس ونكور التاريخيتين المشار إليهما سلفا من جهة أخرى، فجزيرة بادس تقع في ساحل الموقع الأثري لمدينة بادس، غرب مصب وادي تلا بادس.

وكرد فعل على الجهاد البحري الذي كانت تمارسه مدينة بادس " قام الدون فرناندو ملك إسبانيا بإرسال أسطول بقيادة بدرو نافارو، فاحتل جزيرة قبالة بادس على بعد ميل من المدينة،, (سنة 1508) وبنى فيها قلعة على صخرة (حجرة بادس) شحنها جنودا ومؤنا

(22) – محمد العبدلاوي، تأملات في بعض طرق ووسائل الخزن التقليدية للمنتوجات الفلاحية بجبال الريف، ضمن تحولات الأرياف في جبال الريف بالمغرب، منشورات مجموعة البحث الجغرافي حول جبال الريف، تطوان 2005، ص 98-99.
(23) – نفسه، ص 100.

ومدفعية قوية، حتى كان رمي الإسبانيين يقتل الناس في أزقة المدينة وفي الجامع، فاستغاث أمير بادس بملك فاس الذي أرسل عددا من الجنود المشاة لمهاجمة الجزيرة... وكان ذلك عام *1520* للميلاد". وقد قاوم الريفيون هذا الاحتلال بكل الوسائل، وكانت الجزيرة أحد مسارح الصراع الوطاسي السعدي، الذي تدخل فيه الأتراك وتمكنوا من بسط نفوذهم على الجزيرة مدة 10 سنوات من 1554 إلى 1564. وعادت بعدها للاحتلال الإسباني الذي مازال مستمرا إلى يومنا هذا، وقد استقبل الإسبان فوقها المتوكل، خلال صراعه مع عمه عبد الملك على العرش السعدي، وانتقل منها تحت حماية البرتغاليين الذين عقدوا معه تحالفا لمساعدته على استعادة عرشه، وكان ذالك يوم 14 فبراير 1578 حيث توجه إلى مدينة سبتة[24].

وقد بنى الإسبان فوق الجزيرة عدة أسوار وقلاع لحمل المدافع، وأصبحت أحد قواعدهم العسكرية الخارجية، توجه إليها اليوم أفواج من المجندين الإسبان الجدد لقضاء فترة من خدمتهم العسكرية.

أما جزيرة نكور، فتقع في خليج الحسيمة، قبالة مدينة لمزمة التي كانت تشكل ميناء مدينة نكور التي تقع في سهل نكور، جنوب الجزيرة بحوالي 17 كلمترا، وهي جزيرة محتلة من قبل الإسبان منذ 28 غشت 1673 م، وكان احتلالها يدخل في إطار استراتيجية إسبانيا الهادفة إلى الحصول على أكبر عدد من المواقع الساحلية، لتسهيل التوغل إلى داخل التراب المغربي بالريف. وقد شيد فيها الإسبان عدة بنايات أغلبها ذات طبيعة عسكرية.

1-3-2- القصبات

هناك مجموعة من المناطق في الريف تحمل اسم القصبة دون أن تبقى فيها أطلال بناء القصبات، كالقصبتين العليا والسفلى بتمسمان "ثاقصَفث ن سَنْج ⵜⴰⵇⵚⵚⵄⴼⵜ ⵏ ⵙⵍⵊ الصورة10)، "ثاقصَفث ن وَادَاي ⵜⴰⵇⵚⵚⵄⴼⵜ ⵏ ⵡⴰⴷⴷⴰⵢ وقصبات أخرى مازالت أطلالها قائمة، كقصبةَ أيت دَراعْ بآيت وِليّشك، وقصبةَ سَلْوَانْ، وقصبةْ سَنادَة (الصورة11)، وتسمى أيضا بقصبة آيت يِّطفْتْ نسبةَ إلى القبيلة التي توجد فوق مجالها.

خلافا للادعاء القائل ببنائها في عهد السلطان مولاي إسماعيل، تتحدث المصادر عن وجودها على الأقل خلال العهد السعدي، إذ لعبت دورا أساسيا في الحرب الأهلية [25] التي عرفها المغرب بعد وفاة السلطان عبد الله الغالب، ومهاجمة محمد المتوكل من طرف عمه عبد الملك، وفي عهد المولى إسماعيل تم ترميمها وإقامة حامية عسكرية بها.

---

(24) – معلمة المغرب، مادة "سنادة"، محمد بن عزوز حكيم، الجزء الأول، ص 453.

(25) – نفسه.



الصورة رقم 10 : َثاَقصَفثْ نْ ّسَنجْ ⵜⴰⵇⵚⵚⴻⴼⵜ ⵏ ⵙⵍⵊ / القصبة العليا بتمسمان (أبريل 2009)

ورغم الإهمال الذي تعرضت له(26)، فإن أسوارها الرئيسية لازالت قائمة، لكنها معرضة للاندثار، ما لم يتم ترميمها وصيانتها، خاصة وأن فضاءها الداخلي أصبح ملعبا لأطفال وشباب المنطقة.



الصورة رقم 11 : جانب من قصبة سنادة /آيت يطفت

1-4- المساجد والزوايا والأضرحة

يتميز الريف بكثرة المساجد والزوايا، والأضرحة والمزارات، نتيجة لانتشار ظاهرة الصلحاء(27) والتصوف بالمنطقة منذ العصر الوسيط، وشمولها لمختلف مناطق الريف بداية من أعلى قمة في جبال الريف، حيث يوجد مزار "سيدي غير" فوق أعلى قمة تِدّغينْ، ووصولا إلى أصغر الدواوير بالريف.

---

(26) – سلسلة الرحلات والزيارات، مطبوع داخلي، تصدره جمعية ذاكرة الريف بالحسيمة، أبريل2007 ، العدد1، ص 13.
(27) – البادسي، مصدر سابق.

وتتوفر هذه الأنواع من المرافق الروحانية على تراث معماري[28] غني وهام، يستحق دراسة مفصلة لمعرفة طرق وتقنيات البناء منذ القديم، وسنكتفي كمثال عنه بمسجدي مسطاسة وأذوز المرينيين حسب الباحثين[29] (الصورة 12)، وما يؤكد مرينيتهما هو التشابه الكبير في شكل وخصائص بنائهما، وخاصة صومعتي المسجدين قليلتي الارتفاع، لكن ما يميزهما هو السقوف التي تعلو قاعتي الصلاة بالمسجدين، فكل مسجد له سقف مكون من ثلاثة أجزاء، عبارة عن هرمين طوليين متوازيين، يتوسطهما هرم قاعدته مربعة، يكسوهما القرميد الملون بالأحمر، (الصورتان 13-14)، أما الجانب الداخلي للسقوف الثلاثة، فهو عبارة عن سقف ثاني من الخشب، قوامه هيكل هرمي متناسب مع شكل السقف، أشكاله هندسية متماثلة، تزينها زخارف وأشكال رائعة الجمال، زخرفتها مرينية معروفة بالبرشلة (الصورة 15) ، فمن المعروف عن المزخرف المريني[30] اعتماده تناسبا مزدوجا أفقيا وعموديا، يتيح له أن يتحرر ويبتكر التكوينات، مسهبا فيها ومقيما بينها المقابلات والتماثلات، فتأتي الأشكال متداخلة ومتنوعة ومتراتبة.

وقد كان للمسجدين دورا مهما في تعليم أبناء المنطقة، فقرية أذوز تعتبر من القرى العلمية[31] في تاريخ المنطقة.

(28) – وكذلك غطاء نباتي مهم ونادر، خصوصا في محيط الأضرحة، وذلك راجع إلى خصوصية هذه الأماكن، التي تعتبر مقدسة ومحترمة من قبل الجميع، ويعتقد كثيرا في كراماتها، بل وانتقامها من كل معتد على حرماتها. وقد عاينا في هذا الإطار بمسجد أذوز الباب القديم الذي استبدل بآخر جديد، وهو باب يستحق أن يحتفظ به في متحف خاص بتراث المنطقة، وفي نفس المسجد وقفنا على الضرر الذي لحق بمنبر خطبة الجمعة جراء صباغته، حيث أزيلت الكتابة والزخرفة التي تزينه، ولم تسلم إلا كلمة **العافية**.

(29) – عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية قبائل ساحل الريف الأوسط 1860-1912، منشورات تِيْفرَازْ نَ ءارِيفْ، 2008، ص124.

(30) – الطاهري، أحمد صالح، الجمالية المغربية على عهد المرينيين، مجلة المناهل، عدد مزدوج 73-74 حول "العمارة في المغرب قديما"، فبراير2005، ص67.

(31) – يمكن أن نذكر ما كتبه عبد الله عاصم حول : كدية أومليل القرية الصوفية العالمة : نموذج من قرى العلماء في النصف الأول من القرن العشرين الطبعة الأولى، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، 2008.



الصورة رقم 21: قرية أذوز وفي وسطها يظهر المسجد (أرشيف شخصي)



الصورة رقم 13: مسجد مسطاسة الذي يقع على القرب من مجرى الوادي واستطاع الصمود لقرون عدة، والسور المبني بالحجر الذي يظهر في الصورة هو جزء من الحاجز الذي أنشئ بعد فيضانات نونبر 2003 من أجل حمايته من السيول[32].
(أبريل 2009)



الصورة رقم 14: السقف الخارجي لمسجد أذوز الذي يتكون من ثلاثة أجزاء، محمولة من الداخل فوق أقواس، ومغطاة من الخارج بالقرميد الأحمر (أرشيف شخصي).

(32) – سلسلة الرحلات والزيارات، مرجع سابق، ص13.



الصورة رقم 15: جانب من السقف الداخلي لمسجد أذوز، وتظهر فيه الزخرفة المرينية، ويحكي سكان أذوز أنها نقلت مصنوعة من فاس. وهي نفس الزخرفة الموجودة في مسجد مسطاسة، مع فارق بسيط يتمثل في حفاظ زخرفة مسجد أذوز على ألوانها وبريقها، وهو ما يمكن تفسيره بالصيانة، مقابل بداية تآكل ألوان زخرفة سقف مسجد مسطاسة (أرشيف شخصي).

5-1 - تأثير الصراعات السياسية على المعمار في الريف

كان لخصائص الموقع الجغرافي للريف، وللأحداث التاريخية التي عرفها المغرب عموما والريف خصوصا، تأثيرا قويا على المعمار، فإذا أخذنا على سبيل المثال مرحلة العصر الوسيط، نجد أن المعمار تميز بالتعدد والتنوع، لكن الصراعات السياسية فرضت سيادة المعمار الدفاعي(33)، إذ توقفت حركة التمدين وعوضت ببناء الحصون والقلاع، وتميزت المدن بالخصائص الدفاعية، فلا نجد ذكرا لأية مدينة دون الإشارة إلى أنها مسورة، وأخطر ظاهرة ميزت العصر الوسيط، وخاصة خلال مرحلة الصراع العبيدي الأموي، هي تدمير المدن، فجل المدن تم تدميرها وأعيد بناؤها، وفي هذا الإطار نورد نصا "للبكري" حول مدينة النكور في عهد عبد البديع بن صالح بن سعيد، نعتبره بالغ الدلالة حول الظاهرة:

"زحف إليه موسى بن أبي العافية فحاصره حتى تغلب عليه، واستباح المدينة وانتهبها وهدم أسوارها وخرب ديارها ونسف آثارها وتركها بلاقع تسفي عليها الرياح وتعاوى فيها الذئاب، وبلغ منها ما لم يبلغ بعضه مصالة بن حبوس، وذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة(34)"

ونسجل هجر أغلب السكان للمناطق الساحلية والاستقرار فوق الجبال نتيجة للصراعات السياسية.

(33) - صباح علاش، "غمارة/الريف"، مرجع سابق ص. 85-89.
(34) - البكري، مصدر سابق، فقرة 1295، ص 773.

2 - الخصائص الراهنة للمعمار بالريف

يتميز المعمار في الوقت الراهن بتنوعه، إذ استمرت الأشكال والأساليب الموروثة عن الماضي والتي أصبحت تشكل تراثا معماريا، فيه ما يميز المنطقة، ومنه ما تشترك فيه مع غيرها من المناطق المغربية، وخاصة الأمازيغية. وقد ساهمت التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للقرن العشرين في ظهور معمار جديد بالمنطقة، أغلبه مرتبط بالسكن.

2-1- المعمار الكولونيالي[35]

اتفق الباحثون الإسبان على تسمية النموذج المعماري المرتبط بالاستعمار الإسباني لمنطقة الريف، والمنشأ بين 1930 و1940، LA ARQUITECTURA RIFENA DE EMILIO BLANCO IZAGA/ L'Architecture Rifaine أي المعمار الريفي، أو الهندسة المعمارية الريفية لإيميليو بلانكو إيزاكَا[36]، وأهم خاصية تميز هذا المعمار، هو استلهامه للهندسة المعمارية الأمازيغية، التي تميز جنوب المغرب، وخاصة العمارة الترابية، المتمثلة في القصبات، المسماة بالأمازيغية "إِغْرّم ⴻⵖⵔⵎ "إذا كانت كبيرة، و"تِيغْرّمْت ⵜⴻⵖⵔⵎ "إذا كانت صغيرة، وهي في الغالب عبارة عن دور كبيرة، تسكنها عائلات ميسورة أو ذات نفوذ، مشيدة على شكل قلاع، تحتل أركانها الأربعة أبراج شامخة، قد تصلح للحراسة أو دعائم للمبنى، كما يتقوى مدخلها الوحيد ببرجين جانبيين، وتحتوي القصبة على كل مرافق الحياة الضرورية، وتختلف مكوناتها واتساع مساحتها والزخارف التي تعلو جدرانها الخارجية، وواجهات أبراجها ومداخلها، باختلاف قوة مالكيها[37]، وأشهرها تلك التي بناها شيوخ القبائل وممثلو السلطة المخزنية، والتي يكون بها بهو مركزي، عبارة عن ساحة متسعة، تستعمل خلال المناسبات، للاستقبالات وتجميع الضيوف والمهنئين. وتأخذ الأشكال الهندسية حصة الأسد في الزخارف المعتمدة، وتكاد تكون نفس الأشكال المستعملة في نسج الزرابي، وتزيين الفخار، والقطع الخشبية[38].

---

(35) – صباح علاش، نقل التراث المعماري : تجربة إميليو بلانكو إيزاكا بالريف نموذجا، ندوة أكَادير : حفظ وتثمين التراث الثقافي المادي بجهة سوس ماسة درعة، 12-13-14 مارس 2009، قيد الطبع.

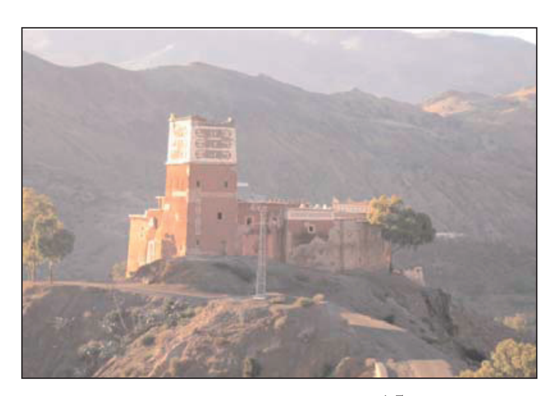
(36) - Antonio Bravo Nieto, « Arquitectura y Urbanismo Espanol en El Norte de Marruecos », ed junta de andalucia, Consejeria de Obra Publicas y Transportes, Direccion General de arquitectura y vivienda, Melilla, 2000, p 243.

(37) –عبد العزيز توري، مرجع سابق، ص.21.

(38) – نفسه ص. 22.

لقد حاول إيميليو بلانكو نقل هذا النموذج الهندسي إلى الريف، وهذا ما يظهر جليا في البنايات التي شيدها، حيث اعتمد البرج الأمازيغي ذي القاعدة المربعة، والذي تتقلص مساحته كلما ارتفع، وذلك بميل أسواره الأربعة في اتجاه الداخل بزاوية حادة[39]، مع زخرفة هذه الأبراج بأشكال هندسية تتراوح بين المربعات والمستطيلات، أغلب نوافذها مستطيلة مشيدة بشكل عمودي، تحاكي وقفة الإنسان، اعتمادا على تدرجات تضيق في اتجاه الأعلى. وهذا ما يلاحظ في صوامع المساجد التي بنيت على شكل أبراج وكذلك باقي المنشآت.

وتبقى "تِيغْرْمْتْ نْ رَابْعْ نْ تَاوْرِيرْت ⵜⵉⵖⵔⵎⵜ ⵏ ⵔⴰⴱⵄ ⵏ ⵜⵡⵔⴰⵔⵜ (الصورة 16)"، النموذج الدال والواضح لتجربة الاستلهام أوالنقل أوالمحاكاة، التي اعتمدها هذا المراقب العسكري والباحث الإسباني، للمعمار الأمازيغي لجنوب المغرب :



الصورة رقم 15 : قصبة أربعاء تاوريرت. (أرشيف شخصي)

شيدت هذه القصبة فوق تلة/تاوريرت التي هي في الأصل َتاعْرُوْرتْ حسب اللسان المحلي، (ⵜⴰⵄⵔⵓⵔⵜ) تطل على أهم الأودية بالمنطقة، أي وادي النكور الذي ينبع من مرتفعات قبيلة إكزناين، ليخترق قبيلة أيت ورياغل، في اتجاه البحر الأبيض المتوسط، مشكلا الحدود الطبيعية لهذه القبيلة، مع قبائل أيت توزين، وتمسامان، كما تشرف على سوق أربعاء تاوريرت، أحد أهم وأقدم الأسواق الأسبوعية في المنطقة وفي قبيلة أيت ورياغل.

---

(39) – يربط الباحثون هذه العمارة المائلة، بالمآثر الجنائزية للحضارات القديمة، أنظر:

Antonio Bravo Nieto, « La genèse d'un style colonial: L'architecture rifaine dans le Maroc espagnol », Revue du monde musulman et de la Méditerranée, Année 1994, Volume 73, Numéro 1, p 176-177.

وهذه البناية في شكلها العام هي نسخة لقصبة صغيرة / تِيغْرْمْتْ ⵜⵉⵖⵔⵎⵜ، من جنوب المغرب، وتتوفر على برج واحد رئيسي، عالي يتكون من ثلاث طبقات علوية، إضافة إلى الطابق الأرضي، أما الأبراج الثلاثة الأخرى التي تشكل الزوايا الثلاثة المتبقية للبناية، تقل ارتفاعاتها بشكل تدريجي، لتصل إلى أقل مستوى مع المحاذي للمدخل الرئيسي، الذي يمثل المدخل الوحيد للقصبة.

وتتوسط القصبة ساحة واسعة، تنفتح عليها المرافق الموجودة داخل القصبة، منها المحكمة التي تتوفر على باب خشبي كبير يتخذ شكل قوس، محاط ببناء مموج، عبارة عن ثلاثة أقواس متراكبة، وكذلك مقر المراقب العسكري، وتتوفر القصبة على باب داخلي يتخذ شكل قوس نصف دائري، يتوفر على باب حديدي، جزؤه الأعلى عبارة عن نصف قرص مقسم إلى 10 زوايا متساوية، مزينة بأشكال هلالية معقوفة، وباقي الباب مقسم إلى دفتين، الجزء السفلي لكل واحدة مزين بنجمة سداسية.

وتتكون القصبة من طابقين، جُعل معظم الطابق الأرضي سجنا، أما معظم الطابق العلوي توجد به مجموعة من المكاتب، بعضها يتوفر على مشرفة، يطل بها على وسط القصبة [40].

وتتميز مواد البناء المعتمدة في تشييد قصبة إيميليو بلانكو بتعددها، فعلى خلاف "إغْرْمْ" وَتِيغْرْمْتْ المستلهمة من الجنوب، والتي تدخل في إطار العمارة الترابية[41]، المعتمدة على تقنية الطابية، شملت هذه المواد[42]، الحجارة بالدرجة الأولى، وخاصة المتوسطة والصغيرة الحجم، التي يتم تثبيتها بخليط من التراب الممزوج بالرمل والجير وقليل من الإسمنت، وقد شيدت بها الأسوار الخارجية، والداخلية، وكذلك الأبراج باستثناء الزوايا التي بنيت بطوب/آجور غير مجوف يهيأ من التراب، ويتم شيه في أفران عالية الحرارة، حجمه 5X15X25 سنتمتر، وشيد بهذا الطوب المدخل الأساسي للقصبة الذي اتخذ شكل قوس عادي، لا يتوفر على باب يفتح ويغلق، وبنيت به كذلك الأقواس الداخلية،

(40) - Hakim Messaoudi, « EDIFICIOS Y CONSTRUCCIONES ESPANOLAS EN LA PROVINCIA DE- ALHUCEMA », 2006-2007, P 88-89.

والكتيب عبارة عن دليل فوتوغرافي، اختار له مؤلفه صورة فوتوغرافية عن قرب لقصبة أربعاء تاوريرت، كصورة للغلاف الخارجي.

(41) – عبد العزيز توري، مرجع سابق، ص. 19-20.

(42) – أفادنا كثيرا السيد محمد علاش، من مواليد الحسيمة سنة 1932، مقاول مدة نصف قرن، عمل في إنجاز عدة منشآت وتجهيزات إسبانية، خلال مرحلة الحماية –أفادنا – في التعرف على خصائص البناء الإسباني بشكل عام، وبنايات إيميليو بلانكو بشكل خاص.

والشرفات، أما الباب الداخلي فقد تم بناؤه بآجور مجوف ثلاثي العيون، حجمه 5x15x25 سنتمتر، والأسوار كانت مغطاة بطلاء أحمر خشن، مكون من الرمل والحصى الدقيق والجير وقليل من الإسمنت، لكن عوامل التعرية وغياب الصيانة أدت إلى تساقط معظم الطلاء الخارجي لهذه القصبة.

2-2- أنواع وخصائص السكن/ذَازْدّيغث [43] بالريف

يعتبر السكن[44] من أبرز عناصر المشهد الجغرافي، وأكثر الإنجازات ارتباطا بالبيئة المحتضنة له، وتأثرا بمتغيراتها الطبيعية الاعتيادية، أوالاستثنائية ومنها الكوارث الطبيعية، وكذلك بالتحولات الاقتصادية والاجتماعية والأحداث التاريخية.

2-2-1- توزيع السكن في المجال:

ظل الريف عبر تاريخه منطقة آهلة بالسكان، الذين تمركزوا في مناطق مختلفة، سواء في المرتفعات أو الأحواض الداخلية، وعلى طول الأودية المخترقة للقبائل أو في الأماكن التي تشكل روافد الأنهار الرئيسية[45]، كما تمركزوا على السهول المحاذية للساحل قبل القرن 15، إلا أنهم تراجعوا إلى المناطق المرتفعة بسبب الاضطرابات السياسية من جهة وبسبب خطر الهجومات المسيحية التي استهدفت الشواطئ الريفية من جهة ثانية، وأضحى الاستقرار في المرتفعات متواصلا دون تراجع، ومع بداية القرن 19 بدأ السكان المتحصنون بالجبال ينزلون تدريجيا نحو السهول الساحلية[46]، وخاصة سهلي نكور وغيس في أيت ورياغل.

ويغلب على توزيع السكن الريفي طابع التشتت، وخاصة بقبيلة أيت ورياغل، التي يشبه سكانها توزيع مساكنهم بانتشار النجوم في السماء[47]، (الصورة 16)،

---

(43)- ذازْدّيغْثْ هي السكن أو الإقامة على وجه الاستمرارية والدوام، من فعل إِزْدْغْ أي سكن أو أقام بشكل دائم، والساكن هو أَمْزْذُوغْ، جمعه إِمْزْذَاغْ، كما تطلق ذازّديغْثْ على المسكن، والذي يسمى أيضا ذاذّارْتْ/المنزل جمعها ذِدُّورَا أو ذُوذْرِينْ.

(44) – يعتبر إيميليو بلانكو إيزاكا من أبرز المهتمين بالسكن في الريف، فقبل تشييده لقصبة أربعاء تاوريرت المتحدث عنها أعلاه، ألف كتابا قيما حول السكن الريفي la Vivienda Rifenia سنة. 1930.

ويمكن الرجوع في هذا الموضوع إلى:

Habitat et Société, Actes des rencontres 22-23-24 octobre 1998, édités par Frank Braemer, Serge Cleuziou, Anick Coudart, Editions APDCA-Antibes 1999.

(45) – عبد الرحمان الطيبي، مرجع سابق، ص. 93.

(46)- نفسه.

(47) – دافيد مونتكومري هارت، "أيث ورياغر : قبيلة من الريف المغربي، دراسة إثنوغرافية وتاريخية"، ترجمة وتقديم وتعليق: محمد أونيا، عبد المجيد عزوزي، عبد الحميد الرايس، نشر جمعية صوت الديموقراطيين المغاربة في هولندا، الطبعة الأولى2007، (الجزء الأول)، ص.41.

ⵜⵓⴷⵔⵉⵏ ⵏⵏⵖ ⴰⵎ ⵢⵉⵜⵔⴰⵏ ⵅ ⵓⵊⵏⵏⴰ إذ تفصل بين كل منزل وآخر مسافة لا تقل عن 300 متر، باستثناء المساكن التي تربط بين أسرها وعائلاتها أواصر دموية، ويرتبط هذا التشتت بأشكال استغلال المجال، والأدوار الموكولة للمسكن، وما يقتضيه من مرافق ملحقة به، وأيضا التمثل الراسخ لدى الناس حول مفهوم المسكن، والظروف الأمنية التي يعيشها السكان.

ويتشكل المسكن في هذه القبيلة، من البناية الرئيسية وملحقاتها، إضافة إلى الحوز المحيط به، وهو عبارة عن غطاء نباتي يتكون في الغالب من الصبار، وبعض الأشجار المثمرة، وهذا الحوز يمنع على أي فرد من خارج القاطنين بالمسكن وأقاربهم الاقتراب منه، لأن له حرمة كالتي تتوفر لقلب المبنى، وبذلك فمفهوم المسكن لدى الجميع يتجاوز الجزء المبني، ليمتد إلى الحوز الذي تحدثنا عنه، ويمكن أن يمتد أكثر ليشمل المحيط الذي يليه، وهو حيز ذو تربة جيدة يتم تسميدها بشكل طبيعي بروث البهائم، ويستغل في زراعة الخضر، وبالقرب منه يكون البيدر/ ⴰⵏⵏⴰⵔ ، الذي تجمع فيه المحاصيل الزراعية وخاصة الحبوب والقطاني من أجل درسها، وبعد ذلك ينقل المنتوج الصافي إلى المطامير العائلية التي تكون في فناء المبنى، ويخزن التبن فوق البيدر، أو قريبا منه، على شكل أكمة دائرية/ ⴰⵜⵎⵓⵏ ، مثبتة بحبال تتدلى من قمتها وفي أسفلها حجارة متدلية.

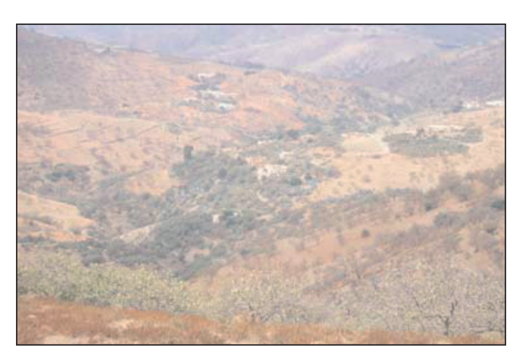
واعتبر "سانشيث بيريث"، المسافة الفاصلة بين المساكن، «مجال حيوي يجب أن يتوفر عليه كل ريفي من عائلة محترمة حتى يتنفس بحرية[48]"، ويفسر "دافيد هارت" هذا التشتت بعامل اجتماعي، حدده في حرص الريفيين عموما، والورياغليين خصوصا على إبقاء نسائهم بعيدات عن أعين الغرباء[49].

وقد لاحظنا هذا التشتت أو الفصل حتى على مستوى المقبرة، فمقبرة دوار آيْثْ بُوخْرّفْ بأيت ورياغل، مقسمة حسب الفرق المكونة للدوار، وكل فرقة تدفن موتاها في الحيز الخاص لها، وهناك حيز لدفن الغرباء كذلك.

---

(48) – دافيد هارت، مرجع سابق، ص 42.

(49) – نفسه.



الصورة رقم 16: جانب من مدشر آيث بوخرف بقبيلة أيت ورياغل (غشت 2007)

تتميز باقي القبائل الريفية بسكن أقل تشتتا، إذ تنتظم المساكن عادة حول المسجد، أو تتخذ شكل تجمعات لعدد قليل من المساكن المتقاربة، وكل تجمع يكون بعيدا عن غيره بمسافة كبيرة وبحواجز طبيعية.

وتوجد قرى ذات سكن متجمع ومنظم مثل أذوز[50] (الصورتان 12 و17)، الذي تلتصق أغلب مساكنه فيما بينها، وتفصلها مجموعة من الزقاقات. وفي وسطها يقع مسجدها الذي يعود وجوده على الأقل إلى عهد المرينيين، وفي المجال الذي يفصله عن ضريح الولي سيدي الحاج حسون، يوجد حوض/ أَكَلْمَامْ ⴰⵅⵍⵎⴰⵎ لتجميع مياه التساقطات، وبالقرب منه جب كبير محفور له في الأرض، وسقفه مبلط يسمح بتجميع مياه نقية، طلاؤه الداخلي تم بمزج التراب مع أصفر البيض[51]، الذي يعطيه صلابة كبيرة، وعلى مقربة منهما توجد المقابر، وعلى جانبي الممر الذي يخترقها تنتشر المطامير الجماعية لأهل القرية.

(50) – نظرا لخصوصيات هذه القرية، معماريا وعلميا ودينيا، وتاريخيا، سأخصها بدراسة مفصلة ومستفيضة مستقبلا. ويظهر هناك تشابه كبير مع المنزل الاندلسي، ونحيل على:

- «Maisons et Espaces Domestiques Dans Le Monde Méditerranéen Au Moyen Age», sous la direction d'André Bazzana et Etienne Hubert, école française de Rome, Casa de Velàzquez, Rome-Madrid 2000, Castrum 6.
- André Bazzana, « Maisons d'Al Andalous, Habitat Médiéval et Structures du Peuplement dans l'Espagne Orientale », collection de la Casa de Vélasquez, Archéologie XVII

(51) – إفادة الأستاذ نور الدين أحروش، أستاذ الاجتماعيات بإعدادية الرواضي بقبيلة بقيوة، ومهتم بتاريخ المنطقة، وهذه التقنية معروفة في المنطقة، يذكر لنا محمد علاش، من مدشر تلا يوسف أن صومعة المدشر، سقط جانب منها في هجوم إسباني سنة 1927، فدعا أعيان القبيلة إلى تجميع البيض من مختلف الجهات واستعمال أصفره مع التربة كخليط لإعادة بناء ما تهدم .

ومن الملاحظات المهمة في هذا الإطار ارتباط المطامير الجماعية بانتشار السكن المتجمع، أو القليل التشتت، وخاصة القبائل الساحلية كإبقوين، وغيابها لدى أيت ورياغل، التي يسودها السكن المتشتت، وتنتشر فيها المخازن الفردية[52].



الصورة رقم 17: زقاق من قرية أذوز. (أرشيف شخصي)

2-2-2- السكن والتحولات الاقتصادية والاجتماعية والكوارث الطبيعية

ساهمت التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي يعرفها الريف، بشكل متسارع، في إحداث عدة تحولات على السكن، إذ ساهمت الهجرة الدولية إلى أوربا، التي انطلقت منذ بداية الستينات من القرن الماضي، في توسع المدن والتحول المفاجئ للمراكز الحضرية إلى مدن صغيرة، والمراكز القروية إلى مراكز حضرية، وهو الأمر الذي عززه التقسيم الترابي للجماعات المحلية، وزادت الهجرة القروية من وتيرة هذا التحول، وخاصة إثر توالي سنوات الجفاف بداية ثمانينات القرن الماضي، وزلزال 2004، فحسب الإحصاء الرسمي الأخير (شتنبر2004)، الذي أعدته المندوبية السامية للتخطيط، فقد تراجع عدد سكان 15 جماعة بإقليم الحسيمة و 26 جماعة بإقليم الناضور.

واستفادت بعض الأرياف من انعكاسات الهجرة الدولية، إذ تحسنت أوضاع البوادي وخاصة السكن، وازدادت الوضعية بعد تعدد وجهات الهجرة الدولية، التي رفعت من الاستثمارات في البوادي، فأغلب استثمارات المهاجرين مست السكن، باعتباره معيار النجاح للمهاجر[53]، ووصف أحد الباحثين[54] هذا التحول بتراجع أريفة بوادي جبال الريف، واعتبرها خاصية بارزة في تحولات المنطقة.

(52) - يمكن تفسير هذا الغياب في أيت ورياغل بوقوع معظمها بعيدا عن الساحل، وبالتالي قلة تعرضها لهجومات خارجية، وأيضا قوتها القتالية، وهي القبيلة التي اعتبرها دافيد هارت الطبل الذي ترقص على إيقاعه باقي قبائل الريف.

(53) - أصبح مفهوم المهاجر في حاجة إلى إعادة النظر مع دخول الهجرة الدولية جيلها الرابع، حيث يتم الحديث عن مواطنين أوربيين من أصل مغربي.

(54) - Abdelkader Guitouni, «La déruralisation des campagnes du Rif, trait majeur des mutations de la région», Mutation des Milieux ruraux dans les Montagnes Rifaines (G.R.G.Rif), op cit, p. 223.

وبنفس المنطق يمكننا الحديث عن ترييف المدن الذي واكب الهجرة القروية المكثفة إلى المراكز الحضرية، حيث استمرت لمدة طويلة ممارسة أنشطة فلاحية وخاصة تربية المواشي في الأوساط الحضرية، وخاصة المراكز الصغيرة، كما ظهر نوع من السكن المزدوج بين الأرياف والمدن، بالنسبة للأسر التي قام أفراد عائلتها المهاجرين إلى الخارج، باقتناء أو بناء مساكن في المدن، يستقر فيها بعض أفراد عائلاتهم، مع تتبعهم لأنشطتهم الفلاحية في ممتلكاتهم بالبوادي.

غير أن أهم تحول يعرفه السكن حاليا، هو المرتبط بزلزالي 1994 و2004، فهذا الأخير ضرب منطقة الحسيمة فجر 24 فبراير بقوة 6.5 درجة على سلم ريشتر، وأعقبته ما يزيد عن 2000 هزة إرتدادية[55]، وقد خلف 629 من الضحايا وأزيد من ألف جريح، و2539 منزلا مدمرا، وأغلب الدمار أصاب المنازل التقليدية المحيطة بمدينة الحسيمة، المبنية بالحجارة [56]. وحسب المعاينات والخبرة التي أشرفت عليها الوكالة الحضرية للحسيمة، والتي شملت 1838 مسكنا في الوسط الحضري، أكدت أن 967 منزلا مهدم كليا أو جزئيا أو أصبح غير صالح للسكن، وبالنسبة للوسط القروي خضع 17485 مسكنا للخبرة التي توصلت إلى أن 12367 مسكنا تهدم كليا أو جزئيا أو أصبح غير قابل للاستعمال[57]. وقد أدت هذه الكارثة إلى تغييرات عميقة على المشاهد الجغرافية وخاصة في الأوساط القروية، إذ ارتفع عدد المساكن التي تستعمل مواد عصرية وأكثر مقاومة للزلازل، كالإسمنت والحديد والرمل والآجور، وهي العملية التي تكلف السكان بها، وساهمت الدولة وبعض المحسنين والمجتمع المدني وبعض المنظمات الدولية بإعانات مالية وعينية وتقنية في هذا المجهود، وأدت هذه الكارثة كذلك إلى ارتفاع الهجرة الداخلية وخاصة نحو الأقطاب الحضرية الكبرى وعلى رأسها مدينة طنجة، أو نحو المراكز الحضرية لإقليم الحسيمة.

ونتيجة لربط الكارثة بالبناء، "ليس الزلزال هو الذي يقتل ولكن طبيعة البناء"، انطلقت حركة لتقوية أساسات ودعائم البنايات التي كانت أضرارها طفيفة، أو لم تصب.

وإذا كانت الكارثة قد حملت بشكل كبير للبناء، فما هي بعض طرقه وتقنياته التي كانت ولا تزال قائمة؟

(55) – أزروال، ثريا المرابط، "الزلازل الكبرى بالمنطقة المغاربية ومخلفاتها على الإنسان ومحيطه"، مطبعة بني يزناسن، 2005، الطبعة الأولى، ص. 318-319.

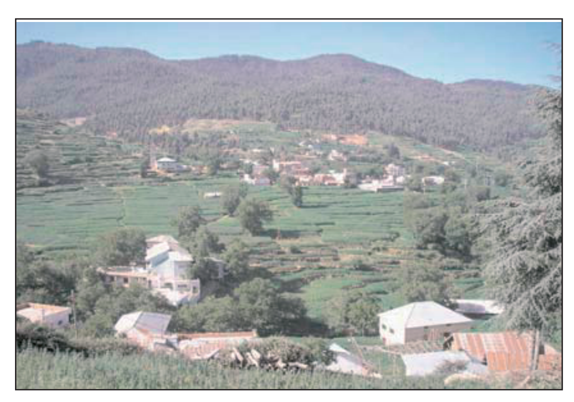
(56) – نفسه.

(57) – نفسه.

2-2-3- طرق وتقنيات البناء[58]

ترتبط طرق وتقنيات البناء بعدة عوامل، أهمها الموارد الطبيعية، وخصائص المجال المحتضن للسكن، وكذلك الوضعية الاقتصادية والاجتماعية للأسرة، وهو الأمر الذي ساهم في إنتاج أنواع من السكن غير متجانسة في المجال، رغم تشابه خصائصها العامة.

فتنوع المناخات أدى إلى اختلاف هندسة المنازل، فالسقوف في الجزء الجنوبي الذي توجد فيه أعلى قمم جبال الريف، وكثرة التساقطات الثلجية نجدها ثنائية الميل (الصورة 18)، وتغطي مجموع المسكن، وذلك لتفادي تراكم الثلوج فوق الأسطح، وكلما ابتعدنا نحو الشمال والساحل نجد سقوفا مستوية أو وحيدة الميل، وتوفر فناء مفتوح وسط المنزل، نظرا لقلة أو انعدام التساقطات الثلجية. كما يستغنى عن النوافذ الخارجية أو تكون ذات أبعاد صغيرة كلما كانت المنطقة باردة.



الصورة رقم 18: جانب من قرية أزيلا الواقعة عند قدم جبل تدغين (أبريل 2009)

ونظرا لانتشار الصخور في مختلف المناطق، يعتبر استعمال الأحجار في البناء قاسما مشتركا بين مختلف المناطق، ويمكن أن نجد في بناء منزل واحد استعمال مواد مختلفة، فالمسكن الأساسي يكون مبنيا بالحجارة، أما ملحقاته فيمكن استعمال الطوب المصنوع من التربة الممزوجة مع التبن والماء والمجفف تحت أشعة الشمس، ومع انتشار الإسمنت نجد منازل تبنى بالحجارة التي ترص بخليط من التربة الممزوجة بالتبن أو النخالة، لكن واجهتها الخارجية تغطى بخليط من الرمل والإسمنت (الصورة 19).

(58) – اعتمدنا في تحديدها على إفادتين أساسيتين لكل من محمد علاش المشار إليه أعلاه، ومحمادي أعشير بَنَّاء متخصص في المنازل التقليدية وخاصة البناء باستعمال الأحجار.
يمكن الرجوع أيضا: Revue de géographie du Maroc, Rabat 1968, N°14.



الصورة رقم 19: منزل في دوار تيزمورين بآيت ورياغل بعد زلزال 2004/02/24، وهو مبني بالحجارة والتربة وواجهته الخارجية تمت تغطيتها بالأسمنت والرمل (أبريل 2009)

وعموما كان يقتضي بناء منزل في الريف، اختيار المكان المناسب، والذي من شروطه أن يكون مستويا متى أمكن ذلك، ومشمسا ولا يكون في مهب الرياح القوية ولا السيول المائية، وأرضيته صلبة، ولا رطوبة فيها، والشكل الهندسي الذي يفضل[59] هو المربع أو المستطيل القريب إلى المربع، بين 15x15 متر و15x20متر.

بعد تسطير الشكل في الأرض، يبدأ حفر الأساسات التي يكون عمقها مرتبطا بانحدار الأرض وهشاشة التربة، وهي على العموم لا تتجاوز مترا واحدا في العمق و80 سنتمترا في السمك، بعد استكمال بناء الأساس، يبدأ بناء الأسوار الخارجية التي يكون سمكها حوالي 50 سنتمترا، تترك 15 سنتمترا من الجانبين الداخلي والخارجي للأساس، ويشبهون هذه العملية برجل الجمل التي لها قدما عريضا وساقا أقل عرضا، وبالتالي تكون ثابتة في الأرض، وقادرة على تحمل الجمل وما حمل.

ويعتمد في بناء الأسوار على الأحجار، التي يتم فيها المقابلة والتشبيك بين حجر كبير وآخر صغير بشكل متناوب بين الواجهتين الداخلية والخارجية للحائط، ويستعملون خليطا من التربة الممزوجة بالماء والتبن في البناء، ودور التبن هو منع تشقق الخليط بعد جفافه، ولا يرتفع علو الحائط أكثر من 2.80 متر إلا نادرا، وبعد إنهاء السور الخارجي للمنزل يبدأ تفصيل البيوت التي تتعامد أسوارها مع السور الخارجي، وتكون مفتوحة على فناء المنزل الذي يترك دون سقف، وتشرف الغرف على وسط المنزل بسقف ممتد مابين متر ومترين، سقفه محمول على أعمدة خشبية تشبه نصف حرف الزاي الأمازيغي (الصورة 20).

(59) – إن تحديد المساحة الخاصة بالمسكن، والتوزيع الوظيفي لأجزائه مرتبطة بعدد أفراد الأسرة والعمليات الإنتاجية التي تقوم بها، ومستواها الاقتصادي.

وللمنزل عادة، بابان أحدهما كبير ويخصص لدخول أفراد العائلة والمواشي، وباب صغير عبارة عن خوخة، يكون في البيت الخاص بالضيوف، يدخل عبره الغرباء، الذين لا يمكن لهم أن يدخلوا عبر الباب الكبير.



الصورة رقم 20: سقف استعملت فيه الأغصان (أرشيف شخصي)

تتشكل السقوف من مواد محلية أهمها أغصان وجذوع الأشجار والقصب، يتم ترتيبها فوق عرائض خشبية أو أعمدة أفقية (الصورة 21) وفوقهما يوضع مزيج من التربة التي تتميز بعدم نفاذيتها، والتي تخلط مع الماء والتبن، وتوضع للسطح انحدارات لتوجيه المياه نحو ميازيب مثبتة لتصريف مياه التساقطات، التي يتم جمعها من أجل الاستعمالات المنزلية، كما يمكن للسقف أن يتشكل من ألواح خشبية جيدة الصنع، توضع فوق عرائض خشبية متينة. كما تم اعتماد عرائض مصنوعة من الإسمنت والآجور وقضيب من الحديد، توضع فوقها صفائح إسمنتية، وفي بعض المناطق التي ينتشر الشيست يتم تقطيع صفائح واستعمالها في السقوف.

ويعتبر الوضع المادي للأسرة، المحدد الرئيسي لنوع المسكن، فالأسر الفقيرة تعتمد في البناء على نفسها[60] بتعاون رب الأسرة مع أبنائه، حيث يتم بناء ما هو ضروري، وكلما اقتضت ظروف الأسرة التوسع، تتم إضافة بيوت ومرافق جديدة، فيتحول المنزل إلى كائن، ينمو بنمو الأسرة وتزايد حاجياتها أو تحسن مستواها المادي.

وبالنسبة للأسر الميسورة فتتعاقد مع بناء محترف، بشكل إجمالي أو يشتغل لديها كمياوم إلى أن ينهي بناء المسكن المطلوب.

(60) – يعتبر إتقان الأنشطة الفلاحية والبناء من مستلزمات الرجولة الكاملة، ففي عرف الريفيين الرجل هو الذي يمكن له أن يتدبر مختلف حاجياته بنفسه..

وعموما، تميزت مساكن أغلب الريفيين ببساطتها، والجمع بين أدوار السكن والأنشطة الأخرى كتربية الماشية والدواجن، بل كانت الأبقار تتقاسم الغرفة الواحدة مع أفراد الأسرة.

وقد اقتضت ضرورات أمنية إضافة بعض المرافق كَأْشبَاْر ⵓⵛⴱⴰⵔ الذي يعتبر مرفقا خارجيا للمنازل، يكون عبارة عن بناء صغير مربع الشكل، من الطين والحجارة، عرضه حوالي مترين وارتفاعه متر ونصف، كان يتحصن به صاحب المنزل في حالة نشوب نزاع دموي، وكان موقعه يسمح للشخص الموجود بداخله، تصويب بندقيته نحو العدو الذي يختاره[61]، وقد أصدر محمد بن عبد الكريم الخطابي أمره بهدم ومنع بناء أَشْبَاْر" ⵓⵛⴱⴰⵔ"، وذلك في إطار إصلاحاته ذات الطابع القانوني.



الصورة رقم 21: سقف استعملت فيه الأعمدة الخشبية والقصب. (أرشيف شخصي)

خلاصة القول، إن موضوع المعمار في المناطق الأمازيغية عموما، والريف خصوصا، من المواضيع البالغة الأهمية في التعرف والتعريف بالتراث الأمازيغي الأصيل، ويستلزم المزيد من البحث وتضافر جهود مختلف الباحثين، ومختلف التخصصات لسبر أغواره.

وقد وقفنا من خلال هذه المساهمة المتواضعة على تنوع وغنى هذا المعمار، وعلى مدى التحولات المتسارعة التي تمسه بشكل كبير، وكذلك بعض الأخطار التي تهدد الجانب الأركيولوجي الذي يعتبر موردا استراتيجيا غير متجدد، مما يستلزم وضع برنامج شامل ومكثف لتعميق الأبحاث والتنقيبات من أجل تدقيق المعرفة به والعمل على صيانته وترتيبه وتصنيفه كتراث وطني، والعمل على صيانة التراث المميز للبناء في مختلف المناطق،

(61) – دافيد مونتكوميري هارت، مرجع سابق، ص.49.

وتوظيفه في برامج التنمية المحلية، ومنها السياحة الإيكولوجية والثقافية، والحفاظ على التراث الكولونيالي وخاصة إنجازات إيميليو بلانكو إيزاكا، فبقدر ما هو كولونيالي، بقدر ما هو تراث ثقافي للريف خصوصا والمغرب عموما، إضافة إلى كونه تراثا أمازيغيا مشتركا بين شمال وجنوب المغرب، وجب الحفاظ عليه.

المصطلحات الأمازيغية الواردة في المقال

ⵜⴰⵇⵚⵚⵉⴼⵜ ⵜⴰⵎⵇⵕⴰⵏⵜ	القصبة الكبيرة
ⵜⴰⵇⵚⵚⵉⴼⵜ ⵜⴰⵎⵣⵢⴰⵏⵜ	القصبة الصغيرة
ⵜⴰⵇⵚⵚⵉⴼⵜ ⵏ ⵙⵍⵊ	القصبة العليا
ⵜⴰⵇⵚⵚⵉⴼⵜ ⵏ ⵡⴰⴷⴷⴰⵢ	القصبة السفلى
ⵜⴰⵇⵙⵙⵉⴼ ⵏ ⵔⴰⴱⵄ ⵜⴰⵡⵔⵉⵔⵜ	قصبة أربعاء تاوريرت
ⵜⴰⵄⵔⵓⵔⵜ	التلة
ⵉⵣⴷⵖ	سكن
ⴰⵎⵣⴷⵓⵖ	الساكن
ⵜⴰⵣⴷⴷⵉⵖⵜ	المسكن
ⵜⵉⵣⴷⴷⵉⵖⵉⵏ	المنازل
ⵔⴷⵛⵓⵔ	الدواوير أو المداشر
ⴰⴷⵓⵣ	الربوة
ⵜⴰⵙⵉⵔⵜ ⵏ ⵡⴰⴹⵓ	الطاحونة الهوائية أو الريحية
ⴰⵇⵔⴰⵔ	المخازن بشمال الشاون
ⵜⵉⵙⵔⴼⵉⵏ , ⵔⵎⴰⵙ	المطامير
ⴰⵜⵎⵓ	أكمة التبن
ⴰⵍⴰⵔ	البيدر
ⵜⴰⵣⵇⵇⴰ	سطح المنزل
ⴰⵛⴱⴰⵔ	مرفق خارجي للمنزل

البيبلوغرافيا

- الإدريسي، أبو عبد الله المعروف بالشريف، "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، نشر دار الثقافة الدينية، القاهرة1994، المجلد الثاني.

- ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي، "صورة الأرض"، منشورات مكتبة الحياة، بيروت1979، الطبعة الثانية.

- ابن خلدون، عبد الرحمان، "تاريخ ابن خلدون"، ضبط المتن الأستاذ خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر لبنان 1981، الطبعة الأولى، الجزء السادس.

- ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي، "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، تحقيق ج. س كولان وليفي بروفنسال، بيروت، لبنان 1980، الطبعة الثانية ، الجزء الأول.

- البادسي، عبد الحق بن إسماعيل، "المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف"، تحقيق سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط 1984.

- البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز، "المسالك والممالك"، تحقيق أدريان فان ليوفر وأندري فيري، تونس 1992.

- الوزان، الحسن، "وصف إفريقيا"، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، لبنان 1983، الطبعة الثانية.

- أزروال، ثريا المرابط، "الزلازل الكبرى بالمنطقة المغاربية ومخلفاتها على الإنسان ومحيطه"، مطبعة بني يزناسن، 2005، الطبعة الأولى.

- التوري، عبد العزيز "مجلة" المناهل"، عدد مزدوج 73-74 ، حول العمارة في المغرب قديما، فبراير 2005.

- الطاهري، أحمد، "إمارة بني صالح في بلاد نكور: الأصول التاريخية وبواكير النمو الحضاري والعمراني بالغرب الإسلامي"، 1998، الطبعة الأولى.

- الطاهري، أحمد صالح، "الجمالية المغربية على عهد المرينيين"، مجلة "المناهل"، عدد مزدوج 73-74 حول "العمارة في المغرب قديما"، فبراير 2005.

- الطيبي، عبد الرحمان، "الريف قبل الحماية قبائل ساحل الريف الأوسط1860-1912"، منشورات تيفراز ن ءاريف، 2008.

- الوكيلي، منتصر، "تاريخ البحث الأركيولوجي بمنطقة الريف"، ندوة جمعية ذاكرة الريف 2009.

- العبدلاوي، محمد، "تأملات في بعض طرق ووسائل الخزن التقليدية للمنتوجات الفلاحية بجبال الريف"، ضمن: "تحولات الأرياف في جبال الريف بالمغرب"، منشورات مجموعة البحث الجغرافي حول جبال الريف"، سلسلة دراسات مجالية رقم 2 ، تطوان 2005.

- عاصم، عبد الله، "كدية أومليل القرية الصوفية العالمة، نموذج من قرى العلماء في النصف الأول من القرن العشرين"، الطبعة الأولى، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، 2008.

- علاش صباح، "غمارة/الريف في مرحلة الصراع الفاطمي(العبيدي) - الأموي (الأندلسي) من 296هـ /909م إلى 476 هـ/1083م"، بحث لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب ظهر المهراز، فاس، 2003-2004.

- "الشبكة الحضرية بالشريط الساحلي المتوسطي للمغرب خلال العصر الوسيط"، الندوة الوطنية حول: "المدينة المغربية: المقومات الذاتية وإشكالية التدبير"، جامعة الحسن الثاني -كلية الآداب والعلوم الإنسانية -المحمدية، بتاريخ 11-03-2008 ، وندوة "إشكالية العمران والتمدن بالريف" المنظمة من قبل "جمعية ذاكرة الريف" بالحسيمة يوم 16-05-2009.

- "نقل التراث المعماري: تجربة إميليو بلانكو إيزاكا بالريف نموذجا"، ندوة أكادير 12-13-14 مارس 2009، حول حفظ وتثمين التراث الثقافي المادي بجهة سوس ماسة درعة، قيد الطبع.

- مونتكومري هارت دافيد، "أيث ورياغر: قبيلة من الريف المغربي، دراسة إثنوغرافية وتاريخية" (الجزء الأول)، ترجمة وتقديم وتعليق: محمد أونيا، عبد المجيد عزوزي، عبد الحميد الرايس، نشر جمعية صوت الديموقراطيين المغاربة في هولندا، الطبعة الأولى 2007.

- "سلسلة الرحلات والزيارات"، مطبوع داخلي تصدره جمعية ذاكرة الريف بالحسيمة، أبريل 2007، العدد الأول.

******

- Antonio Bravo Nieto, "*La genèse d'un style colonial: L'architecture rifaine dans le Maroc espagnol*", Revue du monde musulman et de la Méditerranée, Année 1994, Volume 73, Numéro 1.

- Antonio Bravo Nieto, "*Arquitectura y urbanismo espanol en el norte de Marruecos*", ed junta de andalucia, Consejeria de Obra Publicas y Transportes,Direccion General de arquitectura y vivienda 2000.

- BARDON Moran, CESAR P. « *Antiguas poblaciones del Rif* », en Archivos del Instituto de Estudios Africanos, Madrid 1994.

- Coudart, A, «*Habitat et Espace dans le monde Rural*», éditions de la maison des sciences de l'homme , paris 1986, cahier 3.

- Coudart, A, « *maisons d'hier ou maisons d'aujourd'hui .L'espace domestique fabrique et donne à voir la société, Habitat et Société* » ,Actes des rencontres 22-23-24 octobre 1998 édités par frank braemer, serge cleuziou, anick coudart , Editions APDCA-Antibes1999.

- GOZALBES, Guillermo, «*Estudios sobre Marruecos en la edad media*», imprime t. G. ARTE, Granada 1983.

- Messaoudi Hakim, «EDIFICIOS Y CONSTRUCCIONES ESPANOLAS EN LA PROVINCIA DE ALHUCEMAS», 2006-2007.

- PERES, Andrés Sánchez, « *Estudios sobre la ciudad de Nakur y otros lugares históricos de la cabila de Beni Uriaghel*», Madrid, 1934.

- PERES, Andrés Sánchez, «*Datos históricos sobre ciudades rifeñas*», Tetuan 1952.

- Revue de géographie du Maroc, Rabat 1968, N 14.

- «*Maisons et Espaces Domestiques Dans Le Monde Méditerranéen Au Moyen Age*», sous la direction d'André Bazzana et Etienne Hubert, école française de Rome, Casa de Velàzquez, Rome-Madrid 2000, Castrum 6.Rome, Casa de Velàzquez, Rome-Madrid 2000, Castrum 6.

- "معلمة المغرب"، مادة "سنادة"، السنة 1989، الجزء الأول.

خصائص وتطور السكن القروي بالريف الشرقي

ذ. بوظيلب حسين
المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

مقدمة

يتميز الريف الشرقي بغنى وتنوع مكوناته الطبيعية والحضارية والثقافية، ولعل من أهم المظاهر المجالية التي تجسد هذا التنوع العمارة أو السكن، الذي يعكس من جهة مستوى التنمية ونوع النشاط السائد في مجال معين. وكما هو الشأن بالنسبة لكل عناصر المشهد القروي، فإن المجال المبني يشكل مؤشرا استراتيجيا للدلالة على الوضعية الاجتماعية والثقافية للساكنة، بحكم أنه ملكا ورصيدا ثقافيا، إضافة إلى كونه يعبر عن نوعية التنظيم المجالي والاجتماعي والاقتصادي السائد وسط مجتمع قروي معين.

ترتب عن قدم الاستقرار بالريف، تنظيم المجال واستغلاله، وقد انعكست هذه الوضعية على بداية بروز تجمعات سكنية مختلفة الأحجام تسمى ب "أد شار". لاشك أن السكن الريفي كان يختلف بين الأجزاء المكونة لهذا المجال، بسبب اختلاف الأنماط الاقتصادية السائدة، بين المناطق الشمالية التي يتعاطى سكانها للزراعة السقوية، فكان السكن بها قارا. أما بالجزء الجنوبي، فإن الخيمة كانت تعتبر السكن السائد، نظرا لسيادة الترحال والنشاط الرعوي.

سنحاول في هذا المقال، مقاربة السكن التقليدي بالريف من خلال رصد خصائصه، ووظائفه وتطوره.

I - الريف الشرقي: الإطار الجغرافي والبشري

1- الإطار الجغرافي

يقع الريف الشرقي في أقصى الشمال الشرقي للمغرب، وينتمي إداريا إلى الجهة الشرقية، التي تشكل مجالا واسعا ووحدات جغرافية متنوعة ومختلفة. وقد حاول عدد من الباحثين الذين اهتموا بهذا المجال وضع تحديد جغرافي وبشري له، ويعتبر تروان[1]

(1) -Trion J F (1967), Le Nord –Est du Maroc, mise au point régionale. RGM, n°9. Rabat, p 3.

(Trion) من الباحثين المعاصرين الذين اهتموا بهذا المجال في إطار الجغرافية الجهوية، بحيث يحدد الريف الشرقي في المنطقة الممتدة ما بين واد النكور غربا وواد ملوية شرقا، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى حدود إقليم تازة جنوبا. في حين يرى مورير[2] (Maurer) أن هذا المجال الشاسع هو الأكثر تعبيرا عن الواقع الجهوي، لكنه يحصر حدوده في الجهة الجنوبية إلى ما قبل ممر تازة وتاوريرت، وفي الشمال يمتد إلى البحر الأبيض المتوسط.

يتألف الريف الشرقي بصفة عامة من تضاريس صعبة ومعقدة يطغى عليها الطابع الجبلي وسيادة الانحدارات القوية، بحيث تشكل الجبال حوالي 64٪ من المساحة الإجمالية، في حين لا تغطي الأحواض إلا حوالي 36٪. كما يصنف مناخه ضمن المناخ المتوسطي، الذي يعرف تقلبات شديدة، تمتد على طول السنة، ويتميز بوجود فصلين متناقضين، الأول رطب وبارد يمتد من أكتوبر إلى أبريل، والثاني حار وجاف، يمتد من شهر ماي إلى أواخر شتنبر. ويعرف هذا المناخ تغيرات واضحة ما بين الساحل الشمالي والمناطق الداخلية، تبعا لمعطى التضاريس، بحيث تمارس هذه الأخيرة تأثيرا واضحا على المناخ المحلي، وتعمل المرتفعات الجبلية للريف الأوساط على منع تقدم التيارات الرطبة التي تأتي من المحيط الأطلنطي في اتجاه الشرق، مما يجعل الرياح المحملة بالرطوبة تفتقد كثيرا من خصوصيتها الأصلية، قبل أن تصل إلى منطقة الريف الشرقي.

2 - تعمير واستيطان بشري قديم

ينتمي سكان الريف الشرقي إلى أصول أمازيغية، استقروا بالمنطقة منذ زمن بعيد، كما تدل على ذلك الأدوات الأركيلوجية التي تم اكتشافها بحوض تمسامان. ويبدو من الصعب وضع رسم خطي لهذا الاستقرار في ظل المعلومات المتوفرة لدينا، لكن هذا لا يمنع من التعرض إلى أهم مراحل الاستقرار البشري بالمنطقة اعتمادا على بعض المصادر التاريخية. وفي هذا الإطار، يؤكد مؤرخو العصر الوسيط على أن السكان المحليون ينتمون إلى أصول أمازيغية تتكون من أمازيغ صنهاجة ومصمودة وزناتة.

ويعتبر العنصر الصنهاجي من أقدم العناصر التي استوطنت جبال الريف، "إذ كانت قبائل الشمال تضرب بعروقها إلى أصول صنهاجية قديمة، وهي عبارة عن تجمعات بشرية

(2) - Maurer G (1995), Nouvelle approche dans l'étude régionale du Maroc du Nord, la Tunisie du Nord : Espace et sociétés. Colloque organisé par le Faculté des Lettres de Manouba, Tunis, p. 5

كانت تعيش منفصلة ومتفرقة في المنطقة التي تمتد من مضيق تازة وحوض ورغة جنوبا إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط شمالا، ومن المرتفعات التي تقع جنوب مليلية شرقا إلى ضفاف المحيط الأطلنطي غربا[3]". لكن ما يهمنا هو الجزء الشرقي من الريف الممتد من النكور غربا إلى ملوية شرقا، "فحسب هذا التحديد، فإنه يشمل قبائل الريف التي تستعمل اللهجة الريفية كلغة تخاطب وهي قبائل: تمسامان وتفرسيت وآيت توزين وكزناية وكبدانة وقلعية، وهي قبائل تنتمي إلى أصل بطيوة التي قال عنها صاحب "المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف": "وقبائل بطيوة من واد النكور وحوض لمزمة حتى واد ملوية، وقد اختلط بهم سكان قبائل زناتة الذين هاجروا إليها من المغرب الأوسط"[4]. لقد أدى هذا الاستقرار البشري القديم الذي عرفه الريف، إلى ظهور تجمعات سكنية مختلفة الأحجام، في شكل دواوير أو في شكل تجمعات حضرية صغيرة.

I - السكن القروي التقليدي بالريف الشرقي : خصائصه ومميزاته

يعتبر السكن القروي عنصرا من عناصر المجال، فهو يعكس من جهة مستوى التنمية ونوع النشاط السائد في مجال معين، كما هو الشأن بالنسبة لعناصر المشهد القروي. كما يشكل المجال المبني مؤشرا استراتيجيا للدلالة على الوضعية الاجتماعية والثقافية للساكنة، إضافة إلى كونه يعبر عن نوعية التنظيم المجالي للمجتمع المحلي، فالمجال يتأسس على أساس واقع إنساني حي، إذن كيف تصور الريفيون مجالهم المبني؟.

فاعتمادا على كتابات الرحالة القدامى الذين جابوا المنطقة خلال القرن الثامن والتاسع عشر وبداية القرن العشرين مثل موليبراس[5] والحسن بن محمد الوزان[6]، إضافة إلى ما استخلصناه من خلال البحث الميداني، يمكن أن نبلور تصورا حول المسار الذي عرفه السكن التقليدي في منطقة الريف الشرقي سواء على مستوى التموضع داخل هذا المجال المتعدد والمتباين التضاريس (جبال، تلال، منخفضات، أودية)، أو على مستوى هندسته المعمارية وطريقة تشكله.

---

(3) – التقي، العلوي (1977)، أصول المغاربة القسم البربري، صنهاجة الشمال، مجلة البحث العلمي، ع 27، ص.201.

(4) – أحمد، البوعياشي (1974)، حرب الريف التحريرية و مراحل النضال، I، بيروت، ص.107-108.

(5) - Moulières A. (1895), Maroc inconnu. Vol 1, exploration du Rif, Paris, p 111.

(6) – الحسن، بن محمد الوزان (1983)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر ج I، الطبعة الثانية، دار الغرب، الإسلامي، بيروت، ص 342.

في هذا الإطار يشير مولييراس[7]، إلى أن الريف الشرقي كانت تتخلله قرى جد عامرة، وأن الريفيين بشكل عام كانوا يشيدون مساكن يتخذونها مأوى لهم، وكانت العائلة تعيش تحت سقف واحد، لكن هذا السكن كان يختلف بين المناطق تبعا لاختلاف الظروف الطبيعية والأنشطة الاقتصادية السائدة. فالمناطق الجبلية كان يسود بها السكن المبني والقار، وكانت التجمعات السكنية تتركز في الأجزاء العليا من الجبال، كما يشير إلى ذلك أمين الريحاني بقوله: "ويندر الاخضرار فيها -أي جبال الريف - إلا حول المنازل، وهي قليلة، تراها على القمم والطلوع لا يصل بعضها ببعض غير الطرق الجبلية"[8]. أما في القسم الجنوبي الذي يتألف من هضاب وسهول، فتعتبر الخيمة هي الشكل السائد من السكن، بسبب سيادة النشاط الرعوي. فسواء تعلق الأمر بالقسم الشمالي أو بالقسم الجنوبي من الريف الشرقي، فإن عملية البناء عادة ما كانت تتم في مناطق تستجيب لمعايير محددة، كاختيار المواقع المحصنة والقرب من الأودية والمناطق الخصبة.

1 - التمركز المجالي للسكن

يعتبر السكن القروي القديم سواء كان متشتتا أو متراصا، نتاجا لمسلسل طويل من التوطين المرتبط بممارسة الأنشطة الزراعية التي تعتمد على السقي وغراسة الأشجار المثمرة، كما هو الشأن للريف. "فثادارث" أو "أخام" هو الشكل السائد من السكن منذ زمن بعيد. وقد أشار كثير من الكتاب القدامى إلى أن الريفيين كانوا يفضلون المواقع الجبلية لتشييد منازلهم أو قرب أودية صغيرة منعزلة ووعرة الاختراق، ويقول الحسن الوزان واصفا قبيلة أمجاو الكائنة في الجهة الشرقية من الريف: "أمجاو مدينة صغيرة جاثمة فوق جبل عال على نحو عشرة أميال غربي تازوضا، بناها الأفارقة على مسافة ستة أميال من الساحل، وسكانها نبلاء كرماء"[9]. ويذهب البكري واصفا الجغرافية الجبلية لقبيلة قلعية إلى أن "تسمية هذه القبائل بقلعية، ربما لكونهم سكنوا قلاع كرت فيما بين جرسيف ومليلة، والتي كانت معاقل لهم في صراعهم ضد الاحتلال الإسباني"[10].

(7) - Moulières A. (1895), op.cit, p 110.

(8) – أمين، الريحاني (1952) ، المغرب الأقصى: رحلة في منطقة الحماية الإسبانية، دار المعارف، مصر، ص. 455.

(9) – الحسن بن محمد، الوزان (1983)، مرجع سابق، ص 342.

(10) – أبي عبيد، االبكري (1914)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، و هو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص. 89.

إن اللجوء إلى قمم الجبال والمواقع المحصنة لا يمكن تفسيره في تلك المرحلة إلا بالبحث عن الأمن والاحتماء من الأخطار الخارجية، التي قد تهدد وجودهم ومستقبلهم، وهذه الخاصية ليست ظاهرة سكان الريف فقط، بل هي ظاهرة كل سكان المناطق الجبلية المغربية الأخرى كالأطلس المتوسط(11). وهذا أمر منطقي، بالنظر إلى موقع المنطقة الذي يجعلها في مواجهة مستمرة مع الإسبان، الذين يملكون جيوبا استعمارية لهم بالسواحل المتوسطية منذ زمن بعيد، لكن البحث عن الاحتماء لم يشكل عنصرا وحيدا في تمركز السكن، بل كان السكان غالبا ما يبحثون كذلك عن الظروف الطبيعية الملائمة للاستقرار كالماء والتربة الخصبة...الخ، والابتعاد عن البناء في الأراضي الصالحة للزراعة القريبة من مجاري العيون والأنهار، وتركها للحرث والزرع. وكان السكن خلال هذه الفترة يتسم بالتشتت، بحيث يعمد السكان إلى ترك مساحة ما بين منزل وآخر مع إحاطة المنزل بسياج طبيعي يكون عادة من نباتات الصبار، وكانت هذه المسافة تختلف من قبيلة إلى أخرى، تبعا للخصائص الإثنية والاقتصادية والديموغرافية. "فالمنزل المنعزل هو مكان لممارسة الأنشطة الإنتاجية، لذلك كان يتم البحث عن المواقع الطبوغرافية المتقطعة التي يصعب الوصول إليها، كما لا يجب أن ننسى بأنه في كل المناطق الجبلية، كان السكن يتمركز بعيدا عن المارة مفضلا الاختباء عن التمركز قرب الطريق ..."(12). فحسب هارت يكمن سبب هذا التباعد في العنف الناتج عن غيرة الرجال على نسائهم، أي حرمة المنازل، كالحفاظ على الشرف، شرف المنزل والنساء، وما يحتوي بداخله من عناصر(13).

وكان من المنطقي أن نجد الأدب الشفوي بالريف يتغنى بالجبال كرمز للحرية، وبالوادي كرمز للحياة، فالجبال كانت تحتوي على كثافة سكانية قوية، تفوق سكان السهول. وفي هذا الإطار لا يذكر محمد بن حسن الوزان من السكان بالنسبة للريف الشرقي في القرن السادس عشر إلا سكان المناطق الجبلية، كمليلة وغساسة وتزوضة وأمجاو وكبدانة وآيت سعيد وأزغنغان وآيت توزين وتمسمان ووردانة(14)، وهذه الأماكن كلها أماكن وعرة يصعب اختراقها. وبناء عليه، فإن اختيار الموقع والموضع له أهمية خاصة بالريف، بحيث يعتبر الموضع المعزول والمحصن طبيعيا إضافة إلى القرب من منابع المياه شرطا أساسيا لتشييد المسكن.

(11) - Jennan.L (2004), Le Moyen Atlas Central et ses Bordures, mutations récentes et dynamiques rurales, thèse de doctorat d'Etat en géographie, éditions al jawahir, Fès, Maroc, p 296.

(12) - E .Blanco, Izagua (1930), La vivienda rifeña. Alta commisaria de Espagna en Marruecos, Tetoune,p 12.

(13) - Hart D M (1965), Clan, lignage et communauté locale dans une tribu rifaine. RGM, n° 8, Rabat, p 33.

(14) – الحسن بن محمد، الوزان (1983)، مرجع سابق، ص 342.

2 - المواد المستعملة في البناء

يستمد السكن القديم معالمه من الطبيعة التي يوجد بها، وكان السكان الريفيون يعتمدون في بناء مساكنهم على مواد متوفرة بعين المكان مثل الطين والأحجار وأعمدة الخشب وألياف من القصب والجير. كما كانوا يضعون فوق سقف مساكنهم القصب النباتي والخشب والقش، ويفرشون عليها طين الصلصال الذي يسمى محليا "ثايرست" والموجود على ضفاف الأنهار والوديان. وكانت المنازل تطلى أحيانا بالجير، أو تترك بدون طلاء، أي بلونها الترابي (الصورة رقم 1 و2). وقلما كان يستعمل في عملية البناء المواد الحديثة كالإسمنت والحديد. لقد استعملت عمارة الطين والحجارة في نطاق واسع بالريف، والسر في ذلك هو ملاءمتها للظروف الاقتصادية والمناخية، كما ساعدت هذه العمارة على تجسيد فنون مختلفة في أشكال رائعة.





الصورة رقم 1و2: بعض المواد المستعملة في البناء (طين، حجارة، خشب...)

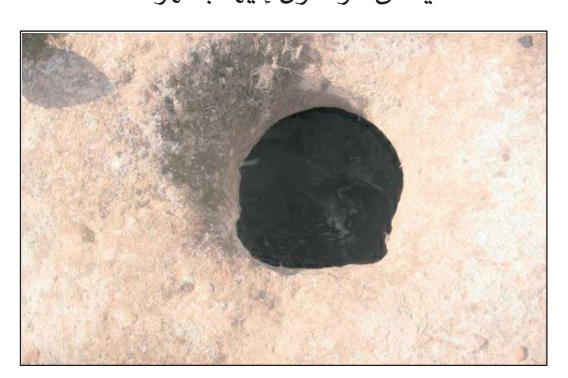
تصوير بوظيلب، دجنبر 2009

وكانت عملية البناء تتم بشكل ذاتي يقوم بها رب الأسرة بمفرده أو رفقة أبناءه وبتعاون أحيانا مع الجيران، بحيث كانت تقام أعمال جماعية "كثويزا" مثلا، ولكن من حيث البناء وشكله وعناصره المعمارية والفنية، فهو لم يتأثر بالتأثيرات المعمارية للمستعمر الاسباني، وفي هذه الصدد يقول Hensens J: "بصفة عامة، هذا السكن ذو البناء الذاتي، والذي يعود إلى أكثر من خمسين سنة قبل الحماية، توجد أصوله بالتحديد في المناطق الجبلية كالريف والأطلس، وفي واحات الجنوب"[15].

(15) - Hensens J. (1970), Extrait de l'enquête nationale sur l'habitat rural traditionnel au Maroc, in types et nature du sous–habitat. Séminaire sur « l'environnement urbain et l'habitat sous–intégré au Magreb», Rabat, p. 5.

3 - بنية المسكن وعناصره الداخلية

تتخذ المساكن القديمة بالريف شكلا هندسيا مربعا وأفقيا في المجال، وتنفتح على مساحة بداخلها تسمى "رمراح"، وأول ما يأخذ بعين الاعتبار في بناء الدار ويعد ثابتا معماريا للمسكن توجيه المدخل الرئيسي جهة القبلة وتوسيع الفضاء الداخلي للدار ما أمكن، تحسبا لإضافة بيوت أخرى بامتداد الأسرة وزواج الأبناء. وتبنى في وسط الدار مساحة مرتفعة للجلوس تسمى "ثهارت"، وفي باطن وسط الدار تشيد مخازن للحبوب على شكل مطامير تسمى محليا "تسرفين"(الصورة رقم 3) ، وهي بمثابة مخازن تستعمل لحفظ الحبوب وادخارها لمدة طويلة، تتعمق عن سطح الأرض بحوالي مترين إلى ثلاثة أمتار. وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من المخازن ظاهرة قديمة بالريف حافظت على استمرارها إلى اليوم، ففي محيط تازوضا، ما زالت توجد مطامير كثيرة مهجورة ترجع إلى فترات قديمة، وتم حفر أغلبها داخل الصخور أو التربة الصلصالية في مناطق منعزلة وذات تضاريس جد معقدة، لا يمكن الوصول إليها بسهولة.



الصورة رقم 3: مطمورة (ثسرافت)، تخصص لخزن الحبوب.

تصوير بوظيلب، دجنبر2009

وعلى امتداد فناء الدار "رمراح" توجد سقيفة ذات وظائف متعددة، وتعتبر ممرا ما بين "رمراح" و"أخام". كما تحتوي الدار التقليدية كذلك على غرف متعددة غالبا ما تكون متساوية طولا وعرضا، وينحصر عرضها في ثلاثة أمتار ويصل طولها إلى سبعة أمتار. داخل "أخام" ذو الشكل المستطيل والنوافذ الصغيرة الحجم والقليلة العدد، يوجد مكان لا يفوق علوه مترا واحدا يستغل استغلالا مزدوجا، كمكان لنوم الزوجين ولخزن الأشياء الثمينة، يسمى "رشثو"، كما يخترق سماءه عمود خشبي يستعمل لنشر الثوب والفراش وهو المكان المخصص لجلوس العروس ونشر ما جلبته معها على هذا العمود، ليكون على مرأى

من الناس. وبجانب غرفة النوم، توجد غرفة الضيوف "أخام انوجون"، بقرب المدخل الرئيسي للدار، وتجمع بين مدخله ومدخل الدار سقيفة تسمى "أروى"، ويفضي إلى وسط الدار تدريجيا لا يفاجئ من في الداخل، للتستر على تصميم المداخل ومواقع الغرف. ويقول دافيد هارت عن بيت الضيوف (الصورة رقم 4) بأنه "أحد أبرز الرموز المرئية التي تدلنا على مقام صاحب المنزل ووضعه الاجتماعي، حيث يتوفر القرويون ذوو الموارد المتواضعة على دكات بسيطة منخفضة للجلوس تحيط بجدران الغرفة، في حين يملك الأغنياء وسائد مزركشة وملونة وبطانيات وستائر حائطية، وكلها من الأثاث الذي لا يصنع محليا"(16).



الصورة رقم 4: بيت الضيوف (أخام إينوجون)

تصوير بوظيلب، دجنبر 2009

وكان كل مسكن من المساكن القروية التقليدية يحتوي على الأقل على سقيفة داخل الدار تجتمع فيها الأسرة تسمى "أسقيف"، كما تحتوي أيضا على غرفة خاصة لطهي الخبز يطلق عليها "ثغرغاث"، تمكن المرأة من ممارسة الأعمال المنزلية. وهناك غرفة أخرى توجد بها طاحونة يدوية "تاسيرث أوفوس" توظفها النساء لطحن الحبوب. كما كان لهذا المنزل مكملات خارجية، كأن يحاط بأشجار أو سياج من نبتات الصبار أو بصور قصير من الأحجار "أغبار"، عادة ما يحيط بمجموعة من العناصر التي تشترك فيها كل المساكن بالريف الشرقي، وهي فرن من الطين "ثافقونت أو ثنوث"(الصورة رقم 5)، على شكل حفرة مقعرة مبنية بالطوب والطين توظف في طهي الخبز، وتستعمل لوحة خشبية ممدودة من أجل وضع الخبز للطهي، وإخراجه بعد عملية الطهي تسمى "ثضراحت".

(16) – دافيد مونتكمري، هارت، (2007)، آيت ورياغل، الجزء الأول، ترجمة محمد أونيا وآخرين، نشر جمعية صوت الديمقراطيين المغاربة في هولندا، الطبعة الأولى .



الصورة رقم 5: فرن الطين (ثافقونت)، أحد العناصر الأساسية في المسكن التقليدي بالريف الشرقي.
تصوير بوظيلب، دجنبر 2010

كما توجد خارج المسكن معصرة تقليدية لاستخراج زيت الزيتون، بجانبها مكان لخزن التبن يسمى بـ "أثمون". ويوجد خارج المسكن التقليدي بالريف أيضا مكان لتجميع الأسمدة وروث البهائم، توظف في تخصيب الأراضي الزراعية. وثمة أيضا ما يمكن تسميته بالمزابل أو قمامات النفايات، وهي إما خاصة بالأفراد أو بالجماعة، وقرب المنزل يوجد دائما بستان مسيج بالحجارة أو بأشجار الصبار الكثيفة.

4 - وظيفة السكن التقليدي بالريف

يشْغَلُ المسكن القروي وظيفتين متكاملتين، فهو من جهة يشكل مأوى للعائلة أو الأسرة، ومن جهة أخرى مركز للاستغلالية ووحدة للإنتاج[17]، ومؤسسة اجتماعية واقتصادية ومكان مقدس. كما أن المحيط المجاور للمساكن بالنسبة للريفيين يشكل جزءا منها وله وضيفته الذي يكمل وظائف المجال الداخلي، وهي عبارة عن أراضي تحيط مباشرة بالمساكن تسمى "بأقوير"، وتحظى بعناية مكثفة من طرف السكان، وغالبا ما تخصص هذه الأراضي للمزروعات الشجرية كالزيتون واللوز وبعض المزروعات البورية كالشعير والقمح، وفي حالة وجود الماء، فهي تخصص لبعض المزروعات السقوية كالخضر والبواكير والأشجار المثمرة. أما الشكل الثاني من الاستغلاليات تسمى "ادهار" أو"غنج" وهي أراضي تتمركز في أعالي التجمعات السكنية على مسافات بعيدة عن الدوار. في حين تسمى الثالثة "روضى" أو "وادي"(تحت)، وتتمركز غالبا على ضفاف الأودية على شكل مدرجات، كما سبقت الإشارة، وتخصص هذه الأراضي للزراعات السقوية.

(17) - Naciri.M (1996), L'habitat rural, un laissé pour compte de la modernisationdes campagnes, in l'habitat dans le monde rural, Almaouil n° 12/13, Rabat, Maroc, p 3.



الصورة رقم 6: تمركز المنازل وسط استغلاليات زراعية (ادمانت)

تصوير بوظيلب، دجنبر 2009

ويتضح إذن أن المنزل بالريف ليس مجرد مجال مبني أو بيت يأوي الإنسان، بل هو مجال معنوي أيضا يتخذ مكانة خاصة. وكان الهدف من إحراق المنازل وهدمها وتخريبها، أثناء غارات المستعمر أو خلال الهجومات الانتقامية بين القبائل أو أثناء الأخذ بالثأر خلال النزاعات الفردية أو الجماعية، هو محو لهذا الوجود وإبعاد لسكانه واقتلاع جذورهم وإضعاف للجماعة أو المدشر.

وعليه، فإن المنزل بالريف كان مجالا سكنيا مرتبطا بتصور خاص للسكن والتساكن وبعلاقات اقتصادية واجتماعية وثقافية خاصة، ويخضع في بنائه وشكله ومكان تشييده لطقوس معينة وعادات محددة، كما كانت وضائفه ودلالاته المعمارية والعناصر المكونة له مرتبطة بالواقع الاجتماعي والشمولي الذي يوجد فيه، إنه على العموم نسق تتمظهر فيه كل الجوانب الحياتية وكل العناصر المادية والمعنوية والدلالية، ولفهمه لا يمكن تناول عنصر معزول عن آخر أو الاقتصار على عنصر محدد وإهمال العناصر الأخرى.

كان المنزل التقليدي أحد المكونات الأساسية للمدشر والقبيلة كسائر المجالات المبنية الأخرى كالزاويا والمساجد والأضرحة، وباقي المؤسسات الاجتماعية، وأصغر مجال ترابي داخل مكون القبيلة. وكان يضم أسرا أو عائلات ممتدة، تنتظم فيه وتتعايش فيما بينها، ولم يكن مجالا للحماية من كوارث الطبيعة وقساوتها أو الحماية من الحروب والنزاعات والعنف القبلي، أو مجالا للتكاثر البيولوجي فقط، بل كان مجالا اجتماعيا، يتم فيه التواصل المتعدد الأبعاد بين الأفراد أثناء المناسبات أو غيرها، وتتم فيه كذلك تربية الأبناء وتنقل إليهم ثقافة الأجداد والقبيلة، فيه تكون لسلطة رب المنزل أو الأسرة مفعول

ووجود، فهو ليس مجالا ماديا فقط، بل مجال اجتماعي معنوي، مجال ثقافي بالدرجة الأولى. وهذا ما يتيح له استمراريته والمحافظة على ماهيته أكثر، فالمنزل كمعطى أو كواقع مادي، قد يبدو هشا وسريع الزوال من جراء الظروف الطبيعية أو الحروب أو النزاعات الفردية أو القبلية أو نتيجة إضرام النيران فيه لغرض انتقامي، ولكن المنزل كبعد اجتماعي ثقافي كجوهر مؤسس للوجود نفسه داخل القبيلة والجماعة، يبدو ثابتا وضروريا. فالإنسان في الريف لا يحس بوجوده داخل القبيلة، إلا من خلال مجال قار يتحدث عنه ويخلد لذكرياته وشرفه وقيمه حتى بعد مماته.

إذن، ورغم هشاشة هذا المنزل وبساطته من حيث العناصر المكونة له، فإنه كان رمزا للإنخراط في الجماعة والقبيلة. ويعتبر غير المالكين للمنازل غرباء عنهما. ومن ثم يمكن ملاحضة تراتب اجتماعي ينتج عنه تراتب مجالي على مستوى المنازل والممتلكات العقارية وغيرها. فمثلا، هناك فرق بين منازل الفقراء ومنازل الأسر الغنية والعريقة في المدشر، بحيث تمتاز منازل هؤلاء عن غيرها بتعدد البيوت وتحاط بها أراضي زراعية، كما أنها توجد في مأمن من العوارض الطبيعية وتسيج بسور من الأحجار "أكركور" أو حاجز من الأشواك النباتية، وتضم بداخلها مطمورات لخزن الحبوب وزرائب للحيوانات وخما للدجاج "أكَنيار" وبيتا إضافيا "ثنواشت" للطبخ أو لحفظ أدوات الفلاحة، وفرنا للخبز "ثافقونت". ومن هنا نقف على ثراء منازل أو فقرها، فالمنازل الثرية أو الكبيرة هي التي يمتلك أصاحبها عدة نساء، وعدة أبناء متزوجين وعدة أحفاد موزعين على بيوت عديدة متلاصقة، تضاف إلى المنازل كلما دعت الضرورة لذلك، ويملك أصاحبها عدة خيول وحيوانات داجنة وأراضي فلاحية، كما تكون لأصاحبها سمعة وشرف وقدرة على إطعام الضيوف في كل المناسبات "ثادارث نوغروم".

III - تطور السكن التقليدي بالريف الشرقي

يمثل السكن القروي أكثر مظاهر التحولات المجالية بالريف الشرقي، ولم تقتصر هذه التحولات على المظهر الخارجي فقط، وإنما أيضا هندستها ومواد بنائها، وكذا مواقعها ومواضعها. وتشكل المنازل المشيدة حديثا، نمطا معماريا مغايرا يتسم بخاصيته الحضرية واتساع مساحته وعلو طوابقه، ولاشك أن الهجرة الخارجية كان لها الأثر الكبير في هذا التحول، وفي تطور السكن القروي وتجهيزاته على اختلاف أنواعها.

1 - تغير في مواد البناء ووظيفة المنزل

تمثلت أولى التغيرات التي عرفها السكن التقليدي بالريف، في انتقاله من سكن أفقي إلى سكن عمودي (الصورة رقم 7). كما شمل هذا التغير كذلك المورفلوجية الداخلية والخارجية للمنازل القروية. فبعدما كانت المنازل مندمجة في المجال وتتخذ لون التربة التي بنيت بها، أصبحت اليوم بارزة للعيان وأكثر عناصر المنظر الريفي بروزا في المجال. فالمتجول ببوادي المنطقة يلاحظ بروز "أجسام غريبة" هنا وهناك تعطي صورة مزيفة عن الواقع الاقتصادي والاجتماعي للمنطقة.



الصورة رقم 7: منازل تتكون من طابقين أو أكثر بدوار أجدير، تمسمان

تصوير بوظيلب 2009

فهذا التحول لم يمس فقط المورفلوجية الخارجية للمنازل وهندستها والمواد المستعملة في البناء، بل شمل كذلك الوظائف الأساسية للسكن .فالمنزل التقليدي القروي جزءا لا يتجزأ من الاستغلالية الفلاحية، وكان يشكل خلية وأداة للاستغلال تجمع الإنسان والحيوان وأدوات العمل، لكن اليوم، وبفعل تحسن ظروف العيش وسيادة الثقافة المستوردة، تخلى عن هذه الوظائف خصوصا بعد التراجع الذي عرفه القطاع الفلاحي، وظهور اهتمامات جديدة لدى الأسر القروية تعتمد على مصادر عيش أخرى غير الأنشطة الفلاحية. كما أثر هذا التحول على عدد الطوابق وعدد الغرف وحجمها، إذ لاحظنا خلال المعاينة الميدانية أن هناك دواوير يتجاوز فيها عدد الغرف ثلاثين غرفة، كما هو الشأن لبعض المنازل بجماعة تفرسيت.

2 - تشتت السكن نحو مواقع جديدة

ارتبط السكن وتوطينه سابقا بخصائص الوسط وإنتاجية الأرض وعنصر الاحتماء ومبدأ تكامل الرساتيق، بحيث يتموضع في سافلة المجال البوري ويشرف على المجال المسقي. لكن لم يعد يراعي السكن هذه العناصر في تمركزه، بفعل التفكك النسبي للروابط العائلية وتراجع الأسر الممتدة ذات الطابع الأبوي، وطغيان السكن الفردي على حساب السكن الجماعي. فالخاصية الجديدة للسكن هي القطيعة مع المنزل التقليدي الذي كان يضم ما بين ثلاثة أو أربعة أسر. ويتجه المجتمع الجديد في الريف نحو قطع الصلة بالمجتمع التقليدي، يدير ظهره إلى كل القيم التي كانت سائدة من قبل، "فعناصر الماء والزراعة والرعي والأمن صارت جزءا من التاريخ"[19]، حيث أصبح دورها في اختيار مواقع السكن ثانويا. فتراجع الأخطار الخارجية واستتباب الأمن، ووصول أموال الهجرة، والرغبة في التموقع اجتماعيا، ودخول السيارة بشكل واسع إلى البوادي كأداة للتنقل بدل الدابة، وتقلص المساحات المزروعة وتدهور البنيات الزراعية التقليدية، دفع السكان إلى اختيار مواقع جديدة لتشييد منازلهم.

وتبعا لهذه لتحولات التي مست نمط الحياة، فإن السكن أصبح ينزلق من المرتفعات الجبلية ويتمركز في الأحواض وقرب طرق المواصلات. ويمكن التمييز بين عدة نماذج من تشتت السكن. "يظهر المستوى الأول في الانتقال من المرتفعات التي كانت توفر ظروف التحصين إلى قدم الجبال، حيث أصبح السكن يتوسط المحاط، فتشكل العالية مجالا لتربية الماشية والسافلة مجالا لزراعة الحبوب، بينما تخصص المنطقة الوسطى للسكن ولغراسة الأشجار المثمرة"[20]. أما المستوى الثاني، فيتجلى في انتقال السكن من المرتفعات نحو المناطق السهلية والأحواض.

وعلى هذا الأساس، أصبح اختيار المواقع خاضعا لمقاييس جديدة كالقرب من الطريق والأماكن التي تتمركز فيها التجهيزات السوسيو-اقتصادية للاستفادة من خدماتها، مما أدى إلى ظهور مراكز شبه حضرية.

---

(19) - Ibid, p. 289.

(20) – علال، الزروالي (2000)، التحولات الريفية والتمدن في الريف الشرقي، أطروحة دكتوراه الدولة في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، ص 402.

إن تغلغل السلوك الاستهلاكي في البوادي، والرغبة الجامحة في التحديث تطرح أكثر من تساؤل حول مآل المنزل الريفي في غياب مشروع للمحافظة على إرث الماضي وضعف الوسائل لتدبير الحاضر. فالتقليد الأعمى للنموذج الحضري واللجوء المكثف إلى استعمال المواد العصرية في البناء سيؤديان، لا محالة، إلى القضاء على الإرث الحضاري لهذه المجموعات القروية.

خاتمة

لم يكن المسكن التقليدي بالريف مجرد مأوى، بل كان يتخذ بعدا اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا وجماليا رغم بساطة بنائه، كما يعد كذلك رمزا للشرف ويعبر عن الوجود الكامل داخل القبيلة. فالإنسان في الريف لم يكن يبني كيف ما كان، بل كان يبني انطلاقا من خبرة وثقافة. وهكذا نلاحظ أن هذا السكن لم يتأثر بالهندسة المعمارية الاستعمارية أو السلالية أو العسكرية (القصبات، القلاع...)، وإنما حافظ على تميزه سواء من حيث مواد بناءه أو أشكاله الهندسية أو المواقع التي كان يحتلها أو من حيث الوظائف التي كان يؤديها، كما كان لهذا المسكن من جهة أخرى بعد مجالي واجتماعي يتجلى في انسجام عناصره الهندسية مع وظائفه الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

البيبلوغرافيا

- أبي عبيد، االبكري (1914)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- أحمد، البوعياشي (1974)، حرب الريف التحريرية و مراحل النضال .ج I ، بيروت.
- أمين، الريحاني (1952)، المغرب الأقصى : رحلة في منطقة الحماية الإسبانية، دار المعارف، مصر.
- محمد، بنعلي (1994)، أساليب التواصل و دورها في التحولات الاجتماعية داخل الوسط القروي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.
- دايفيد، مونتكمري هارت، آيت ورياغل، الجزء الأول، ترجمة محمد أونيا وآخرون، نشر جمعية صوت الديمقراطيين المغاربة في هولندا، الطبعة الأولى،2007.
- الحسن، بن محمد الوزان (1983)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر ج I، الطبعة الثانية، دار الغرب، الإسلامي، بيروت.
- التقي، العلوي (1977)، أصول المغاربة القسم البربري، صنهاجة الشمال، مجلة البحث العلمي، ع، 27، الرباط.
- علال، الزروالي (2000)، التحولات الريفية والتمدن في الريف الشرقي، دكتوراه الدولة في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، مرقون، 723 ص.

******

- Ait Hamza M. (2000), *Mobilité socio-spatiale et développement local au sud de l'Atlas (Dadès-Todgha)*, Thèse d'Etat (géographie sociale), Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Rabat.
- E. Blanco Izagua (1930), La vivienda rifeña. Atlas commisaria de Espagna en Marruecos, Tetoune.
- Hensens J. (1970), Extrait de l'enquête nationale sur l'habitat rural traditionnel au Maroc, in types et nature dusous –habitat. Séminaire sur « l'environnement urbain et l'habitat sous–intégré au Magreb», Rabat.
- Hart D. M. (1965), Clan, lignage et communauté locale dans une tribu rifaine. RGM, n° 8, Rabat, pp. 25-33.

- Jennan L. (2004), *Le Moyen Atlas Central et ses Bordures, mutations récentes et dynamiques rurales*, thèse de doctorat d'Etat en géographie, éditions al jawahir, Fès, Maroc, 706p.
- Maurer G. (1995), Nouvelle approche dans l'étude régionale du Maroc du Nord, la Tunisie du Nord: Espace et sociétés. Colloque organisé par le Faculté des Lettres de Manouba, Tunis, 42p.
- Moulières A. (1895), Le Maroc Inconnu. Vol 1, exploration du Rif, Paris. Naciri M. (1996), L'habitat rural, un laissé pour compte de la modernisation des campagnes, in l'habitat dans le monde rural, Almaouil n° 12/13, Rabat, Maroc.
- Trion J. F. (1967), Le Nord–Est du Maroc, mise au point régionale. RGM, n°9. Rabat.

طقس الطبيعة بواحة امحاميد الغزلان وتجلياته المعمارية في هندسة "إغرم /القصر": طقس الماء نموذجا

ذة. فاطمة فائز

باحثة، أكادير

مقدمة

كان التدين على مر التاريخ ينطلق من الطبيعة ويعود إليها، فهو يحاكيها من أبسط تفاصيلها حتى أقصى مظاهرها المعجزة، ولعل فهم الكون واستيعاب متغيراته أحد أهم الظواهر التي شغلت الإنسانية منذ بداياتها الجنينية، وحاولت أن تعبر عنه في فنها ونقوشها وشعائرها وطقوسها، وأن تقاربه انطلاقا من تصورها اللحظي له موظفة كل الآليات المعرفية المتاحة وقتئذ، سواء على مستوى التصور الذهني أو التمثل الطقوسي أو التداول التدبيري.

يحاول هذا المقال الوقوف عند بعض تجليات هذه المظاهر التدينية المرتبطة بطقوس الماء على مستوى الممارسة التدينية داخل "إغرم" /"القصر"، وعلى تجلياتها عمرانيا على مستوى هندسته.

تأطير عام

إن انطلاق التدين من الطبيعة ومحاكاته لها جعله يرتبط أكثر بالاستقرار، ويدفع بالفكر الديني إلى الالتصاق بجوانب الحياة المعيشة وخاصة الأمور الزراعية - عمد الحياة وقوامها في حينه-، ولذلك سعى الإنسان منذ أمد إلى إرضاء القوى المتحكمة في الظواهر الطبيعية، وخاصة المؤثرة تأثيرا مباشرا في إنتاجه الزراعي[1].

كان الماء على رأس قائمة المظاهر الطبيعية المقدسة، فهو في ذهنية المتدين القديم - وفي ذهنية الواحي حتى الآن - عصب الحياة الذي لا تقوم بدونه قائمة في مجتمع يقوم على الرعي والزراعة، فهو الواهب للحياة والضامن لاستمرارية القطيع وانتعاش الزرع وبالتالي الضامن لاستمرارية الحياة.

(1) - الخطيب، عفراء علي: رموز آلهة القمر والشمس، أحد مظاهر علاقات شمال إفريقيا بالصحراء الكبرى وجنوب شبه جزيرة العرب خلال العصور القديمة، دراسات في آثار الوطن العربي، 2002، ص 355.

فكان الماء بذلك المقابل الرمزي لعدة معاني مرتبطة بالخصب والنماء، بل لمعاني الحياة والتجدد والانبعاث، وفي حالات الجفاف سعى المتدين إلى ربط الاتصال بالعوالم المقدسة لاستدرار عطفها وتحريك فعل الإخصاب لديها، فكان الكبش بما يختزل من رمزيات التنظيم والقوة والخصوبة والإنتاج المتكاثر وسيطا ذا شأن كبير في طقوس الاستسقاء والاستمطار.

شكل "إغرم" /"القصر" الإطار والحاضن التاريخي لكل هذه الطقوس والممارسات والأساس الفعلي لعمليات الاحتواء الجمعي التوافقي لمختلف المظاهر الاجتماعية السائدة والظواهر الطبيعية المستجدة بما يضمن مصالحة مستمرة مع المجال بكل متغيراته، ذلك أن "إغرم" /"القصر" في واحة امحاميد الغزلان، كما في بقية واحات الجنوب الشرقي المغربي، يعد أحد أهم مواطن الالتقاء عبر التاريخ بموضوع حيوي مثل "الماء"، وتعد معرفة بنياته الاجتماعية والثقافية وإدراك امتدادها المجالي والتاريخي رهنا بدراسة عميقة لعنصر الماء في شتى تمثلاته.

فكان لمتعلقات طقوس الاستسقاء والاستمطار والتبرك حضور جلي يرافق الحركة الاجتماعية في كل تفاصيلها الدقيقة، بما فيها حضوره على مستوى عمارة "إغرم"/ "القصر"، سواء من خلال هندسته العامة أو من خلال بعض الأشكال الهندسية والرموز التزيينية المفعمة بخلفيات أنثروبولوجية غنية رغم بساطتها.

1 - "إغرم" /"القصر": خصوصيات البناء والهندسة

يعد "إغرم" /"القصر" من أهم سمات الهندسة المعمارية التقليدية المنتشرة في واحات الجنوب الشرقي المغربي عموما، وفي واحة امحاميد الغزلان على وجه الخصوص، ويتسم بتجانسه على المستوى الهندسي، وبفخامته وبساطته في آن، وبانسجامه مع الوسط الطبيعي ومع المجال عموما.

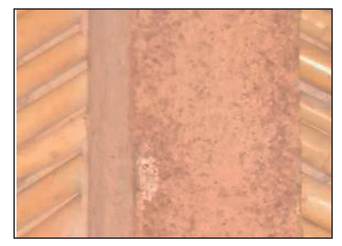
ويمر بناؤه بواحة امحاميد الغزلان من مراحل مختلفة، أولها مرحلة اختيار موقع التشييد الذي يفترض فيه أن يستجيب لحاجيات الأمن والقرب من المزارع والبيادر والمراعي، والذي قد يكون تلا مشرفا على منبسط، أو سهلا أو واحة محادية لوادي، وقد كان الهاجس الأمني في وقت من الأوقات، خاصة زمن السيبة، دافعا ومطلبا أساسيا تحكم إلى حد معين في تحديد موقع البناء وتشكيل النمط الهندسي المغلق "إغرم" /"القصر"،

وأكسبه طابعا حربيا ودفاعيا أكد عليه بعض الباحثين – مثل روبير مونتاني – باعتباره أهم الأدوار التي تؤديها القصبة[2].

بعدها تأتي مرحلة البناء التي تبدأ بتخصيط تصميم هندسي "إغرم" /"القصر"، بتثبيت حبال (إزاكارن) في الأرض بأوتاد من حديد (تيكوسين)، ثم وضع الأساس ورفع جدران التراب المدكوك باستعمال تقنيات الطابية، والتي تسمى محليا بـ (اللوح) أو(التابوت)، وتتم عبر تركيب لوحين كبيرين من الخشب من جهة الطول يسميان محليا (تافريوين) بعرض مترين وعلو متر واحد، ولوحين صغيرين من جهة العرض يسميان محليا (تيحنديرين) بعرض ستين سنتمترا وعلو متر أيضا، وتثبيتها – الألواح – بعصي تسمى (لقوايم) تحكم بالحبال حتى لا تتحرك، ثم يملأ (التابوت) بالتراب المبلول بالماء ويدك بأداة خشبية مربعة الشكل ذات حامل بطول المتر تقريبا لتسهيل عملية الدك (ركز) تسمى (لمركز).

عند الانتهاء من تشييد الطبقة الأولى من الحائط يتم تركيب (اللوح) فوقها، مع مد ثلاثة أعمدة خشبية متوسطة العرض والطول بين الحائط و(اللوح) تسمى محليا (لشكول) لتثبيت اللوح على الحائط وضمان استقامته.

ثم تأتي مرحلة تثبيت مواد السقف والزخرفة بما فيها عمليات التبليط والنقش، ويقوم السقف أساسا على عناصر نباتية أهمها جذوع النخيل وشجر الأتيل (أكوو)، وهي التي تكون عماد السقف الذي يسند بقية مكونات السقف من قصب وتراب، وهو نوعان: الجذوع التي يتم صقلها لتأخذ شكلا رباعي الأضلاع وتسمى محليا (لكَايزة)، وهي خاصة بأماكن استقبال الضيوف، أما النوع الآخر وهو أقل جمالية من (لكَايزة) فيسمى (العقد)، وهو جذع عادي قد يزال عنه لحافه، ولا يزال يوظف في تسقيف بقية مرافق البيوت.



"العقد"

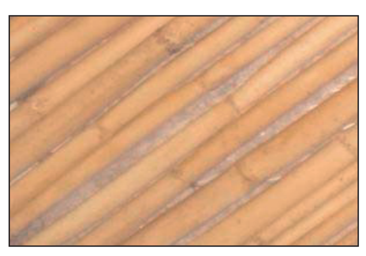




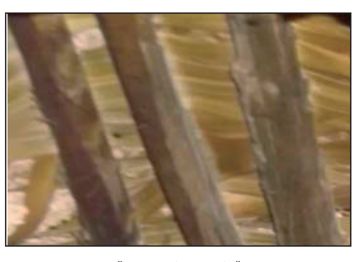
"الكَايزة"

(2) - Montagne, R : les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc, ed. Felix Alcan, Paris, 1930, P 347.

بعد ذلك ترصص الأخشاب متوسطة الحجم فوق هذه الجذوع ويفرش بعدها نسيج من القصب (الترصيص) أو (أكَرتيل) أو من جريد النخيل (تاسكاكوت)، ثم يغطى كل ذلك بطبقة من التراب ويبلط بالطين المتخمر المخلوط بالتبن.



"أكَرتيل"





"تاسكاكوت"

ويعتبر الطوب (أطوب) مادة أساسية في تشييد مرافق "إغرم" /"القصر"، وهو يصنع على قياسين (من الطين المخلوط بالتبن أو بقش شجر الأثيل المتخمر لمدة قد تصل لأسبوعين) قياس كبير يوظف في البناء، إذ يتم به تشييد معظم مرافق الطوابق العلوية للمنازل إضافة للمواقد والمعالف وغيرها، وقياس صغير يوظف في زخرفة الأبراج وبناء الأعمدة (السيريت) التي تتوسط الرياض وأعمدة الدعم التي تحادي الجدران (إنفدن).

إضافة إلى هذا الغنى على مستوى مواد وتقنيات البناء والتشييد، يعد "إغرم" /"القصر" خزانا ثقافيا وأنثروبولوجيا غنيا اختزل أهم الملامح الحضارية، وعكس أنماط العيش وثقافة المأكل والملبس والمسكن، كما عكس عمق الطقوس والاحتفالات المواكبة للمناسبات الاجتماعية والدينية، إضافة للقوانين والأعراف التي نظمت الحياة اليومية للقبيلة وساهمت في حسن تدبير المجال والثروة، فالمجال الإنساني هو مجال ثقافي وليس مجالا طبيعيا (غريزيا)، لهذا السبب تختلف المجالات الإنسانية باختلاف الثقافات، لأن المجالات الإنسانية تلعب فيها المعتقدات والأعراف والتقنيات دورا أساسيا[3].

وقد استجابت هندسة "إغرم" /"القصر" لخصوصيات المجال في واحة امحاميد الغزلان كما في بقية واحات الجنوب الشرقي المغربي، إلى حد التماهي معها في التأكيد على جدلية العلاقة بين العمارة والفضاء الذي تقام فيه[4]، فبساطة البناء وطابعه

---

(3) – الحسين، سعلي: ثقافة العين: من الأمازيغية إلى الحداثة، المجال الأمازيغي المقدس عقائديا وسيميولوجيا، جريدة تيفراز، ع 4، يونيو 2003.

(4) – رشيد الحسين: وشم الذاكرة: معالم أمازيغية في الثقافة الوطنية، مطابع أمبريال 2002، ص. 122.

المعماري الترابي هو دليل الرؤية الفضائية المحلية والمنسجمة عبر بنياتها وصورها مع البيئة الطبيعية، حيث تعكس رمزية البناء أبعاد التجاوب والتصادي الذي يصل الإنسان بمحيطه الجغرافي[5].

ومن مظاهر هذا التفاعل الذي تؤمنه هندسة "إغرم" /"القصر" مع المجال، احتضانه لمجموع الممارسات الطقوسية والشعائرية التي كانت تبتغي التواصل مع عالم الماوراء وتقديم تفسيرات غيبية للظواهر الكونية والطبيعية المختلفة، خاصة ما لم يترتب تجاهه بعد قدر كاف من الوعي والإدراك، عبر تجليها على مستوى التصميم والزخرفة، إذ عادة ما يلتجئ الإنسان إلى زخرفة الأمكنة وتأثيثها بعناصر معمارية إضافية، أو إضفاء مظهر تزييني وطرازي على الأرضيات والسقوف والجدران والنجارة والأثاث، وذلك رغبة في تمديد أبعادها ووقعها حتى يضفي حسا معينا أو دلالة تلامس قدسية وهيبة المتعالي[6].

2 - "إغرم" /"القصر" وطقوس الماء

شكلت طقوس الخصب والاستمطار عموما، والمعادل الرمزي لها - الكبش - خصوصا، إحدى أهم الطقوس التي تحتضنها مرافق "غرم" /"القصر"، والتي انعكست على مستوى عمارته، إن على مستوى التصميم الهندسي أو على مستوى الأشكال والرموز الزخرفية.

ورغم أن الدراسات التاريخية والأركيولوجية التي عنيت بدراسة الأصول التاريخية لتقديس قوة الخصب في شكل كبش، اختلفت حول طبيعة تقديس هذا الحيوان وعما إذا كان مؤلها أم مجرد قربان[7]، كما اختلفوا حول تفسير الشكل الكروي الذي يتوسط قرنيه والبادي في النقوش والرسوم الصخرية، وهل هو جرم سماوي[8]أم شكل احتفائي[9]؟ إلا أنها تتفق على ارتباط هذا الحيوان الأقرن بقيمة الخصوبة ومعاني الحياة والبعث، وهو ما تعكسه بعض متعلقات طقس "بويسكار" وبعض طقوس الأعراس لدى قبائل أيت عطا

(5) - رشيد الحاحي، النار والأثر: بصدد الرمزي والمتخيل في الثقافة الأمازيغية، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الدراسات والأبحاث رقم 12، مطبعة المعارف الجديدة -الرباط، 2006، ص.44.

(6) - المرجع نفسه.

(7) - Camps .G, Animisme : encyclopédie berbère, - edi. Edisud, 1991. p 662, Bélier à sphéroide, encyclopédie berbère, - edi. Edisud, 1991. p142, p143, Les berbères: mémoire et identité. Paris, Editions Errance, 1987. p 149-150.

(8) - الخطيب، عفراء: دراسات في آثار الوطن العربي، رموز آلهة القمر والشمس، مرجع مذكور، ص.366.

(9) - Germain, Gabriel : Le culte du bélier en Afrique du Nord, Hespéris, T. 35 (1948)., p100.

الأمازيغية في واحة امحاميد الغزلان، والتي تندرج في نفس السياق وتترجم ذات الاعتقادات المرتبطة بقيم الخصب والنماء.

فطقس الكبش (بويسكار) الذي يصادف عيد الأضحى والذي يقصد منه الاستسقاء، يستبطن احتفاء كبيرا بهذا الحيوان الأقرن منذ عشية العيد (إض ن تفاسكا)، حيث يلقى عناية كبيرة من لدن (تامغارت) -أكبر نساء البيت وأجلهن مقاما - تتجاوز الاهتمام بمأكله ومشربه إلى الاحتفاء به وتزيينه بنفس مواد التجميل لدى العروس العطاوية، من كحل وسواك وحناء وريحان وزعفران، بعد ذلك تعمد (تامغارت) إلى جمع شيء من هذه المواد في آنية خزفية تسمى "تاشقوفت" وبعض دم الكبش/الأضحية بعد ذبحه، وقرونه وعظام رأسه بعد تناول لحمه، إضافة لفطائر صغيرة من دقيق الشعير، وتقوم فتيات في مقتبل العمر بحمل (تيشقفين) ويتجهن في موكب مهيب إلى الحقول لرميها في الساقية الجافة دفعا للشر واستجلابا للخير، في شكل قطرات مطر تحيي ما جف من زرع وضرع.

وتأكيدا على معاني الخصب والتجدد التي يصبو إليها الطقس، تحضر نبتة الشعير (تيمزين) في شكل نبتة مؤنثة[10] من خلال (توفطيرين)، وتتزين الفتيات - حاملات تقدمة (إيسكَار) - بلباس وزينة العرائس، خاصة منها زينة الرأس (أعبروق) التي تحتفي بالكبش رمز الخصب، إذ تجسد رأسه في إيحاء إلى زينة كبش من الأكباش المتوجة بمنطقة فزان[11].



شكل "أعبروق" التزييني





كبش متوج

(10) - Hammoudi, Abdellah : La Victime et ses masques : Essai sur le sacrifice et la mascarade au Maghreb. Paris : Seuil, 1988, p. 180.

(11) - Le Quellec, Jean-Loïc : Symbolisme et art rupestre au Sahara. Paris : L'Harmattan, 1993, Fig: 38:20, p. 162.

فالشكل التزييني الذي يعلو رأس الكبش ينم عما تختزله قرونه من قيم الخصب، ولما كانت العروس رمزا للخصب والحياة والتكاثر، استعارت هذا الشكل إمعانا في التأكيد على هذه الخصائص، خاصة وأن (تسليت) ارتبطت في التصور الأمازيغي بالخصب، فهي تساهم بوحدتها مع (إسلي) في إنعاش المنتوج الفلاحي[12].

ونظرا لهذه الرمزية التي تختزلها قرون الكبش، فقد شكلت أيضا إحدى أهم الرموز الحاضرة على مستوى زخرفة عمارة "إغرم" /"القصر"، هذه الرموز رغم بساطتها ترتبط بالمقدس وتعبر عنه بشكل جمالي يزاوج بين الفني والوظيفي، فخاصية البناء وشكل المعمار في الثقافة والوسط الأمازيغي تستغني عن التكرار والارتفاع، وتكتفي بالحدود الوظيفية والرمزية والذاتية، تلك التي تصله بانتماء وتموضع أرضي خام، دون تضخم هندسي وقيمي ودلالي[13].

3 - عمارة "إغرم" /"القصر" ورموز الماء

نكتفي في هذا المقام بمقاربة رمز (أنكراراف) الذي يتوج كلا من مدخل البيت (إيمي ن تادارت) ومنفذ التهوية (تيط ن تادارت) بقصور واحة امحاميد الغزلان، والذي يبدو أنه رمز مقدس ذو امتداد تاريخي وذو حضور جمالي، فهذا الرمز هو أحد النقوش الصخرية الموثقة بصخور (فم لرجم)، الموقع الأثري في مدخل واحة امحاميد الغزلان، وأحد رموز النسيج (أسطا) وأحد أشكال الوشم (تيكزاي) الذي تتزين به المرأة العطاوية، كما أنه أحد الأشكال التزيينية المتكررة في الحلي الفضية العطاوية، خاصة منها الدملج الذي يحيل شكله واسمه على معنى القرون (أزبي بو إقروين) وهو أحد أهم مكونات جهاز العروس.

---

(12) - تيليوا، مصطفى: حوار الحضارات في سياق مقاربة أنثربولوجية وتاريخية لبعض المعتقدات والطقوس الأمازيغية، واحة تافيلالت، ع 3، ص. 25.

(13) - رشيد الحاحي: النار والأثر، مرجع سابق، ص. 43.







"نقش صخري بفم لرجم"

"أزبي بو إقروين"

ويحيل (أنكراراف) على معاني التموج، ويجسد قرون الكبش، ويرمز إلى الماء المتحرك المتجدد، وإلى الانتماء للحياة، ويضمن التواصل والارتباط بالعوالم العلوية في الآن ذاته، ولذلك نجد هذا الرمز التزييني مثبتا في موضعين أساسيين بالبيوت:

- "إيمي ن تادارت" : مدخل البيت، ونحن نعلم ما للبيت من قدسية في المخيال والثقافة الأمازيغيتين، فالبيت (تادارت) هو المكان حيث يحدث فعل (إدر)، فهو إذا رمز الحياة وموطنها وموئلها.

ولما كانت جل تفاصيل الحياة لدى العطاوي ذات أبعاد قدسية، كان البيت الذي يحتضن هذه الحياة مقدسا، لذلك وجب أن يكون المدخل إلى المقدس بدوره موشوما برمز ذي علاقة بمعاني الحياة.



"إيمي ن تادارت"



"تيط ن تادارت"

- "تيط ن تادارت" : هو منفذ التهوية الذي يتوسط عادة الرياض، يأخذ شكلا متساميا، تبعث الرؤية من خلاله شعورا غامضا في النفس، فهو المنفذ للعتمة والنور معا، وسلم يصل العالم السفلي بالعوالم العلوية، بعالم الماوراء، ومن ثمة كان لابد من تأثيث المكان بوساطة ذات أبعاد قدسية تضمن سلاسة التواصل بين العالمين وسلاسة الاجتياز بينهما.

4 - "إغرم" /"القصر" والتحولات السوسيو مجالية

يعد الجانب التنظيمي-الاجتماعي صمام الأمان لبنية القصر، فهو الضامن لوحدة الجماعة وتضامنها أمام أي ظرف خارجي، فالحاجة إلى الاستقرار في شكل مجموعة متماسكة كان مطلبا يزكي قيم الترابط بين هذه المكونات البشرية ويذكي روح التضامن بينها، بحيث يصبح الفضاء المشترك والمسكن المتقاسم بالإضافة لرابطة الدم، كلها عوامل تغذي حاجتهم للإحساس بالأمن والاستقرار.

فالوحدة الاجتماعية ووحدة الانتماء والهوية المشتركة التي تزكيها هندسة القصر بمرفق ذي دور استراتيجي هو (إيمي ن إغرم)، الساحة الكبيرة التي تتوسط القصر، وتحتضن مختلف الأنشطة الاجتماعية، ساهمت في ضمان حد كبير من التناغم بين كافة أطراف القبيلة على مستوى الممارسات الطقوسية، خاصة التي لها علاقة بطقوس الماء والتي تترجم معاني الخصب والزيادة والنماء.

وقد ساهم السور في إكساب القصر هندسة ذات طابع منغلق وفي إذكاء سمة الانغلاق لدى قبائل أيت عطا، وهو ما ساهم في الحفاظ على معظم المظاهر الثقافية والممارسات الطقوسية والعرفية في القصر ومدها بقوة الاستمرارية.

تجلى هذا الطابع المغلق في تفاصيل بناء القصر، بدءا بالسور المحيط به والذي يتجاوز علوه في الغالب ثلاثة أمتار، وانتهاء بالباب الرئيس الذي يقف عليه حارس القبيلة (أدواب) والذي يفترض فيه أن يكون عارفا بكل ساكنة القصر وأقاربهم وضيوفهم كثيري التردد عليهم.

لم تصمد بنية القصر عمرانيا كما لم تصمد ثقافيا أمام التحولات السوسيو-ثقافية التي عرفها المغرب، فقد تضافرت عدة عوامل لتفقد القصر حضوره وتأثيره الفاعل على المستويين الشكلي والوظيفي.

وكان للهجرة الخارجية والداخلية ولانتعاش الأنشطة السياحية المرتبطة بالواحات، إضافة للمشاكل المناخية التي تعاني منها مناطق الجنوب الشرقي وما أفرزته من جفاف وتصحر، دور مباشر في التحولات السوسيو-ثقافية التي عرفها القصر.

فقد فك الواحيون ارتباطهم بالأرض وارتهانهم لنمط الحياة الزراعي، وانخرطوا في موجة الثقافة الاستهلاكية التي تبدت ملامحها على المستويين الثقافي والمورفولوجي،

خاصة مع الزحف الإسمنتي الذي طبع الواحة بلون رمادي قاتم غير ذي صلة بالمجال لا من الناحية الجمالية ولا من الناحية الوظيفية.

انفجر القصر عمرانيا خارج السور، ففقد سمة الوحدة والانغلاق التي أكسبته قوة الاستمرارية ردحا من الزمن، وتلاشت الأدوار الوظيفية التي كان يؤديها، كما اندثرت المنظومة العرفية التي كان يديرها، وهو ما جعل من القصر شيئا متجاوزا غير ذي صلة بمتغيرات الواقع المعيش.

ولذلك لم يكن انفجار "إغرم" /"القصر" عمرانيا خارج السور مجرد تشوه عمراني جمالي كما قد يبدو للملاحظ العابر، بل تعدى الأمر ذلك إلى تفكك مجموعة من الممارسات والطقوس والعلامات الثقافية وتلاشيها، بما فيها طقوس الماء وتجلياتها المعمارية.

5 - "إغرم" /"القصر" وإشكالية التدبير والصيانة

إن تقديرنا للادوار الهامة التي اضطلع بها "إغرم" /"القصر"على كافة المستويات، ووقوفنا عند التحولات السوسيو-مجالية التي طرأت عليه، وساهمت في تفكيك مجموعة من الممارسات والطقوس التي احتضنها، وتلاشي الكثير من العلامات الثقافية بمختلف تجلياتها بما فيها العمرانية، يجعلنا نلح في آخر هذا المقال على طرح سؤال التدبير والصيانة.



فندق "تابركات" واحة امحاميد الغزلان

لم تتعد أعمال الصيانة سابقا مجرد بعث المظاهر الشكلية الجمالية لـ "إغرم"/"القصر" بشكل فلكلوري مخل أو بقصد نفعي صرف، كما هو الحال بالنسبة لدور الضيافة أو لبعض البنايات السياحية التي تمتح من خصائصه الهندسية. وهو إجراء لم يعد لـ"إغرم" /"القصر"

مكانته وأدواره التاريخية. لذلك وجب التفكير في آليات جديدة تعيد الاعتبار لـ "إغرم"/"القصر" بوصفه مؤسسة سوسيو-ثقافية، من خلال إعادة تفعيل بعض الأدوار التي كان يضطلع بها والبحث عن أدوار متجددة ضمن دائرة المتغيرات، في إطار استراتيجية مدروسة تأخذ بعين الاعتبار بعض المحددات المنهجية في مقاربتها لموضوع "إغرم"/"القصر" باعتباره تراثا ماديا ولا ماديا في الآن ذاته.

أولى هذه المحددات أن الخاصية الأساس للتراث هي القابلية للتحول والاندماج والتكيف، وهي صمام الأمان الذي يضمن له الاستمرارية. وهي خاصية ذاتية وتلقائية.

ثانيها أن تسارع وتيرة التحولات السوسيو-مجالية تضعف فرص التكيف الذاتي للتراث ضمن دائرة المتغيرات. وهو ما يحتم علينا التفكير في سبل مدروسة لضمان تحول وتكيف شبه تلقائي.

خاتمة

نختم هذه الدراسة بمجموعة من الاستنتاجات المتعلقة بمنهجية مقاربة موضوع العمران في واحات الجنوب الشرقي المغربي، وببعض الإشارات التي من شأنها أن تؤسس لنظرة جديدة للعمران في علاقته بالمجال بكل خصوصياته وامتداداته القدسية، منها:

- أن "إغرم" /"القصر" في الجنوب الشرقي المغربي ليس مجرد شكل عمراني ذي خصائص هندسية مميزة، بل يتعدى ذلك إلى كونه خزانا هائلا لمختلف المظاهر السوسيو-ثقافية والأنثروبولوجية ومحرك قوي للفعل الاجتماعي تجاه المجال باعتباره امتدادا للمقدس.
- أن الإرث العمراني المتعلق بالماء من شأنه أن يلقي الضوء على جانب مهم من الممارسات الطقوسية التي جعلت من الماء معادلا للعالم القدسي، ويكشف عن آليات مادية ولامادية لاستغلال الماء وتدبيره في حالتي الوفرة والندرة.
- أن صيانة "إغرم" /"القصر" لا تختزل في مجرد بعث مظاهره المورفولوجية الجمالية بشكل فلكلوري مخل أو بقصد نفعي صرف كما هو الحال بالنسبة لبعض البنايات السياحية التي تمتح من الخصائص الهندسية للقصر.
- أن حماية "إغرم" /"القصر" لا تتم إلا من خلال إعادة تفعيل الأدوار التي كان يضطلع بها، وإكسابه قوة الحياة والاستمرارية، في إطار رؤية جديدة تضمن عودته الرائدة لتدبير المجال والثروة. وهو ما قد يساهم بشكل فعال في تجاوز الأزمة المائية التي تعاني منها واحات الجنوب الشرقي، بما فيها واحة امحاميد الغزلان.

البيبلوغرافيا

– تيليوا، مصطفى: "حوار الحضارات في سياق مقاربة أنثربولوجية وتاريخية لبعض المعتقدات والطقوس الامازيغية"، واحة تافيلالت، ع. 3.

– الحسين، سعلي: "ثقافة العين: من الأمازيغية إلى الحداثة، المجال الأمازيغي المقدس عقائديا وسيميولوجيا"، جريدة تيفراز، ع 4 ، يونيو 2003.

– الخطيب، عفراء علي: "رموز آلهة القمر والشمس، أحد مظاهر علاقات شمال إفريقيا بالصحراء الكبرى وجنوب شبه جزيرة العرب خلال العصور القديمة"، دراسات في آثار الوطن العربي، 2002.

– رشيد، الحاحي: "النار والأثر: بصدد الرمزي والمتخيل في الثقافة الأمازيغية"، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الدراسات والأبحاث رقم 12، مطبعة المعارف الجديدة –الرباط، 2006.

– رشيد، الحسين: "وشم الذاكرة: معالم أمازيغية في الثقافة الوطنية"، مطابع أمبريال، 2002.

******

* Camps, G : Animisme, Encyclopédie berbère.- edi. Edisud, 1991.
* Camps, Gabriel : Les Berbères : Mémoire et identité. Paris: Editions Errance, 1987.
* Camp, G : Bélier à sphéroide, Encyclopédie berbère. edi. Edisud, 1991.
* Germain, Gabriel : Le culte du bélier en Afrique du Nord, Hespéris, T. 35 (1948).
* Hammoudi, Abdellah : La Victime et ses masques : Essai sur le sacrifice et la mascarade au Maghreb. Paris : Seuil, 1988.
* Montagne, R : les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc, ed. Felix Alcan, Paris, 1930.
* Le Quellec, Jean-Loïc : Symbolisme et art rupestre au Sahara. Paris : L'Harmattan, 1993.

- Al-‘Utmani, M. Alwãh Gazula wa al-Tasri‘ al-Islãmi, thèse pour l’obtention du diplôme des études supérieures, Dar al-Hadit al-Hasaniya, Rabat, 1970.
- Al- ‘Utmani, F. Al-Alwãh al-Soussiya, mémoire de fin d’étude du 2ème cycle à la faculté d’al-Sari’a à Aït Melloul (province d’Agadir), 1993-1994.
- Celérier, J. "*L’anti Atlas Occidental*", R.G.M, 1939, pp.11-27.
- Ettahiri, A. *Les Madrasas Marinides de Fes* : Etude d l’Histoire et d’Archéologie monumentales, thèse de Doctorat Nouveau régime, sous la direction de Mm. Barrucand M, Université de Paris-Sorbonne, 1996.
- Hajji, M. *L’activité intellectuelle au Maroc à l’époque saadide,* publication Dar al-Magrib, Rabat, 1976.
- Jacques-Meunié, Dj. *Le Maroc Saharien des origines à 1679*, 2 tomes, librairie Klincksieck, 1982.
- Justinard, L. "*Notes sur l’histoire de Sous au XVIème S : Sidi Ahmad* ou *Musa, II. Carnet d’un lieutenant d’El-Mansour*", in 8° Archives Marocaine, XXIX, Champion, Paris, 1933.
- Montagne, R. *Les berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc*, édition. Afrique Orient, collection Archives, 1930.
- Rosenberger, B. "Tamdult, cité minière et caravanière présaharienne IXème -XIVème", *Hespéris-Tamuda*, 1970, pp. 103-139.
- Al-‘wina, A. "*Al-atlas*", Ma‘lamat al-Magrib, t.2, matabi' Sala, 1989, pp. 495-497.

6. Généralités.

- Golven, L "Architecture berbère", *Encyclopédie Berbère*, t. VI, 1989.
- Riser, J. "Anti Atlas", *E. B*, t. V, 1989, pp. 776-791.
- Pederson J. et G. Makdisi, "Madrasa”, *E. I*, t. V, 1986, pp. 1119-1144.
- B. Peyon, E."Citernes", *E. B*, t. XIII, 1994, pp. 2014-2027.

N.B : Pour la translittération on a adopté la norme internationale ISO 233-2, première édition, 1993.

- C. Joseph, Géographie générale du Maroc, Augustin Challamel éditeur, 1902.

5. Histoire, Archéologie et ethnologie.

- Afa, O."Qirã'a tãrihiya fī alwãḥ qabã'il Souss wa al-Atlas al-ṣagīr", Maḡallat ĀfĀq, n° 9, édition. Association des Auteurs Marocains, 1982.
- Afa, O."Diwãn qabã'il Souss fī 'ahd al-Sultīn Amḥad al-Manṣūr al-Dahbi", Magallat Dirãsãt, n°1, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Agadir, 1987.
- Al-Buqduri M., Tãriẖ qabã'il Hilãla bi Souss al-Mosamã Itḥãf ahl al-Badw wa al-Qurã bi sulãlat Zaynab al-Kubrã, Al-Naḡãḥ al-ḡadida, Casablanca, 2000.
- Al-Higazi, M. Al-Alwãḥ al-Soussiya, Mémoire de fin d'étude du 2ème cycle à la faculté de la Sari'a à Aït Melloul, Année universitaire 1983- 1984.
- Al-Manouni, M. "Imãrat Bani Yadder bi Souss", Maḡallat Dirãsãt, n°1, faculté des Lettres et Sciences Humaines-Agadir, 1987.
- Al-Muẖtãr al-Soussi, M. Al-Ma'sul, 20 tomes, maṯba'at al-Nagãḥ, Casablanca, 1961.
- Al-Muẖtãr al-Soussi, M. Min afwãhi al-Rigãl, 3 tomes, al-Maṯba'a al-Mahdiya, Tétouan, 1963.
- Al-Muẖtãr al-Soussi, M. lIlig qadīman wa ḥadiẖan, al-Maṯba'a al-Malakiya, Rabat, 1966.
- M. Al-Muẖtãr al-Soussi, Souss al- 'Ālima, mu'assasat Bensrat li al-ṭibã'a wa al-Nasr « Binmīd » , Casablanca, 2ème édition, 1984.
- Al-Muẖtãr al-Soussi, M. Tãriẖ rayẖãn min rawḍati al-Afnãn, maṭba'at al-Sãhil, Rabat, 1984.
- Al-Muẖtãr al-Soussi, M.Madãris Souss al- 'Atiqa, mu'assasat al-Taglif wa al-ṭibã'a wa al-Nasr wa al-Tawzi' li al-Samãl, Tétouan, 1987.
- Al-Muẖtãr al-Soussi, M. Al-Nūru al-Mabgi fī rasã'il wa as'ãri al-Sayh al-Illīgī, 1ère édition, 1989.
- Al-Muẖtãr al-Soussi, M. ẖilãla Gazula, 4 vol, al-Maṭba'a al-Mahdiya, Tétouan, S.D.
- Al-Mutawakkil al-Sãhili, Al-Ma'ãhid al-Islãmi bi Tarūdãnt wa al-Madãris al- 'Atiqa bi Souss, 4 tomes, Dãr al-Nasr al-Magribiya, Casablanca, 1990.

Bibliographie consultée.

1. Sources.

- Jean-Léon l'Africain, Description de l'Afrique, Nouvelle édition traduite de l'Italien par A. Epaulard, Paris, 1956.
- Luis Del Marmol, L'Afrique de Marmol, traduit de Nicoles Perrot, Sieur d'A court, Thomas Ldly, Paris, 1667.

2. Sources inédites concernant la confédération llãln.

- "Fiche d'Aït Abdallah", Archives du Service des Affaires Indigènes, 1953.
- "Fiche d'Aït Tufaout", Archives du Service des Affaires Indigènes, 1953.
- "Fiche d'Iduska ou Fella", Archives du Service des Affaires Indigènes, 1953.
- "Fiche de Touflazt", Archives du Service des Affaires Indigènes, 1953.
- "Etude sur le front du territoire d'Agadir et le Sahara occidental", Service des Affaires Indigènes, Château de Vincennes, octobre 1933.
- "Opérations dans l'Anti Atlas", Service des Affaires Indigènes, Région de Marrakech, Château de Vincennes, 1934.

3. Voyageurs du XIX^ème^ siècle.

- De Foucauld, Ch. Reconnaissance au Maroc (1883-1884), 2 vol, Challamel, Paris, 1888.
- De Segonzac, M. Au cœur de l'Atlas. Mission au Maroc (1899-1901), Larose, Paris, 1910.
- Jackson, J. G. An account of the Empire of Morocco and the districts of Suse and Tafilalt, London, 1968.

4. Géographie.

- Bencherifa, A. Une région de Sous en cours de transformation chtouka et Massa : Etude de géographie agraire, publication de faculté des Lettres et Sciences Humaines (Université Mohammed V), Thèse et mémoire-5, Imprimerie Fédala, Mohamadia, 1980.

Conclusion

Les interventions faites au niveau de la “restauration” de ces lieux soulèvent quelques problèmes. En effet, des travaux effectués jusqu’à maintenant nuisent à l’authenticité de ce patrimoine culturel car les matériaux employés (béton armé, tuiles…etc) n’ont aucune relation avec la spécificité architecturale, esthétique et historique de ces monuments (figure 9). Parfois, les cellules sont complètement détruites pour être reconstruites en ciment (madrasas de Ta‘llãt, de Sidi Mzãl).

Ces madrasas sont en voie de disparition. A ce propos, on cite la destruction de la madrasa de Tubkal et de Sidi Maḥfũḍ(Aït ‘li); l’abandon de celles de Tsḍmit et de Sidi ‘Abd al-Mãlk à Imi N-Tuzin; certaines hébergent un nombre très limité d’étudiants alors que seules celles de Sidi Ya‘qub (fraction Iẖãldn) et d’Aït ‘Abdallah accueillent encore un nombre important d’étudiants.

Liste des mots amazighs cités dans l’article

Aḥanũ, pluriel -iḥouna : chambre.

Lmdrst : institution tribale lieu d’apprentissage du coran et sciences.

Imḥḍãren, singulier amḥḍãr : l’élève apprenant dans les madrasas.

ṭṭãlb : l’enseignant dans la madrasa.

la‘sur : vient du mot arabe Al- A‘a‘sãr.

timzguid : oratoire.

Aherbĩs : pièce destinée à chauffer l’eau pour l’ablution.

Tasqqift : coin destiné dans l’oratoire des petits villages à l’apprentissage du coran.

Agadir : mur, grenier collectif.

Talmqṣũrt : salle de prière.



Figure 7 : madrasa de timzquid U Waman (Iduska Ufella)
Salle de prière d'été au niveau de la terrasse.

Figure 8 :Plafond en bois et en roseaux de la madrasa de Sidi Zekri





Figure 9 :Madrasa de Sidi S'id (iduska ufella) Extérieur de la salle de prière, Talmeqsurt d'été et minaret en ciment.

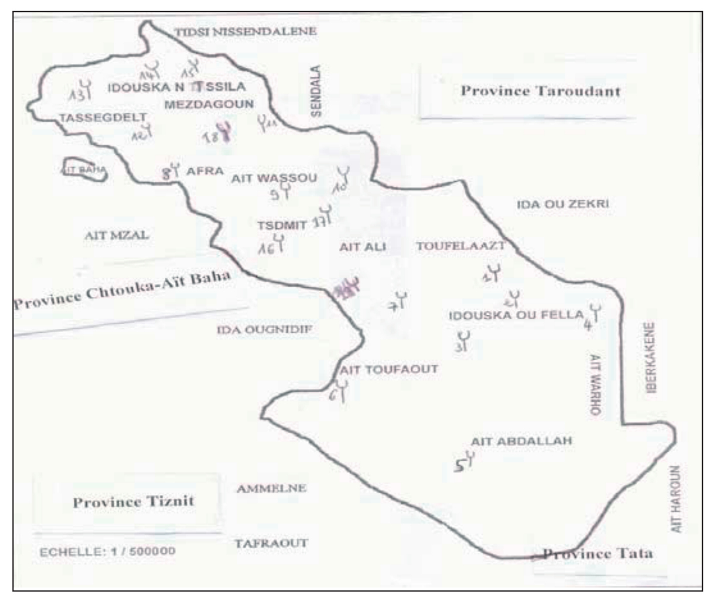


Figure 6 : Carte archéologique des madrasas de la confédération llãln

Légende

1. Madrasa de Sidi Zekri. Tribu Tufl'ezt.
2. Madrasa de Sidi 'Abdallah Ibn Iburk. Tribu Iduska Ufella.
3. Madrasa de Sidi 'Ali Ibn s' id. Tribu Iduska Ufella.
4. Madrasa de Timezgid U Wamăn. Tribu Iduska Ufella.
5. Madrasa de Sidi Lahsen u 'Abdallah. Tribu Aït 'Abdallah.
6. Madrasa de Sidi Mzal. Tribu Aït Tufăwt.
7. Madrasa de Tuzqūr. Tribu Tufăwt.
8. Madrasa de Sidi Būmhdi. Tribu Afra.
9. Madrasa de Tubkal. Tribu Aït Wassū.
10. Madrasa de Tizza. Tribu Aït Wassū.
11. Madrasa de Sidi Musa. Tribu Aït Wassū.
12. Madrasa de Sidi Bus' id. Tribu Tasgdelt.
13. Madrasa de Lalla Ta'llat. Tribu Iduska N Tsila.
14. Madrasa de Tagrramt Lalla Išа. Tribu Iduska N Tsila.
15. Madrasa d'Imi N-Talūt. Tribu Iduska N Tsila.
16. Madrasa de Tsḍmit. Tribu Tsḍmit.
17. Madrasa de Sidi 'Abd al-Mālk. Tribu Tsḍmit.

Figure 6 : carte archéologique des madrasas de la confédération llālr

(losanges) comme dans celles des madrasas de Tubkal, d'Asaka, d'Afra, etc (figure 8).

2. Datation

La majorité des madras̃as date du XIII[ème] siècle de l'hégire. Al-Buqduri rapporte que la multiplication de ces institutions est due aux disciples du cheik Ibn NaSer de Tamgrrut. Ayant adopté sa *ṭarĩqa* à la fin du XI[ème] siècle, ils se sont appliqués à apprendre le Coran, les sciences ainsi que sa *ṭarĩqa* entre le XII[ème] et le XIII[ème] siècle. L'auteur d'al-Ma'sul corrobore ces informations et rapporte que les deux zaouïas les plus réputées de l'oued Draa à l'oued Nũl Lamṭa sont la zaouïa al-NṢiriya et celle de Timgids̃t [11].

(11) - Al-Muhtãr al-Soussi M, Al-Ma'sul, 20 tomes, maïba'at al-Nagãp, Casablanca, 1961, Tome 6, p.170.

- Les cellules des étudiants sont aménagées généralement au rez-de-chaussée et rarement sur deux étages.
- Le nombre de loges varie d'une madrasa à l'autre, il peut aller de cinq à vingt chambres.
- Les madrasas d'Ilãln sont souvent des madrasas-mausolées. Elles abritent le tombeau d'un saint généralement inconnu des sources écrites.
- Leurs implantations sont toujours à l'écart des douars: elles ne sont jamais édifiées au centre d'une agglomération.
- Leurs oratoires possèdent deux mihrabs le premier dans la salle de prière alors que le deuxième est aménagé au niveau de la terrasse dans une deuxième salle de prière en plein air au niveau de la terrasse qui est dotée d'un mihrab et entourée d'un mur ne dépassant jamais 1,50 m de hauteur (figure 7).

1. Matériaux de construction et de décoration.

La pierre : par leur aspect extérieur les madrasas ne diffèrent guère des maisons. La pierre est le matériau le plus utilisé dans la construction de ces édifices. Elle l'est sous forme de moellons qui sont parfois dégrossis et régularisés; l'ensemble est lié par un mortier en terre. Même les colonnes, les piliers et les arcs de la salle d'ablution sont en pierre.

L'utilisation de la pierre sèche se limite au mur d'enclos. Elle est présente dans la majorité des oratoires, et qui est parfois doublé par une haie épineuse ou en figuiers de Barbarie. Un enduit en chaux recouvre généralement l'intérieur des salles de prière.

Le bois : ce matériau est présent dans les portes et les toitures qui sont toujours plates. Des troncs d'arbres ou madriers sont disposés horizontalement. Perpendiculairement à ces poutres, on dispose des branches minces, jointifs. Par-dessus, on entasse parfois quelques branchages et une couche de terre argileuse ainsi que du gravier.

Dans certains cas, les toitures de la salle de prière et celle des galeries de la salle d'ablutions sont bien soignées et offrent des décors géométriques



Figure 5 : Oratoire de Tubkal

III. Etude comparatives des madrasas du sud marocain

Au contraire des madrasas urbaines construites par les souverains, celles du sud marocain sont l'œuvre d'une population qui décident sa construction et assurent son entretien et son approvisionnement. Nous comptons dans le territoire Ilãln douze madrasas coraniques et sept scientifiques (figure 6).

Une étude comparative de ces monuments a permis de tirer les premières conclusions suivantes :

- Il existe une grande similitude entre ces monuments à vocation religieuse :
- Du point de vue architectural, ces monuments ont presque, toujours les mêmes composantes à savoir : un oratoire et ses annexes, des loges des étudiants aménagées autour d'une cour et une salle des hôtes.
- A l'encontre des madrasas urbaines caractérisées par la régularité de leurs plans et la richesse de leurs décors, les madrasas des Ilãln ne s'écartent pas de l'architecture fruste mais efficace qui caractérise les greniers collectifs et l'architecture domestique.
- Les mausolées associés à ces édifices sont d'une grande simplicité à l'exception faite de celui de Sidi Ya'qub qui aurait d'ailleurs été construit par le sultan alaouite Moulay Ismaïl.

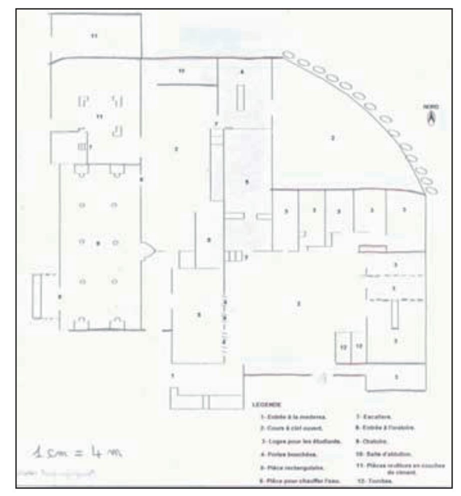


Figure 2 : Plan de la madarsa de Tubkal



Figure 3 : Madarsa de Tubkal. Vue de haut

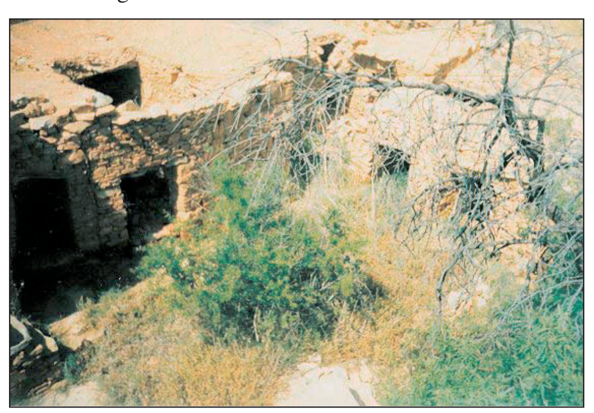


Figure 4 : Loges des étudiants. Madarsa de Tubkal

colonnes qui supportent de grands arcs brisés. La distance entre les piliers circulaires est de 2.20 m (figure 5).

Le mur de la qibla est muni d'un mihrab dont l'arc est brisé. Ce mur abrite des niches et des meurtrières sous forme de minuscules arcs en plein cintre. La salle de prière a deux portes: l'une donne sur l'extérieur et l'autre sur une cour qui la lie aux loges; elle est recouverte d'un enduit en chaux. Ce lieu est limité au Nord par deux salles rectangulaires: la première (7.60 m x 6 m) est dotée de quatre arcs reposant sur des piliers; la seconde est adossée à celle-ci. Selon les informations recueillie sur place, ces structures datent de l'époque coloniale, la première était à cette époque une école.

Au-dessus de l'oratoire se trouve une autre aire de prière en plein air, au niveau de la terrasse. Elle est entourée d'un mur ne dépassant pas un mètre de hauteur et son mur de qibla possède un mihrab semblable à celui d'en bas mais moins haut.

C. Matériaux de construction et de décoration

Les matériaux de constructions et de décoration utilisés dans la réalisation de cet édifice sont : la pierre, le bois, le roseau, le ciment. Les motifs de décoration prédominants sont les arcs, en particulier dans la salle de prière ornée d'arcs brisés

La pierre est le matériau le plus utilisé, aussi bien dans la construction des murs des loges, de la cuisine que dans celle de la salle de prière.

Le bois est employé surtout dans la construction des plafonds et des portes. En effet, les plafonds des loges sont recouverts de terre alors que celui de la salle de prières est en solives et voliges dessinant des formes géométriques en losanges. L'ensemble est peint en couleurs rouge et noire.

Le roseau est plus rarement utilisé. On l'atteste seulement dans le plafond de l'oratoire où il est posé sur les solives et les voliges.

La salle de prière, celle d'ablutions ainsi que les deux salles situées au Nord, sont toutes consolidées en ciment. Matériaux qui nuisent beaucoup à l'authenticité de l'architecture locale.

Al-Buqduri rapporte qu'elle a été construite au IX siècle de l'hégire par les Aït Wassu lors de leurs installations dans la colline dite du grenier de Tubkal et l'ont pris comme leurs oratoire. Trois siècles plus tard, les habitants l'ont entretenu et l'ont pris comme étant leurs madrasas(10).

B. Etude architecturale

La madrasa de Tubkal se compose d'une salle de prière, loges pour les étudiants et d'autres annexes.

L'entrée à la madrasa se fait par une porte donnant sur un vestibule de 5 m x 2.40 m, qui est doté du côté droit de banquette en pierres. Ce vestibule débouche sur une cour rectangulaire à ciel ouvert mesurant 10 m x 9 m. Autour de cet espace ouvert, sont construites plusieurs chambres pour les étudiants (figure 4). En effet, elles sont au nombre de quatre à l'est et cinq au Nord. Cette partie renferme aussi une salle rectangulaire à destination inconnue de 8.80 m de long et de 3.40 m de large. A l'Ouest de la cour, on atteste les traces de portes bouchées ce qui implique que ce côté était également occupé par des loges pour héberger les étudiants, transformées en une seule salle à destination inconnue.

La mesure moyenne des loges est de 4 m de long ; 1.60 m de large et de 1.50 m de hauteur. Pour assurer l'aération et l'éclairage, une petite fenêtre est percée dans le mur opposé à celui de la porte. Une pièce de ṭṭ*ãlb* est aménagée au-dessus de la porte d'entrée.

L'angle sud-ouest de la cour est occupé par deux tombes non identifiées.

Parmi les annexes de la madrasa, on compte une cuisine de 5 m x 4 m; elle est dotée de trois portes dont l'une donne sur l'enclos; la deuxième sur l'oratoire et la troisième est bouchée. Son angle nord-est est protégé par un mur et une haie épineuse.

L'oratoire talmq Sũrt est constitué d'une salle mesurant 12 m de long, 5.60 m de large et 4 m de hauteur. Elle est divisée en trois nefs séparées par des

(10) - Al-Buqduri Mohamed, Tãrih qabã'il Hilãla bi Souss al-Mosamã Itḥãf ahl al-Badw wa al-Qurã bi sulãlat Zaynab al-Kubrã, Al-Nagãḥ al-gadida, Casablanca, 2000.

sud marocain afin d'apprendre les principes de la religion de l'Islam ainsi que les sciences.

Dans la région de Souss, l'apprentissage du Coran se fait à l'intérieur des oratoires soit dans un lieu précis *aḥerbiš̃* si le village est grand, soit dans un coin appelé *tasqqift* si le village est petit(8).

Pour aider les étudiants à se consacrer à l'apprentissage et à approfondir leurs connaissances en matière de religion, on songea ultérieurement aux madrasas.

Al-Muḫtãr Al-Soussi, al-Mutawakkil Al-Sãḥili, distinguent dans le Souss deux types de madrasas remplissant deux rôles différents mais complémentaires: la madrasa coranique et la madrasa ''scientifique''(9). La première est destinée surtout à l'apprentissage du Coran, ses différentes lectures, initiations aux ''sciences coraniques'' et à la langue arabe afin de préparer l'étudiant à un niveau supérieur ''*madrasa* scientifique''.

L'enseignement dans les madrasas ''scientifiques'' embrasse les disciplines aussi diverses que la théologie, la grammaire, *le fiqh,* le ḥ*adiṯ*, les mathématiques, etc.

Dans le territoire Ilãln presque chaque fraction possède une madrasa. Outre les rôles de prière et d'enseignement, elles offrent aux étudiants un gîte en mettant à leur disposition des cellules pour le logement.

II. Madrasa de tubkal : Etude monographique

A. Aperçu historique

La madrasa de Tubkal est situé à 10 m à l'Est d'agadir Tubkal appartenant à la tribu Aït Wassù, confédération Ilãln (figure 2 et 3). Cette institution est actuellement abandonnée depuis 1986. Elle est en mauvais état de conservation: les loges sont endommagées et leurs plafonds sont effondrés.

(8) - Al-Muḫt.r al-Soussi M, Madãris Souss al- Atiqa, mu'assasat al-Taglif wa al-ṭibã'a wa al-Nasr wã al-Tawzĩ' li al-.am.l, TeÅLtouan, 1987, pp. 11-12.

(9) - Ces auteurs la désignent par l'expression : madrasa 'ilmiya, mot arabe peut littéralement traduire par madrasa scientifique. (Al-Mukhtar al-Soussi M, Madaris Souss al-'atiqa, 1987, p. 37).

disciple ‘*Abdallah Ibn Yãsĩn* (m. 451 H/ 1059 A. J. C), fondateur de la dynastie almoravide(7) . L’institution a connu une grande expansion surtout au XIIème et XIIIème siècle cela est dû, Selon Al-Muḥtãr Al-Soussi, à la propagation de la *ṭarĩqa al-Nãsiriya*.

L'édification de la madrasa dans le sud marocain est soumise à une décision de la part de tous les villages de la tribu. Elle est construite par la communauté rurale. Son entretien, les besoins des imḥḍ arn et la rétribution du ṭṭ*ãlb* sont à la charge de toute la tribu qui cède à la madrasa le 1/3 de la‘sũr plus les dons. Parfois, les familles préparent à tour de rôle les repas des étudiants et du ṭṭ*ãlb*.

L'enseignant ṭṭ*ãlb* est en même temps l'*imam* de *timzguid*. Il n'occupe aucune autre fonction. Il est payé en nature par les membres du douar. En outre, il loge gratuitement dans l'oratoire.

Les étudiants ont droit à deux jours de congés par semaine, le jeudi et le vendredi et aux congés correspondant aux trois fêtes religieuses de: ‘ ĩd al-Fiṭr, ‘ ĩd al-‘Aḍḥa, et ‘ ĩd al-Mawlid.

Les étudiants entreprennent un voyage annuel dit nuzhat imaḥḍ arn en faisant le tour de leur clan en passant d'un douar à un autre. L'arrivée aux douars est marquée par la lecture du Coran suivie de recréations. Les étudiants sont pris en charge par les habitants des douars par où ils passent. Cette coutume n’est spécifique au sud marocain mais elle connue dans les autres campagnes du Maroc.

B. Fonctions

La mosquée a depuis toujours constitué le lieu privilégié pour des études religieuses et particulièrement en milieu rural. Les étudiants s'y réunissent en cercle pour suivre les cours dispensés par des *faqĩh-s* et des lettrés, nommés par le qãḍi dans la ville et choisis par gma‘a du douar ou de la tribu dans le

(7) - Hajji M, L’activité intellectuelle au Maroc à l’époque saadide, publication Dar al-Magrib, Rabat, 1976, p. 629.

Le XIIIème et le XIVème siècle correspondent à l'âge d'or de ce genre de monument au Maroc. Cette époque a connu la construction de plusieurs madrasas dans les centres urbains de Taza, Fès, Meknès, Tanger et Salé en conservent les plus beaux témoignages.

Le sultan mérinide Abu al-Hasan édifia dans chaque ville du Maghreb extrême et central, une madrasa ‘’L’attachement des Marinides à la multiplication des institutions estudiantines fut dicté par leur désir de s’imposer dans un milieu religieux et social le plus souvent peu accueillant; …ainsi la politique religieuse officielle fut‘’réaliste’’ et délibérément suivie. Elle leur aspirait à leur conférer la légitimité qui leur faisait défaut, ou du moins un prestige religieux’’(5) .

La vie intellectuelle atteignit son apogée, à l’époque saâdienne, en particulier durant le règne d'al-Manṣùr, ‘’… et particulièrement en ce qui concerne l'accroissement du nombre des instituts de sciences *–má ahid al-'ilm-* et l'apprentissage, l'expansion des centres culturelles- *al-Marãkizs al-taqãfiya-* dans les villes et les campagnes, la multiplication du nombre de savants et d'étudiants et la diversification de leurs spécialités"(6) . Comme le rapporte Ibn al-Qãḍi.

L'époque alaouite a connu la construction de la *madrasa* al-S̃arrãṭin et la restauration des madrasas de l'époque mérinides.

2. Au sud marocain

Dans le Souss, les madrasas privées sont très rares et les seuls exemples que nous connaissons, sont celles de Tameggelgt et d'Illĩġ. Or, toutes les deux étaient soutenues par leurs tribus. Les écrits connus jusqu’ici rapportent que la madrasa la plus ancienne dans cette région est celle d'Aglù appelé aussi ribãṭ située dans les environs de la ville de Tiznit. Ce lieu s'est distingué dès le début du Vème de l’hégire / XIème siècle A. J. C par une activité culturelle intense avec le cheik waggãg Ibn Zallù (m. après 429 H/1038 A. J. C) et son

(5) - Ettahiri. A, Les Madrasas Marinides de Fès, op.cit, , p. 16.
(6) - Ettahiri. A, Les Madrasas Marinides de Fes, op.cit, , p. 43.

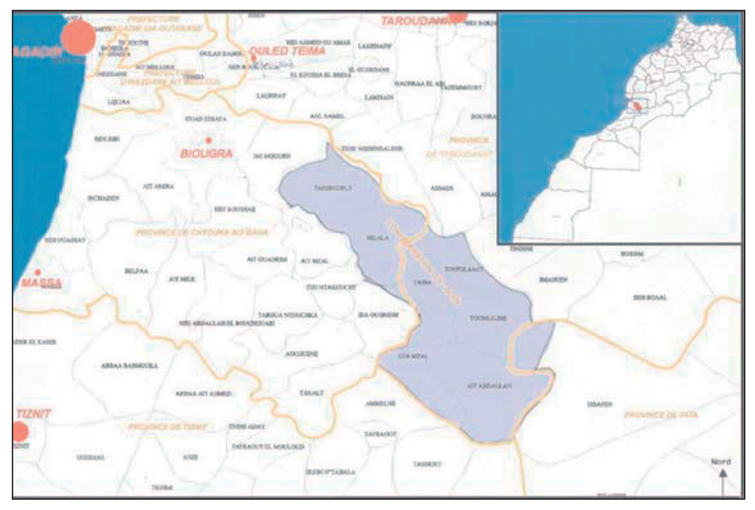


Figure 1: découpage administratif de la confédération Ilàln

I. LES MADRASAS du sud marocain: aperçu historique et fonctions

a. Contexte historique

1. Au Maroc

La naissance de la madrasa en tant qu'institution religieuse et éducative au Maroc islamique est l'objet de divergences entre les historiens. Les uns pensent qu'elle est apparue avec les Almoravides et les Almohades; d'autres voient qu'elle a vu le jour avec les Mérinides. Al-Tazi ainsi que Benjelloun-Laroui, sans préciser les sources de leurs informations, rapportent que Yùsuf Ibn Tãsafin a édifié en 462 H/1092 la madrasa al-Sabirin à Fès(3).

Ibn Abi Zar' (VIIIème / XIVème siècle) affirme que les Almohades ont érigé des madrasas au Maroc, en Ifriqiya et dans toutes les provinces conquises.

L'historien Abu Al-Hasan (731- 752 H / 1331- 1351) et Ibn Marzuq (781 H/1380) affirment que les madrasas étaient chose inconnues au Maghreb, jusqu'au règne du souverain mérinide Abu Yùsuf Ya'qùb qui a construit celle d'Al-Hasfaiyin dans la ville de Fès(4).

(3) - Ettahiri. A, Les Madrasas Marinides de Fes : Etude d l'Histoire et d'Archéologie monumentales,thèse de Doctorat Nouveau régime, sous la direction de Mm. Barrucand M, Université de Paris-Sorbonne, 1996, p. 16.

(4) - Ettahiri. A, Les Madrasas Marinides de Fès, op.cit, p. 17.

La madrasa de Tubkal (Sud marocain)

Naïma KEDDANE
Chercheuse en archéologie et en patrimoine

Introduction

Le travail de terrain[1], que nous avons mené, dans le sud marocain et au territoire de la confédération Ilãln en particulier a permis de détecter la richesse de cette zone en madrasas appelées localement *lmdrst*.

Nous présentons dans cet article un aperçu historique sur l'émergence des madrasas dans le sud marocain ainsi que leurs fonctions; ensuite nous découvrons les madras d'Ilaln à travers une étude monographique d'un exemple type: madrasa de Tubkal et enfin une étude comparative des madrasas de la confédération Ilãln[2] (figure 1) tout en mettant la lumière sur leurs caractéristiques architecturales, sur leurs modes de construction et de décoration et sur leurs datations.

(1) - Ces données font partie de l'ensemble des documents réunis dans le cadre du Diplôme des études supérieures soutenu en 2002 à l'Institut National des Sciences d'Archéologie et du Patrimoine et ayant pour thème « Approche historique et prospection archéologique dans une confédération du Souss : Ilãln » .

(2) - Désigne une confédération de l'Anti Atlas qui se compose de douze tribus : Aït Wassu, Aït Tasguedelt, Aït Tufl'ezt, Aït Warhu, Aït Afra, Aït Tsḍmit, Aït Mezdaggun, Aït 'li, Iduska u Fella, Iduska n Tssila, Aït Tufãwt et Aït 'Abdallah.

ROUX (Arsène), *La vie berbère par les textes,* Paris, Larose, 1955.

Secrétariat Général du Protectorat, *Répertoire des tribus,* Casablanca, Imprimeries Réunies, 1939.

SEGONZAC (René de), *Voyages au Maroc* (1899-1901), Paris, Armand Colin, 1903.

SEGONZAC (René de), *Au cœur de l'Atlas. Mission au Maroc* (1904-1905), Paris, 1910.

SEGONZAC (René de), « Le Sud marocain », *Afrique Française*, mai-juin 1917.

SCHROETER (Daniel J.), *Merchants of Essaouira : urban society and imperialism in southwestern Morocco* (1844-1886), Cambridge, University press, 1988.

SOUSSI (El Mokhtar), *El Maassoul*, volume 20, Casablanca, Najah, 1961.

TEDJINI (A.B.), *Dictionnaire français-marocain*, Paris, Société d'éditions Géographiques, Maritimes et Coloniales, 1939.

YAMANI (Yahya) et KANDOUZ (Mohamed), *Etude générale relative au plan d'aménagement de la ville de Tiznit*, Municipalité de Tiznit, 2005.

LE CHATELIER (Alfred), *Tribus du Sud-Ouest marocain : bassins côtiers entre Sous et Dra,* Paris, Leroux, 1891.

MITATRE (Claire-Cécile), « Régularités saisonnières, ordre calendaire et herméneutique des aléas climatiques chez les berbérophones de l'Anti-Atlas (Sud marocain) », *Cahiers de recherche du Centre Jacques Berque*, 4, 2004.

MONTAGNE (Robert), « Une tribu berbère du Sud marocain : Massat », *Hespéris*, 1924.

MONTAGNE (Robert), *Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc,* Paris, F.Alcan, 1930.

MONTEIL (Vincent), «Les Juifs d'Ifran (Anti-Atlas marocain)», *Hespéris,* 35, 1948.

MONTEIL (Vincent), *Notes sur Ifni et les Aït Ba Amran*, Paris, Larose, 1948.

NAJI (Salima), « Restaurer au Maroc, restaurer à Tiznit. Des remparts de la ville au projet de son Musée dans la Kasbah d'Akhennaj», communication au colloque : *Imaachar*, Université d'hiver de Tiznit, janvier-février 2009.

OUBAHA (El Hassan), *Eléments du patrimoine architectural de Tiznit* : *sauvegarde grâce au tourisme*, sous la direction de DERKAOUI (Chadia), Université d'Agadir, 2004.

PANET (Léopold), *Première exploration du Sahara occidental : relation d'un voyage du Sénégal au Maroc* (6 janvier-25 mai 1850), Paris, Le livre africain, 1968

PASCON (Paul), *La Maison d'Iligh et l'histoire sociale du Tazerwalt*, Rabat, SMER, 1984.

PASCON (Paul) et ENNAJI (Mohamed), *Le Makhzen et le Sous el Aqsa. La correspondance politique de la Maison d'Iligh* (1821-1894), Paris, CNRS, 1988.

PORTE DES VAUX (A. de la), « Notes sur le peuplement juif du Sous », *Bulletin Economique et Social du Maroc*, 54, 1952.

REBOUL (André), « L'Azaghar de Tiznit », *La Géographie*, 32, 1918.

ROUX (Arsène), « Quelques documents manuscrits sur les campagnes de Moulay el Hassan », *Hespéris*, (22), 1936.

ERCKMANN (Jules), *Le Maroc moderne*, Paris, Challamel, 1885.

FLAMAND (Pierre), *«Quelques renseignements statistiques sur la population israélite du sud marocain»*, Hespéris, 1950.

FOUCAULD (Charles de), *Reconnaissance au Maroc* (1883-1884), Paris, Challamel, 1888.

GADIOU (Vétérinaire-Major), « *La situation économique du Sous »,* Revue de géographie marocaine, 1927.

GATELL (Joachim), « *L'ouad Noun et le Tekna* », Bulletin de la Société de Géographie, octobre 1869.

GATELL (Joachim), « *Description du Sous* », Bulletin de la Société de Géographie, mars-avril 1871.

GERENTON (E.), « *Les expéditions de Moulay El Hassan dans le Sous»,* Afrique Française, septembre *1924*.

GUIBERT (Jacques), *L'histoire d'une ville : Tiznit*, EHESS, Mémoire sous la direction de TILLION (Germaine), *1979*.

JORDAN (Antoine), *Dictionnaire Berbère-français*, Rabat, Omnia, 1934.

JUSTINARD (Léopold), « Poèmes chleuhs recueillis au Sous », *Revue du Monde Musulman*, 1925.

JUSTINARD (Léopold), «*Notre action dans le Sous* », Afrique Française, décembre 1926.

JUSTINARD (Léopold), « *Notes d'histoire et de littérature berbères. Les Haha et les gens du Sous* », Hespéris, 8, 1928.

JUSTINARD (Léopold), *Les Aït Ba Amran*, Paris, Champion, 1930.

JUSTINARD (Léopold), « *Notes sur l'histoire du Sous au 16ème siècle»,* Archives marocaines, (29), 1933.

JUSTINARD (Léopold), *Un grand chef berbère. Le caïd Goundafi,* Casablanca, Atlantides, 1951.

JUSTINARD (Léopold), *Un petit royaume berbère, le Tazeroualt. Un saint berbère, Sidi Ahmed ou Moussa,* Paris, Maisonneuve, 1954.

Notice bibliographique

Nous tenons avant tout à remercier particulièrement toutes les personnes qui nous ont accordé un peu de leur temps pour répondre à nos nombreuses questions et interrogations.

Pour la cité de Tiznit : Hamid A., Tayeb A., Da Salh, Si Hassan des Ida Oukfa, Si Hmed, Si Hassan des Id Delha, El Housseyn A., El Housseyn I.I. et Brahim I.S.H.

Pour les villages d'Atebban : Afqir Lahsen et ses amis, de Doutergoua : Saïd et d'El Aouina : Abdoullah I.A., Da Blal et El Housseyn B.

Bibliographie classique

AFATACH (Brahim), *Approche archéologique de l'architecture domestique de Tiznit (Sud-Ouest marocain)*, sous la direction de DEVISSE (Jean), Université Paris, I, 1992.

BASSET (René), *Relation de Sidi Brahim de Massat,* Paris, Leroux, 1882.

CHEBEL (Malek), *Dictionnaire des symboles musulmans. Rites, mystique et civilisation*, Paris, Albin Michel, 2000.

CHEVALIER (Jean) et GHEERBRANT (Alain), *Dictionnaire des symboles. Mythes, rêves, coutumes, gestes, formes, figures, couleurs, nombres,* Paris, Robert Lafont, 1979.

DOMENECH LAFUENTE (Angel), *Cuentos de Ifni*, Tetuan, Editora Marroqui, 1952.

DUGARD (Henry), *La colonne du Sous*, Paris, Perrin, 1918.

EL IGOURARI (Mohamed), *Rawda el Afnan*, édité et annoté par ANOUCHE (Hamdi), Université d'Agadir, 1998.

Empire chérifien-Protectorat de la République Française au Maroc, « Dahir du 4 juillet 1934 », *Bulletin Officiel*, 1031, 29 juillet 1932.

Empire chérifien-Protectorat de la République Française au Maroc, «Arrêté viziriel du 29 juin 1954 », *Bulletin officiel*, 2178, 23 juillet 1954.

Conclusion

Cette étude nous a permis de découvrir que derrière chaque pan de mur on trouve des bribes de l'histoire régionale, des légendes et des croyances qui périclitent. Ainsi, en sauvegardant le patrimoine matériel, c'est le patrimoine immatériel que l'on préserve.

Valoriser les témoins du passé d'une société permet de réconcilier celle-ci avec son passé et avec l'héritage de ses ancêtres; ce qui est particulièrement important pour les sociétés du Sud-Ouest marocain où, trop souvent, ce passé est vu d'un œil condescendant et où tout ce qui est « local» prend l'image d'une chose négative ou insignifiante. Avec cette nouvelle approche, nous espérons que les générations futures puissent, à partir de bases saines, en revalorisant leur héritage culturel, aller de l'avant. n'est ce pas là une noble tâche ?

A Tiznit, nous nous trouvons actuellement à un tournant décisif. Ces dernières années, la société civile se soucie de plus en plus de la préservation du patrimoine bâti. Ceci est le résultat de plusieurs facteurs aussi divers que variés. L'un d'eux est, par exemple, la production de plusieurs émissions de télévision sur les forteresses oubliées des montagnes de l'Anti-Atlas : *les igoudar.*

On pourrait nous faire remarquer que cette prise de conscience vient un peu tard car de nombreux et précieux édifices, témoins de l'art architectural local, ont disparu tel les regrettés *qsebat* de Tiznit. Cependant, les projets de sauvegarde qui ont lieu actuellement dans la cité de Tiznit redonne de l'espoir.

La restauration et l'aménagement de la *tigemmi Ughennaj* est un symbole fort qui va dans ce sens, symbole d'autant plus fort qu'il permettra de transformer un lieu de « châtiment » (l'ancienne prison civile) en un lieu de culture ouvert à tous (musée patrimonial).

Malgré tout, il faut souligner que le vaste projet de revalorisation du patrimoine bâti de Tiznit est porté par une petite poignée de personnes et seules les années qui viennent pourront nous dire si la volonté politique, indispensable pour une telle action et qui existe aujourd'hui, n'est que conjoncturelle ou si elle s'inscrit dans la longue durée.

On pourrait aussi utiliser un terme amazigh pour nommer les monumentales portes de la ville comme cela se faisait autrefois dans les petites cités du Sous. On trouve des traces de ce terme oublié dans les petits villages fortifiés qui orbitent autour de Tiznit. Ainsi à Dcheïra El Maader qui disposait autrefois d'un rempart percé de trois portes dites « Bab Imi n Sour», « Bab Imi Iffous » et « Bab Imi Iberhichen ». A Atebban, lors de notre travail sur le terrain, quelques sages du village nous énumérèrent les noms des principales portes de l'ancien rempart qui les protégeait autrefois. L'une d'entre-elle, Bab n Aït Salh, est encore dite *timimit n Ayt Sal*ḥ (la petite porte des Aït Salh)(165) . De nos jours encore, dans certains villages fortifiés de la vallée du Dra, pour désigner l'emplacement de la porte des anciens murs qui entouraient le village, on utilise l'expression *imi ugadir*(166) .

Dans le recueil des noms des anciennes portes de ces petits villages rattachés administrativement à Tiznit pendant un temps nous avons remarqué que les noms utilisés pour les désigner faisaient très souvent référence à des lignages du village même. Quand l'appellation se « tourne » vers l'extérieur c'est pour désigner une direction, un point cardinal comme « Bab Imi Iffous» (la porte du Sud) pour Dcheïra El Maader ou «Bab n Tagout» (la porte de l'Ouest) et « Bab El Qbelt » (la porte de l'Est) pour El Aouina. Mais jamais on ne trouvera un nom se rapportant à un village ou à une tribu extérieure comme à Tiznit.

Peut-être faut-il rattacher à cette ancienne façon de faire l'énigmatique «Bab Chetoin» relevé à Tiznit, en 1899, par Segonzac(167) .

(165) - Témoignage d'Afqir Lahsen, Atebban le 29 octobre 2009.
(166) - Communication orale de Mbark A.A., Rabat le 25 décembre 2009.
(167) - SEGONZAC (René de), *Voyages au Maroc (1899-1901), op.cit*., carte hors texte.

De même pour ce qui est du terme d'*el qset,* particularité tiznitienne s'il en est, qui est lui aussi littéralement « boycotté » au profit de qesba (arabe) et « kasbah » (français).

Sans parler des déformations et des erreurs qui peuvent se glisser dans ces transcriptions hasardeuses et mutiler définitivement le nom d'une rue ou d'un quartier. Ainsi d'el qset n tagut qui devient qesba takut (arabe) et «kasbah takout» (français), ou encore *el qset ubluḥ* qui devient *qesba abluḥ* (arabe) et «kasbah ablouh» (français).

Et pourtant le terme d'*asuk* ou son diminutif *tasukt* est très largement répandu dans tous le Sous, aussi bien chez les tachelhitophones que chez les darijophones. Ainsi, aujourd'hui encore, un habitant de Taroudant, qui s'exprime en darija pour indiquer le chemin, utilisera l'expression *tasukt* au lieu de *zenqa*(163)… et toujours aucune plaque pour indiquer ce terme si courant dans le monde urbain du Sous.

On devrait, dans le cadre de la revalorisation de la culture amazigh, remettre en avant ces anciennes appellations. De même pour *asrir*, terme qui désigne à Tiznit la place des fêtes d'un quartier et où l'on réunissait les troupeaux avant de les emmener au pâturage. Dans la région d'Agadir on utilise un autre terme pour désigner la place du village : *asays*. Mais aujourd'hui, ni à Tiznit ni à Agadir on n'utilise l'un de ces deux vocables.

A Taroudant où la principale place était dite *asarag awraɣ* (la place jaune) il y a quelques années encore, on a brutalement débaptisé la place du jour au lendemain, sans préavis ni explication aucune !

A Tiznit, pour ce qui est des impasses, on utilise habituellement le terme de *tasukt*, que l'on peut aussi traduire par le terme de «ruelle»(164), cependant que d'autres utilisent le terme d'aɣumi (forme particulière à Tiznit du mot *aɣgumi* qui désigne habituellement en tachelhit un vestibule ou un couloir dans la maison).

(163) - Communication orale d'El Khatir A., Rabat le 30 décembre 2009.

(164) - AFATACH (Brahim), « Architecture domestique de Tiznit, ville marocaine du 19ème siècle », Archéologie islamique, 6, 1996, p. 167.

Espérons que la création d'un musée au cœur de la cité de Tiznit permettra de faire prendre conscience à tous de la valeur du patrimoine, en tout cas les Aït Tznit sont déjà conquis et ont adopté à leur compte le projet. Un vieux sage de la cité était heureux de nous confier qu'il venait d'apprendre que la bâtisse, qu'il nommait depuis toujours *tigemmi el mexzen*, s'appelle en réalité *tigemmi Uɣennaj* ! (162)

Toponymie urbaine du Sous et de Tiznit

Cependant, un aspect du patrimoine bâti est très peu approché pour ne pas dire ignoré par la plupart des chercheurs dans ce domaine. Il s'agit de ce que nous dénommerions la « toponymie urbaine », la nomenclature des termes utilisés pour désigner l'espace urbain : rue, place, porte, etc.

Une des premières choses qui nous a frappé à ce sujet, c'est la véritable confusion qui règne dans la forme et l'écriture des plaques signalétiques des rues. Passons le fait que deux, voire trois systèmes d'écriture peuvent parfois s'y côtoyer (latine, arabe et amazigh). Le fait, quasiment systématique, est le délaissement du toponyme en usage au profit d'une autre forme utilisée seulement par les étrangers (latine) ou à l'écrit (arabe).

L'exemple le plus parlant est celui de l'*asuk imziln* (la rue des forgerons). Pour cette seule rue, on trouve deux plaques différentes. Sur la première s'y côtoient l'appellation arabe (*zenqa imziln*) et l'appellation française (rue imzilne). Sur la seconde, on trouve la même appellation transcrite sous la forme arabe (*zenqa el ḥeddadin*) et française (rue el haddadine). Quatre désignations différentes pour une seule rue c'est beaucoup, surtout lorsqu'aucune d'entre-elles ne se donne la peine de simplement reprendre la forme utilisée par les habitants de la cité : *asuk imziln*.

Le terme d'« assouk » est littéralement banni de la forme écrite au profit de zenqa (arabe) et « rue » (français) et même la forme amazigh utilise un terme arabe amazighisé : *azniq* !

(162) - Témoignage d'El Housseyn I.I., Tiznit le 26 octobre 2009.

Naji, « les dispositions architecturales de son aîné ». Ici, il s'agit d'un vaste projet de revêtement paysagé du site, de la mise en place d'une signalétique adaptée qui expliquerait l'histoire de la place et enfin, couronnement du projet, le transfert du siège de l'Hôtel de Ville dans les bâtiments de l'ancienne administration coloniale.

Le troisième point contient le cœur du projet de réhabilitation de Tiznit. Il regroupe la «trinité» fondatrice de la Tiznit hassanienne : *el ɛin aqdim, tigemmi el mexzen et timzgid mqqurn*.

C'est en fait une œuvre de longue haleine car c'est tout un programme de réaménagement urbain du quartier de la source qui tourne autour de la réhabilitation première de la forteresse d'Aghennaj. Cette dernière devra à terme contenir un musée, un théâtre de plein air et un jardin. Pour l'auteure du projet, « le musée doit permettre de répondre à la demande de la société civile (association mais aussi simples particuliers) de vulgarisation des savoirs universitaires afin que chacun puisse s'approprier la riche histoire locale »[(160)].

Tandis qu'autour sera entamée toute une mise à niveau paysagère de la source, l'embellissement des façades du quartier sera aussi indispensable ainsi qu'une « retouche » de la grande mosquée. Ici encore Salima Naji s'affirme dans une approche atypique :

> « De même que les murailles, la mosquée pose un jalon historique en ce cœur de la ville. Se présentent à nous deux alternatives : soit la conserver telle qu'elle est, mais la nettoyer et l'embellir (avec l'aide du ministère des Habous) ; soit la restituer telle qu'elle était dans sa spécificité historique qui rappelle les minarets de type almohade (Tour Hassan) et qui lui redonnerait, à un coût équivalent à la solution première, une très grande force et son caractère unique. Ceci permettrait d'avoir une mosquée très particulière dans une ville restituée. Ce qui équivaut aussi à un geste fort – affirmer que le génie architectural du Souss, équivaut à celui de Fès (le minaret actuel singe les minarets des villes du Nord), geste qui aura donc besoin d'être expliqué»[(161)].

(160) - Ibidem.

(161) - NAJI (Salima), « Restaurer au Maroc, restaurer à Tiznit. Des remparts de la ville au projet de son Musée dans la Kasbah d'Akhennaj », communication au colloque : Imaachar, Université d'hiver de Tiznit, janvier-février 2009.

éloignées du débat sur le patrimoine. Et pourtant leur présence à ce type de débat est plus que légitime ; elle est essentielle, vitale.

C'est désappointé que l'un d'entre eux nous a confié : «Toutes nos propositions formulées auprès de la municipalité de Tiznit, il y a quelques années, pour réhabiliter la toponymie amazigh cruellement désavantagée dans l'attribution des noms aux rues, places et boulevards des nouveaux quartiers de la ville, ont systématiquement été classées sans suite »(158).

Quoi qu'il en soit, une lueur d'espoir toutefois réside dans un début de prise de conscience de l'importance du patrimoine bâti à Tiznit.

L'ambitieux projet initié et porté par Salima Naji, mais aussi appuyé par la municipalité, a pour objectif de sauver ce qui peut encore l'être. Naji cherche à préserver le patrimoine matériel mais aussi le patrimoine immatériel trop souvent voué aux gémonies des biens pensants comme quantité négligeable car culture populaire, culture « vulgaire », indigne d'un quelconque intérêt.

La démarche est généreuse mais le travail à entreprendre est énorme. En ce qui concerne le patrimoine bâti, là aussi Naji adopte une approche originale : mettre en avant l'architecture locale, la mettre en valeur.

Son projet porte sur trois principaux points clés de la cité.

Le premier est « Bab n Tergoua » qui, dans sa vision, doit faire le lien entre la cité et les jardins irrigués. Il faut « préserver le jardin de Tiznit en l'aménageant »(159) . Il est prévu qu'en 2010, la station d'épuration alimente la *targwa* avec les eaux usées de Tiznit qui auront été auparavant traitées. Espérons que ce projet aboutisse car lors de notre enquête de terrain en novembre 2009, les abords de «Bab El Khemis» et de «Bab n Tergoua» étaient de véritables dépotoirs qui font honte à la ville et à ses habitants.

Le second est la place du Mechouar dite localement «el mchour». A l'heure actuelle, elle fait office de parking. Elle s'étend entre la *tigemmi n crif* (*qsar el khalifi*) et *el biru* (ancien Bureau des Affaires Indigènes dit aussi Bureau arabe). Ce dernier édifice, construit en 1924, reprend, selon Salima

(158) - Témoignage de Hmed A., acteur associatif, Tiznit le 20 octobre 2009.
(159) - www.salimanaji.org.

> de la population locale pour sauver ce qui peut encore l'être de ces monuments qui font partie du patrimoine national »[155] .

Un début de prise de conscience a donc eut lieu à cette époque, puisqu'on essaye de sauver les remparts et les bastions mais les méthodes sont brouillonnes et inadaptées à la nature des constructions anciennes.

Il faudra attendre l'année 2003 pour qu'enfin des opérations sérieuses de sauvetage soient mises en place. Cette année-là, le ministère de la Culture a décidé de mettre en œuvre, et sur plusieurs étapes, un plan de restauration global visant à consolider la structure des remparts[156] .

Mais la priorité est donnée seulement aux remparts sud-ouest et sud-est qui se situent à l'entrée de la cité et qui font figure de vitrine touristique. Ce n'est que plus tard que les autres parties des remparts seront à leur tour restaurées.

La partie sud-est de la muraille longe la route nationale n°30. Par conséquent, elle est exposée aux regards des visiteurs et des voyageurs prenant ladite route. C'est pourquoi son entretien permanent s'est imposé aux responsables. C'est dans le cadre de ce principe qu'a été, récemment, abordé l'espace situé entre la partie en question et la route nationale, en vue de le transformer en un véritable petit parc. Louable démarche étant donné la rareté des zones vertes existantes au sein de la ville.

Longtemps mis à l'écart, le monde associatif, avec lequel nous nous sommes entretenus, semble lui aussi déterminé à faire entendre sa voix à propos de l'avenir du patrimoine. Ses diverses activités culturelles traduisent une conscience locale patrimoniale en nette progression dans la région, mais qui a du mal à se faire entendre.

Une méfiance « excessive » éloigne du monde associatif les décideurs locaux qui ne semblent pas vouloir élargir le débat sur le patrimoine[157] . Les associations en particulier et la société civile en général sont tenues

(155) - AFATACH (Brahim), Approche archéologique de l'architecture domestique de Tiznit (Sud-Ouest marocain), op.cit., p. 375, 377.

(156) - OUBAHA (El Hassan), Eléments du patrimoine architectural de Tiznit : histoire et méthode de sauvegarde, op.cit., p. 17.

(157) - Témoignage de Hmed I., acteur associatif, Tiznit le 20 octobre 2009.

Pour éviter que ne se reproduise une nouvelle catastrophe de ce genre, une série de travaux est accomplie. Elle a pour but de dompter définitivement l'«assif n Tznit ». De 1939 à 1942, une digue est construite sur le cours d'eau pour endiguer ses crues violentes. Cela ne semble pas suffisant car quelques années plus tard, en 1949-1950, on érige un barrage de déviation sur la rivière au sud-est de la cité, au lieu-dit Boussensar [151].

Il semble alors que grâce à ces travaux, la cité de Tiznit ne connaîtra plus d'inondations intempestives. Cependant, à la fin de l'année 1978, dans le cadre du développement urbain de la cité, la rivière « a été remblayée après la pose de trois gros collecteurs qui devraient recueillir les eaux du tout-à-l'égout quand il sera installé partout »[152] . Et en mars 1986, Tiznit connait l'une de ses plus terribles inondations [153].

Tardive mais décisive prise de conscience

Pendant des dizaines d'années, les remparts de la cité furent à peu près complètement laissés à l'abandon. A ce propos, en 1979, un jeune étudiant français qui travaille alors sur Tiznit fait un constat amer : « Actuellement tout cet ensemble défensif menace ruine dans beaucoup d'endroits, sous l'action du vieillissement et des intempéries ainsi que du manque d'entretien»[154]. Quelques temps plus tard, au début des années 1990, un jeune étudiant marocain fait quasiment le même constat et pousse un véritable appel au secours. Il nous explique la gravité de la situation :

> « Jusqu'à présent, aucune campagne de restauration n'a été entreprise. Certaines tentatives engagées par les autorités municipales ont abouti à un échec total. Les matériaux utilisés pour l'entretien (dalles en béton pour renforcer la base des murs, pierres liées à un enduit en terre) ne sont pas adaptés à l'ancienneté des murailles. Les borjs sont également dans un état de délabrement avancé notamment ceux situés au nord (borj targa, caïd M'barek) et certains bastions sont devenus des dépôts d'ordures. Les remparts de Tiznit ont besoin d'une prise en charge sérieuse. Mais pour cela il faut que l'effort des autorités compétentes se conjugue avec celui

(151) - S.H.A.T., Lieutenant BENCHEIKH, Fiche de la tribu des Ahl Tiznit, op.cit.
(152) - GUIBERT (Jacques), L'histoire d'une ville : Tiznit, op.cit., p. 87.
(153) - Témoignage de Hamid A. des Id Delha, Tiznit le 21 octobre 2009.
(154) - GUIBERT (Jacques), L'histoire d'une ville : Tiznit, op.cit., p. 87.

Mais ce véritable complexe vis-à-vis des constructions «modernes» ne date pas d'hier. Dès les années 1940, on louait leurs bienfaits. Le grand El Hajj Belaïd n'était pas le dernier dans ces louanges aux nouveaux « notables bâtisseurs»:

> « Issen a ibnu s lḥdid ig tin ɣ tiddi-ns, ixelḍ wayaḍ d lbuṣlan ar ka sersn ddaln, igasn jelij iḥit aylliɣ akw iberm, awind lmutur n trisinti ixdem gisn (Il maitrise parfaitement la science de bâtir par le fer, il l'a mélangé avec du ciment pour en faire la toiture, il a couvert entièrement [l'intérieur de sa maison] de carreaux de faïence, il a installé un moteur [à pétrole] pour l'électricité)»(149).

Une nature agressive

Construits dans le contexte où Moulay El Hassan œuvrait pour asseoir son autorité sur les tribus du Sous extrême, toujours debout aujourd'hui malgré les vicissitudes du temps, les remparts de Tiznit sont l'un des monuments historiques les plus importants.

Ils ont très tôt, on l'a vu, fait l'objet de plusieurs mesures juridiques qui lui ont assuré une protection permanente.

Sans ces mesures, on imagine difficilement leur état dans une société où l'indifférence demeura longtemps pesante. Bien qu'ils soient juridiquement protégés et, qu'ils aient été l'objet de plusieurs projets d'entretien, il faut néanmoins souligner leur fragilité face aux intempéries s'il n'y a pas un entretien régulier. L'érosion est le premier de ces facteurs de détériorations.

Ainsi, la plus grande menace qu'ils aient eut à subir s'est produite durant l'hiver 1938. Des pluies diluviennes ont gonflé l'«assif n Tznit», transformant cette petite rivière intermittente en un véritable torrent détruisant tout sur son passage. Elle ira jusqu'à abattre les remparts de la cité, à son entrée au pied de « Bab n Aït Jerrar » et à sa sortie près de «Bab El Khemis ». Immédiatement après, les remparts sont remis en état et la porte de « Bab n Aït Jerrar » est rebâtie, on en profite d'ailleurs pour l'élargir afin de faciliter le passage des automobiles(150) .

(149) - www.imurig.net.

(150) - S.H.A.T., Capitaine DE LA BOISSIERE, Monographie des Ahl Tiznit, op.cit.

Tiznit ont conservé l'habitat des tribus voisines. Leurs maisons sont faites en pisé et couvertes de terrasses indigènes », cependant « en ville, on note une tendance à la modernisation de l'habitat »(147).

Quoi qu'il en soit, il apparait que le développement urbain s'est fait d'une telle façon que, aux yeux de certains, il menaçait de défigurer la cité. Ainsi, deux arrêtés sont promulgués pour corriger cette menace. Le premier (novembre 1953) met en place une série de servitudes amenée à amoindrir les dégâts causés : obligation du caractère de la végétation, interdiction de l'affichage et des panneaux de publicité, etc. Le second arrêté (juin 1954) confirme les obligations du premier, confirme le classement de «la ville ancienne de Tiznit» et l'étend à « ses zones d'extension et de protection»(148).

Les causes d'une destruction irréparable

Cependant, les différentes administrations qui se sont succédées ont omis de protéger ce qui faisait une part importante de l'âme de Tiznit: les qsebat qui, comme nous l'avons déjà souligné, ont aujourd'hui complètement disparu.

De plus, il semblerait que, pour divers impératifs, les différents *dahir* et arrêtés ne furent pas totalement respectés à la lettre.

Excessivement utilisé par des habitants soucieux d'avoir des maisons neuves et modernes, le béton a durement flétri l'aspect architectural de tous les quartiers jadis sillonnés dans les qsebat. Résultat : à la place de chaque demeure en pisé démolie naît une nouvelle maison dont l'architecture ne correspond pas à ce qui a été détruit auparavant. C'est la raison pour laquelle les vieilles bâtisses deviennent de moins en moins visibles, en raison de l'usage démesuré du béton. Daté de la première ère d'implantation humaine à Tiznit, cet aspect architectural dont se distingue l'ancienne Tiznit de la «ville nouvelle» est complètement défiguré aujourd'hui.

(147) - S.H.A.T., Lieutenant CHARLES DOMINIQUES, Fiche de la tribu des Ahl Tiznit, Tiznit le 1er mars 1953, 3H2007.

(148) - Empire Chérifien-Protectorat de la République Française au Maroc, «Arrêté viziriel du 29 juin 1954», Bulletin officiel, 2178, 23 juillet 1954, p.1070.

La bravoure au feu ne trouve plus lieu où s'exprimer, si ce n'est aux antipodes du village et de la tribu ; seul la réussite financière et matérielle est reconnue désormais. Le monde a changé. C'est ce que ces vers d'El Hajj Belaïd nous disent :

> « Wili zrinin ur a sawaln ɣar f lbarud d isan. Nekwnin tumubil d watay nettan d lbenyan d laxbar n Fas ula Merrakwc niɣ ar Agulmim (Les anciens ne parlaient que de guerres et de chevaux. Nous, chantons les voitures, le thé, les belles bâtisses et les nouvelles de Fès, de Marrakech ou d'Agoulmim)»[144].

Avec la soumission des dernières tribus de l'Anti-Atlas, très vite les pistes automobiles sont poussées de l'avant et la «piste impériale» réunit bientôt le Maroc aux colonies de Mauritanie et du Sénégal. Un commerce transsaharien, où les camions ont remplacé les dromadaires, reprend, permettant une relative reprise du commerce dans les villes étapes comme Tiznit.

D'ailleurs, le témoignage de notre ṭalb des Aït Brayyim se fait l'écho de cette croissance urbaine qu'a connue Tiznit durant cette période de reprise des activités commerciales:

> « Suq-li-(i) llan ɣ Tznit ɣilad ljdid a iga, amma aqqdim ittexwla, xwlant lliɣ ran ad bnun wi-l-ljdid. Llan lefnadeqq ḥetta nettni tigariwin-ad ɣ Tznit, ula lḥemmamat fulkinin, ula lfunda (leqqehwa) liɣ a cettan midden, yili gis yal lutil, macc ur bahra iɛdil (Le marché qui se trouve à Tiznit est tout récent. L'ancien a été détruit lorsqu'on a voulu construire le nouveau. Il y a aussi des fondouq [qui ont été bâtis] ces derniers temps, ainsi que de beaux bains maures, des cafés où les gens peuvent se restaurer, un hôtel aussi mais il n'est pas très bon) » [145].

A cela, il faut ajouter l'édification de nouveaux équipements urbains introduits par la puissance coloniale durant les années 1930-1940: l'aménagement d'un abattoir près de Bab Ouglou, l'édification d'une halle aux grains (par la suite transformée en Mahakma du Pacha), la mise en place de l'adduction et d'un réseau d'égouts pour l'évacuation d'eau de surface, etc.[146] . De plus, dans un document de 1953, on apprend que, si les « Ahl

(144) - www.imurig.net.

(145) - ROUX (Arsène), La vie berbère par les textes, op.cit., p. 90 (traduction personnelle).

(146) - S.H.A.T., Lieutenant BENCHEIKH, Fiche de la tribu des Ahl Tiznit, op.cit.

Les prémisses d’une approche conservatrice

C’est à partir des années 1930 que l’administration coloniale se soucie de la conservation du patrimoine bâti de Tiznit. Le dahir du 4 juillet 1932 classe, «comme monuments historiques, les remparts, portes et bastions de Tiznit»(142). Quelques mois plus tard, ce document officiel est complété par un second qui étend le classement à toute la cité intra-muros et annonce les premières «servitudes» pour sauvegarder une certaine uniformité «d’aspect» de l’intérieur de la ville : « il ne pourra être érigé dans cette agglomération que des maisons marocaines ». Enfin, il interdit toute construction « sur une bande de terrain s’étendant autour de la ville, à l’extérieur des remparts, sur une profondeur de deux cents mètres, à compter du nu des murailles ».

Il est vrai que, depuis le début de la présence française à Tiznit (1916), peu de constructions nouvelles furent érigées si ce n’est la construction de l’immense maison du caïd Tayeb Outgountaft sur des terres appartenant aux Id Zekri, qui s’étendait d’*asuk imziln à asuk el ḥemmam*(143).

Cependant, il faut constater qu’une vingtaine d’années plus tard, de nouvelles directives administratives sont nécessaires pour faire face au développement de la ville et à son extension.

La fin de la « pacification », qui a eu lieu au printemps 1934 avec l’assaut sur l’Anti-Atlas, a ouvert de nouveaux horizons. De plus, ce que Moulay Smaïl (fin 17ème-début 18ème siècle) n’avait pu réussir à son époque, la France coloniale l’a fait : dorénavant les tribus sont désarmées. On assiste à une transformation de la société tribale et de ses référents. La poudre qui pouvait amener à une possible ascension sociale pour certains (coupeurs de routes et autres brigands de grands chemins, vendetta, etc.) n’est plus possible. Désormais, pour les Aït Sous, seul le commerce dans le Gharb ou le travail dans les usines de France est le passage obligé pour s’élever dans l’échelle sociale.

(142) - Empire Chérifien-Protectorat de la République Française au Maroc, «Dahir du 4 juillet 1934», Bulletin Officiel, 1031, 29 juillet 1932, p.866.
(143) - Témoignage de Tayeb A., Tiznit le 27 octobre 2009.

et maçonnées (manjour) remplacent les pilastres de pierre sèche qui donnaient au seuil de la maison berbère son aspect si caractéristique »(136) .

Ces *cintres en pierre* qui encadrent désormais les maisons des grandes notabilités de Tiznit et de sa région sont directement inspirés des portes monumentales qui ont été percées dans les remparts hassaniens de notre cité.

Le référent politique et économique est désormais Tiznit. Voici deux exemples pour illustrer cette observation. Auparavant, c'est-à-dire avant l'intervention de Moulay El Hassan dans le Sous, d'un homme bien vêtu, richement habillé, qui trahissait une certaine aisance matérielle, on disait l'expression : *zud Sidi El Hacem*, c'est-à-dire qu'il était vêtu comme Sidi El Hachem. Mais depuis les transformations qu'a connues la cité de Tiznit on dit désormais *zud crif n Tfilalt* (*comme le chérif du Tafilalt*)(137), c'est-à-dire comme le frère du sultan qui le représente désormais à Tiznit (138).

Le second exemple est lui aussi très parlant. Tiznit occupe la partie occidentale de la vaste plaine qui s'étend depuis les rives de l'Oulghas (oued Massa) jusqu'aux premiers reliefs de l'Anti-Atlas. A la fin du 19ème siècle, cette plaine est dénommée, soit *azaɣar n Ida Ultit*(139), soit *azaɣar n tasra* (*plaine du saponaire*)(140) mais, déjà un peu avant les années 1920, elle n'est plus connue que sous le nom d'azaɣar n Tznit, (plaine de Tiznit)(141) . C'est dire l'importance de la place qui a su, en quelques années, s'inscrire fortement dans la toponymie régionale.

---

(136) - MONTAGNE (Robert), « *Une tribu berbère du Sud marocain : Massat », art.cit*., p. 395.

(137) - Témoignage de Tayeb E.H., Tiznit le 26 octobre 2009.

(138) - Pour l'époque coloniale, il s'agit de Moulay Zin, de 1921 à 1936, puis de Moulay Hassan, de 1936 jusqu'à l'indépendance (1956).

(139) - FOUCAULD (Charles de), *Reconnaissance au Maroc* (1883-1884), op.cit., p. 402.

(140) - «L'Azarar n Tasra, est la région comprise entre le cours inférieur de l'oued Oulghass (oued Massat) vers son embouchure, le cours moyen de l'oued Oulghass au-dessus de son confluent avec l'oued Tazéroualt, l'oued Adoudou et l'Océan», dans LE CHATELIER (Alfred), *Tribus du Sud-Ouest marocain, op.cit*., p. 13.

(141) - «Les indigènes désignent sous le nom d'Azaghar de Tiznit une vaste plaine qui s'étend au sud de l'oued Oulghas, au pied de l'Anti-Atlas», dans REBOUL (André), «*L'Azaghar de Tiznit*», art.cit., p. 1.

alors une sorte de refuge où tous les caïds, chassés par les membres de leur tribu, y trouvent un abri à la colère de leurs frères : « les qaïds de toutes les tribus voisines, réfugiés à Tiznit [...] Depuis un an (1906) tous ces qaïds ont dû quitter leurs résidences et se réfugier à Tiznit, dernier et bien faible réduit de l'autorité chérifienne »(134) .

Tiznit, la référence symbolique

Dans tout ce qui vient de précéder, nous espérons avoir montré que désormais Tiznit est devenue un véritable pôle d'attraction pour tout le Sous extrême.

Nous avons vu les conséquences politiques de l'installation d'un naïb du sultan avec le recul des institutions tribales au profit de la nouvelle nomenclature du pouvoir central. Mais sur le plan du bâti, cette installation a aussi des répercussions sur la région.

De référent politique, Tiznit devient aussi référent architectural. Ces modifications ont eu lieu sur le long terme et se sont faites par étapes. L'exemple le plus visible est celui des portes et de leur encadrement.

Pour les maisons traditionnelles du Sous, des sortes de pilastres en pierre ou en terre encadraient habituellement l'entrée des demeures. Voici comment, en 1917, Dugard décrit cette particularité architecturale des maisons de Tiznit : « La seule décoration ici, avec le gros anneau qui sert de heurtoir à la porte, est le porche que l'on voit à chaque entrée et qui est fait de terre lui aussi. Formés de deux contreforts qui ont près de 75 centimètres de fruit, avec un fronton de terre nue, ces porches évoquent des entrées de tombeau »(135).

Cependant que les premières modifications se font apparaitre dans les demeures des nouveaux caïds, ainsi « les cintres de porte en pierres taillées

(134) - SEGONZAC (René de), *Au coeur de l'Atlas. Mission au Maroc (1904-1905)*, Paris, 1910, p. 592, 600.

(135) - DUGARD (Henry), *La colonne du Sous, op.cit.*, p. 105.

Tiznit(129). Les Juifs d'Ifran s'installèrent alors auprès du nouveau représentant du pouvoir central, Mohamed Anflous.

A partir de ce moment on désigna l'ancien *mellah* sous le nom de *mellah des Aït Mhamed* et le nouveau *mellah* sous celui de *mellah des Aït Ifran*(130).

Effritement des institutions tribales

La forte présence du pouvoir central à Tiznit a eu aussi pour conséquence immédiate un recul général des spécificités culturelles ou politiques, au profit du nouveau référent.

Lors de son arrivée à Tiznit en 1916, Justinard note que les anciens notables de la ville, les anciens « inflas, se disent maghzen avec la plus grande énergie »(131) . Selon un autre observateur, le terme même d'*inflas* (sg. *anflus*) n'a plus cours car serait devenu désormais séditieux(132) .

Quand le représentant du pouvoir central à Tiznit est puissant, c'est lui qui fait et défait à sa guise les chefferies des tribus de la région. Pour illustrer la puissance politique de Tiznit, un poète des Aït Ba Amran dit un jour :

> « Yan iskern taselhamt, yawit uɣaras n Tznit, ad ig amɣar f yat luqt (Quiconque détient un petit burnous, prend le chemin de Tiznit afin de devenir chef pour un temps) »(133).

De même, dans les périodes troubles, lorsque le représentant est faible ou qu'il est absent, c'est la révolte des tribus qui reprend. Tiznit tient bon grâce à ses remparts et aux contingents militaires qui s'y trouvent. Elle devient

(129) - « Rares sont les mellahs qui disparaissent comple`tement, comme celui d'Ouijjane, ruiné par la harka du Guellouli, vers [1900], et qui a envoyé une cinquantaine de foyers à Tiznit », dans PORTE DES VAUX (A. de la), « Notes sur le peuplement juif du Sous », Bulletin Economique et Social du Maroc, 54, 1952, p. 451.

(130) - FLAMAND (Pierre), « Quelques renseignements statistiques sur la population israélite du sud marocain », Hespéris, 1950, p. 385. D'après Hamid A des Id Delha., la dernière famille juive de Tiznit a quitté la ville pour Inzgan dans les années 1990 (25 octobre 2009)..

(131) - C.A.D.N., Capitaine JUSTINARD, Lettre au Général de Lamothe, Tiznit le 9 novembre 1916, RDM 622.

(132) - MONTAGNE (Robert), « Une tribu berbère du Sud marocain : Massat », art.cit., p. 394.

(133) - DOMENECH LAFUENTE (Angel), Cuentos de Ifni, Tetuan, Editora Marroqui, 1952, p. 47.

De plus, une particularité à ajouter sur le compte de notre cité est le fait de renfermer deux *mellah* et non pas un seul comme dans la majorité des villes et villages du Maroc. Quelles sont, là aussi, les raisons de cette différence ?

Avec l'installation d'une garnison militaire, l'agrandissement et le renforcement des murailles ainsi que la présence d'un représentant du pouvoir central, de nombreuses familles juives s'installent peu à peu à Tiznit. Comme les ancêtres des populations musulmanes, elles viennent principalement de l'Est, des *mellah* de la montagne ou du piémont de l'Anti-Atlas : Assaka, Tamaliht, Tilin, Anzi, Iligh, etc. Dans les années 1940, Yaqoub Cohen, cheikh des Juifs de Tiznit depuis alors plus de vingt ans, était originaire d'Assaka[126] . Le *mellah* de Tiznit se trouvait alors accolé à la maison du caïd Mohamed auquel succéda son frère Hemmou, au lieu-dit *ddu lqsebat* (*au pied des fortins*). Le caïd Hemmou entrepris d'entourer le mellah d'un rempart protecteur avec une porte unique mais les travaux s'interrompirent à sa mort (1906) et ne furent jamais achevés par la suite[127].

Cette situation perdura jusque vers 1900, année où, à la suite du départ de Addi Aguilloul, une grande révolte secoua toute la région. Plusieurs personnalités, notables et caïds, qui avaient profité d'une façon ou d'une autre du régime mis en place par Aguilloul, vinrent trouver refuge derrière les remparts de Tiznit.

Parmi eux se trouvait El Hajj El Housseyn d'Ifran, grand clerc, adepte de la confrérie tijania qui arrive à Tiznit en même temps qu'un groupe de familles juives originaire de la même tribu[128] . Ces familles ne purent s'installer dans le *mellah* de la cité car Aguilloul avait fait déplacer quelques temps auparavant toutes les familles juives de Ouijjan pour les installer à

(126) - S.H.A.T., Capitaine DE LA BOISSIERE, *Monographie des Ahlt Tiznit, op.cit.*/ « Le cheikh des Juifs de Tiznit, Yaqoub d'Asaka qui, nous rendant service et ayant l'oreille du caïd, avait la possibilité de s'entremettre pour les gens », dans JUSTINARD (Léopold), Un grand chef berbère. Le caïd Goundafi, op.cit., p. 176.

(127) - Témoignage de Brahim I.S.H. des Aït Mhamed, Tiznit le 25 octobre 2009.

(128) - MONTEIL (Vincent), « Les Juifs d'Ifran (Anti-Atlas marocain) », Hespéris, 35, 1948, p. 157.

En 1910, c'est dans l'une de ses tours que sera enterré le marabout beydan Ma El Aïnin. En 1921, avec l'arrivée de Moulay Zin, frère et *khalifa* du sultan pour Tiznit, le bâtiment prend le nom officiel de qsar *el khalifi*. Localement, on le désigne sous le nom de *tigemmi n crif* car c'est désormais la résidence du représentant des *cerfa n Tfilalt*.

Durant cette période, l'ancienne *tigemmi el mexzen* sert d'arsenal ou de prison pour les caïds qui remportent de nombreuses victoires contre les tribus(122). C'est l'époque où, pour les tribus de l'Anti-Atlas surtout, Tiznit prend la figure du tourment :

> « Ad aɣ iɛffu Rebbi, tamallayt ur tdum. A Tiznit ata tiwit anɣ iferxan, iferxan lli cwanin (Que Dieu ait pitié de nous, les aventures n'ont qu'un temps. O Tiznit, tu nous as pris les enfants, les beaux enfants) » (123).

Les aléas de l'établissement de Tiznit, en tant que relais du pouvoir central pour la région du Sous extrême, ont eu de nombreuses conséquences sur le développement et l'organisation de la cité.

Présences juives

L'installation et l'évolution de la population juive de Tiznit sont un exemple des plus marquants. En premier lieu, notons que Gatell, dans sa description du Sous (1871), signale la présence de nombreuses communautés juives dans la région ; il n'y est pas fait mention de Tiznit alors que Talaïnt, Iligh et Ifran sont citées. De même pour Foucauld qui ne signale que Ouijjan comme «principal mellah» de la région(124). Il faut attendre 1899, avec le passage de Segonzac à Tiznit, pour avoir la première confirmation d'une présence juive à Tiznit : « un mellah peuplé d'une nombreuse colonie juive»(125). D'où est donc venue cette population juive ?

---

(122) - Témoignages de Si Hassan des Ida Oukfa (24 octobre 2009) et de Brahim I.S.H. (25 octobre 2009).

(123) - JUSTINARD (Léopold), « *Poèmes chleuhs recueillis au Sous* », Revue du Monde Musulman, 1925, pp. 85 et 104 (réécriture personnelle de la version tachelhit).

(124) - FOUCAULD (Charles de), *Reconnaissance au Maroc (1883-1884), op.cit*., p. 402.

(125) - SEGONZAC (René de), *Voyages au Maroc* (1899-1901), op.cit., p. 273.

avait réussie à établir sur la région[118] . L'érection de ce haut minaret, vu de très loin dans ce plat pays, ne pouvait que le satisfaire. Néanmoins, rappelé avant que la tour ne soit complètement érigée, c'est son successeur qui s'attellera à l'achever.

Des caïds bâtisseurs

De la Tiznit que Segonzac a pu apercevoir durant son très court séjour (1899), Segonzac nous dit : « La ville paraît très vide, les constructions sont neuves»[119] . De ces dernières, il semble indubitablement qu'il fait référence aux constructions de l'infatigable Aguilloul, notamment l'édifice désigné aujourd'hui sous le nom de *qsar el khalifi*.

En effet, dès son arrivée à Tiznit, l'homme à poigne qu'est Addi Aguilloul délaisse la *tigemmi el mexzen* située dans un quartier qu'il juge exigu et trop centré dans une cité dont il se méfie. Dans une approche guerrière, il décide de s'installer dans un terrain dégagé de toute construction, près de Bab El Aouina. Il soumet les habitants de Tiznit à rude épreuve, leur confisque tous leurs chevaux dont il craint une trahison [120]. Il cherche à diviser les notables de la cité en soutenant un parti contre un autre. Puis, sur des terrains enlevés aux Id Zekri il fait « construire le nouveau Dar Maghzen (1er riad)»[121] que les gens de Tiznit appellent alors tout simplement *tigemmi el mexzen el jdid*. Quelques temps plus tard, Mohamed Anflous, qui le remplace, agrandira le fortin.

---

(118) - « La conquête du qaïd el-Gellouli s'est trouvée bien servie par une année de famine, et l'occupation du pays se fait tout simplement en entretenant la misère sur la ligne de retraite de l'armée chérifienne. [...] En réalité, la campagne se poursuit diplomatiquement, les coups de fusil sont rares. Le qaïd temporise ; il est de son intérêt de prolonger cette guerre qui fait de lui le plus puissant et le plus indépendant des chefs du Maroc. Il répand des nouvelles alarmantes sur la situation du pays, sur sa position critique, il demande des renforts, il se fait apporter par mer des approvisionnements de vivres et de munitions », dans SEGONZAC (René de), *Voyages au Maroc (1899-1901), op.cit*., pp. 266 et 273.

(119) - *Ibidem*, carte hors texte.

(120) - Témoignage de Si Hmed des Id Delha, Tiznit le 24 octobre 2009.

(121) - S.H.A.T., Capitaine MALVAL, *Recueil de renseignements historiques concernant la région de Tiznit, op.cit*.

Les écrits d'un aventurier catalan sont aussi à ce propos fort intéressants. De sa traversée du Sous, en 1864, il nous fait la remarque suivante : « Dans chaque village il existe une ou plusieurs mosquées pour la prière ; il est à remarquer qu'aucune n'a de somâ ou de minaret, si ce n'est à Taroudant, Aguader, Aguilou, Ileg et quelques autres endroits ; je crois qu'il n'y a que huit minarets dans tout le Sous »(114) . Il faut remarquer que Gatell a visité Tiznit dont il a fait une rapide description sans indiquer la présence d'un quelconque minaret(115) . Si tel était le cas, il n'aurait pas manqué de le signaler. Notre grande mosquée de Tiznit, tout comme les quatre autres (une par quartier), ne dispose donc pas de minaret et devait présenter l'aspect des mosquées habituelles du monde rural.

Cependant, d'après une étude qui se base sur des témoignages recueillis dans les années 1920 à Tiznit, les commanditaires de cet édifice religieux seraient deux caïds ayant officié dans notre cité entre 1897 et 1903 : Addi Aguilloul et Mohamed Anflous. Le premier aurait commencé la construction de la grande mosquée que le second aurait achevé(116) .

Pourtant le récit de Sidi Brahim de Mast est formel, à son époque, il existait déjà une grande mosquée à Tiznit. Alors, que comprendre de tout cela ?

Peut-être qu'à la place de «grande mosquée» faudrait-il lire «minaret» pour ces témoignages des années 1920. On peut supposer en effet que cet orgueilleux caïd Aguilloul, dont certains disaient qu'il avait la puissance d'un roi(117) , voulut affirmer au loin sa mainmise politique et militaire qu'il

(114) - GATELL (Joachim), « Description du Sous », Bulletin de la Société de Géographie, mars-avril 1871, p.96.

(115) - « Tiznit, entre Talahent et Aguilou, est un peu plus considérable que cette dernière ; on y trouve de l'eau et des fruits en abondance ; un marché s'y tient tous les jeudis » (Ibidem, p.92)

(116) - S.H.A.T., Capitaine MALVAL, Recueil de renseignements historiques concernant la région de Tiznit, op.cit.

(117) - JUSTINARD (Léopold), « Notes d'histoire et de littérature berbères. Les Haha et les gens du Sous », Hespéris, 8, 1928, p. 355.

Le minaret, un symbole d'autorité ?

Un des symboles, si ce n'est le symbole, de la belle ville de Tiznit est le minaret si particulier de la grande mosquée (dite localement : timzgid mqqurn, *el jamɛ mqqurn* ou, de plus en plus, *el jamɛ el kbir*).

En effet, le minaret de la grande mosquée (quartier Id Delha) présente des affinités avec ceux des pays sahéliens. Des perches en bois, témoins de l'ancienne armature en bois échafaudée lors de son érection, parcourent les angles du minaret comme les branches d'un arbre immense. En tout cas, jusqu'à ce que, dans les années 1920, son sommet «ne fut orné d'un chapeau blanc»(112), sorte de lanternon qui complète habituellement les minarets des mosquées du Gharb.

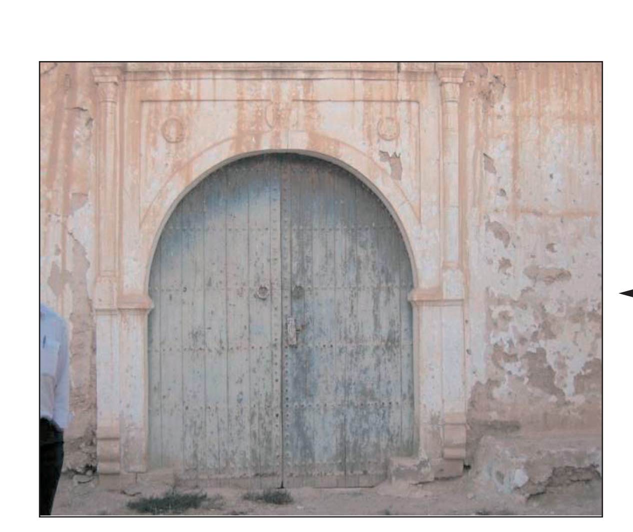
La reconstitution de l'historique de ce *monument* de la cité a été passionnante.

D'après le témoignage de Sidi Brahim de Mast (1834), c'est au lendemain de la révolte qui suit la mort de Moulay Sliman (1822) que les habitants de la cité, après avoir détruit la forteresse du représentant du sultan, en «rassemblèrent les pierres, les poutres et les portes et en bâtirent une mosquée (au milieu) de la k'açbah, autour de la source »(113) . Les habitants de Tiznit exécutèrent sans doute cette construction dans un but prophylactique car ils venaient de détruire la maison du représentant de l'*amir el muminin*. C'est donc pour s'attirer les bonnes grâces de Dieu et obtenir son pardon pour leur geste « sacrilège » que la grande mosquée fut édifiée.

Notons au passage que les mosquées rurales, que ce soit dans le Sous ou dans d'autres régions du Maroc, ne disposent pas habituellement de minaret. Le muezzin (*el mudden*) se contente de monter sur la terrasse du bâtiment pour faire les cinq appels quotidiens.

(112) - JUSTINARD (Léopold), Les Aït Ba Amran, op.cit., p. 10.
(113) - BASSET (René), Relation de Sidi Brahim de Massat, op.cit., p. 22.

Porte sud des remparts de Tassila de Mast (1940).



Porte d'une maison de notable d'El Aouina (2009).

Tout d'abord dans une lettre de Moulay El Hassan, adressée au caïd de Tiznit (10 août 1883), le sultan insiste sur le fait que la priorité des priorités est donnée aux travaux affectés aux remparts ; il précise aussi qu'au terme de ces travaux il faudra l'aviser pour de nouvelles directives(109) . Ensuite, dans une autre missive, adressée de nouveau au caïd Mohamed Ou Hessoun (12 octobre 1886), le sultan l'informe de l'arrivée d'un « amin, en vue de la réfection de la maison du Makhzen qui est tenu par le serviteur Zirawi »(110).

Qu'est-ce à dire alors? Manifestement, il semblerait que pour le sultan, avant de rebâtir l'ancienne forteresse d'Aghennaj, il fallait achever la nouvelle ceinture de rempart qu'il s'employait efficacement à édifier. La garnison laissée à Tiznit dut bivouaquer pendant plusieurs années à l'intérieur du tracé des nouvelles murailles, sans doute à l'endroit intitulé «Quartier en ruines des Mehallas» sur la carte de Reboul. Ceci ne doit pas nous paraître surprenant puisque tel fut aussi le sort de la garnison établie chez les Aït Ba Amran qui, de son côté, campa longtemps au lieu-dit Boutagmarin (situé près du *suq* principal de la confédération), avant qu'une forteresse ne soit bâtie pour l'abriter(111) . Quant à la « maison du Makhzen», qui désigne l'ancienne forteresse d'Aghennaj, il semblerait qu'une partie ait été aménagée pour abriter le représentant du sultan à Tiznit : Abdelaqader Ziraoui. Cette forteresse est dite localement *tigemmi el mexzen*, ce qui est la traduction littéral de son nom officiel de l'époque : *dar el mexzen*.

L'expédition de 1882 a sonné le début d'un cycle infernal de flux et reflux de l'autorité du pouvoir central dans le Sous. L'équilibre des alliances et contre-alliances tribales en a été complètement bouleversé. Les combats, les luttes de pouvoir ont rythmé cette fluctuation et ont semé de très importants germes de discorde.

---

(109) - PASCON (Paul) et ENNAJI (Mohamed), Le Makhzen et le Sous el Aqsa, op.cit., p. 82.

(110) - Ibidem, p. 148.

(111) - « Ils campaient tous au souk khmis des Ayt Bubker en attendant la construction, sur un terrain acheté par le Makhzen, de la forteresse des Ayt Ikhlaf qui ne sera termineé qu'après la deuxième expédition de Hassan 1er en 1886 », dans PASCON (Paul) et ENNAJI (Mohamed), Le Makhzen et le Sous el Aqsa, op.cit., p. 81.

la forteresse se trouve l'un des meilleurs puits de la ville, à tel point que certains le voient, à tort, comme une source : *anu n umxezni*(105) . Point d'eau indispensable pour la garnison en cas de révolte ou de siège.

Mais à la mort du sultan Moulay Sliman (1822), une grande révolte secoua tout le Sous; alors l'orgueilleux édifice, qui contrôlait la source et symbolisait des années d'une lourde autorité, fut démantelé par les habitants de Tiznit en révolte ouverte contre le pouvoir central(106). L'état de ruine de l'ancienne forteresse est confirmé par un document établi en préparation de la première expédition de Moulay El Hassan dans le Sous (1882) : « à Tiznit se trouve une ancienne kasba du Makhzen, mais elle est délabrée ; le pays est occupé par ses habitants(107) » .

On a l'habitude de penser, qu'au lendemain de l'arrivée du sultan à Tiznit, les nouveaux remparts furent érigés en même temps que les ruines de l'ancienne forteresse laissaient place à une nouvelle citadelle. D'après Gérenton même, « Tiznit, base des opérations projetées chez les Aït Baamran et dans l'oued Noun, vit s'accumuler des quantités imposantes d'orge, de blé, de maïs, de miel, de beurre, de paille, etc., le tout mis à l'abri dans les vastes magasins du nouveau Dar Makhzen qui renfermaient déjà, suivant l'esprit qui avait présidé à leur construction, de nombreux effets d'équipement et de campement. Ces approvisionnements de toute nature étaient destinés à satisfaire aux besoins de l'armée lorsqu'elle se trouverait en opérations dans les régions du sud de Tiznit »(108) .

Cependant, cet auteur est la seule source dont nous disposons qui avance ce fait, de plus, dans l'ouvrage de Pascon et Ennaji, nous trouvons des missives intéressantes qui remettent en question cette vision des choses.

---

(105) - Témoignage de deux anonymes habitants des Ida Oukfa, Tiznit le 24 octobre 2009.

(106) - BASSET (René), Relation de Sidi Brahim de Massat, op.cit., p. 22.

(107) - ROUX (Arsène), « Quelques documents manuscrits sur les campagnes de Moulay el Hassan », art.cit., p. 92.

(108) - GERENTON (E.), « Les expéditions de Moulay El Hassan dans le Sous », Afrique Française, septembre 1924, p. 278.

populations de la plaine [les Iheggouaten], [il] n'exigeait d'elles qu'un tribut dérisoire, un guerch par foyer »[99] . C'est en effet avec le soutien de troupes levées chez elles qu'il réussira, par deux fois, à détruire Iligh : la forteresse du potentat du Tazeroualt[100] . Ces multiples défaites face au caïd Aghennaj sont vécues comme de véritables humiliations par les Iguizoulen. On retrouve une trace de cet état d'âme des montagnards dans un extrait poétique recueilli par Justinard:

> « I Rebbi, a Igizuln, is ur ncemmit aylliɣ iqqen Uɣennaj rrwa ɣ imi n Iliɣ, ar iserwat s irjlin bla idukan (Par Dieu, ô Iguizoulen, n'est-il pas honteux pour nous qu'Aghennaj ait battu à l'aire à la porte d'Iligh, usant d'hommes sans souliers pour le dépiquage) »[101] .

De plus, pour tenir en respect les tribus de la montagne et se protéger d'un hypothétique retour offensif de leur part, Aghennaj éleva des forteresses, à Biougra et à Tiznit, « pour abriter des garnisons »[102] . Cette forte présence de Mohamed Aghennaj dans le Sous s'étend, à peu près, de 1810 à 1816, années pendant lesquelles il tiendra en respect Sidi El Hachem mais sans jamais pouvoir l'atteindre [103].

Cette qasba de Tiznit, cet agadir, Aghennaj la fait construire au centre de la cité, « au-dessus de la fontaine »[104]. Cet emplacement n'a pas été choisi au hasard. Tout d'abord, le besoin en eau pour la construction du fortin en pisé n'a pas été une des moindres raisons quant au choix du lieu de son érection. Ensuite, la proximité de la source, dont dépend la vie de la cité, est un excellent moyen de contrôle sur ses habitants car la garnison pèse ainsi comme une épée de Damoclès au-dessus de leurs têtes. Enfin, à l'intérieur de

---

(99) - MONTAGNE (Robert), «Une tribu berbère du Sud marocain : Massat», art.cit., p. 369.

(100) - « Aghennaj, le grand chef des Haha au début du 19ème siècle qui avait mis en fuite le marabout du Tazerwalt, Sidi Hachem, amghar des Igezzoulen, entraînait avec lui les tribus de la plaine du Sous et les Chtouka du leff "Aoggwa"», dans MONTAGNE (Robert), Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc, Paris, F.Alcan, 1930, p. 203.

(101) - JUSTINARD (Léopold), Un petit royaume berbère, le Tazeroualt. Un saint berbère, Sidi Ahmed ou Moussa, Paris, Maisonneuve, 1954, p. 64 (réécriture personnel du texte en tachelhit et remaniement de la traduction française).

(102) - MONTAGNE (Robert), Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc, op.cit., p. 107.

(103) - PASCON (Paul), La Maison d'Iligh et l'histoire sociale du Tazerwalt, op.cit., p. 102.

(104) - BASSET (René), Relation de Sidi Brahim de Massat, op.cit., p. 22.

prescriptions, selon lesquelles ils devaient t'informer et t'entretenir à ce propos. Nous leur avons renouvelé l'ordre à cet effet, le voilà qui te parvient. Remets-le à leur attention »[97].

Toute cette histoire ne serait-elle partie que d'un simple conflit d'autorité entre les différents agents du pouvoir central ? Frustré d'avoir été écarté, un temps, de l'exécution des travaux, le caïd de Tiznit n'aurait-il pas fait circuler des bruits, auprès de la population, selon lesquels l'amin venu de Tassourt et le représentant du sultan aurait détourné l'argent qui aurait permis à plusieurs villages de la région de bénéficier de l'ombre protectrice des nouveaux remparts ? Peut-être, comme l'avance Afatach, que «chacun voulait se réserver l'honneur et le prestige de superviser les travaux de construction»[98]. Tout ceci n'est que conjecture, elle explique pourtant le fait que la «légende» soit encore bien vivante chez les habitants de Tiznit et son absence dans tous les documents relatifs à ces remparts hassaniens. Cependant, sans aucun témoignage ou document écrit pour l'étayer, tout ceci ne reste qu'une piste, tout ou moins intéressante, mais à approfondir.

Tiznit enjeu des tribus et du pouvoir central

Abordons à présent un des autres symboles architecturaux de la cité de Tiznit, nous voulons parler de la bâtisse que l'on désigne désormais et officiellement sous le nom de Qesba Aghennaj.

Cette forteresse qui s'élève tout près de la source de Tiznit a une longue et tumultueuse histoire. Tout d'abord, il faut noter que ce n'est pas la première fois que Tiznit est choisie comme relais politique et militaire du pouvoir central dans la région. Au début du 19ème siècle, c'est ce village que le représentant du sultan à Taroudant, Mohamed Aghennaj, choisit pour bâtir une forteresse dans le cadre de sa lutte contre le trop indépendant Sidi El Hachem du Tazeroualt et ses Iguizoulen. Durant sa campagne contre l'*Amɣar n Igizuln*, Aghennaj s'efforce « de gagner les bonnes grâces des

(97) - PASCON (Paul) et ENNAJI (Mohamed), Le Makhzen et le Sous el Aqsa, op.cit., p. 82.

(98) - AFATACH (Brahim), Approche archéologique de l'architecture domestique de Tiznit (Sud-Ouest marocain), op.cit., p. 78.

large pour le nombre de maisons qu'il contient. A ce propos, le verdict de Segonzac est sans appel sur la Tiznit qu'il visita en 1899 : « La volonté du Sultan est obéie, la capitale est forte et spacieuse, il n'y manque que des habitants ; Mouley el-Hassen a pu créer une ville, il n'a pas pu lui donner la vie »(94) . En 1917 encore, soit près de trente ans après les travaux hassaniens, l'espace intra-muros de Tiznit est vu comme semé de « grandes places vides, des rues très larges parfois, des cimetières, des champs d'orge, des jardins irrigués […] et enfin de nombreux terrains vagues à côté des maisons expliquent cette disproportion entre l'espace occupé et la [faible] population»(95) .

En effet, en comparant Tiznit à Taroudant, on note que le développement des remparts de ces deux cités est moyennement identique (six kilomètres pour la première contre huit pour la seconde) cependant que, avec l'année 1917 pour référence, la population de Taroudant représente le double de celle de Tiznit (96).

Tout cela pour dire que l'œuvre de Moulay El Hassan a considérablement bien agrandi la Tiznit pré-hassanienne. Comment alors comprendre cette «légende» des remparts étroits ?

On trouve un début de réponse dans une des missives qu'ont patiemment traduit et classé Pascon et Ennaji. Il s'agit d'une lettre, datée du 10 août 1883, que Moulay El Hassan adressa à son caïd de Tiznit, Mohamed Ou Hessoun: « En même temps tu demandes le programme des travaux de constructions, car l'amin précité [El Hajj El Mahfoud Outoufelaaz] s'est occupé de l'entretien des ouvriers des deux secteurs ouest et el Hajj Messaud des deux secteurs sud, sans qu'ils t'aient mis au courant de ce qu'ils visaient en agissant de la sorte […] Quant à Rachidi et à l'amin, qui ne t'ont pas instruit de ce dont ils s'affairaient dans la construction, ils se sont écartés de nos

(94) - SEGONZAC (René de), Voyages au Maroc (1899-1901), op.cit., p.273.
(95) - DUGARD (Henri), La colonne du Sous, op.cit., pp. 104-105.
(96) - « La ville [de Tiznit], tout à fait saharienne d'aspect, malgré ses vastes dimensions ne compte que 2500 à 3000 habitants [...] Taroudant, avec cinq ou six mille habitants », dans DUGARD (Henry), La colonne du Sous, op.cit., p. 104, 169.

Une muraille en peau de chagrin ?

Il faut aussi relever que, selon la tradition orale recueillie à Tiznit, les remparts hassaniens sont plus petits qu'ils ne devaient l'être. Moulay El Hassan aurait donné des directives pour englober non seulement la Tiznit originelle, mais aussi les villages satellites qui s'y rattachent.

Le nombre de ceux-ci est variable selon les témoignages ou les traditions recueillis : Tadouart pour Da Salh des Id Delha ; Tamdghoust et ses environs pour Si Hmed des Id Delha ; Atebban, Doutergoua, Tadouart et El Aouina pour Tayeb A. des Id Zekri.

Dans les années 1930, Justinard avait publié le récit de cette légende recueillie auprès des habitants de la région. Il rapporte que, lors de la seconde expédition de Moulay El Hassan, ce dernier «n'entra pas à Tiznit. Il était irrité parce que le mur d'enceinte était moins vaste qu'il n'avait ordonné à son précédent voyage. Il aurait voulu que ce mur enfermât la source de Dou Targa, les Igourar. On avait mangé l'argent et réduit le mur»(91) . Et dans sa colère, le sultan laissa échapper cette sentence:

> «Tsqsermt. Ast fellawn isqser Rebbi ! (Vous l'avez raccourci [le mur d'enceinte]. Que Dieu vous la raccourcisse [la vie]) ! »(92) .

Dans une autre version, le sultan y apparaît moins courroucé et la réduction de la circonférence est justifiée pour des raisons d'ordre technique: «le tracé précédemment fixé et devant englober la seguia et Douterga est abandonné comme présentant l'inconvénient d'un trop grand développement. [...] Moulay Hassan inspecte les travaux dont il a ordonné l'exécution lors de son premier passage [...] et inspecte les remparts dont il approuve le nouveau tracé »(93).

Cette seconde version paraît plus proche de la réalité. En effet, plusieurs années après sa rénovation, la cité de Tiznit apparaît aux yeux des visiteurs étrangers comme vide et dépeuplée. Son cercle de pisé qui l'entoure est trop

(91) - JUSTINARD (Léopold), *Les Aït Ba Amran, op.cit*., p. 107.

(92) - Témoignage de Hamid A. des Id Delha, Tiznit le 24 octobre 2009.

(93) - S.H.A.T., Capitaine MALVAL, Recueil de renseignements historiques concernant la région de Tiznit, Tiznit le 1er février 1924, 3H 2003.

Un lourd verrou en fer forgé et de gros loquets en bois renforcent la fermeture de l'intérieur »[86] .

Dans certains écrits, on a avancé le nombre de quatre ou de cinq portes historiques. A cela, les raisons diffèrent. Les adeptes des quatre portes nous expliquent que « chacune d'entre elles devait desservir un quartier (ancien village) »[87] . Tandis que les partisans des cinq portes n'ont d'autres raisons que l'aspect prophylactique de ce chiffre. On retrouve cette version surtout dans la tradition orale ou chez ceux qui l'ont recueilli tel que Justinard qui écrit, qu'à son arrivée en 1916, « Tiznit était un ksar à moitié ruiné avec cinq portes, six kilomètres de muraille crénelée et bastionnée en assez bon état»[88]. Ou encore comme notre fameux ṭalb des Aït Brayyim qui dans sa présentation de Tiznit ne cite que cinq portes:

> « Teṭṭaf Tiznit mennaw lbiban : illa lbab l-Lmeɛɛder, illa lbab n Ayt Brayyim, illa lbab Uglu, illa lbab n Ayt Jerrar, illa lbab n Tergwa (Tiznit a plusieurs portes : il y a le Bab El Maader, le Bab n Aït Brayyim, le Bab n Aït Jerrar et le Bab n Tergoua) »[89] .

Dans la Tiznit du 21ème siècle, on compte désormais neuf portes. Les trois nouvelles ont été percées dans les remparts selon les besoins et la croissance de la cité. Deux l'on été, semble-t-il, à l'époque coloniale : Bab El Jdid, au nom explicite (la porte neuve) et Bab n Oulli (la porte du troupeau). L'ultime porte, Bab Moulay Rachid, a été ouverte tout récemment.

L'ensemble de ces portes, mis à part Bab n Tergoua[90], trahit une influence «tassourtienne». Les artisans, ayant été chargés de la conception desdites portes, s'inspirèrent fortement de celles de *la ville nouvelle* de Sidi Mohamed ben Abdallah: Tassourt.

---

(86) - AFATACH (Brahim), Approche archéologique de l'architecture domestique de Tiznit (Sud-Ouest marocain), op.cit., p. 375. Lors de notre passage à Tiznit, en octobre 2009, seul Bab El Maader détenait encore l'un des battants de son ancienne porte en bois, en fort mauvais état d'ailleurs.

(87) - GUIBERT (Jacques), *L'histoire d'une ville : Tiznit, op.cit*., p. 83.

(88) - JUSTINARD (Léopold), «Notre action dans le Sous», Afrique Française, décembre 1926, p. 549.

(89) - ROUX (Arsène), *La vie berbère par les textes, op.cit*., p. 91.

(90) - Concernant Bab El Aouina, malheureusement aucune observation ne peut être faite pour la simple raison qu'il n'existe aucune trace photographique ni de descriptions de l'ancienne porte, aujourd'hui disparue.

Portes et remparts : évolution et réajustements

Les murs de l'enceinte de Tiznit sont percés de six portes. Parmi elles, quatre (Bab El Maader, Bab Ouglou, Bab El Khemis et Bab n Aït Jerrar) sont intégrées dans un puissant bastion qui défend leur accès, les deux autres (Bab El Aouina et Bab n Tergoua) étant simplement «renforcées par une tour de garde»[82]. Peut-être faut-il voir dans ces dernières, les deux portes de la Tiznit pré-hassanienne dont nous parle la tradition orale et Sidi Brahim de Mast.

Deux ou trois portes ont changé de nom au fil du temps, ou plutôt ont été désignées par deux noms différents avant que l'un d'eux ne s'impose définitivement. Il s'agit de la porte connue aujourd'hui sous le nom de Bab El Aouina qui nous a été désignée sous le nom de «Bab Aït Brahim» par Segonzac lors de son périple de 1899. Dans ce « Bab Aït Brahim », il faut lire en fait « Bab n Aït Brayyim » comme nous le rapporte le témoignage d'un ṭalb des années 1950 à ce propos. Tel est aussi le cas de Bab El Maader désigné par le nom de «Bab Ida Ouqfa» dans la carte de Reboul[83]. Par contre ; Segonzac nous a laissé le nom d'une porte que nous pouvons identifier, par recoupement, comme celle de Bab n Tergoua mais sous une forme inconnue et incompréhensible : « Bab Chetoin »[84] .

Les portes originelles de Bab El Aouina et de Bab n Aït Jerrar ont été détruites pour être élargies et dédoublées afin de faciliter le va-et-vient des voitures, camions et autres moyens de transport motorisés. En 1939 pour Bab n Aït Jerrar [85] et à une période non déterminée, mais antérieure semble-t-il à 1956, pour Bab El Aouina. Cependant, avant ces travaux entrepris pour la reine automobile, « toutes ces portes disposaient de portails massifs en bois qui devaient être fermés à la tombée de la nuit ou en cas d'attaque extérieure.

(82) - AFATACH (Brahim), Approche archéologique de l'architecture domestique de Tiznit (Sud-Ouest marocain), Université Paris I, Thèse de doctorat, sous la direction de DEVISSE (Jean), 1992, p. 375.

(83) - REBOUL (André), « L'Azaghar de Tiznit », La Géographie, 32, 1918, p. 4.

(84) - « Il existe 6 portes : Bab el Khemis, Bab Aglou, Bab Aït Brahim, Bab Aït Djerrad, Bab Chetoin, Bab el Mader », dans SEGONZAC (René de), Voyages au Maroc (1899-1901), op.cit., carte hors texte.

(85) - S.H.A.T., Capitaine DE LA BOISSIERE, Monographie des Ahl Tiznit, op.cit.

Boukhari) pour les Aït Ba Amran, Lakhsas, Tekna, Aglou et le reste des Imejjad[77] .

Malgré cela, quelques années plus tard, El Hajj Messaoud Rachidi avouera les difficultés qu'il rencontre et son incapacité à appliquer les directives du sultan. A son incompréhension du système des *leff*, il faut ajouter son ignorance de la tachelhit et par conséquent le besoin de faire constamment appel «à un interprète pour discuter avec les notables»[78]. Il pouvait être ainsi plus facilement le jeu des manipulations politiques. Lors de l'expédition de 1886, il sera finalement relevé de ses fonctions et remplacé par Abdelqader Ziraoui.

Une lettre du sultan Moulay El Hassan nous apprend que des artisans spécialisés de Marrakech sont dirigés sur le chantier de Tiznit mais un témoignage local nous précise que ce sont, par un système de corvée, les hommes de Tiznit et des petits villages alentours qui lui sont rattachés, qui constituent la masse de la main d'œuvre employée pour ces travaux[79].

En tout les cas, les remparts sont agrandis et renforcés en un temps record. Quoi qu'il en soit, bien des années plus tard, ils ne laissent pas indifférents les premiers touristes : « l'arrivée sous les grands remparts roses, qui est splendide à toute heure du jour, que le soleil les trempe dans une pâle buée lumineuse, ou que l'ombre les fasse paraître plus rouges, découpant sous le ciel gris perle leur longue silhouette basse, dentelée et trapue »[80], même si pour d'autres, « les remparts, hauts de 5 mètres environ, épais d'un mètre seulement, ont l'air fragile »[81].

(77) - PASCON (Paul) et ENNAJI (Mohamed), Le Makhzen et le Sous el Aqsa, op.cit., p. 97. (78) -
(78) - Ibidem, p. 76.
(79) - Témoignage d'Afqir Lahsen, Atebban le 29 octobre 2009. Il s'agit de Doutergoua, Atebban, Tadouart et El Aouina. Ces petits villages voisins de Tiznit, qui jusque-là étaient tantôt alliés de Tiznit tantôt alliés à d'autres tribus, lui sont rattachés officiellement par dahir (décret sultanien).
(80) - DUGARD (Henry), La colonne du Sous, op.cit., p. 100.
(81) - SEGONZAC (René de), Voyages au Maroc (1899-1901), op.cit., carte hors texte.

Le premier est un riche négociant de Tassourt auquel Moulay El Hassan a confié la tâche de mener les travaux de fortification de Tiznit ainsi que la mission de confiance de gérer les taxes douanières du port de Tassourt destinées à financer ces travaux. L'élite des commerçants de Souira, originaire du Sous, fut d'une grande utilité pour le sultan qui l'utilisa plus d'une fois dans ses plans pour le Sous-extrême[(73)] .

Le second, est le représentant du sultan à Tiznit. La nomination et la destitution de ce personnage sont intéressantes à plus d'un titre car elles nous montrent les aléas du rattachement de la région du Sous au pouvoir central.

Au lendemain de sa première expédition dans le Sous, Moulay El Hassan avait voulu établir à Tiznit son représentant pour les tribus de la région. Quelle ne fut pas sa surprise de voir certaines d'entre elles refuser la décision sultanienne : « Moulai Lhasen décida de retourner dans le Gharb, laissant garnison à Tiznit. Il dit aux Ait Bamrane : ‘‘Je veux laisser à Tiznit quelque ‘‘baraka’’. C'est là que vous viendrez prendre la parole du maghzen’’. Ils se concertèrent entre eux. Puis Lhassen n Barka d'Aglou qui parlait arabe, revint avec eux près du sultan. ‘‘Nous ne voulons pas avoir affaire à Tiznit qui est Taoggouat. Nous autres, nous sommes Guezoula’’»[(74)] . Le système des *leff* [(75)] , inconnu dans le Gharb, ne permettait pas en effet l'application sur le terrain des projets du sultan. Finalement, Moulay El Hassan nomma deux représentants, l'un pour les Iheggouaten, l'autre pour les Iguizoulen. Le premier s'établit donc à Tiznit (El Hajj Messaoud Rachidi) pour *gérer* les Aït Tznit, Ida Oubaaqil, Ida Gouarsmoukt, El Maader et une partie des Imejjad; tandis que le second fut envoyé à Boutagmarin[(76)] (Bouazza Srifi El

(73) - SCHROETER (Daniel J.), Merchants of Essaouira : urban society and imperialism in southwestern Morocco (1844-1886), Cambridge, University press, 1988, p. 53 et 124.

(74) - JUSTINARD (Léopold), Les Aït Ba Amran, op.cit., p.110-111.

(75) - Toutes ces tribus du Sous se répartissent en deux grands leff, deux grandes ligues : celle des Iguizoulen et celle des Iheggouaten. Que dire de ces deux groupes sinon qu'ils n'ont cessé de se combattre pour le contrôle de la plaine et que c'est sur le leff des Iheggouaten que s'est toujours appuyé le pouvoir central lors de ses multiples expéditions dans le Sous.

(76) - « Le sultan l'avait laissé là en 1299 [1882] pour appuyer au besoin le caïd Brahim Ben Saïd. Il avait avec lui quatre vingt soldats et bivouaquaient au lieu-dit «Boutagmarin» près de la résidence du caïd Brahim Ben Saïd», dans SOUSSI (El Mokhtar), El Maassoul, volume 20, Casablanca, Najah, 1961, p. 13.

« Tiznit tekkatin yadelli tga aɣar lemwadiɛ, ur tli ṣṣur-ad li tla ɣil aylliɣ-enn yucka ugellid Mulay Lḥasan lɣalawi, ukwan yamer ad as issutel ṣṣur. Ukwan ar tibennu Si Muḥemmad n d Hemmu li igan lqqayd ɣakudan (Autrefois, Tiznit n'était qu'un groupement de villages, elle n'était pas dotée de ce rempart dont elle dispose aujourd'hui jusqu'à l'arrivée de Moulay El Hassan El Alaoui qui en ordonna sa construction. C'est Si Mohamed n Id Hemmou(69) , alors caïd, qui en supervisa l'édification) »(70).

Tiznit, citadelle du pouvoir central

Le choix de Moulay El Hassan pour Tiznit est assez logique en fait. Depuis longtemps, Tiznit dispose de ressources en eau très importantes, indispensables pour le maintient d'un contingent militaire. Elle dispose aussi de remparts qui ont fait leur preuve maintes fois, notamment face au puissant Sidi El Hachem, enfin elle est un des points de passage habituel des caravanes qui remontent vers Tassourt (Souira). Voici comment Panet nous décrit la prospère Tiznit de 1850 : « Le lendemain [21 mai 1850], j'étais à Tichint, village plus considérable que Noun. Son marché est un des plus importants de la route, et ses habitants, par leur tenue, semblent jouir d'une bonne aisance. On nous conduisit dans un caravansérail, maison destinée au logement des étrangers »(71) .

A partir de 1882 donc, avec des hauts et des bas, Tiznit devient le point d'appui du pouvoir central dans la région. Cette transformation s'inscrit dans le paysage avec l'agrandissement et le renforcement des remparts qui entouraient la cité. Ces travaux sont menés rapidement, puisqu'ils débutent en 1883 pour terminer en 1885. Ils sont l'œuvre d'El Hajj El Mahjoub Outoufelaaz et d'El Hajj Messaoud Rachidi(72).

(69) - Ici, notre ṭalb fait une petite confusion. Le premier caïd de Tiznit, nommé par Moulay El Hassan en 1882, fut Mohamed Ou Hessoun qui fut remplacé à sa mort (1893) par son frère Mhamed Ou Hessoun, dit Hemmou.

(70) - ROUX (Arsène), *La vie berbère par les textes, op. cit.,* p. 91 (traduction personnelle).

(71) PANET (Léopold), *Première exploration du Sahara occidental* : *relation d'un voyage du Sénégal au Maroc* (6 janvier-25 mai 1850), Paris, Le livre africain, 1968, p. 179.

(72) Dans une lettre de mai 1883, Moulay El Hassan annonce le début des travaux de fortification de Tiznit à El Housseyn Ou Hachem du Tazeroualt : « Dieu nous a donné la joie de pouvoir prendre la décision de fortifier Tiznit en y construisant des remparts. [...] Nous avons donc envoyé des ouvriers de Marrakech et un intendant de Mogador. Ce dernier, de concert avec notre serviteur Rachidi sera chargé de surveiller les travaux », dans PASCON (Paul) et ENNAJI (Mohamed), *Le Makhzen et le Sous el Aqsa. La correspondance politique de la Maison d'Iligh* (1821-1894), Paris, CNRS, 1988, p.79.

seulement par la grâce des *cherfa du Tafilalt* que les gens pourront mieux vivre, que les sources ne tariront pas et que les pluies bénéfiques seront plus régulières[64]. Ainsi, la *baraka* du sultan, *amir el mouminin*, est considérée comme supérieure à celle des ancêtres et des saints régionaux.

Il faut souligner que, dans le Sous en particulier et dans les zones rurales du Maroc en général, l'ordre climatique est perçu par les hommes comme la manière, pour Dieu, de manifester et de réaffirmer son autorité sur les pauvres mortels[65] . Quand la sécheresse frappe ces sociétés, elle est alors perçue comme une sanction divine due aux mauvais comportements de certains d'entres eux. Le plus souvent on avance, comme un leitmotiv, qu'aujourd'hui les gens ne respectent plus les lois, autant celles des hommes que celles de Dieu. Dans cette vision, l'*amir el mouminin* est vu comme l'intercesseur le plus qualifié entre la masse des croyants et Dieu tout puissant.

Pour preuve de cette baraka hassanienne, on parle encore de cette récolte extraordinaire qui eut lieu à Boumia[66] l'année suivant le passage de Moulay El Hassan au Sous. En effet, ce fut à cet endroit que le sultan et sa mehalla[67] établirent leurs campements lors des deux expéditions de 1882 et de 1886. Par contre, on n'a pas su me préciser si cette récolte eut lieu au lendemain de la première expédition ou à celui de la seconde[68] .

Quoi qu'il en soit, on constate aujourd'hui que certains habitants de la cité continuent d'affirmer, avec une certaine obstination tranquille, le même discours que celui que ce ṭalb des Aït Brayyim tenait dans les années 1950:

(64) - Témoignage de Si Hmed des Id Delha, Tiznit le 24 octobre 2009.

(65) - MITATRE (Claire-Cécile), «Régularités saisonnières, ordre calendaire et herméneutique des aléas climatiques chez les berbèrophones de l'Anti-Atlas (Sud marocain)», Cahiers de recherche du Centre Jacques Berque, 4, 2004, p. 62.

(66) - Lieu-dit situeé à l'est de Doutergoua (Si Hmed des Id Delha) auquel il est rattaché (Da Salh des Id Delha). C'était le lieu habituel des rencontres guerrières entre les Aït Tznit et les Aït El Maader (Si Hassan des Ida Oukfa).

(67) - Mehalla : terme arabe qui désigne la forte colonne militaire utilisée par les différents sultans de Marrakech ou de Fès pour soumettre les tribus rebelles à son autorité.

(68) - Témoignage de Si Hmed des Id Delha, Tiznit le 24 octobre 2009.

effacer toute trace de cette architecture particulière qui, aujourd'hui, ne se rappelle plus à nous que par le biais de quelques toponymes tel que imougadir ou imilqset qui nous indique l'ancienne entrée d'une de ces forteresses disparues. Précisément, à Tiznit, il existe deux imougadir, l'un dans le quartier des Id Delha, l'autre dans celui des Aït Mhemd, et un imilqset chez les Ida Oukfa. L'ancien toponyme d'Agadir des Ida Oukfa, relevé par la monographie de La Boissière, n'est plus connu aujourd'hui que par de très rares personnes (61).

A El Aouina et à Talaïnt de Doutergoua, on a pu constater que ces cités, encore ceinturées de remparts dans les années 1940, étaient constituées de différents fortins familiaux regroupant les principaux lignages qui les constituaient. Il n'y a donc pas contradiction entre l'existence d'un rempart et celui de ces multiples fortins lignagers à l'intérieur de la cité.

La baraka hassanienne

Et pourtant, c'est trop souvent la version de la création hassanienne qui domine quand on se penche sur les études des origines de la cité de Tiznit. Pour comprendre et expliquer cette situation, reprenons une phrase de Moulay El Hassan qui, après son expédition de 1882 et avant de repartir pour le Gharb(62) s'adresse aux tribus du Sous : « Je veux laisser à Tiznit quelque "baraka". C'est là que vous viendrez prendre la parole du maghzen »(63). La *baraka*, que l'on pourrait traduire par *flux divin et dynamique*, est, je pense, le maître-mot de l'explication.

Un des vieux sages de Tiznit avec qui nous avons eu de trop courts entretiens a conclu notre discussion autour du passé historique de sa cité par une prière-invocation destinée au *sultan* actuel, descendant direct de Moulay El Hassan qu'il considère comme fondateur de sa cité. Il affirme que c'est

(61) - Seul El Housseyn I.I. des Ida Oukfa a pu me confirmer son existence mais malheureusement le manque de temps ne m'a pas permis de le localiser avec précision (26 octobre 2009).

(62) - Gharb : fertile plaine alluviale de l'oued Sebou situé au Nord-Ouest du Maroc. Pendant longtemps, pour les Gens du Sous, il désigne surtout tout les territoires qui se trouvent au-delà de la barrière du Haut-Atlas occidental.

(63) - JUSTINARD (Léopold), Les Aït Ba Amran, Paris, Champion, 1930, p. 110.

En 1821 donc, les Aït Tznit mirent fin à un siège de sept mois par une audacieuse sortie en force, d'un seul mouvement, accomplie par les deux portes de la cité : «fuɣn sersn s sin lbiban»(55). Les assiégeants, paniqués par cette inopportune sortie et fortement bousculés, crurent que les Aït Tznit avaient reçu des renforts d'un parti voisin alors, sans demander leurs restes, ils s'enfuirent en toute hâte, abandonnant leurs campements sur place.

Si la légende des quatre villages réunis par les remparts hassaniens perdure depuis si longtemps, c'est qu'il a existé dans la cité de véritables petits fortins familiaux où l'on se regroupait par lignage(56). Ce type de groupement fortifié est dit *el qset*(57), terme particulier à Tiznit mais clairement dérivé du terme arabe *el qseba*. On peut avancer l'idée qu'anciennement ces *el qset* étaient dites *agadir* ou *tagadirt*. En effet, dans la région de Tiznit, « on rencontre fréquemment le toponyme d'Agadir (Ida Ou Qfa, Doutourga). Contrairement à ce que l'on est accoutumé d'observer dans l'Anti-Atlas, il ne s'agit pas là de magasins collectifs mais de véritables forteresses et le mot est ici synonyme de Kasba »(58). Ceci nous a été d'ailleurs confirmé par un vieux sage de Tiznit(59).

Cependant, avec les progrès rapides de l'arabisation, ce terme disparaît peu à peu au profit d'emprunts faits à la langue arabe : *el qseba, el qsebt, el qset*(60). De plus, la destruction des anciennes demeures fortifiées va jusqu'à

---

(55) - *Ibidem*.

(56) - El Housseyn A. des Aït Mhamed, se souvient encore de ces « el qset », avec leurs hautes tours et leurs lourdes portes en bois qui étaient fermées tous les soirs à heure fixe. Malheureusement, elles ont toutes été démolies et il n'existe pas, a` sa connaissance, de photos de ces monuments abattus (25 octobre 2009).

(57) - Le pluriel de ce terme est décliné localement sous la forme : « el qsebat ».

(58) - S.H.A.T., Capitaine DE LA BOISSIERE, *Monographie des Ahl Tiznit, op.cit*.

(59) - Témoignages d'El Housseyn I.I. des Ida Oukfa, Tiznit le 26 octobre 2009. Ce que nous confirme aussi Robert Montagne : «Le sens du mot «agadir» dans cette région [de Mast] est celui de forteresse, pas du tout celui de magasin[-collectif] », dans MONTAGNE (Robert), «Une tribu berbère du Sud marocain : Massat», Hespéris, 1924, p. 376 ; ainsi que l'explorateur catalan Gatell : «Je dirai en passant que Agader en langue Chelkha veut dire lieu entouré d'un mur ou lieu fortifié», dans GATELL (Joachim), « L'ouad Noun et le Tekna », *Bulletin de la Société de Géographie,* octobre 1869, p. 264.

(60) - A Lakhsas aussi, au sud de Tiznit, on constate un recul du toponyme « agadir », ici au bénéfice du terme « el qsebt ». Une antique forteresse perchée au fait d'une montagne est appelée aujourd'hui « el qsebt n'd el ɛerba » ; en fouillant dans les archives militaires française, j'ai découvert que, jusque dans les années 1930, elle était désignée sous le nom d'« agadir n'd el ɛerba » (S.H.A.T., Anonyme, *Axe de progression, Bou Namane-Tleta des Akhsas par Timejjat*, 1933, 3H1084).

Erckmann, chef de la Mission militaire française, accompagnant Moulay El Hassan à Tiznit en 1882, note que Tiznit est « une ville de 1000 habitants environ, autrefois fortifiée »(48) . Cela signifie que les murailles sont alors dans un triste état ou alors fait-il référence tout simplement à un ancien fortin érigé au début du 19ème siècle, par un caïd au milieu de la cité (49). Car pour ce qui est des remparts, ils étaient bien présents à l'époque. Ainsi, dans un rapport de 1940, l'officier qui tient la place nous affirme que « Tiznit possède encore des vestiges imposants des remparts édifiés à l'époque de la siba »(50). D'ailleurs, Segonzac aussi fait allusion aux remparts pré-hassanien de Tiznit lorsqu'il écrit qu'en 1882, Moulay El Hassan «acheva les remparts»(51) de la cité et non pas *il les érigea ou il les bâtit de toutes pièces*.

Enfin, la tradition orale vient à notre secours, puisque les deux portes(52) de la muraille de Tiznit, évoquées par Sidi Brahim de Mast, sont évoquées dans le récit du siège de Tiznit fomenté par le potentat du Tazeroualt, Sidi El Hachem (1821).

Devant la résistance acharnée des Aït Tznit, Sidi El Hachem fit le serment de se couper les cheveux au-dessus de leur source : «Labud an ksɣ azzar ɣ iggi lɛin n Tznit»(53) . A cela, les habitants de la cité lui répondirent fièrement:

> « ɣir a Sidi El Hachem ksat azzar-nnun, ama Tiznit muḥal ur ra ti-tkam, ɣir a Sidi El Hachem ksat amar-nnun, ama Tiznit gwbelnt d iferxan (Va donc couper tes cheveux ô Sidi El Hachem, car à Tiznit, il s'en faudra beaucoup que tu y parviennes, va donc te raser la barbe ô Sidi El Hachem, car à Tiznit, les jeunes guerriers font vigilances) »(54) .

(48) - ERCKMANN (Jules), Le Maroc moderne, Paris, Challamel, 1885, p. 56.

(49) - ROUX (Arsène), « Quelques documents manuscrits sur les campagnes de Moulay el Hassan », Hespéris, (22), 1936, p. 92.

(50) - S.H.A.T., Capitaine DE LA BOISSIERE, Monographie des Ahl Tiznit, op.cit.

(51) - SEGONZAC (René de), Voyages au Maroc (1899-1901), op.cit., p. 273.

(52) - Il semblerait que le percement de deux portes soit une particularité locale car les remparts de Talaïnt des Ouled Jerrar, érigés aux alentours de 1901, étaient eux-aussi percés de deux portes (dans OUBAHA (El Hassan), Eléments du patrimoine architecturale de Tiznit, op.cit., p. 37). D'après le témoignage de Tayeb A. des Id Zekri (27 octobre 2009), toutes les anciennes « qsbat » de Tiznit étaient, elles aussi, percées de deux portes monumentales.

(53) - Témoignage de Si Hassan des Id Delha, Tiznit le 24 octobre 2009 (traduction personnelle).

(54) - Témoignage de Tayeb A. des Id Zekri, Tiznit le 27 octobre 2009 (traduction personnelle).

l'organisation de l'habitat. La particularité de la cité de Tiznit, c'est l'emplacement du cimetière de Sidi Abderahman. En effet, habituellement, que ce soit en ville ou à la campagne, le cimetière est toujours situé à l'extérieur de la zone d'habitats. Néanmoins, « dans le cas de Tiznit il est situé en plein centre du bâtit, ce qui pourrait laisser supposer qu'il y avait un premier rassemblement humain ayant créé son cimetière puis vient un deuxième rassemblement qui par la force de la contrainte du site (existence d'un oued) va construire autour du cimetière et lui donner ainsi sa position centrale »(43) . Le premier rassemblement humain, situé sur la rive droite de l'assif de Tiznit, regroupe les Ida Oukfa et les Id Delha tandis que le second, sur la rive gauche de l'*assif*, est constitué par le groupement des Aït Mhamed et des Id Zekri.

Malgré tout ce que l'on vient d'exposer, l'existence ancienne de la cité de Tiznit est régulièrement remise en question, on continue aujourd'hui encore de lire ce genre d'affirmation : « Tiznit […] agglomération […] construite de toute pièce en 1881 par Moulay El Hassan »(44) ou encore : « Tiznit est l'œuvre du Sultan Moulay Hassane, elle fut terminée en 1885 »(45). La légende veut qu'avant la première expédition de Moulay El Hassan dans le Sous (1882), Tiznit n'était qu'un petit groupement en plaine de quatre villages répartis autour de la source. Rien de plus faux.

En 1834, voici ce que rapporte Sidi Brahim, ṭalb originaire de Mast (Massa), à propos de Tiznit : « Cet endroit est une sorte de ville entourée de tous côtés par un mur où il n'y a que deux portes. L'eau se trouve au centre dans une fontaine »(46). Le Châtelier affirme aussi de son côté que «lors de la campagne du Sous, en 1882 […] Tiznit était déjà un ksar de quelques importances»(47), c'est-à-dire que la cité était déjà ceinturée par un rempart au 19ème siècle.

(43) - YAMANI (Yahya) et KANDOUZ (Mohamed), Etude générale relative au plan d'aménagement de la ville de Tiznit, Municipalité de Tiznit, 2005, p. 19.

(44) - GADIOU (Vétérinaire-Major), « La situation économique du Sous », Revue de géographie marocaine, 1927, p. 143.

(45) - S.H.A.T., Anonyme, Tribu des Ahl Tiznit, 28 août 1942, 3H2155.

(46) - BASSET (René), Relation de Sidi Brahim de Massat, Paris, Leroux, 1882, p. 22.

(47) - LE CHATELIER (Alfred), Tribus du Sud-Ouest marocain : bassins côtiers entre Sous et Dra, Paris, Leroux, 1891, p. 14.

Naissance de la cité de Tiznit

Qu'en est-il réellement des origines de ce groupement humain de Tiznit ? Le document le plus ancien qui fait référence à Tiznit remonte à la fin du 16ème siècle ; il y est fait référence à la communauté des Aït Tznit. Il s'agit d'un document sur l'expédition du sultan saadien, Moulay Hmed El Mansour Dehbi (988 c/à 1580) dans le Sous(39) . Tiznit est désignée comme le lieu d'une étape de l'expédition et comme appartenant aux Ida Oultit(40) . Des liens existent encore entre Tiznit et cette confédération tribale, ainsi, dans les années 1940, à chaque printemps six cents ou huit cents chèvres et moutons des Ida Oultit, essentiellement des Ida Oubaaqil de la montagne, viennent transhumer sur les terrains de parcours appartenant aux habitants de Tiznit(41) .

Les Aït Tznit se divisent en Aït Mhamed, Ida Oukfa, Id Delha et Id Zekri. Les diverses fractions qui les composent sont constituées de groupements venus des montagnes avoisinantes, à des époques différentes, s'établir sur le site de Tiznit(42) . Diverses versions existent sur ces migrations d'hommes et de femmes venus s'établir à Tiznit. Ce que l'on peut dire, avec le moins de chance de se tromper, c'est qu'un noyau originel, les Ida Oukfa et les Id Delha, est venu s'installer autour de la source puis, dans un second temps, les Aït Mhamed les ont rejoints suivis peu après par les Id Zekri.

Ce qui nous a amené à cette présentation de l'établissement des différents groupes humains qui composent les Aït Tznit, c'est l'observation de

(39) - JUSTINARD (Léopold), Notes sur l'histoire du Sous au 16ème siècle, op.cit., p. 175.

(40) - Ibidem, p. 182. Les Ida Oultit sont une confédération tribale qui regroupe les Ida Ousemlal, les Ida Gouarsmoukt et les Ida Oubaaqil.

(41) - S.H.A.T., Capitaine DE LA BOISSIERE, Monographie des Ahl Tiznit, op.cit.

(42) - D'après Si Hmed des Id Delha, les habitants de Tiznit sont tous originaires des Ida Oultit, principalement des Ida Oubaaqil ; non seulement Tiznit mais aussi tous ceux de la région jusqu'à l'océan, Aglou inclus (24 octobre 2009). C'est un peu ce que nous rapporte l'officier français en poste à Tiznit en 1926 : « Les Ida ou Baaquil et les Ersmouka occupent le versant ouest de la chaîne, les Ersmouka au Nord, les Ida ou Baaquil au sud. Leur territoire s'étendait jadis jusqu'à la mer (les Ahl Tiznit et les Ahl Sahel sont originaires des Ida ou Baaquil) », dans S.H.A.T., Capitaine ROUSSELLE, Notice sur les tribus insoumises ressortissant à la Marche de Tiznit, 30 janvier 1926, 3H2155.

sources ont la réputation d'avoir été découvertes par une chienne[32] . Celle d'El Aouina a été découverte par la chienne d'un berger[33] ; celle d'Agjgal du Tazeroualt, par la chienne d'un chasseur [34]. Dans une des versions de la légende de la source de Tiznit, recueillie sur place en 1917, on retrouve la chienne d'un mystérieux chasseur, « ami » de Lalla Zniniya [35].

Dans ces récits mythiques, la place d'un animal (le chien), habituellement «synonyme d'impureté et de souillure»[36], est prépondérante. En l'occurrence ici, il s'agit à chaque fois de la femelle de l'animal. C'est la chienne qui découvre et qui guide l'homme (chasseur ou berger) vers la source, vers la vie. La chienne est donc ici synonyme de fécondité, de plus, il faut signaler qu'il n'y a pas une mythologie dans le monde «qui n'ait associé le chien [...] au monde du dessous, aux empires invisibles que régissent les divinités chtoniennes »[37] . C'est en effet du sous-sol obscur et mystérieux que surgit l'eau vivifiante[38] .

On peut supposer que la légende originale de la découverte de la source de Tiznit ne faisait référence qu'à un chasseur accompagné de sa chienne. Ce n'est que plus tard, sous l'influence d'écrits de ṭelba ennemis de Tiznit, basés sur une explication étymologique pour le moins surprenante, que le personnage disparaît peu à peu pour laisser place à l'image d'une femme repentie : Lalla Zniniya. L'image de la chienne a notamment été complètement occultée des versions écrites mais persiste encore dans les versions orales.

---

(32) - On trouve aussi l'image de la chèvre pour certaines sources de la région comme pour Talaïnt des Ouled Jerrar ou pour Aghbalou de Mast.

(33) - Témoignage d'El Housseyn, originaire d'El Aouina, Tiznit le 27 octobre 2009.

(34) - PASCON (Paul), La Maison d'Iligh et l'histoire sociale du Tazerwalt, Rabat, SMER, 1984, p. 29.

(35) - DUGARD (Henry), La colonne du Sous, Paris, Perrin, 1918, p. 102.

(36) - CHEBEL (Malek), Dictionnaire des symboles musulmans. Rites, mystique et civilisation, Paris, Albin Michel, 2000, p. 96.

(37) - CHEVALIER (Jean) et GHEERBRANT (Alain), Dictionnaire des symboles. Mythes, rêves, coutumes, gestes, formes, figures, couleurs, nombres, Paris, Robert Lafont, 1979, p. 239.

(38) - En règle générale, dans les légendes relatives à l'eau, le puits est presque totalement absent. C'est qu'il n'est pas le produit d'une force de la nature mais de celui de l'homme. Il n'y a aucune action miraculeuse dans ce dur travail de creusement et de maconnerie.

central. Proposition à laquelle le président de commune s'opposa. Quoi qu'il en fût des faits exacts, le projet n'aboutit jamais.

Mais cette histoire nous montre le degré d'intégration de cette légende honteuse par certains habitants de Tiznit. Plusieurs raisons à cela. Tout d'abord, la place de la langue arabe en tant que langue de référence cultuelle et culturelle. La tachelhit est vue comme un simple dialecte, comme une sorte de parler destiné uniquement aux simples et pauvres d'esprit et non comme une langue à part entière. C'est ainsi qu'un *ṭalb* de la région nous présente en tout cas Tiznit et ses habitants :

> « Belḥaq agwns lmdint ur yastwa, illa sul gis ugdṛur d iẓran d irkan. Id babns gan kullu aɣar Icelḥin, gan sul lɣwcma waxxa nit lemden ad sawalen s taɛrabt (En vérité, l'intérieur de la cité n'est pas très bon, il y a toujours beaucoup de poussière, de pierres et d'immondices. Ses habitants sont tous des Ichelhin, ils sont encore gens simples et naïfs bien qu'ils aient commencé à apprendre à parler l'arabe) »(29) .

Avec les progrès de l'arabisation, malheureusement, cette façon de voir les choses ne fait que s'accentuer.

De plus, depuis la fin du 19ème siècle, Tiznit est devenue une place forte importante où de très nombreux contingents militaires se sont succédés. De par le monde, quelle que soit la société ou la culture, la prostitution accompagne toujours l'établissement de la soldatesque. Ainsi, avec la présence des troupes, et pendant longtemps, «les "filles de la joie", dont l'allure est dans ce pays aussi réservée que de nonnes»(30) proliférèrent à Tiznit, donnant de nouveaux arguments aux inconditionnels de la légende de Lalla Zniniya (31).

Et pourtant, en s'intéressant d'un peu plus près aux légendes qui gravitent autour des découvertes des sources dans la région de Tiznit, on note que l'image de la chienne est centrale. En effet, dans la région, de nombreuses

(29) - ROUX (Arsène), La vie berbère par les textes, op.cit., p. 91 (traduction personnelle).
(30) - JUSTINARD (Léopold), Un grand chef berbère. Le caïd Goundafi, op.cit. p. 164.
(31) - Sans parler du fameux calembour que l'on répète encore aujourd'hui en guise de proverbe grivois : « Tiznit : qqu, tzrit » « Tiznit : fornique et passe ton chemin ».

«fornication». En suivant cet étymologie particulière, les habitants de Tiznit seraient alors des «ouled zina» (adultérins)(24) en arabe littéraire ou des «ouled zna» (enfants du pêché) en *darija*.

Dans la société tribale de l'époque, il était de règle qu'une tribu en dénigre une autre, ainsi les « ennemis des Aït Ba Amran les font descendre d'un ''hartani'' de Timezlit [El Maader], nommé naturellement Ba Amran»(25).

Et pourtant, si l'étymologie de tiznit demeure incertaine(26) , le toponyme en tant que tel est plus répandu qu'on ne le pense. Il existe ainsi, dans la région, un village du nom de Tiznit Oumazzer dans la montagne des Ida Oubaaqil (fraction Aït Issaffen)(27). On trouve aussi, sur les versants méridionaux du Haut-Atlas, un autre village de Tiznit, dans la tribu des Aït Iggas (fraction Aït Tergoua)(28) .

Par contre ce qui est surprenant, c'est que les habitants de la cité aient, en partie, adopté cette légende dénigrante. L'adoption de cette étymologie a pris de telle proportion que, dans les années 1980, la cité faillit changer de nom. Au sujet de cette histoire, deux versions nous ont été communiquées. La première nous présente des parlementaires de la région de Tiznit, fatigués de subir les sarcasmes et les jeux de mots de leurs collègues de la capitale à propos de leur ville d'origine, et convaincus eux-mêmes de l'origine honteuse de leur cité, demandèrent à changer le nom de Tiznit pour celui de Medina El Hassaniya. Il y eut alors une forte opposition à cela, de nombreuses réactions de l'étranger se seraient aussi élever contre cette proposition ubuesque. La légende veut que le propre fils du fameux Qebtan Chelh (le colonel Justinard), se soit lui aussi opposé à ce projet. Une seconde version nous présente le dessein du changement de nom comme une demande venue du pouvoir

(24) - TEDJINI (A.B.), Dictionnaire français-marocain, Paris, Société d'éditions Géographiques, Maritimes et Coloniales, 1939, p.6.
(25) - MONTEIL (Vincent), Notes sur Ifni et les Aït Ba Amran, Paris, Larose, 1948, p. 31.
(26) - Si l'on en croit Jordan, le terme de « tiznit » ou « tisnit » désignerait une « corbeille » (dans JORDAN (Antoine), Dictionnaire Berbère-français, Rabat, Omnia, 1934, p. 144).
(27) - S.H.A.T., Anonyme, Tribu des Ida ou Baquil, Anzi le 20 février 1953, 3H2009.
(28) - Secrétariat Général du Protectorat, Répertoire des tribus, Casablanca, Imprimeries Réunies, 1939, p. 836.

repentir dans son cœur. Elle se repentit d'un cœur sincère, pleura ses pêchés et s'expatria jusqu'à ce qu'elle arriva au lieu où est bâti Tiznit»(21) . Dans les versions écrites, c'est elle seule qui découvre la source alors que dans les versions orales c'est sa chienne qui la découvre. Cette sainte, connue actuellement sous le nom de Lalla Zniniya, a son tombeau dans la mosquée des Ida Oukfa (*timzgid n Ida Ukfa*)(22) où elle est l'objet de nombreuses visites pieuses de la part des habitants(23) .

Une première remarque tout d'abord. Indéniablement, le nom de la sainte, Zniniya, est une arabisation du nom de la cité : Tiznit. Elle serait le résultat d'une curieuse logique, celle de vouloir à tout prix expliquer l'étymologie de nom ou de toponyme amazigh par le biais de la langue des *Qoraïch*. Il s'agit ici de l'œuvre «d'amoureux de la langue arabe», de ṭelba originaires des tribus ennemies de celle des Aït Tznit qui cherchent à ternir l'ascendance de leurs adversaires. Cette façon de faire, par des hommes habitués à voir la vie et le monde qui les entourent à travers le prisme de la religion et à la commenter par le biais de la langue qui la véhicule (l'arabe), ne nous parait pas très étonnante.

En arabe littéraire, le terme de «zina» désigne l'adultère ; ce mot est passé dans l'arabe dialectal (darija) sous la forme «zna» avec le sens général de

(21) - JUSTINARD (Léopold), « Notes sur l'histoire du Sous au 16ème siècle », Archives marocaines, (29), 1933, p. 180.

(22) - D'après les croyances dites populaires, Lalla Zniniya repose aujourd'hui dans la mosquée des Ida Oukfa, en fait, il s'agit là de deux tombeaux patinés par le temps et sans doute par la main des pèlerins venant y chercher un peu de baraka des saints enterrés là. Bien qu'il s'agisse de deux tombes identiques, de même taille, la tradition orale les attribue à Lalla Zniniya et à sa chienne ! Ceci sans d'ailleurs pouvoir différencier la tombe de la sainte femme de celle de son animal de compagnie.

(23) - Abderahman Lakhsassi nous a aimablement communiqué les informations suivantes : dans les années 1950, les élèves de la mosquée des Ida Oukfa, avant de sortir, en fin de matinée et en fin d'après-midi, faisaient tous ensemble une prière-invocation devant la tombe de Lalla Zniniya. Toute personne qui entrait dans la mosquée (surtout pour la première fois) en faisait de même. A cette époque, il n'y avait pas la grille qui protège aujourd'hui l'accès aux tombes de Lalla Zniniya et de sa chienne, et la terre où elles reposent n'avait pas encore été recouverte d'une couche de ciment et de plâtre. Ainsi, chaque fois qu'un élève avait une écorchure, il la couvrait d'un peu de cette terre prise sur la tombe de la sainte afin d'accélérer sa guérison. Aujourd'hui, toutes ces pratiques sont tombées en désuétude par l'action combinée du courant salafiste et de la scolarisation.

Contes d'autrefois et légendes calomnieuses

Autour du nom de Tiznit, s'est édifiée une légende ancienne et persistante qui jette sur la cité et ses habitants l'opprobre d'une origine honteuse.

Comme le rapporte Segonzac, cette fable fut « inventée sans doute par des voisins jaloux »[18] .

A ce propos, une petite parenthèse s'impose : pour protéger leur source, les Aït Tznit ont dû longtemps lutter contre les convoitises des tribus voisines. C'est dans ces combats que les fractions qui forment les Aït Tznit ont forgé leur cohésion, face à l'ennemi du dehors : «ils ont formé un amalgame cohérent et ont pris une mentalité nettement caractérisée, mentalité tenue en basse estime par leurs voisins»[19] . Il va sans dire que ce dernier jugement de valeur est celui de voisins avides et envieux. Il participe de ce discours de dénigrement qui a nourri l'étymologie peu flatteuse dont a été sujette Tiznit. La tradition orale ne s'y est pas trompée et met régulièrement en garde les divisions internes qui pourraient permettre l'intrusion des étrangers, les *Ayt U Ayt*, et qui amènerait la perte définitive de la cité. L'exemple des petites cités du Dra, phagocytées par les Ida Oublal car invités à s'introduire dans les conflits internes par l'un des partis, dont nous parle Foucauld[20], en est l'exemple le plus parlant. Sans parler de la légendaire Tamdoult qui fut livrée à un parti étranger par l'un de ses habitants, fatigué des humiliations que lui faisaient subir ses compatriotes. Fermons à présent la parenthèse.

Plusieurs versions de la légende de la fondation de Tiznit circulent, aussi bien dans la culture orale que dans de vieux manuscrits. Pour résumer, on doit la découverte de la source à une femme qui «était connue pour sa mauvaise conduite. Elle vécut longtemps de cette façon, amassant de grands biens. Quand Dieu voulut lui pardonner ses pêchés, il fit descendre le

(18) - SEGONZAC (René de), « Le Sud marocain », Afrique Française, mai-juin 1917, p. 132.
(19) - S.H.A.T., Lieutenant BENCHEIKH, Fiche de la tribu des Ahl Tiznit, op.cit.
(20) - FOUCAULD (Charles de), Reconnaissance au Maroc (1883-1884), Paris, Challamel, 1888, p.145.

ḥesun»[11] du nom du découvreur de la précieuse source ou de celui de son premier propriétaire.

A l'instar de la source de Doutergoua qui porte le nom de «talɛint n Iccu»[12] et de la source d'El Aouina qui est dite localement : «talɛint n Da Ublal»[13], on peut supposer qu'avant l'irruption du pouvoir central dans la région, la source de Tiznit devait être appelée tout simplement : «talɛint n Tznit».

La cité de Tiznit est traversée par le cours d'une rivière intermittente au faible débit mais avec des crues violentes qui peuvent être parfois dévastatrices comme celle de 1938 lorsque «l'assif (la rivière ou le cours d'eau) mit à bas le rempart de Tiznit à son entrée et à sa sortie de la ville»[14]. A mes questions sur le nom de ce cours d'eau, plusieurs vieux sages de la place m'assurent qu'ils ne la désignent que par le terme générique d'*asif*[15]. Segonzac qui a visité la cité en 1899, nous rapporte que c'est le cours d'eau qui donne son nom à la cité qu'il traverse : «oued Tiznit»[16]. A l'heure actuelle, de plus en plus d'écrits avancent le nom de «oued sen» ou «assif toukhsin» pour le cours d'eau de Tiznit. Cependant, il s'avère que ce nom n'est que celui d'un des nombreux petits torrents descendus de l'Ighir Melloulen et venus alimenter l'«assif n Tznit», il est dit localement «talat n toukhsin»[17].

(11) - OUBAHA (El Hassan), Eléments du patrimoine architectural de Tiznit : sauvegarde grâce au tourisme, sous la direction de DERKAOUI (Chadia), Université d'Agadir, 2004, p. 33.

(12) - Témoignage de Saïd, habitant de Doutergoua, Tiznit le 30 octobre 2009.

(13) - Témoignage d'Abdoullah I.A. et de Da Blal, habitants d'El Aouina, El Aouina le 25 octobre 2009.

(14) - S.H.A.T., Capitaine DE LA BOISSIERE, Monographie des Ahl Tiznit, op.cit.

(15) - D'après le témoignage de Da Salh des Id Delha : « asif ka yas ntinni (on l'appelle seulement la rivière) », ce que nous confirme Si Hassan des Ida Oukfa : « ar as ttinin aɣar asif (les gens l'appellent seulement la rivière) ».

(16) - « [...] auprès d'un pauvre village qu'on nommait Tiznit, du nom d'un oued desséché qui le traversait » dans SEGONZAC (René de), Voyages au Maroc (1899-1901), Paris, Armand Colin, 1903, p. 272.

(17) - Témoignage de Da Salh des Id Delha, Tiznit le 23 octobre 2009.

juste : un tiers aux Ouled Jerrar et les deux tiers restant aux Aït Tznit[8] . Les travaux furent achevés en novembre 1926.

Dans cette partie du Sous extrême, depuis le départ des importants groupes nomades qui occupaient la majeure partie de la plaine jusqu'à l'époque saadienne, soit le 16ème siècle, des sources étaient régulièrement découvertes et mises en exploitation par les agriculteurs-sédentaires.

Par une simple lecture du vocabulaire terminologique utilisé dans la région pour désigner les localités nées autour d'une source, on peut établir une ébauche de classement chronologique de celles-ci. Les plus anciennes sont désignées par l'antique terme d'*aɣbalu*. On trouve un village qui porte le nom d'Aghbalou à Mast (Massa) ; à Ouijjan, «la très ancienne source voutée»[9] est dite localement *aɣbalu* ; et enfin un des villages des Ouled Jerrar s'appelle Ighboula[10] (pluriel d'*aɣbalu*). Les émergences les plus récentes sont désignées par le vocable d'el ɛin. Entre ces deux périodes extrêmes, on utilisa longtemps le terme de *talɛint*.

Le cycle d'arabisation a été ici jusqu'à son terme puisqu'aujourd'hui, quasiment aucun tachelhitophone ne peut donner l'explication du terme d'*aɣbalu* alors que celui d'*el ɛin* est largement connu pour la simple raison qu'il est le seul usité de nos jours pour désigner une source.

Une des sources les plus, relativement, récente dans la région est celle de «talɛint n Ayt Jerrar», découverte en 1718 et dite localement, «el ɛin

(8) - Plus précisément : « En 1925, le Bureau avec l'aide de la REIP aménagea la source de Reggada, l'achemina sous buses à Tiznit, et de ce fait, obtint un débit de beaucoup supérieur à celui que donnait l'Aïn El Qedim qui fut désaffecté. L'arrangement suivant fut conclu. 1/3 de l'eau restait à Reggada ; 1/3 fut pris en compte par la REIP pour l'alimentation en eau potable du centre ; le 1/3 restant fut partagé en deux. 1/2 qui correspondait au débit de l'aïn El Qedim alla à l'irrigation des ahl Tiznit, l'autre 1/2 fut employé par le Bureau AI pour la mise en valeur du Centre (jardins administratifs, pépinières, etc.) et l'octroi aux pauvres et aux anciens militaires de certaine part d'eau», dans S.H.A.T., Lieutenant BENCHEIKH, *Fiche de la tribu des Ahl Tiznit*, 1951, 3H2155.

(9) - JUSTINARD (Léopold), Un grand chef berbère. Le caïd Goundafi, Casablanca, Atlantides, 1951, p. 150.

(10) - « [...] les deux sources d'Ighboula sont distantes l'une de l'autre d'environ 150 mètres », dans S.H.A.T., Capitaine VARLET, Monographie des Ouled Jerrar, mai 1940, 3H2003.

Aït Tznit et les Ouled Jerrar. Pendant de longues périodes alors, les jardins de Tiznit dépérissaient par manque d'eau(4) .

Il faut attendre l'arrivée du premier officier français à Tiznit, le capitaine Justinard, pour qu'il y ait un premier début d'amélioration (octobre 1916). Ce dernier constate à son arrivée : «Pour se faire accepter des gens de Tiznit il serait d'abord urgent de leur donner de l'eau. Je m'y emploie activement auprès du Djerarri et j'espère arriver à une solution satisfaisante»(5) . Lui et le caïd Outgountaft(6) s'essayent à résoudre la situation au profit des habitants de Tiznit, allant jusqu'à fermer d'autorité la source de Reggada pour permettre l'irrigation des jardins de leur cité. Cependant, cette solution ne réglait pas d'une façon juste la situation car les Ouled Jerrar se trouvaient, à leur tour, désavantagés.

Ce conflit dura jusqu'à l'arrivée du capitaine Rousselle à Tiznit. « Après des pourparlers avec le caïd Ayad, le Makhzen organisa de nouveaux travaux que devaient effectuer les hommes du caïd El Jerrari»(7). Ces travaux durèrent un an, ils permirent de distribuer l'eau de la source d'une façon plus

(4) - « Les vieux habitants de la ville racontent qu'il arrivait lors des conflits opposant les Tiznitis et les gens de Had Reggada [des Ouled Jerrar] que l'eau fut coupée mettant ainsi la ville en péril » dans GUIBERT (Jacques), *L'histoire d'une ville* : *Tiznit,* EHESS, Mémoire sous la direction de TILLION (Germaine), 1979, p. 96.

(5) - C.A.D.N., Capitaine JUSTINARD, *Lettre au Général commandant la région de Marrakech, Tiznit* le 29 octobre 1916, RDM 622. Une activité qui m'a été confirmée par le témoignage d'un vieux sage de Tiznit qui rapporte quà ce moment-là, le capitaine Justinard s'inquiètait régulièrement de l'état de la source, demandant souvent aux gens : « uckan waman ? », « les eaux sont-elles de retour ? » (Témoignage de Da Salh des Id Delha, Tiznit le 23 octobre 2009).

(6) - De 1917 à 1921, le caïd Tayeb Outgountaft (El Goundafi en arabe), établi à Tiznit, a la charge de naïb (représentant) du sultan pour tout le Sous extrême. Etonnamment, aujourd'hui, chez nombre de nobles vieillards de Tiznit, le nom de ce puissant personnage s'est conservé sous une forme particulière : « *Agountaf* ». Et pourtant, à quelques kilomètres à l'est de la cité, à Ouijjan, le nom de ce riche caïd s'est conservé intact. Sa présence dans la région coïncide en effet avec un cycle de très bonnes années agricoles à laquelle on associe son souvenir, ainsi, on désigne cette période par l'expression de «*ṣabt n Utguntaft*» que l'on pourrait traduire par «*la prospérité* [de l'époque] *d'Outgountaft* » (témoignage de Moulay Abella de Ouijjan, 11 novembre 2008).

(7) - EL IGOURARI (Mohamed), *Rawda el Afnan,* édité et annoté par ANOUCHE (Hamdi), Université d'gadir, 1998, p. 83 (traduction personnelle).

L'eau, source de vie

A l'origine de la cité de Tiznit, il y a la source dite localement «el ɛin aqdim»[1] , nom que l'on pourrait traduire par : «la source ancienne». Ce nom nous renvoie fatalement à une hypothétique «el ɛin el jdid», «la source neuve». Pourtant, il n'y a qu'une source connue à Tiznit. Pour élucider le «mystère», il faut en fait sortir de la cité et parcourir une dizaine de kilomètres vers le sud pour trouver la fameuse « nouvelle » source chez les voisins Ouled Jerrar ; il s'agit de la source appelée Reggada.

D'après le témoignage d'un ṭ*alb* des Aït Brayyim :

> « Illa gis yan lɛin igan aqdim, macc drusen gis ɣilad waman. Nettan a sa yadelli sswan Ayt Tznit targwa-nsen. Amma ɣilad ar tsswan s waman lid yiwi lmexzen ammas n Ayt Jerrar, ɣ lɛin n Reggada (Il y a une ancienne source, mais aujourd'hui son débit est très bas. C'est avec son eau qu'autrefois les Aït Tznit irriguaient leurs champs et leurs vergers. Mais aujourd'hui, ils n'irriguent plus qu'à l'aide de l'eau qu'a fait venir le Gouvernement depuis les Aït Jerrar, depuis la source de Reggada)»[2].

En réalité, c'est une même importante rivière souterraine qui alimente les sources de Reggada et de Tiznit. La mise en exploitation de la source de Reggada, en amont de celle de Tiznit, perturbe automatiquement et durement cette dernière.

Vers 1911, un homme des Ouled Jerrar «forait un puits au lieu dit El Bnaouer à Reggada. A une quinzaine de mètres de profondeur, il entendit sourdre une source. Il en rendit compte au caïd Jerrari. On ouvrit une rhétarra qui rencontra le cheminement d'une source. C'était la tête de source de l'Ain Tiznit»[3] . A partir de ce moment, ce ne fut que conflits et tensions entre les

---

(1) - D'après le témoignage de Tayeb A. des Id Zekri (Tiznit, le 27 octobre 2009), le nom de «*ɛin zerqa*», qui est utilisé parfois pour désigner la source de la cité, n'est qu'un surnom destiné aux dépliants touristiques chargés de vanter les charmes de Tiznit.

(2) - ROUX (Arsène), *La vie berbère par les textes,* Paris, Larose, 1955 (traduction personnelle).

(3) - S.H.A.T., Capitaine DE LA BOISSIERE, *Monographie des Ahl Tiznit*, Tiznit, le 10 mars 1940, 3H2155.

Origine, évolution et devenir du patrimoine bâti de Tiznit

Rachid Agrour
Mbark Wanaïm
IRCAM

C'est dans le cadre d'un travail sur le patrimoine bâti que nous avons choisi la ville de Tiznit comme sujet d'étude général. Nous avons privilégié une approche pluridisciplinaire, en utilisant en particulier les ressources de l'histoire et de l'anthropologie. Ce double regard d'anthropologue-historien nous permet une meilleure analyse des sujets d'hier et d'aujourd'hui. Notre but étant d'appréhender pour le mieux l'évolution de la cité afin par la suite de l'analyser et de tenter, à chaque fois que cela est possible, d'en donner une explication.

Tout d'abord, nous commencerons ce travail par une large étude sur les origines de Tiznit, son histoire et ses légendes, et sur la constitution d'un village fortifié qui fut, plus tard, renforcé par l'intervention de Moulay el Hassan.

Ensuite, nous nous attacherons à comprendre et à analyser les conséquences du rattachement au pouvoir central de cette entité tribale, aussi bien au sein de la cité que sur le plan régional. Nous nous intéresserons particulièrement au domaine politique par le biais de l'étude de plusieurs édifices symboliques et de l'apparition d'un nouveau vocabulaire de l'autorité.

Enfin, nous nous pencherons sur les travaux anciens et récents de rénovation et de réaménagement de certains monuments de Tiznit. Ce faisant, nous tenterons d'analyser le rôle de la société civile et des pouvoirs publics dans la prise de conscience patrimoniale. Pour finir, nous ferons quelques observations sur un versant de la culture urbaine de Tiznit et de la région du Sous.

• *Traditions orales :*

Interviewés	Age	Profession
Adda Mahjoub N’ssanni	100	Retraité
Lhaj Mohamed Lgarb	78	Retraité
Da Fayel Belkass	80	Retraité
Boukhriss Mohamed	70	Ancien chauffeur d’Aglaou
Jakane	80	retraité
Rakik	34	Guide dans la Kasbah de Taourirt
Boussaleh Mohemed	-	Directeur de CERKAS
Salhi Molay Mehdi	-	Ecrivain (Délégation de culture)
Naceur Oujri	-	Président du Syndicat des Figurants de Ouarzazate,

Références bibliographiques

-Boussalh, M, (1999), « Patrimoine architectural au Maroc : propositions de création d'un équipement culturel intégré dans la kasbah de Taourirt à Ouarzazate ». Mémoire de 3eme cycle, Université Senghor, Alexandrie, Egypte. 25p.

- CERKAS, (2005), « Manuel de conservation du patrimoine architectural en terre des vallées présahariennes au Maroc ». 22p.

- Chenane, A. (2001), « La gestion du patrimoine et de la biodiversité confrontée aux intérêts des populations locales ». L'exemple du parc national de l'Ahaggar Tamarrasset-Algérie ». CIHEAM, Montpellier, 200 p.

- Fathy, H, (1981), « De l'implicite en architecture ». Préface de l'ouvrage de René RAVEREAU. Le M'zab, une leçon d'architecture. Paris : Sindbad, p.13.

- Jeanne M. Gentilleau, (1999), « Architecture au sud Marocain, architectures du sud yémen : similitudes et différences » in l'Architecture de Terre en Méditerranée » Série : Colloques et Séminaires N°80. Publication de FLSH, rabat, coordination Mohammed Hammam.

- Jlok. M, (2001), « Habitat et patrimoine au Maroc présaharien : Etat des lieux, évolution et perspectives de développement ». Cas : D'Ighrem n'Igoulmi. Mémoire de 3ème cycle, Université Senghor, Alexandrie, Egypte. 35p.

- Laoust, E, (1993), « Le nom berbre du qsar/igrhem » : Institut des Hautes Etudes Marocaines, Rabat. Larosse, Paris. pp 23-54.

- Lenoir.M, (1985), « la méditerranée occidentale, Maroc », in Documents de l'Archéologie Françaises, N°2. Editions de la Maison des Sciences de l'Homme, Paris, P.47.

- Zerhouni, Selma, Élie Mouyal, Hubert Guillaud, (2001), « Architecture de terre au Maroc ». Ed. ACR, Collection Architecture et Arts décoratifs. Paris, 25p.

- la promotion, la sensibilisation en éveillant la connaissance et la compréhension du patrimoine culturel par des programmes éducatifs en milieu scolaire.
- Inciter la population à participer à la sauvegarde et à la mise en valeur du patrimoine local ;
- Utilisation des techniques modernes des médias, de l'audio-visuel et de publicité pour faciliter son classement mondial.
- Renforcement des capacités des acteurs locaux, dont dépendent la gestion et le devenir du ksar. Cette démarche consisterait à développer plusieurs axes d'intervention, au regard du déficit constaté et des besoins de la population
- Encadrement et accompagnement des formations et la mise en œuvre et le suivi des actions de sauvegarde. (CERKAS, associations etc.)

Conclusion

L'élaboration d'une stratégie patrimoniale claire et adaptée pour la mise en valeur du patrimoine architectural repose essentiellement sur leur valorisation dans le respect de l'environnement oasien tout en considérant l'évolution du bien être de la population concernée. Etant donné que la problématique du patrimoine de kasbah Taourirte, est liée à celle de la conservation du bâti en terre, elle ne doit pas être une problématique isolée, mais, envisagée conjointement avec le développement et l'aménagement de la zone. La conservation de ce site historique ne peut en effet être limitée aux aspects purement techniques mais doit garantir une maîtrise de la gestion des communes qui les abritent. Il s'agit de définir des actions basées sur une approche globale transversale et participative pour la sauvegarde et la conservation du patrimoine architectural qui intègre leur environnement physique, culturel, social et économique. Cela en adéquation avec les questions essentielles du renouveau et du réemploi du matériau terre crue et de la lutte pour l'éradication de la pauvreté, le respect de l'environnement, l'écologie et le maintien de la diversité culturelle. Il est aussi nécessaire de concevoir une stratégie d'action plus ambitieuse et plus innovante, qui associe les formes particulières d'expression culturelles et sociales dans la perspective d'un développement local durable.

même période s'élève à plus de 95.554 emplois temporaires qui regroupent les figurants, les artisans, les techniciens et les administratifs. Le répertoire de la kasbah de Taourirt est riche en tournage des films, notamment ceux de la Bible et d'autres filmes historiques de renommé internationale (Solomon, Joseph, Moses, Samsim, David, Abraham…). A ce titre, le secteur de ciné-tourisme est devenu l'un des vecteurs de l'économie locale, du fait qu'elle crée des emplois directs et indirects, en augmentant le taux de fréquentation touristique par une clientèle de ce créneau, et par conséquent la valorisation des ressources territoriales.

Nous pouvons donc réfléchir sur la pertinence de la mise en réseau comme outil et forme d'organisation pour fédérer et réunir les acteurs du cinéma et du tourisme. Il est important d'identifier les acteurs concernés pour comprendre les logiques d'action et de fonctionnement. Le but de cette identification est de trouver les synergies possibles entre les acteurs autour de finalités communes pendant le tournage mais aussi en amont et aval, en s'appuyant sur des cas pratiques d'opérations réalisées en France et à l'étranger.

- La mise en place d'une structure administrative indépendante responsable des questions de préservation, de restauration et de valorisation du patrimoine : une agence spéciale de patrimoine (une caisse particulière de gestion).
- La connaissance du patrimoine constitue le premier acte de conservation. Il s'agit de procéder à l'inventaire systématique des biens culturels matériels et immatériels, de renforcer le rôle des institutions qui travaillent dans ce domaine.
- la création des centres de formation aux métiers d'architectures locales, dont notamment le pisé. Ces édifices constituant un patrimoine d'architecture locale, symbole d'une civilisation ancestrale, doivent être restaurés de manière progressive tout en appliquant ce savoir-faire local (pisé, briques en terre…..) toujours vivace dans le monde rural.

de nombreuses organisations humanitaires qui se sont proposées pour les restaurer. Une large littérature véhicule une image très négative sur l'Aglaou de Taourirt. La population de Ouarzazate (sauf Ait Taourirt), considérait et considère encore sa politique, comme un régime féodal et tyrannique, en raison des massacres qu'il a fait aux Ouarzaziens.

3- Sauvegarde et valorisation du patrimoine architectural

Taourirt, célèbre localité présaharienne du Sud Marocain, constitue un véritable musée à ciel ouvert du patrimoine architectural d'importance nationale voire internationale. Son organisation et les techniques utilisées pour sa construction sont le produit du génie oasien de l'héritage des civilisations sahariennes révèlent un potentiel pour l'attraction des activités touristiques et cinématographiques.

La sauvegarde et la valorisation du patrimoine de kasbah et son village communautaire, nécessitent, non seulement des moyens humains et matériels énormes, mais aussi une volonté politique adéquate. Face aux problèmes de ruine, l'Etat et la société civile ont pris conscience de la valeur du patrimoine bâti en terre dans le développement local du sud Marocain.

Donc, la réhabilitation de la kasbah et la mise en valeur de son patrimoine peut constituer un pôle d'attraction, de richesse et de sauvegarde à travers :

- La publicité et l'encouragement du tourisme et du cinéma. Ces deux activités constituent un levier de développement économique et un moyen pour ce patrimoine et son territoire de s'identifier et de s'afficher dans le mouvement de concurrence qui l'oppose pour attirer et retenir des activités.

Ouarzazate par ces riches architecturales et patrimoniales est devenue une région privilégiée pour le tournage de films. A titre indicatif, le nombre total de films produits entre 1997 et 2004 s'élève à 419 répartis selon le genre et le budget investis. On dénombre près de 60 longs métrages pour un budget de 1.446.370.00,000 DH, 32 courts métrages pour un budget 7.658.000.000 DH. D'autre part, le nombre global des emplois créés par ses films lors de cette

Le pouvoir du Hammadi Aglaou était centralisé entièrement à la kasbah de Taourirt depuis 1887, date de l'assassinat d'Amghar Hmad. La kasbah est devenue donc, un centre du pouvoir régional de la zone de Ouarzazate. Les Harka en provenance de Telouet pour attaquer les tribus du sud, s'arrêtaient à la kasbah pour planifier les tactiques d'accès aux territoires concernés. Mehdi Nassiri a indiqué « que la harka de sidi Hammou vers le Sud, s'est installée à Taourirt pendant 15 jours, avant d'atteindre le Dra. Durant son séjour, Hammou a été accueilli par son oncle Hammadi, en attendant l'arrivée du commandant Yahyaoui El Arabi pour participer ensemble à l'élaboration des plans stratégiques pour la réalisation des objectifs assignés dans le pays du Draâ, d'Imaghran et de M'gouna ».

Pour administrer le territoire, Aglaou s'appuyait non seulement sur les membres de leur famille, mais aussi sur les notables locaux, vu de leur poids important au sein du Ksar Taourirt et des villages avoisinants. Les représentants d'Aglaou (Cheikhs, Mokadems) à l'aide des Mkhazniya, collectent, par force les impôts chez les tribus soumises. Il s'agit des récoltes agricoles, des produits d'élevage et les taxes des souks. A cette époque, Taourirt était un caravansérail où tout pouvait s'échanger: « On trouvait tout à Taourirt, des dattes, de l'huile, du henné, du thé, de cuir, des produits artisanaux, du miel, des céréales... ». C'était un véritable centre économique, animé surtout par des juifs installés sur le chemin des caravanes.

La puissance de Hammadi Aglaou était directement attachée aux soutiens de Hammou Aglaou à Telouete et au protectorat, dont il tira un grand bénéfice. Au nom de ses appuis et ses renforts, il avait pu mener une politique accrue de destitution des villageois tel que Tamarzazate (zone hôtelière actuelle : hôtel Karam, Azghour, Bélire et Cattiéyage). Il est rentré en dispute avec son frère Hassi Caïd de Talmassla et a commis un grand nombre d'abus aux opposants à son commandement, notamment, Ajakan ''Chikh de Skoura'' et le chérif de Tifarnin Moulay Lhaj, etc. Cependant, la puissance des Iglioua s'arrête brutalement avec l'indépendance. Aujourd'hui, même si la période d'Aglaou s'est éteinte. Leurs différentes kasbahs ont été confisquées par l'État. Ces kasbahs sont encore debout et suscitent l'intérêt

Aussi, Taourirt constitue un des ksars de Ouarzazate anciennement peuplé par des populations israélites ‘’quartier Mellah, connu par Derb n’Ouguenssou et Darb Tifira’’. D’ailleurs, la tradition orale locale (Contes, légendes et autres histoires fabuleuses… etc.), atteste que les juifs ont toujours occupé une place importante parmi les populations. Ils constituent une minorité religieuse spécialisée dans le commerce (produits agricoles : henné, amandes, et l’artisanat (industrie du tannage, tissage, échange de marchandise vente d’argent). Les juifs les plus connus à Taourirt étaient : (Miyére, Zohar, Sissi, Mouchi, Ait Lamziouade, Ait Mihi, Makhlouf, Israyit, Ben Challouf, Béni Chan (habite à Talmassla, c’est le cheikh des Juifs de Taourirt), Haroune, Lhazzane Oukha, ‘’le grand commerçant’’).

En général, la communauté juive était mise à l’écart de la hiérarchie sociale traditionnelle. Pratiquement disparue aujourd’hui, beaucoup a émigré en Palestine entre 1950 et 1960.

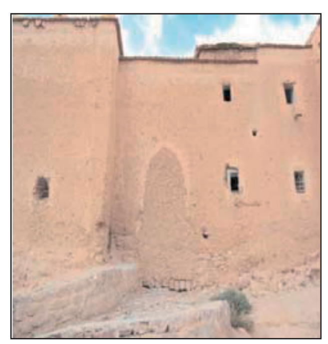
2-5- Les fonctionnalités de la kasbah d’Aglaou

Taourirt se présente comme un ensemble d'habitat compact et fermé, accolé au versant sud de la colline, ont elle a hérité le nom. Cet emplacement lui permet d'éviter les vents froids d’hiver du Haut-Atlas et une trop très forte exposition au soleil. Le choix du site a été vraisemblablement déterminé par plusieurs facteurs : nécessité de surveiller les routes, avoir une emprise directe sur les points d'eau et les cultures, et se défendre contre des ennemis potentiels.

La kasbah qui était le siège des cheiks Ouaouzguit, la résidence de la famille d’Aglaou, avait joué durant l’histoire d’importants rôles politiques, socioéconomiques et défensifs. Sur le plan sécuritaire, elle dispose de deux portes pour contrôler les entrées et les sorties. Elle est entourée par plusieurs tours de guet richement décorés, ce qui lui a donné de multiples fonctions militaires (Tours Ait Sidi Haqui, n’Mhamd etc.). La position de Stara, zone de poste de garde militaire, constitue l’enceinte protectrice de la kasbah contre les invasions. Cet habitat réservé aux gardiens ‘’Mkhazniya’’ ne présente pas un grand intérêt esthétique au niveau architectural.

(Skoura, Zagora, Kelaâ M'gouna, Fint, Imassin, Tazarine, etc.), la Stara devient un carrefour de pauvres, ce qui fait une source d'anarchie sociale et des conflits permanents entre les voisins, dont certains quartiers, la surnomme par la « nouvelle Colombie ». '' Après la fermeture de la Stara, sa population a enlevé tous son patrimoine matériel (portes, et fenêtres, etc.), en laissant, cet espace dans une situation dépourvue de son architecture intérieure et extérieure''. (photo.12).

Photo. 12 : Etat de la Stara après sa fermeture





Source : Aziz Bentaleb, mai 2010

Actuellement, ce secteur est vidé de ses populations, dont les pluparts d'entre-elles ont installé dans le quartier Oued Eddahab, (en face de l'habitat militaire) bénéficiant d'un logement économique réalisé par Al Oumrane (Projet de déplacement des habitants de Stara, (photo.13).

Photo. 13 : Lotissement Attadamone d'habitation de la population de Stara





Source : Aziz Bentaleb, mai 2010

nombreuses personnalités religieuses[2] étaient respectés par Aglaou et le reste de la société. Ils sont souvent appelés pour trancher dans certains conflits et litiges, notamment sur les droits d'eau d'irrigation.

c - Anciens protecteurs d'Aglaou ou d'Ait Taourirt ''Ahrar" : Ce sont des Imazighrens sédentarisés, Ait Taourirt et Ait Tiflit (Meghran), bras droits et défenseurs de la politique d'Aglaou. C'est grâce à la résistance des guerriers d'Ait Taourirt (dda Ali Adkhiss ''Afazdad'' etc.), la kasbah de Taourirt a été ouverte après environ 2 ans de siège par les Ait Ouarzazate (de Tadart n'Galmouz à Tifoulltout), notamment les Ait Tamarzazate et les Ait Atta qui refusent la soumission à l'autorité d'Aglaou. A ce titre, les Ait Taourirt remplissaient les fonctions de l'agriculture, de la poterie et de la guerre. Ce sont aussi les descendants d'Aglaou, qui ont en général un grand pouvoir à l'échelle de la stratification sociale à cette époque. Les grandes propriétés foncières aujourd'hui de certaines familles d'Aglaou au niveau de la zone, témoignent de cette prédominance socio-économique.

d - Les Ait Ouarzazate et les Ait Draâ : Ils se composent de différentes tribus opposantes à la politique d'extension d'Aglaou. Comme sorte de vengeance, Aglaou les avaient obligé à travailler sous le système de Lkolft[3] dans la construction des divers bâtiments à l'intérieur de la kasbah, comme celui de Lbarj n'Ait Kdif. Ce sont aussi des cultivateurs de la terre, et des ramasseurs des récoltes agricoles pour la famille d'Aglaou.

e - Les Harratines et les esclaves : cette communauté est composée des Draoua, des M'khazniya de Stara qui occupent les postes de garde sécuritaire. Elle est originaire du Draâ, de Foum Zguid (Imi Tlit et Taâfroukt) et de l'Afrique subsaharienne. Elle habitait un quartier (la Stara) dégradé et dépourvue en infrastructures, et sont au service d'Aglaou et des autres groupes. Après l'indépendance, et avec l'arrivé des nouveaux habitants

(2) - Sidi Mohamed Outiyab, Sidi Hakki, Sidi Yahyia, Sidi Mohamed n'Ssi Imran, Sidi Bouzid, Sidi Abdelmalak Rbati, Moulay Ahmed Ajakan, Moulay Abbass, Moulay Abdellah, et plusieurs Zaouia (Sidi Bouzid au Stara et la Zaouia n'Ougarrem N'Ssi Hmad Imran, connue après l'indépendance sous le nom de la Zaouia n'Benacer.

(3) - Travaux forcés sans rémunération, 4 jours par semaine.

- La partie centrale de la Tighremt est en ruine, et nécessite une réhabilitation urgente de ce patrimoine unique.

Actuellement, le bâtiment est largement fréquenté dans la mesure où il est situé au cœur d'une ville touristique connue mondialement par ses studios cinématographiques et ses paysages naturels, outre sa diversité socio-culturelle. Pour ce la, il est urgent que les concernés lui octroient une autre dimension qui lui permettra de jouer un rôle de promoteur touristique et culturel du premier plan dans toute la région du sud-est.

4-2-2- Organisation sociale de la kasbah

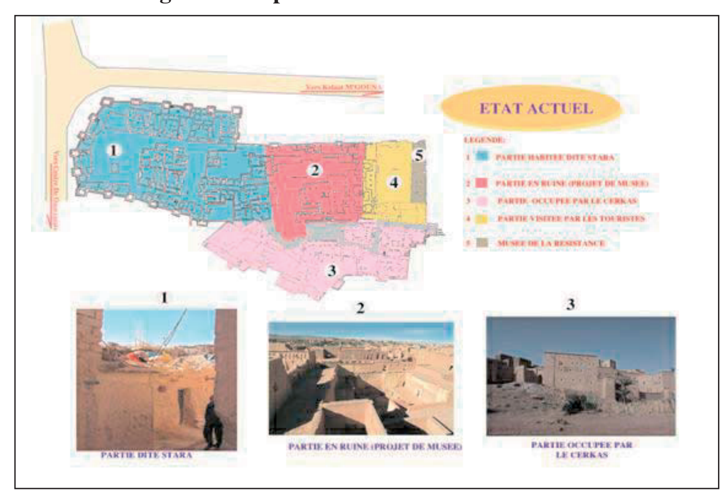
Les amazighes sont les premiers habitants de la région de Ouarzazate, peuplée ensuite par des africains noirs, des Juifs et arabes. La population principale de Taourirt est composée des clans suivants : Ait Tayeb, Ait Lrouat, Ait Yakoute, Ait lgarb, Ait Abderahman, Ait Bougaren, Ait Hajamma, Ait Balla et Ait Si Krim. A l'époque d'Aglaou, la structure sociale traditionnelle du ksar et de la kasbah de Taourirt était très hiérarchisée selon les différents groupes sociaux et familiaux. De haut en bas de l'échelle sociale, on peut distinguer trois importantes strates :

a - Détenant du pouvoir politique local : le sommet de cette hiérarchie était occupé par la famille d'Aglaou et son entourage. La kasbah de Taourirt est réservée au seigneur de l'Atlas, Aglaou. Il règne et gouverne, l'essentiel du pouvoir politique est entre ses mains. Aglaou était le premier responsable politique et le gérant direct des affaires socioéconomiques, ce qui lui confère des pouvoirs très étendus. C'est à lui que revient la gestion de vie sociale de kasbah et la déclaration des guerres pour la soumission des tribus de la grande fédération des Ait Atta et des Ait Ouarzazate.

b - Détenant du pouvoir religieux : La prééminence appartient aux Chorfas et les familles maraboutiques ou Igourraman descendant des saints, connus comme porteurs de la Baraka. La plupart des m'rabtines ont été installé dans la kasbah à la demande d'Aglaou et des autochtones, qui estiment que la Baraka de ceux-ci les protège contre les agressions des groupes nomades et contre les sécheresses. Garce à leur prestige moral, de

d - Espace réservé aux greniers familiaux ''Teguemi Lajdid" et des moulins traditionnels ''Tiguemi Nizergan" : il constitue un dépôt de stockage des produits agricoles, notamment les céréales, la luzerne sèche, la paille et les dattes. En cas de besoins majeurs, particulièrement, lors des sécheresses prolongées et des longues guerres contre les grandes tribus nomades, Aglaou demande aux guerriers l'usage des réserves alimentaires emmagasinées.

Figure.2 : Répartition de la kasbah de Taourirt



Source : CERKAS

L'état actuel de la kasbah se résume en quatre parties (fig.2):

- La partie sud-est occupée par le Centre de Conservation et de Réhabilitation du Patrimoine Architectural Atlasique et Subatlasique. Elle offre certains avantages: restaurée, avec des équipements sanitaires, un espace en plein air et des locaux administratifs (direction et administration, bureaux, locaux techniques, magasins pour entrepôt, une salle polyvalente), des espaces d'expositions, etc.;
- La partie nord-est restaurée en 1996 est livrée à la curiosité des visiteurs;
- La partie dite "Stara" est occupée par des habitants qui ne cessent de modifier son aspect architectural. Ce mode d'habitat présente un danger pour la population, en raison de sa fragilité et du manque d'entretien.

Photo.9 : Chabbik



Photo.10 : Tilmyatan



Photo.11 : La Stara



Source : Aziz Bentaleb, Avril 2010

Chaque vendredi, les Fquihs de la kasbah se consacraient à la lecture du Coran dans l'espace de Chabbik (photo.9). Ce dernier est aussi considéré comme une cour de juridiction et de réglementation des litiges entre la population.

c - Espace des serviteurs d'Aglaou: il est composé de petites maisonnettes repartis entre deux emplacements, nommés Tilmyatane n'Ger Swari et Daw Tidilte. Il est habité particulièrement par des Harratines (Issemkhane) qui sont au service direct d'Aglaou, dont le plus important d'entre eux à l'époque, était l'Issemkh Adda Qorji (photo.10). La zone dite, du Stara, qui se présente sous forme d'une série des tours, constitue l'habitation particulière des esclaves, des Mkhazniya (des agents de sécurité). Ces tours de guet ''Stara'' forment une barrière fortifiée qui protège la kasbah (photo.11).

Photo.6 : Imi n'Inraren



Photo.7 : Arhbi Nougalid

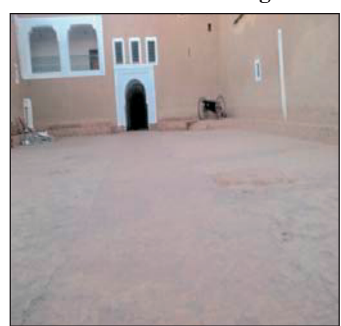


Photo.8 : Imi n'Indaf



Source : Aziz Bentaleb, Avril 2010

La seconde située au sud-est de la kasbah, est nommée Imi n'Indaf '' entrée actuelle de CERKAS », signifiant, la porte des gardiens (photo.8).

Cet espace familial est entouré par plusieurs tours qui dominent des places internes à la kasbah, notamment celle d'Arhbi Nogenssou ''la place interne principale'' s'ouvrait sur une porte menant auparavant à la Stara, mais elle est fermé depuis que les travaux d'aménagement ont été fait.

b -Espace religieux « sacré »: il est occupé par des familles de ''Chorfa, Igouramen et Fquihs (Talba)'' qui étaient connus, comme porte-bonheur du Caïd Aglaou et son Kasbah. Selon les croyances locales, c'est grâce à leurs implorations, que les paysans espèrent recevoir le don du ciel : la pluie bénéfique qui permettra une bonne récolte.

Photo.4: Dôme Lalla Sidi ‘’ Sfia Hmad



Photo.5 : Lmenzah n’Ougalid



Source : Aziz Bentaleb, (juin 2010)

- D’autres espaces sont constitués, des salles d’ablution et des prières, des salles de bain (Hammam), des salons de thé et d’attente, des salles à manger et de Lmenzah n’Ougalid (photo.5). Deux pièces de la résidence ont conservé leur décor de stuc et leurs plafonds de cèdre : la salle à manger et les appartements de la favorite. Dans la première, les plafonds peints et gravés sont composés sur des caissons partagés en surface carrées ou en bandes dans lesquelles des motifs esseulés se succèdent. D’autres pièces, aux plafonds bas couverts de croisillons de roseaux, dits Titawn.

La kasbah de Taourirt est aussi dotée de plusieurs portes, chaque entrée à une fonction précise (Imi n’lahbass (porte de prisons) Imi n’riyad, Imi n’Ljalouk etc.). Généralement, deux portes principales mènent à la bâtisse d’Aglaou: La première est orientée vers le nord ’’Imi n’Inraren », c'est-à-dire, la porte des aires à battre, qui conduit à Arhbi n’Ouryal (emplacement des ânes), connu après la visite du Roi Mohamed 5 à la kasbah en 1958 par Arhbi Nougalid ‘’Place du Roi‘’, exploitée actuellement comme espace pour organiser les manifestations folkloriques (photo.6 et 7). Dans cette espace, le canon Allemand (fabriqué en 1884) y exposé. Cette arme est un cadeau d’Hassan premier à El Madani Aglaou, commandant de la région à son époque. Cette porte est réservée uniquement au passage d’Aglaou, son entourage et ses invités.

pouvant aller jusqu'à un mètre de hauteur, afin de les protéger de l'humidité et de l'érosion. Le torchis consiste en l'application d'une terre mélangée à de la paille sur un clayonnage maintenu dans une ossature porteuse en bois. La terre joue ici essentiellement un rôle de remplissage.

2-4- Organisation spatiale et sociale de Taourirt

L'organisation sociale et économique de cette architecture peut aussi s'observer dans le village communautaire du ksar de Taourirt que dans la kasbah, la maison familiale d'Aglaou. Sur le plan technique, le choix du site et l'emploi des matériaux traditionnels (pisé, coffrage -leuh-, etc.), étaient judicieusement étudiés pour répondre aux conditions climatiques, et aussi pour assurer la sécurité de la famille et de ses biens contre les pillages des nomades insoumis au pouvoir politique à l'époque de Bled Siba (du 16ème au 19ème siècle).

2-4-1- Organisation spatiale du bâtiment

La kasbah de Taourirt est l'un des véritables châteaux forts familiaux des Iglioua à plans rectangulaires munis de tours d'angles. Cette bâtisse est répartie et organisée en quatre espaces:

a - Espace familial d'Aglaou : c'est un grand pavillon composé de chambres et de services domestiques et socio-culturels. Nous tentons dans ce qui suit de présenter les plus importantes composantes de ce pavillon en égard à leurs intérêts décoratifs, et en tant que porteuse d'un savoir-faire immatériel de l'art amazighe. Il s'agit :

- Des appartements réservés particulièrement au Pacha Aglaou : ils sont composés de chambres de décoration spéciale : Zalej, plâtre, enduit et tuiles vernissées des toits, etc. Le salon de Lalla Sfia Hmad connu par le dôme Lalla Sidi, et les Riads des épouses de Caïd '' Jamila la Turque, Fatima Hawariya, Ranima etc.'' reflètent la maîtrise des artisans des différents modèles de décoration interne et externes, caractérisées par un jeu d'entailles en creux très élaboré (photo.4).

espace commun, une destinée commune, des valeurs entrecroisées, des traditions locales et des apports étrangers (Jlok, M, 2001).

Le savoir-faire culturel d'Imazighrens se manifeste à travers les techniques de la construction des kasbahs qui obéit à plusieurs règles architecturales originales. D'abord, au niveau des fondations de pierre, d'épaisses murailles, flanquées des tours d'angle ornées de merlon en épis, qui délimitent la construction. Parler de la construction en terre, c'est faire référence à une culture qui s'adapte avec l'espace vécu et les composantes de l'environnement local et à une ingéniosité efficace des techniques de fabrication de ce mode d'habitat, c'est à dire une magnifique architecture sans architecte. Le matériau de construction constitue un élément clef des rapports de dépendance entre l'homme et la nature.

Le système de construction de kasbah de Taourirt est basé sur des traditions séculaires n'ont guère changé. Les édifices sont érigés selon différentes techniques, dont deux largement sont utilisées dans les sites patrimoniales de la zone de Ouarzazate.

- Technique du pisé au moyen du coffrage : à l'aide d'un pilon, la terre mouillée et malaxée est damée entre des planches de bois mobiles, qui sont déplacées au fur et à mesure que la tranche sèche. Grace à ce système et avec un rythme régulier, les tranches peuvent, selon les besoins être allongées en largeur et en hauteur, pour atteindre jusqu'à quatre mètres de hauteur. Cette technique est ancienne et connue depuis l'antiquité. Pline l'Ancien l'avait décrite telle qu'elle est aujourd'hui (Zerhouni. S, et al 2001). C'est au moins une preuve de la présence d'un habitat sédentaire amazighe depuis les temps anciens, ce qui va à l'encontre les thèses de populations nomades sans forme de civilisation sédentaire.

- La deuxième technique est l'adobe. C'est celle de briques de terre mêlée à la paille. Elle consiste à appareiller par des mortiers en terre des briques. Elles sont moulées dans des branches en bois et exposées au soleil pendant une semaine pour être asséchées. Généralement les murs reposent sur un soubassement en pierre (parfois en briques, galets ou autres matériaux de récupération)

- En 1971, les Aït Tamnougalt, ont organisé à Ouarzazate une protestation ardente qui a duré 2 mois. Ils demandaient leurs parts des biens laissés par Aglaou. Il s’agit ici des 2/3 de la kasbah de Taourirt.
- En 1972, la kasbah de Taourirt fut achetée par la Municipalité de Ouarzazate qui la gère comme une propriété privée.
- En 1989, le Centre de Conservation et de Réhabilitation du Patrimoine Architectural des Zones Atlasiques et Subatlasiques (CERKAS) avait ouvert ses portes dans la partie sud de la Tighremt.

En plus de son intégration dans l'environnement du village de Taourirt, la Tighremt porte des valeurs socio-culturelles reflétant le génie des concepteurs et des constructeurs. Parlant de cette kasbah a dit Henri Terrasse en : "le joyau de cette région est la kasbah de Taourirt du Ouarzazate. Sa célébrité ne lui vient pas seulement de ce qu'elle est une des premières grandes architectures berbères que rencontre le voyageur venant de Marrakech: elle vaut à la fois par sa masse énorme et par le pittoresque sans cesse renouvelé de ses aspects de détail".

2-3 - Technique de construction

Dans le sud marocain, la technique de construction utilisée est essentiellement le pisé, lleuh en Tamazight, complété à l’étage supérieur par les adobes de petite taille. Le mot français pisé l’explicite largement, il vient du latin «Pisare» qui signifié tasser, et l’outil lourd en bois utilisé pour tasser la terre est un pisoir. Il s’agit d’une technique de compactage de la terre brute (Gentilleau, J.M.1999). La terre est recueillie, damée ou façonnée se transforme techniquement en architecture. Par l’agilité de son esprit et de ses mains « l’homme a lutté avec les matériaux, les contingences avec sa culture. C’est un duel avec la matière et lorsqu’il a résolu son problème, il avait crée la beauté» (Fathy. H, 1981).

L'architecture en terre dans les vallées présahariennes incarne un esprit communautaire, un savoir faire ancestral, et une recherche - le plus souvent réussie - d'équilibre entre le culturel et le naturel. Il s'agit d'une expression culturelle de tout un ensemble de populations hétérogènes qui partagent un

sultan Moulay Abderrahman, Caïd des Iglioua, des Imhgran et des Ait Ouaouzguit a permis l'obéissance d'une grande partie des tribus du Sud-Est, notamment celle de Tamnougalt qui bénéficie des retombées du commerce caravanier, à travers Taourirt. Celle-ci constitue une aire de repos et d'échanges commerciaux entre Ait Ouazazate, Ait Dra et les commerçants de l'Afrique noire (Soudan et Mali), surtout à l'époque du caïd Si El Abbas (qui a gouverné Taourirt durant un an et 20 jours).

Cette autorité de Tamnougalt était évincée par celle de Telouet en 1874, lorsque Mohamed Ibibt triompha de Si El Abbas. À la mort de l'Amghar Mohamed ou Hmad ou Abou, Hmmadi Aglaou épousa sa veuve Lalla Sfia Hmad, son neveu (fils de Mohamed Ibibt) épousa lui Lalla Ijja Hmad, sœur de l'Amghar. Par ces liens, les Iglioua dominèrent Taourirt dont la zone d'influence s'étendait par la suite au-delà de Ouarzazate notamment après le passage du Sultan Hassan Ier. Celui-ci, ayant été secouru à Telouet par El Madani lors d'une tempête de neige, lui laissa comme signe de reconnaissance des armes, un canon de bronze de marque Krupp (exposé actuellement dans la cour de la tighremt à Ouarzazate) et plus spécialement l'appui politique du makhzen pour étendre l'influence des Iglioua vers le Sud.

Les premières années étaient très difficiles pour Hammadi à Taourirt. Juste après le décès du Sultan Hassan Ier (1894), les tribus de la région (Aït Ouarzazate, Aït Boudlal, etc.) avaient assiégé la forteresse et le village durant presque deux ans. Il ne fut levé que grâce aux renforts arrivés de Telouet. Le gouvernement de Hammadi Aglaou avait duré jusqu'à 1937 (date de son décès) grâce à l'autorité de son frère le pacha Thami et à la puissance militaire de son neveu le caïd Hammou Aglaou. La succession était revenue à Mohamed ben Hammadi jusqu'à 1939 puis à Si Boubker fils d'El Madani. En 1940, Mohamed El Mahdi ben Hammadi géra les affaires de Taourirt jusqu'à l'Indépendance. Les biens de Hammadi furent réquisitionnés, quelques uns furent restitués aux héritiers au cours des années soixante.

Après l'indépendance trois importants événements historiques ont marqué Taourirt:

provenance de Tafilalet avait conseillé la Jemaâ de la tribu de déplacer Ighrem n'Tassyart à Aourir ou Tawkert « la colline » pour le protéger contre les inondations ; d'où, le nom de Taourirt qui lui donné jusqu'à aujourd'hui (photo.2 et 3).

Photo. 2: Ighrem n'Tassyart (ancien site de Taourirt)

Source : Aziz Bentaleb, avril 2010

Photo.3 : la Kasbah de Taourirt



Source : Aziz Bentaleb, avril 2010

Au début du $17^{ème}$ siècle, les premiers travaux de constructions du nouveau village de Taourirt ont été entamés par les Ait Dra. A cette époque, la kasbah de Taourirt régie par le système d'Imzouaren, était soumise à l'autorité administrative et politique du caïd Tamnougalt. Plus tard, la politique d'extension de Mohammed Ibibt El Mezouari de Telouet désigné par le

Figure 1: Croquis de situation

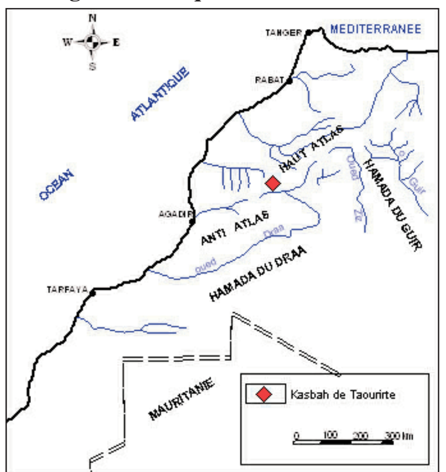


Photo.1 : vue aérienne de Taourirt



En raison de ces paramètres géo-climatiques, ce patrimoine constitue un lieu d'épanouissement par excellence d'un mode d'habitat vernaculaire en terre d'une valeur culturelle et identitaire notoire. Il forme un exemple parfait d'adaptation au climat rigoureux de la région et aux conditions de vie des populations. Cette bâtisse construite entièrement en terre fait partie du village communautaire du même nom "Taourirt" se positionne à la croisée des passages caravaniers anciens, et occupe une place stratégique à la confluence de deux fleuves importants, Assif Dadès et Assif Idermi (Oued Ouarzazate), formant ainsi le Draâ. Actuellement, le bâtiment est largement fréquenté dans la mesure, où il est situé au cœur d'une ville touristique mondialement connue par ses studios cinématographiques et ses paysages naturels sans oublier sa diversité socio-culturelle.

2-2- Aperçu historique de la kasbah

L'histoire de la kasbah de Taourirt demeure peu connue. Les rares informations indiquées dans quelques documents de CERKAS ne permettent pas de déterminer avec précision les différentes phases de cette histoire.

Conformément à la tradition orale, le premier site de Taourirt serait celle d'Ighrem n'Tassyart situé sur la rive gauche d'oued Ouarzazate. La population locale remontait le fondement de l'ancien village de Taourirt au début du 12ème siècle par les ancêtres d'Amghar Hmad ben Oubou ben Caïda Halima. En raison de l'irrégularité des débits de l'oued Ouarzazate, et les dégâts des crues qu'il provoque, un chérif "porteur de la Baraka" en

Dès le 19ème siècle, il est apparu un type récent d'édifice, cette fois-ci propre aux grandes familles et aux personnages mandatés par l'autorité centrale pour exercer le pouvoir local. Ce sont les kasbahs. Ce nouveau genre d'habitat a beaucoup influencé l'aspect général de l'architecture vernaculaire, en y introduisant des éléments d'architecture citadine: l'aspect décoratif et l'individualisme vont prédominer.

La première moitié de 20ème siècle « avec la colonisation française » est marquée par le très peu d'intérêt donné aux architectures vernaculaires de terres excepté quelques recherches et enquêtes menées par des officiers des Bureaux des Affaires Indigènes et certains spécialistes (Laoust, E, 1993). Des nouveaux styles urbains émergent et vont être imposés dans un différent territoire, en conduisant à la décomposition des structures sociales, et par conséquent à l'abandon accéléré des architectures en terre au profit des modèles européens exogènes (le village).

2- La kasbah de Taourirt et son environnement

La province d'Ouarzazate, englobe près du tiers, des ksours et des kasbahs que comporte le Maroc typique et qui se comptent en milliers. Ces bâtisses qui se démarquent par leur aspect architectural typique remontent à une tradition ancestrale réglementée par des lois communautaires de la Jemaâ.

2-1- Localisation et données géographiques du site

La kasbah de Taourirt est un produit de l'histoire et d'une culture des Amazighes du Sud-Atlasique. Elle fait d'un type d'architecture régnant dans les oasis du Bassin du Draâ. Cette kasbah située dans la ville de Ouarzazate à une altitude de 1140 m, couvre une superficie de 11.480 m^2. Elle est classée comme patrimoine historique depuis 1953 (fig.1 et photo.1). La situation géographique du site entre le Haut-Atlas et l'Anti-Atlas lui confère un climat continental saharien, caractérisé par des amplitudes thermiques forts, des vents violents et des précipitations faibles.

1- La construction en terre au Maroc

Le pays dispose d'un patrimoine culturel et civilisationnel riche et diversifié. Son aire d'extension couvre un immense espace géographique qui se présente sous forme d'un croissant, allant de la région du Souss (Province d'Agadir ouverte sur la côté atlantique) au Sud-ouest, jusqu'à l'Oriental. En allant du Sud-ouest au Nord-est, ce vaste espace d'une grande homogénéité géographique, culturelle, architecturale et paysagère est traversé par les affluents d'oued Draâ, Todgha, Dadès, Ferkla, Ghéris, Ziz et Guir. Ces derniers forment des vallées qui serpentent à travers un chapelet d'oasis qui tire chacune son nom de celui de l'Oued qui l'arrose, et aux bords desquels se dressent des Ksour associés aux parcelles agricoles des palmiers dattiers et aux cultures sous-jacentes irriguées par le système de Saguia.

La terre comme matériau de construction des architectures amazighes est signalée depuis l'Antiquité. En Afrique du Nord, Ibn Hawqal(1), dans la seconde moitié du 10ème siècle, décrit plusieurs enceintes urbaines faites en terre. Au Maroc, selon André Jodin cité par Lenoir, M (1985) « le premier témoignage d'architecture de terre a été découvert dans l'île de Mogador. Au cours de l'époque mauritanienne, l'usage de terre dans les constructions était répandu, et il n'a pas cessé durant l'époque romaine, malgré la rareté des vestiges archéologiques ».

L'époque islamique est marquée aussi par l'importance de l'expansion du bâti en terre, notamment à Sijilmassa, (8ème siècle) et à Marrakech (12ème siècle) qui constituent des citées typiques des forteresses en terre auprès des vallées présahariennes, vrai paradis des architectures en terre. Les groupes humains des Imazighrens, des Juifs étaient les premiers habitants de ces oasis. Les gravures rupestres et les tumuli montrent bien, une présence humaine très ancienne et une maîtrise des techniques de construction en terre (ksours, greniers etc.).

(1) - Cité par Abu Ubayd Abd Allah ibn Abd al-Aziz Bakri, *al-Masalik wa-al-mamalik*, éd. en arabe par Jamal Tulbah, Beyrouth, 2003

Valorisation du patrimoine architectural en terre au Maroc présaharien : Kasbah de Taourirt à Ouarzazate

Aziz BENTALEB
Institut Royal de la Culture Amazighe

Introduction

L'architecture vernaculaire au Maroc constitue un patrimoine d'une valeur importante et une mémoire vive qui reflète une société traditionnelle hiérarchisée et organisée. Elle résulte des causes multiples chargées de l'histoire, de la culture et du savoir-faire immémorial. La forte concentration du bâti en terre est, certes, repérée dans les milieux défavorisés au niveau écologique et socioéconomique. Mais, il relate un passé glorieux, où le collectif et l'égalitarisme avaient imposé leur primauté. C'est une richesse à l'échelon du social, de l'environnement et du symbolisme. L'architecture amazighe ''Kasbah, ksar ou Ighrerm'' représente l'un des éléments architecturaux les plus remarquables des paysages ruraux de l'ensemble des oasis présahariennes du Maroc méridional.

Au sud de la chaîne du Haut-Atlas, les kasbahs de la zone de Ouarzazate sont des espaces privilégiées pour cet art rural. Ces superbes bâtisses en terre ont joué un rôle fondamental durant les deux derniers siècles. Comme demeure fortifiée des seigneurs de l'Atlas, la kasbah de Taourirt offre le plus beau spécimen de cette imposante architecture de terre, malgré l'état de ruine dont elle souffre en grande partie.

Faute des études et des données disponibles sur le site patrimonial étudié, nous essayons à travers les investigations empiriques (enquêtes, interviews) et les entretiens avec les responsables locaux du patrimoine (CERKAS, Délégation de la Culture, etc.), de mettre en exergue l'importance historique, socioéconomique, spatiale et politique de kasbah de Taourirt, et d'énoncer des pistes de réflexions pour sa revalorisation dans le processus de développement local.

Bibliographie

- ADAM, A. (1950): La maison et le village dans quelques tribus de l’Anti-Atlas, Hesperis, 3ème et 4ème trimestre, pp, 289-362.

- GENTIL, L. (1906) : Exploration du Maroc, Paris, 364p.

- HAMMOUDI, A (1970) : L’évolution de l’habitat dans la vallée du Dra, R.G.M. n°18, pp, 33-45.

- HENSENS, J (1969): Habitat traditionnel des oasis pré sahariennes. Le village problèmes de rénovation B.E.S.M., n°114.

- MEUNIE, DJ (1949) : Greniers collectifs, Hespéris, tome xxxvi, 1e et 2ème trimestre, pp97-137

- MONTAGNE, R (1929): un magasin collectif de l'Anti-Atlas, l'Agadir des Ikounka, Hesperis, tome IX, 2ème et 3ème trimestre, pp145-226.

- MONTAGNE, R (1980): Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc, Essai sur la transformation politique des berbères sédentaires (groupe Chleuh), Paris.426p

- ZAINABI, A.T (1989) : L’homme et la montagne en milieu sud-aride : Le pays de Taznakht, thèse de doctorat en géographie et aménagement, UFR de Poitiers-France.370p.

- ZAINABI, A.T (2005) : Les magasins collectifs, un patrimoine culturel en voie de rapide dégradation : le cas du versant septentrional du Jbel Sirwa et de sa bordure (Province de Ouarzazate). In Pour une nouvelle perception des montagnes marocaines pp 217-225. Publication de la faculté des lettres et des sciences humaines, Rabat. Série : Colloques et Séminaires, n° 119.



L'agadir de Tamazight après sa réhabilitation

En somme l'agadir perd son rôle socio-économique et se transforme dans le meilleur des cas en un simple monument historique souffrant de la négligence et de l'oubli d'une nouvelle génération née dans la paix et la stabilité sociale.

Conclusion

L'habitat actuel manifeste indiscutablement la disparition de l'organisation collective du cadre bâti qui s'est traduite sur l'espace par un habitat groupé et des édifices publics. Les formes actuelles de l'évolution de l'habitat résultent des initiatives individuelles, d'où leur différence avec les modèles traditionnels. Au delà de cette constatation générale, la région de Taznakht est en train de perdre des composantes principales de son patrimoine d'ou la nécessité d'une intervention urgente qui aura pour objectifs principaux :

- L'inventaire exhaustif des techniques architecturales locales ;
- La réhabilitation des villages anciens et des igoudar ;
- La revalorisation du patrimoine architectural par son intégration dans des actions de développement durable (tourisme solidaire par exemple).



Agadir de Tamallakout : les débris d'une histoire négligée

La deuxième série est caractérisée par l'état de détérioration très avancé des magasins collectifs en raison du manque, voire même de l'absence d'entretien. Elle est représentée notamment par les *igoudar* d'Anzal, Aguinse, Ait Tigga, Tamazight,Tislit et Idghar. Les raisons qui ont poussé les habitants à maintenir l'*agadir* ont disparu et cette institution ne fonctionne presque plus; la majorité des villageois ne dépose plus ses biens dans l'agadir, excepté certains cas rares notamment à Tamazight et en partie à Idghar. Le manque d'entretien menace la stabilité des magasins collectifs dont la quasi totalité est sur le point de s'effondrer. Le tourisme intervient pour aggraver le sort de l'*agadir*; le paysan pauvre ne résiste pas aux tentatives du touriste et il vend ainsi la porte, minutieusement décorée, de sa case contre une poignée de Dirhams. Quelques membres des collectivités locales, conscients de l'importance de cet héritage historique et de la nécessite de sa sauvegarde sont intervenus auprès des responsables locaux et provinciaux "*mais ils nous paraît que ce domaine n'intéresse pas le Makhzen et nous allons essayer selon d'autres possibilités de limiter les dégâts*"; nous déclare un vieillard de la tribu Ait Tammassine.

A l'encontre de cette tendance générale de négligence, des initiatives de réhabilitation si modestes soient elles émergent de temps à autres dans celle qui a conduit à une louable action de restauration et de réaménagement de l'agadir du village de Tamazight.

Mais les points de différences sont énormes ; l'étable est complètement éloigné de la maison : la nouvelle notion d'hygiène l'exige, les pièces à fonction agricole ont disparu tandis qu'une salle de bains et une cuisine moderne(23) ont fait leur apparition. L'*Arssa* devient de plus en plus courante dans toutes ces nouvelles constructions.

4. Détérioration des igoudar

A l'exception d'une dizaine d'agadir(24), situés aux Jbel Sirwa, les magasins collectifs connaissent actuellement deux formes principales de détérioration. La première s'est terminée par une disparition de l'*agadir*, la seconde a conduit à la dégradation du cadre bâti et la restriction de l'utilisation de cette institution.

La première série est représentée par plusieurs magasins collectifs notamment les igoudar de Wintijgal , Tamallakout, Tizwat, Ait Ighmour, et Agoulmime. Leur destruction a débutait dès les premières années de la colonisation et s'est poursuivie au long du dernier siècle. A titre d'exemple, l'*agadir* d'Agoulmime qui a constitué entre 1915 et 1917 le siège de la résistance des Zénaga contre la pénétration des Glawa a été bombardé par ces derniers. Après quelques travaux de restauration entamés entre 1920 et 1930, l' agadir a été victime à nouveau d'une destruction volontaire à la demande du khalifa du Glawi à Asdif(25). Cette opération a été à l'origine de la mise hors de service du plus grand magasin collectif de toute la région. Aussi, Les *igoudar* d'Ait Ighmour et de Tamallakout ont été détruits très récemment, le premier pour être remplacé par une mosquée et le second suite aux répercussions néfastes du tourisme.

(23) - Le bois constitue le moyen de chauffage le plus utilisé par la population locale.

(24) - Il s'agit des igoudar de Ourti, Tachakcht, Amassine, Ait Qualla,, Tourtite, Ait Ounabdas, Tilmsine, Tagdourt,, Arguilaouene et Anmid.

(25) - Représentant du Glawi, et par conséquent des autorités coloniales. Sa fonction est "d'exiger des habitants les contributions les plus élevées qu'ils soient capables de fournir", R. Montagne : Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc, Essai sur la transformation politique des berbères sédentaires (groupe Chleuh), Paris. 1980. p. 351.

que leurs dimensions de plus en plus grandes sont des signes du changement qui atteint une société rurale conservatrice.

Si l'utilisation de nouveaux matériaux et d'une architecture moderne apporte en principe un certain confort au résident, il n'en demeure pas moins que les nouvelles constructions sont mal adaptées au milieu naturel caractérisé par la rigueur du climat. Le béton armé, l'épaisseur très réduite des murs et les grandes dimensions du système d'aération ne permettent plus une parfaite isolation de la maison tant en été qu'en hiver.

3. Changement des fonctions de la maison

Parallèlement aux changements qui ont atteint la société, l'organisation fonctionnelle de la maison s'est modifiée pour répondre aux nouveaux besoins de la population.

Dans une première phase, les modifications ont été très limitées. L'étable a été réduite ou éloignée de la demeure, la chambre des hôtes a été introduite pour éviter les problèmes qui se posent dès l'arrivée des invités (déplacement de la *talmesrit* vers une autre chambre). Une autre pièce réservée aux nouveaux produits alimentaires (thé, sucre, farine etc.…) a remplacé la *takhzant* dans certaines fonctions. En fin, la maison dispose dans des cas exceptionnels d'un petit jardin à l'intérieur de la maison, *arssa*. En général, la nouvelle organisation de la maison transitoire a été imposée par l'introduction d'un nouveau style de vie, l'accès à la fonction publique et surtout la dévalorisation de l'élevage ce qui explique la restriction de la superficie et du nombre de pièces destinées à l'élevage.

La phase actuelle présente une continuité systématique de certaines pièces qu'on trouve dans l'ancien plan de la maison traditionnelle, à côté d'une série de rénovations. C'est une forme adaptée aux données actuelles mais qui n'écarte pas tous les éléments traditionnels. Ainsi le lestouane réservé spécialement au travail artisanal occupe toujours sa place habituelle[22], la cuisine traditionnelle et la *Takhzant* subsistent dans la nouvelle construction.

(22) - Le maintien de la pièce réservée à l'artisanat « *lestouane* » s'explique par le poids économique du tissage de tapis.



Le béton remplace petit à petit le pisé et la pierre sèche

La seconde résulte d'une utilisation double des matériaux anciens et modernes ; les murs sont construits en pisé puis consolidés par des piliers en béton armé, la dalle, quant à elle, est complètement en ciment. Les maisons qu'on retrouve aux villages d'Aguins, Asdif et Ait Mesri reposent sur le même principe que la deuxième catégorie, seuls les murs en pisé sont édifiés ici en pierres sèches trouvées dans les montagnes avoisinantes. La troisième catégorie de maisons dont les murs sont construits suivant la méthode traditionnelle (pisé ou pierres sèches) se distingue principalement par les modifications apportées à la toiture : les poutres de palmier ou d'autres arbres locaux sont remplacées par celles d'eucalyptus importées du Gharb et à la place des couches d'herbes déposées sur les roseaux ou les branches de laurier rose, on met des plastiques.

Malgré cette différence au niveau des matériaux de construction utilisés et qui résulte des disparités sociales entre la population rurale, les nouvelles constructions se caractérisent par quelques traits communs, notamment l'épaisseur de plus en plus réduite des murs (afin de gagner le maximum possible d'espace), les dimensions importantes du système d'aération et d'éclairage, talkiwt, et l'orientation de plus en plus importante des fenêtres sur le monde extérieur. Certes, les fenêtres sont toujours équipées avec des barreaux de fer, mais il n'en demeure pas moins que leur multiplication ainsi

terrains rocheux au Sud du village. A Ait Daoud on remarque une évolution un peu analogue. Les nouvelles constructions se situent entre la route secondaire 510 et le noyau du village, sur un terrain de statut collectif. L'espace agraire, même souffrant d'une série d'handicaps, a été épargné en partie par cette opération.

Le prolongement de l'habitat se fait en général sur un espace pastoral appartenant à l'ensemble des habitants du village. Les procédures de divisions de cet espace ont lieu chaque année en suivant des règles très complexes : par lignage, par famille ou par « tête ». L'agglomération d'Ait Daoud présente un cas exceptionnel : théoriquement l'habitant peu construire à n'importe quel endroit en choisissant la superficie nécessaire, mais cette procédure favorise les familles aisées qui profitent de cette procédure foncière souple pour augmenter leurs capitaux fonciers.

Les nouvelles constructions implantées aux environs des villages révèlent un caractère individuel très avancé. Elles sont dispersées dans l'espace (ex de Taghdout) et rarement mitoyennes. Au contraire dans la vallée du Dra, les maisons qui apparaissent en grand nombre à l'extérieur des murailles d'enceinte sont groupées en quartiers sillonnés par un système de murs qui se recoupent à angle droit(21).

2. L'abandon des anciens matériaux de construction et l'apparition d'une architecture étrangère au milieu local

Les techniques architecturales anciennes basées sur le travail de la terre, des pierres sèches et du bois cèdent la place d'une manière rapide aux techniques contemporaines à base de béton armé. L'utilisation de pisé et de la pierre sèche se limite de plus en plus aux familles socialement défavorisées.

Selon les matériaux de construction, on peut distinguer trois catégories de bâtiments. La première est édifiée totalement en béton armé, suivant les normes utilisées dans le milieu urbain.

(21) - A. HAMMOUDI : L'évolution de l'habitat dans la vallée du Dra, R.G.M. n°18, 1970, pp, 33-45

contrôle collectif. Les initiatives privées se multiplient, et l'éclatement des villages, l'apparition de l'habitat individuel, l'abandon des techniques anciennes, la révision de l'organisation fonctionnelle de la maison et la détérioration de l'agadir en témoignent.

1. Eclatement des villages et apparition de l'habitat individuel

L'éclatement du village n'est en aucun cas brutal, il est précédé généralement par des opérations de densification de l'habitat au sein de l'agglomération. En effet, les nouvelles constructions sont édifiées dans un premier temps, sur les espaces libres situés à l'intérieur du village. Une fois ceux- ci occupés on passe à la deuxième phase qui se traduit par une occupation des domaines limitrophes situés juste à côté de la muraille d'ou la nécessité de percer ces dernières pour permettre la liaison des nouvelles demeures au vieux village. Cette opération conduit à la transformation des anciennes impasses en des rues totalement ouvertes sur le monde extérieur.

La stabilité relative de la situation a poussé la population à négliger l'entretien des édifices à caractère défensif. Ainsi le système défensif né dans des conditions socio-politiques marquées par l'insécurité connaît une dégradation très avancée, la muraille d'Ait Daoud tomba dès 1930, celle de Wintijgal et de Tamalakout sont en mauvais état. Les tours de guets ont connu le même sort tandis que le système de contrôle des entrées et des sorties basé sur l'existence d'une porte unique surveillée par un gardien désigné par la Jmaa a connu des transformations importantes; le village de Tamalakout qui disposait jadis d'une porte unique orientée vers l'espace agricole a vu dans un premier temps, le nombre de ses portes se multiplie par cinq.

Mais cette évolution va connaître des changements de plus en plus importants dès la fin des années cinquante. Ainsi, l'extension de l'habitat a pris une ampleur importante, on s'éloigne de plus en plus du noyau du village. Toutefois, cette extension évite dans tous les cas les espaces cultivés. A Tamalakout, les nouveaux édifices sont érigés au Nord et à l'Est du vieux village tandis que le Sud a été évité; la rareté des terres fertiles l'exige. Les mêmes traits marquent l'évolution spatiale de Taghdout qui se fait sur les

son expérience limitée ne peut en aucun cas édifier la demeure telle qu'elle est conçue par l'architecte, tandis que l'environnement social conservateur impose une réduction de l'ouverture de la maison sur le monde extérieur. Les «villas» d'Assaka présentent d'une part le rôle important de l'émigration dans l'évolution de l'habitat et d'autres part le poids des conditions locales qui orientent cette évolution.

5) La dégradation des maisons

Les demeures traditionnelles notamment celles construites dans leurs totalités en pisé ou par un mélange d'argile et de pierres sèches ne peuvent être occupées longuement. Leur utilisation est limitée de quatre à huit générations[20] ; passé ce délai la détérioration de l'habitat est rapide et son occupation devient presque impossible sous la menace d'effondrement. Ainsi les résidents se trouvent dans l'obligation soit de détruire les maisons et de les reconstruire à nouveau sur le même emplacement soit de quitter le village pour fonder une nouvelle agglomération à quelques dizaines de mètres de l'ancienne. Des ruines dispersées dans le pays de Taznakht témoignent de cette forme d'évolution basée sur un abandon total de l'ancien habitat.

6) L'influence des constructions étatiques

Les constructions étatiques en dépit de leur nombre limité, constituent un modèle qui attirent la population par sa forme et son architecture. Implantés souvent à l'extérieur du village, les écoles, les dispensaires, les maisons de fonctionnaires sont exposés quotidiennement aux yeux des villageois. Les constructions étatiques même s'ils n'attirent pas la population dans certains cas, familiarisent ce type d'habitat progressivement aux yeux des paysans.

B-Les formes de transformation récentes de l'habitat

L'intervention de cet ensemble de facteurs a imposé une évolution de l'habitat à la fois architecturale et spatiale qui échappe de plus en plus au

(20) - J. HENSENS: op. cit. p. 93.

préfèrent dans leur quasi totalité résider au village et ses alentours immédiats[19]

3) L'évolution démographique

L'évolution démographique de la population villageoise impose quant à elle une évolution du cadre bâti. En effet, sur un ensemble de 109 agglomérations, seuls 12% connaissent une évolution décroissante, tandis que le reste enregistre un accroissement positif ce qui conduit à l'augmentation des tailles des agglomérations.

Cette pression démographique qui s'accentue au fur et à mesure des années pousse les habitants à édifier des logements dans un premier temps dans les espaces vides situés à l'intérieur des villages, une fois ceux-ci complètement occupés, l'utilisation des espaces extra- muros demeure l'unique moyen pour faire face à cette pression démographique. La situation se complique en raison de la prolifération des foyers par suite de la multiplication des familles conjugales, au détriment de la famille patriarcale.

4) L'émigration

L'émigration constitue un autre facteur essentiel de changement atteignant l'habitat traditionnel. Dès son retour l'émigré essaie d'introduire des modifications parfois radicales en s'inspirant du modèle citadin. Dans certains cas l'émigré apporte avec lui un plan architectural conçu en ville pour l'appliquer dans son milieu d'origine. L'application du plan se heurte à des contraintes d'ordre professionnel et social : le maçon local en raison de

(19) - L'action directe de la route sur l'évolution de l'habitat n'est pas systématique. A titre d'exemple, son influence sur le village de Kourkda est très limitée en comparaison avec Anzal, par suite de conditions spécifiques. En effet, l'activité principale de la population de cette agglomération a été basée sur l'agriculture. Mais, après l'assèchement de la nappe phréatique, le village a connu et connaît encore une crise très profonde due principalement à la ruine totale de l'espace agricole. Un phénomène d'appauvrissement de la population a accompagné cette évolution naturelle et explique en partie l'absence de nouvelles constructions aux bords de la route, excepté les quelques boutiques construites en pisé. Le degré de pauvreté des habitants a fortement freiné l'impact direct de la route sur l'évolution de kourkda. Les quelques retombées de l'émigration sont utilisées pour assurer la survie des habitants.

1) L’instauration de la paix sociale conjuguée à l'apparition de nouveaux besoins

L’instauration de la paix sociale a engendré automatiquement la mutation de l’habitat traditionnel. Il n’est pas douteux écrit J. Hensens(18) que l’insécurité disparue sans être remplacée par d’autres motifs de concentration, l’habitat se serait étalé au dispersé davantage. La raison d’être de l’habitat groupé et de son système défensif est mise en cause avec l’instauration de la paix. La sécurité a favorisé l’expansion de l’habitat individuel dispersé dans les espaces extra-muros du village et a permis de satisfaire de nouveaux besoins (possession d’une maison disposant de plusieurs façades et composée de multiples pièces et d’un garage). Les familles concernées par cette opération appartiennent souvent aux couches sociales aisées. Les couches défavorisées se contentent en général d’aménager leurs logements dégradés.

2) Le réseau routier

Malgré la faiblesse du réseau routier du pays de Taznakht, celui-ci joue un rôle important dans l’évolution de l’habitat traditionnel sous deux formes différents : soit d’une manière directe en créant une désorganisation des villages situés aux bords des routes, ou d’une façon indirecte en facilitant les circulations des hommes, des modes de vie citadins et des décisions administratives susceptibles de transformer la conception traditionnelle de l’habitat. A titre d’exemple, la route principale qui passe à l’Est du village d’Anzal à environ 200 m oriente une partie de l’évolution spatiale de cette agglomération. En effet, plusieurs nouvelles constructions sont installées en bordure de la route très loin des deux noyaux du village. Ces nouveaux bâtiments sont destinés essentiellement à satisfaire les besoins d’une clientèle étrangère qui s’arrêtent de temps en temps pour changer de moyen de transport et de destination. Les maisons sont habitées par des locataires étrangers (instituteurs dans leur majorité) tandis que les propriétaires

(18) - J. HENSENS: op. cit. p. 91.

Si l'ensemble de l'habitat juif est caractérisé en général par les mêmes traits de l'habitat présaharien, l'intérieur de la maison était conçu d'une manière différente. Deux facteurs interviennent pour expliquer ces particularités: 1) la situation complexe des Juifs au sein de la société musulmane. 2) les spécificités professionnelles propres à la population juive. La peur continue et permanente des Juifs explique en grande partie la fortification de leur habitat et le système de défense basé sur la communication entre toutes les maisons du *mellah*. Ces dernières sont unies les unes aux autres par une série de portes qui sont toujours fermées en temps de paix, mais peuvent êtres ouvertes en cas de danger. En plus des portes de communication, les demeures du quartier juif sont liées entre elles par des fenêtres, dans le mur mitoyen, destinées essentiellement à demander du secours en cas de besoin.

L'habitat traditionnel reflète l'organisation économique, sociale et politique des communautés locales. Mais, cet habitat est remis en cause actuellement en raison des mutations profondes atteignant les modes de vie anciens et la structure sociale traditionnelle.

II) LES TRANSFORMATIONS RECENTES DE L'HABITAT RURAL

Les mutations récentes qui modèlent le village dans sa totalité et ses deux principales composantes, la maison et l'*agadir* sont liées à des facteurs externes et internes et se présentent selon plusieurs formes.

A) *Les facteurs de transformation*

L'instauration de la paix, la construction des routes, l'évolution démographique, les retombées de l'émigration, la détérioration des maisons, et l'apparition de nouveaux besoins de la population l'influence des bâtiments étatiques sont intervenus pour accélérer la mutation de l'habitat rural.

premiers, leur autorité religieuse pour les seconds et leur puissance pour les troisièmes pour arriver au sommet de la hiérarchie sociale.

Ainsi, l’organisation interne du village est marquée aussi par une stratification sociale d’où résulte une répartition bien précise des divers groupes dans l‘espace villageois. Le village de Taghddout nous présente un exemple très net de cette ségrégation. La population noire, les *assouqis*(16) , est installée sur la rive gauche de l’oued Oumagha tandis que les berbères blancs occupent la rive droite.

Les Juifs, qui ont constitué l'une des composantes de la population locale jusqu'à la fin des années 1960, ont gardé leur identité culturelle et religieuse qui s'est reflétée sur l'espace résidentiel. Les villages de la région(17), habités jadis par les deux communautés juive et musulmane ont été marqués par un clivage très apparent. A titre d'exemple le village de Taznakht se divisait en deux sous ensembles; le premier, mellah, était réservé aux Juifs, le second, dont la superficie était plus importante, aux Musulmans. Les deux parties se présentaient comme deux domaines clos bien qu'au sein d'une même agglomération. Le mellah, quartier juif, était replié sur lui-même et bien organisé pour éviter toute menace venant du monde extérieur, y compris du quartier musulman.



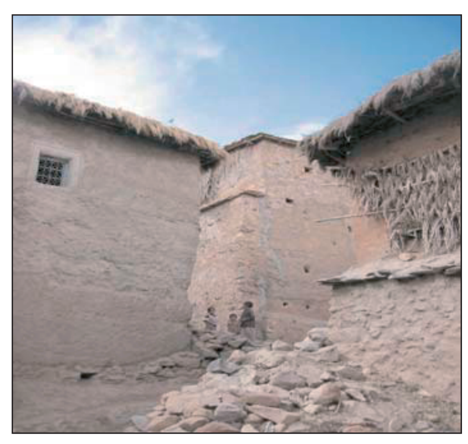
Ce qui restait de la synagogue de Taznakht en 2005

(16) - Les assouqis occupèrent la dernière place dans la hiérarchie sociale. Ils sont composés souvent de petits propriétaires et prolétaires agricoles.

(17) - Les agglomérations habitées jusqu'à la fin des années 1960 par les Juifs sont: Taznakht Kesbah, Tamaarouft, Asdif, Tamzerra, Amassine et Idghar

laurier rose, recouverte d'une dernière couche composée d'herbes pour faciliter la couverture du toit par la terre battue.

Les escaliers sont construits toujours en *toub*(13) ou en pierres. Ils prennent naissance souvent juste après la porte d'entrée. Au niveau supérieur de la maison, les escaliers sont couverts par une pseudo-chambre, *tafallalt* , qui sert spécialement à les protéger contre les eaux de pluies. Pour cette même raison et pour éviter la destruction de la crête du mûr, les habitants mettent une couche de roseaux ou des pierres plates *akfaf* dont la largeur dépasse celle du mûr à protéger.



Akfaf, une technique de protection des crêtes de murs très répandue en montagne

E) Une ségrégation socio-raciale et religieuse frappante au sein du village

Depuis plusieurs siècles, les divers groupes sociaux devaient vivre ensemble dans la région selon des coutumes ancestrales marquées par une ségrégation socio-raciale et parfois même religieuse. Les conditions dans lesquelles s'est développée ce clivage sont difficiles à préciser, mais il paraît fort probable que les couches dominantes, *Chorfa*(14), *Igouramen*(15) et *Imazeghen* ont exploité autrefois leur appartenance "chérifienne" pour les

(13) - Toub : Briques crues séchées.
(14) - Chorfa: Sing Chérif : apparenté du prophète Mohamed
15) - Igouramen : Sing Agourram: Marabout

L'importance de ce dernier diminue dans la cuvette de Taznakht, mais le pisé demeure toujours l'élément principal utilisé par le bâtisseur; seul dans des cas exceptionnels on a eu recours à la pierre sèche et pour des raisons purement défensives; le cas d'Agadir d'Aguins.

Dans la zone très élevée du Nord-Ouest et plus précisément chez les Ait Ougharda et les Ait Semgane, l'utilisation de la pierre sèche devient de plus en plus courante au détriment de l'argile. Ici le bâtisseur se préoccupe souvent des modalités nécessaires à la protection des murs et leur consolidation pour résister contre la pluie, c'est ainsi que la technique d'akfaf est très répandue dans ce domaine.



Idghar : Prédominance de l'utilisation des pierres sèches en haute montagne

Deux éléments essentiels entrent dans la construction des murs des maisons; l'argile et les pierres sèches. Une fois les murs construits, ils sont enduits d'une matière qui résulte d'un traitement spécial de la terre. L'installation de la toiture en terrasse se fait à l'aide d'une série de poutres qui proviennent des troncs de palmier ou d'eucalyptus. Les extrémités de la poutre sont enfoncées dans le mur. Sur les poutres, distant de 1m à 1,5 m l'une de l'autre, et perpendiculairement à elles, on trouve une série de solives dont la forme et la longueur sont très réduites en comparaison avec celles des poutres. La distance séparant deux solives atteint au maximum 30 cm. Au dessus de ces dernières on met une couche de roseaux ou de branches de

l’aide d’un escalier normal, contrairement à d’autres igoudar notamment celui d’Idghar ou l’accès aux chambres des niveaux supérieurs se fait à l’aide d’échelles entaillées dans des troncs d’arbres ou grâce à des pierres encastrées dans le mur(12) . Les chambres avaient des formes rectangulaires de trois mètres sur deux mètres, et elles étaient dépourvues de fenêtres. La porte étaient très petite (1 m de hauteur) mais elle était minutieusement décorée. L’ *agadir* de Tamallakout était quasiment couvert ; seul un petit espace était laissé ouvert pour la simple raison d’éclairage et d’aération. La porte principale du magasin collectif était orientée vers la place publique ce qui permettait le contrôle des gens qui entraient ou qui sortaient. La surveillance était assurée par un gardien, «Adouab », désigné par la *Jmaâ*.

Dans le second cas, l'agadir constitue une véritable-forteresse. Cette catégorie est représentée par l’agadir d'Agoulmime, hors de service actuellement. Cet agadir était organisé pour abriter en plus des réserves alimentaires, la population et le troupeau en période d'insécurité. C'est ainsi qu'il se composait à côté des cases destinées à emmagasiner les aliments, d’une série de pièces réservées au logement des habitants et d'un espace entouré de murailles pour abriter les chevaux et le bétail.

D) Une technique architecturale qui varie sensiblement selon l'altitude

L'architecture se base dans l'ensemble de la région sur le pisé excepté les zones Nord-Ouest où le pisé cède la place à la pierre sèche; les variations climatiques entre les divers domaines entrent en jeu et imposent aux bâtisseurs des modifications parfois importantes. Au pays des Ait Ouhmidi, le pisé et le bois de palmier prédominent dans toutes les opérations de construction, mais l'une des caractéristiques principales des maisons demeure l'importance des moyens d'aération: fenêtres, talkiwt2, etc.… Les altitudes relativement moins élevées (825 à 1100 m) et par conséquent les températures élevées, en été, expliquent l'importance de ce système d'aération.

(12) - R. MONTAGNE : op. cit. p. 174

Dans le premier cas, l'agadir est composé de plusieurs niveaux, souvent trois, et de chambres bien renfermées et de dimension réduite. Le nombre de pièces varie sensiblement d'un agadir à l'autre. Il est de 25 à Agrilaouen et 167 à Amassine, toutefois la majorité des igoudar abritent une soixantaine de pièces. Chaque famille disposait en principe d'une pièce. Les portières, parfois minutieusement décorées, de ces chambres sont orientées tantôt vers une cour intérieure, cas de Tamallakout, tantôt les unes aux autres en cas d'organisation de l'Agadir sous forme d'un U, cas d'Idghar.



Portière décorée, agadir de Ait Qalla

Chaque pièce est organisée d'une manière permettant d'emmagasiner les différents articles et produits selon leur nature. A titre d'exemple les pièces d'Agadir Ait Tigga sont minutieusement subdivisées et les dimensions de chaque subdivision varie selon la quantité et la nature du produit à préserver. Ainsi on rencontre des cases réservées aux céréales, au miel, aux actes, etc..

Le tout est entouré par un mur épais de hauteur importante consolidé dans certains cas par quatre tours. L' agadir de Tamallakout présentait un bel exemple de cette catégorie. Il est édifié au Sud-Ouest du village et occupait une superficie carrée. Le nombre de chambres qu'il abritait était de soixante deux réparties sur trois niveaux. L'accès aux étages supérieurs se faisait à

Tafilalet. En effet, le pays de Taznakht constitue la limite méridionale de l'extension de cette institution qui jalonne les diverses régions montagneuses, notamment l'Anti-Atlas, le Moyen-Atlas, le Sirwa et le Haut Atlas occidental(11) avec des différenciations plus ou moins importantes selon les milieux géographiques.

Edifié spécialement pour protéger les biens précieux de la population, l'*agadir* occupe un endroit inaccessible et/ou facile à défendre. Ainsi les divers magasins collectifs du pays sont construits sur des sites géographiques d'accès difficile (sommets de collines ou de montagnes ; cas des igoudar de Wintijgal, Idghar, Ait Tigga et d'Agoulmime), ou à l'un des quatre coins du village pour faciliter la défense et mieux surveiller l'espace avoisinant (Tamallakout). L'*agadir* prend généralement une forme quadrangulaire, avec toutefois certaines exceptions. A titre d'exemple celui d'Affella N'Ouassif a une forme circulaire. Selon leur organisation interne, on peut distinguer deux types d'*agadir*. Le premier est organisé spécialement pour abriter les réserves alimentaires et les biens de familles, tandis que le second est destiné en plus à accueillir la population et le bétail en période de troubles.



Agadir Ait Tigga : Modèle d'Agadir Installé sur le sommet d'une montagne et construit en pierres

(11) DJ.J. MEUNIE : Greniers collectifs Hesperis 1949, p.101.

fin, l'espace non construit du premier étage est réservé aux cultures récoltées avant d'atteindre le degré de maturité nécessaire : c'est là où on fait sécher les figues, le maïs, les amendes, les grenades…

Les pièces et la dimension de la maison traditionnelle varient généralement selon le rang social de son propriétaire. Ainsi les dimensions de l'étable, le nombre de chambres sont toujours importants dans une maison appartenant à un paysan aisé, au contraire le paysan défavorisé se contente d'une demeure très réduite à tous points de vue.

En fin la maison traditionnelle est caractérisée par son ouverture très contrôlée sur l'extérieur, les fenêtres donnant sur l'extérieur sont limitées au maximum et de dimensions généralement très réduites.



Des fenêtres de dimensions réduites et souvent fermées

3- L'Agadir

Le magasin collectif est un endroit où l'habitant pouvait « constituer des réserves indispensables soustraites au péril des guerres privées, et préservées, grâce à l'effort de tous, des risques de pillage par les tribus voisines»[10]. La place occupée par le magasin collectif différencie relativement le village du pays de Taznakht de ceux de la vallée du Dra et du

(10) - R.. MONTAGNE : Un magasin collectif de l'anti-atlas. L'agadir des Ikounka. In Hesperis 1929, 2e et 3e trimestre p.164.

A côté du *lestouane* on trouve la *tkhzante*, une «chambre-magasin» érigée souvent un peu loin de la porte d'entrée. Comme son nom amazigh veut dire, elle est conçue spécialement pour mettre les biens de la famille à l'abri des enfants et aussi d'une partie des adultes ; quand on est dans une famille patriarcale, la clef de la *takhzant* est toujours entre les mains de la grand-mère. Le ménage dépose généralement dans ces chambres des produits alimentaires rares en plus des biens précieux (or, argent, actes, documents…). La *tadwirt* est située au dessous d'un espace découvert *talkiwte*. Elle présente un grand espace utilisé généralement comme cuisine, *tartcate*, par suite des possibilités d'aération et d'échappement de fumées qu'elle présente.

L'étable occupe une grande partie du rez-de-chaussée qui peut atteindre plus de 50% de la superficie totale. Elle est divisée en plusieurs parties réservées à des espèces différentes ; ainsi on distingue des secteurs consacrés respectivement aux animaux de trait, aux femelles allaitantes et au reste du troupeau en plus d'une basse-cour. Les réserves à paille et à bois se présentent sous forme de pseudo-pièces, de dimensions très réduites, dépourvues de fenêtres.

En général, la conception du premier niveau a pris en compte tous les éléments qui peuvent faciliter l'exercice de l'activité agro-artisanale de la population, le deuxième niveau est destiné quant à lui à l'hébergement de la famille et pour d'autres fins agricoles.

Au premier étage, on trouve la *talmesrit* ; chambre liée directement à la porte extérieure par l'escalier. Elle est utilisée normalement à des fins familiales (chambre à coucher, salle à manger…) mais elle se transforme directement en cas d'arrivée des étrangers en chambre de hôtes. Sa liaison directe avec la porte d'entrée présente «des avantages de discrétion»(8). Ainsi l'hôte peut regagner *talmesrit* « sans pénétrer vraiment dans l'intérieur de la maison(9). A côté de *talmesrit*, on est face à un nombre de chambres à coucher qui varie selon la taille et les possibilités financières du ménage. En

(8) - A. ADAM : La maison et le village dans quelques tribus de l'Anti-Atlas, Hesperis, 3ème et 4ème trimestre, 1950, pp, 289-362.

(9) - A. ADAM : op. Cit. p. 309.

Pour plus de sécurité, le village abrite un ou plusieurs puits à l'intérieur de la muraille et dans certains cas une aire à battre pour éviter tout risque de vol ou destruction.

Le village est composé généralement d'une série de maisons et d'un *agadir* dont l'organisation interne répond aux besoins d'une population agropastorale.

2- La maison

La maison du pays est avant tout une demeure fonctionnelle conçue pour répondre aux besoins d'une population agro-pastorale. C'est ainsi que les traits décoratifs sont quasiment absents. L'organisation fonctionnelle de la maison est déterminée quant à elle par la nature des activités exercées par les habitants. Elle est composée généralement de deux niveaux : au premier on trouve le lestouane, juste après la porte d'entrée, la *tadwirt*, l'étable et les réserves à paille et à bois de cuisine.

Le *lestouane* : grande pièce de forme rectangulaire qui, suite à sa situation, est liée à plusieurs unités de la maison par des petites portes. Le *lestouane* est fréquenté souvent par tous les membres de la famille notamment les femmes. C'est là que le tissage des tapis se fait de même que la transformation des grains en farine. En été, par suite à sa fraîcheur, il se transforme en une véritable chambre où la famille prend son déjeuner et fait la sieste.



Taznakht Kesbat : Modèle de maison traditionnelle

chaque rue disposait d'une porte unique qui se fermait pendant la nuit et en période d'insécurité.

Dans certains cas, notamment quand le village est édifié au cœur d'une vallée dominée par les montagnes, le système de défense est renforcé davantage. Outre la muraille très élevée et les quatre tours érigées aux coins du village, les habitants de Tamallakout ont conçu un système de défense composé de cinq autres tours sur les sommets de la chaîne montagneuse avoisinante. La surveillance était assurée par dix personnes après la prière d'*El Asr* (vers seize heures). Chaque famille participait à tour de rôle suivant une rotation bien déterminée.

C) *Une division fonctionnelle adaptée*

Le village et ses deux composantes principales, la maison et l'*agadir* font l'objet d'une division fonctionnelle qui répond aux besoins et aux exigences du milieu socio naturel.

1- Le village :

La division fonctionnelle de l'espace villageois est frappante. Rien n'est laissé au hasard. L'*agadir*, s'il est intégré au village, occupe généralement, l'un des quatre coins. Juste après la porte du village on est face à une cour: c'est la place publique réservée jadis aux rassemblements de la *Jmaâ* et aux marchands ambulants qui parcourent le pays. La mosquée et l'échoppe du forgeron donnent généralement sur cette cour. A partir de la place publique des rues prennent naissance pour relier les secteurs résidentiels. Chaque rue est désignée par un nom qui porte souvent une étiquette agnatique.

La répartition de la population, qui peut aller de quelques dizaines à plusieurs centaines d'individus, au sein de l'agglomération révélait une ségrégation socio-raciale parfois même religieuse. La population laborieuse est cantonnée dans un secteur différent de celui des propriétaires. Dans certains cas, tels que les villages de Taznakht et Tamaarouft, on a assisté durant une longue période à un clivage religieux entre Juifs et Musulmans. Dans les deux agglomérations, l'espace a été divisé en deux grandes parties; chaque communauté en occupait une.

forme regroupée et fortifiée de l'habitat local. L'habitat individuel dispersé, étant inadapté à ce milieu où régnait l'insécurité, était inexistant. Il n'était permis à aucun membre de la communauté d'installer sa maison hors du village(4) .

La conception de cette forme d'habitat était liée aux facteurs socio-historiques mais sans oublier le rôle, si modeste soit-il, du facteur climatique. Comme le signale J.Hensens, "il serait permis de penser que les rigueurs climatiques auraient pu passer au second rang des préoccupations des bâtisseurs"(5) mais il n'en demeure pas moins que le regroupement de maisons permet, en été, de limiter l'exposition de ces dernières au soleil et par conséquent une diminution des températures à l'intérieur des demeures.

Le regroupement et la fortification de l'habitat, qui se manifestent par une concentration dans l'espace de toutes les composantes du village et leur quadrillage par un système défensif composé généralement d'une muraille et de tours de guet, demeurent les principales caractéristiques des agglomérations rurales de la région et celles de l'ensemble du présahara avec quelques différenciations secondaires: si l' agadir occupe une place importante dans les villages du pays de Taznakht, il est quasiment absent au Dra et au Tafilalet (6).

Les différentes composantes du village sont souvent entourées par un mur d'enceinte flanqué par des tours. Dans certains cas, Indiyout à titre d'exemple, les maisons qui forment le pourtour du village sont disposées de façon à constituer une suite ininterrompue qui sert de mur d'enceinte (7).

Ces systèmes de défense sont renforcés parfois par une série de portes internes destinées à isoler les rues et faciliter leur défense. A Wintijgal

---

(4) - J . HENSENS: Habitat traditionnel des oasis présahariennes. Le village problèmes de rénovation B.E.S.M., n°114,p. 83.

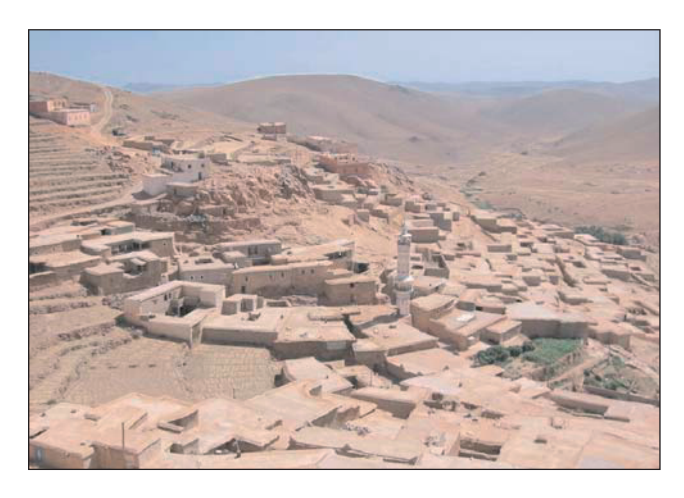
(5) - J. HENSENS: op. cit.p.91.

(6) - En somme, vers le sud la limite des agadirs coïncide avec celle de terres à orge et à blé des bour des plateaux qui donnent habituellement une maigre récolte, mais qui parfois -quand vient l'année de l'abondance- permettent aux moissonneurs de remplir les greniers, on ne les trouve pas dans les vallées sahariennes cultivées en jardins"R. Montagne: un magasin collectif de l'Anti-Atlas, l'agadir des Ikounda Hesperis, tome IX, 2e et 3e trimestre, 1929, p. 190.

(7) - Louis Gentil, exploration du Maroc, page 306.

A) *Une dispersion des villages dans l'espace*

L'hydrologie et les conditions pédologiques interviennent pour déterminer la localisation des villages qui s'installent essentiellement aux bords des oueds, au contact des reliefs ou au milieu des plaines. C'est ainsi que la répartition des villages dans l'espace se différencie nettement de celle des régions limitrophes, notamment la vallée du Dra ou la localisation des agglomérations suit l'oued principal, le Dra. Ici, en l'absence d'un grand oued, l'habitat est lié aux affluents secondaires ce qui explique sa dispersion. En général, cette répartition est fonction des disponibilités des sites en eau et en sols faciles à mettre en valeur. Les grands vides du Nord et du Sud-Est sont dus à l'absence de l'un de ces deux éléments décisifs.



Pays de Siroua: Village installé sur la bordure d'une vallée encaissée

Les limites supérieure et inférieure de l'habitat dans la région sont respectivement 2150 m « Ait Ighmour » et 880 m « Tastift ». Ce sont les domaines situés entre 1300 m et 1600 m qui abritent la plupart des villages.

B) *Un habitat groupé et fortifié*

Région marginale et éloignée, le pays de Taznakht a connu durant la période précoloniale une instabilité due essentiellement aux conflits tribaux permanents. Ces conditions socio-historiques ont été à l'origine de cette

Les transformations récentes[1] de l'Habitat rural dans le pays de Taznakht

ZAINABI Ahmed Toufik
CNDH

Malgré quelques différences d'une région à l'autre, dues généralement à l'altitude et à la nature des relations sociales à l'intérieur des villages, l'habitat dans le pays de Taznakht[2] garde plusieurs traits traditionnels communs. Il est souvent groupé et fortifié. Sa distribution dans l'espace est fonction de l'existence des eaux d'irrigation et des sols fertiles alors que son organisation reflète parfaitement la stratification sociale locale. La maison et l'*agadir*[3] constituent deux composantes principales du village qui présentent deux formes de constructions répondant aux besoins imposés par le milieu socio-naturel. Au cours du siècle dernier, plusieurs facteurs sont intervenus pour influencer l'organisation de la maison, de l'*Agadir* et du village dans sa totalité.

I) UN HABITAT TRADITIONNEL ADAPTE AUX CONDITIONS SOCIO NATURELLES LOCALES

Les villages traditionnels du pays de Taznakht sont caractérisés par leurs dispersions dans l'espace, leur fortification, leur organisation fonctionnelle et socio religieuse, et leur architecture spécifique au présahara et à la montagne.

(1) - Le présent article reprend, résume et actualise les données présentées par l'auteur en 1989 in «l'homme et la montagne en milieu sub-aride : Le pays de Taznakht »: thèse de doctorat, soutenue le 3 Mars 1989 à Poitiers-France.

(2) - Nous entendons par « pays de Taznakht » le territoire situé au Sud Ouest de la province de Ouarzazate. Administrativement, il coïncide avec le Caidat de Taznakht

(3) - Alors que les Zénaga utlisent le terme agadir, pl. igoudar, pour désigner le magasin collectif, les autres tribus du pays de Taznakht utilisent le terme ighrem, pl. ighermane. On se retrouve dans la frontière linguistique séparant le groupe bérbérophone parlant le Tachilhit de celui parlant le Tamazight.

EL OTMANI, M. 2004, *Les louh de jazoula et la jurisprudence islamique (Alouah jazoula wa attachri' al Islami)*, Ed. MAC, Rabat.

LAZAAR, M. 1989, *L'émigration internationale et ses retombées sur la province d'Al Hoceima*. Thèse, Doctorat 3ème cycle de géographie. Poitiers

Ministère de l'Agriculture et de la Réforme Agraire, Direction de la planification économique. RGA, 1996.

MONATAGNE, R., 1930, *Les berbères et le makhzen dans le sud du Maroc,* Paris, Félix Alcan.

Direction de la statistique ; Résultats généraux des RGPH, 1994 et RGPH 2004 (voir aussi Site Web : httpp://www.hcp.ma

Bibliographie sommaire

ABOU-EL-FARAH, Y, 1989, *La vie rurale dans une région aride du Maroc : la plaine de Tiznit. Thèse*, Doctorat 3ème cycle de géographie, Université de Rouen.

ADAM, A. 1950, *La maison et le village dans quelques tribus de l'Anti-Atlas*, Hespéris, n° 1-2, pp. 363-398.

AIT HAMZA, M, 1986, *Aspects des transformations socio-spatiales du bassin versant d'Assif Mgoun (Versant sud du Haut Atlas central)*.Thèse, Doctorat 3ème cycle de géographie, Université Mohammed V, FLSH, Rabat 2 T, (en arabe),

AIT HAMZA, M, 1992, *L'habitat dans le Dadès et le rôle de l'émigration dans son évolution récente*. In La recherche scientifique au service du développement. Pub. FLSH, Rabat, Série : Colloque et Séminaires, 22, pp.127-146.

AIT HAMZA, M, 1998, *Migration et dynamique de l'espace local : Bouteghrar* (Versant sud du Haut-Atlas-Central) In Berriane et H, Popp. Maghren-Studien 10, Passau, pp. 147-158,

AIT HAMZA, M, 2002, *Mobilité socio-spatiale et développement local au sud de l'Atlas marocain (Dadès-Todgha)*. Maghreb-Studien, Heft, 13, L.I.S. Verlag, Passau

ALAOUI, M. 1979, *Transformation dans un village de l'Anti-Atlas*, BESM. N°138-139, pp. 23-36.

BONNET, J. et BOSSARD, R. 1973, *Aspects géographiques de l'émigration marocaine vers l'Europe*, RGM., n° 23-24, pp. 5-49.

BOUKOUS, A., 1977, *L'émigration des Soussis*, BESM., n° 135.

El BOUQDOURI, A, 2000, *Histoire des tribus Hilala*, Souss, Imprimerie Najah El Jadida, Casablanca (en arabe)

EL MRABET, B. 1984, *Emigration et habitat dans la montagne sud-rifaine (Pays de Taounat)*. Thèse de 3ème cycle en géographie, Montpellier III (ronéo)

Conclusion

L'Anti-Atlas, dans ses mutations offre, aujourd'hui, aux géographes, aux anthropologues, aux sociologues et aux aménagistes un laboratoire vivant et sans égal. Bassin migratoire traditionnel du Maroc, l'Anti-Atlas a alimenté les plus grands centres et villes urbaines du Maroc en main d'œuvre, en cadres et en acteurs économiques de tout genre.

Les gens de l'Anti-Atlas, eu égard à ce qu'ils ont appris de la nature austère de leur origine, travaillent dans des réseaux de solidarité très forts et très cimentés. Ces réseaux et ces solidarités tissés jadis pour mobiliser les ressources naturelles (eau, parcours, culture de terrasse) ou pour entretenir la communauté (mosquée, cimetière, medersa, grenier…) ont aujourd'hui servi pour s'équiper en eau, en électricité, en route… Emigré en ville ou à l'étranger, le descendant de l'Anti-Atlas, n'est donc pas prêt à oublier facilement les siens et sa terre natale. Ce lien ombilical n'est pas uniquement sentimental, linguistique, comportemental, mais aussi matériel.





Ces associations, visent, outre le développement durable, l'équipement des différentes localités en eau, en électricité et par des pistes. Le souci de sauvegarder un grenier collectif, une medersa traditionnelle, une métfia (tanoutfi) et la valorisation d'un produit de terroir, s'associe avec la scolarisation des enfants, le développement des activités génératrices des revenus. Les femmes, souvent devenues seules, la plus grande partie de l'année, occupent une place de choix dans les programmes d'intervention.

Le tourisme constitue une occupation, une activité lucrative de plus en plus recherchée, un moyen d'épanouissement, mais aussi de protection du patrimoine culturel et environnemental.

Les initiateurs de ces projets, les leaders de ces entreprises, identifiés au travers de leurs adresses, de leurs numéros de téléphones ou à travers les brèves informations recueillies auprès des rares vielles personnes rencontrées, sont souvent constitués d'absentéistes œuvrant à Rabat, Casablanca, Kénitra, Agadir… Leur activation dans le domaine associatif relève plus d'un attachement au territoire que d'une réelle nécessité. C'est un désire qui peut émaner d'un sentiment de confirmation d'appartenance, d'entraide, d'un acte humanitaire, comme il peut avoir des résonnances socioéconomiques et politiques. "*Les élections locales, dit-on, sont faites et téléguidées à partir de Casablanca*".

Ce sentiment de bien vouloir être présent sur le terrain tout en y étant absent, est l'une des caractéristiques les plus frappantes de «la culture migratoire». C'est la manifestation même du déchirement et le prix de l'internationalisation.

Construite pour servir et desservir un certain nombre de localités, l'école moderne occupe souvent un site loin des habitations, adopte une architecture et des matériaux étranges par rapport à l'environnement local (ciment armé, fer, verre, peinture…)

Les méthodes d'enseignement, les programmes sont conçus d'ailleurs. Les enseignants eux-mêmes, sont formés et arrivent d'ailleurs et adoptent des comportements souvent étranges. Malgré son caractère moderne et sa portée comme vecteur de l'ascension sociale, l'école moderne, hors des grands villages et centres, se trouve désaffectée. La migration familiale massive a créé un vide humain dans la zone. Ce dernier s'est traduit par la non-disponibilité d'assez d'enfants pour ouvrir des écoles dans plusieurs villages et par la fermeture de plusieurs parmi celles déjà existantes. Le ramassage opéré par le transport scolaire n'a résolu le problème qu'à proximité de quelques centres (Tafraout, Ida Ognidif, Tanalt, Ait Abdellah, Ait Baha…)

Les familles qui persistent encore dans le bled doivent le quitter pour pouvoir suivre l'évolution et offrir l'éducation à leurs enfants.

2-6- La société civile et la revitalisation du bled

Malgré le vide humain dont souffre, ce territoire, celui-ci compte un mouvement associatif parmi les plus intenses et les plus dynamiques du Maroc. Ainsi, outre les associations à caractère national et régional, le développement des associations dites villageoises a connu un essor exceptionnel ces dernières années. Outre sa présence matérielle au niveau de tous les projets, la place que détient la société civile au niveau des différentes décisions devient de plus en plus importante.

Matériellement, les sièges de ces nouvelles institutions, sont partout signalés au bord des routes par des panneaux imposants. On y décline à la fois l'indenté de l'association, ces objectifs, mais aussi son adresse de contact (mail, téléphone, fax…) (photos n° 11 et 12, A.H. fév. 2010).

d'accessibilité, de pénibilité et de confort ont beaucoup changé de sens. Ce rapprochement a cependant œuvré pour l'élargissement des fossés entre ceux ayant accès à ces équipements et ceux qui peinent encore pour satisfaire les besoins de base.

2-5- Qui emportera la bataille, l'école ou la medersa ?

Paradoxalement à l'ouverture précédemment décrite, les traditionnelles medersas, toujours fonctionnant hors du système éducatif moderne, restent très actives et dynamiques. Souvent adossées à des Zaouias (Tamguelcht, Sidi Bou Yaakoub, Sidi Yaakoub…) le caractère sacro-saint du lieu et le caractère religieux de l'enseignement qu'elles desservent attirent des catégories spécifiques de clients venus souvent de très loin. Régies selon un système d'internat entretenu par des dons (*achour «dîme», mouhsinines «bienfaiteurs»…*), ces institutions dispensent leur enseignement principalement en arabe et en tamazighte.

Elles sont souvent annoncées le long des routes par des écriteaux sous le nom de medersa atiqa…. Ces écoles, dont le nombre s'élève à quelques 200 unités (A. Faouzi, 2003, 83), forment des institutions tribales intégrées au système(17) . Elles remontent, selon les historiens, au X et XIème siècle de l'hégire. A Ilalen, à titre d'exemple, on compte environ 18 medersas. Elles étaient, malgré le traditionnel système d'enseignement qu'elles entretiennent, à l'origine de la formation de plusieurs savants et théologiens de renommée.

(17) Afin d'illustrer notre propos, nous évoquerons ici l'école de Tafraout El Mouloud : l'école est d'une superficie globale de 2500 m², contient 45 chambres pour étudiants dont une partie a été récemment construite. Elle contient aussi une salle de séjour pour le fquih de l'école, une pour le professeur de Coran, 4 classes, une bibliothèque, une grande salle pour les hôtes, une salle à manger, une cuisine et 4 entrepôts pour le stockage des subventions de l'école constituées principalement du 1/10 de la récolte fournie par les habitants de la tribu. Au centre de l'école se situe une grande mosquée d'une superficie de 400 m², restaurée par des bienfaiteurs. Dans les années 80, l'école fût dotée d'un groupe électrogène dont les frais de fonctionnement et de maintenance sont couverts par des citoyens de la région résidents à l'étranger.

L'écriteau annonçant aux rares touristes qui passent la présence d'un camping avec piscine (photo Camping Agadir Oumanouz, Ph, 10, A.H. fév. 2010), mérite réflexion dans un tel contexte.

Un jardin d'oliviers par-ci, une rangée de fleurs par-là, marque une nouvelle façon de forcer la nature à être ce qu'elle n'est pas structurellement, une volonté de corriger la nature et un défi au déterminisme physique prônée par certain chercheurs.

L'usage du camion citerne, de la motopompe et récemment de l'électricité pour alimenter les populations en eau, constitue une révolution dans les mœurs et dans les relations homme / ressource. L'usage de l'eau courante et de l'électricité, ne constitue plus une singularité.

2-4- L'ère de l'électrification et des télécommunications

Au Maroc et surtout au niveau des campagnes, la généralisation quasi-totale de l'électrification a constitué un événement sans précédant. Outre son aspect confort, l'électricité a énormément révolutionné la vie des gens. L'ouverture réalisée par l'intermédiaire de nombreuses gadgets tel le téléphone, la télévision, le réfrigérateur, l'électroménager… a métamorphosé, et de façon brutale et radicale, les comportements sociétaux. Outre l'obligation de mobiliser des fonds pour faire face aux multiples dépenses afférentes a l'introduction, à l'installation et à l'usage quotidien de ces nouveaux intrus, ceux-ci ont, si vite, marqué les territoires de villages (poteaux, câbles, transformateurs, compteurs, etc.) et les espaces internes aux habitations (interrupteurs, prises, ampoules, rallonges, chargeurs…). La place réservée à la télévision, au réfrigérateur et au téléphone au sein de toutes les maisons, reste spécifiquement marquante. Le téléphone portable est devenu le fidèle compagnon des hommes comme des femmes, des jeunes comme des vieux, des riches comme des pauvres. Ainsi, malgré le poids des nouvelles dépenses qu'a engendré l'introduction de ces appareils, leur usage a entraîné une démocratisation populaire pour ne pas dire une banalisation de l'information. Le droit à l'information et à la consommation, se trouve réaliser à outrance. Les distances se sont brutalement rétrécies, les notions

d'alimentation et à de nouveaux comportements envers l'usage de la ressource.

Aujourd'hui, les châteaux d'eau, les bornes fontaines, les conduites de l'eau potable, constituent le signe le plus tangible du changement. Les compteurs individuels ou collectifs, installés sur les murs extérieurs des maisons, marquent une nouvelle ère.



Les tuyaux galvanisés, encastrés ou superficiels, annoncent partout la fin des citernes traditionnelles et leur corollaire impluvium. Ainsi, le robinet à la maison, loin d'être un simple appareil et élément du service, a révolutionné le comportement des gens. Le lavabo, la douche, la toilette, le jardin interne à la maison, la fosse septique, forment autant d'éléments qui ont changé le mode de vie des gens et leur comportement envers la ressource. Les tuyaux d'un système de goutte à goutte appliqué à des jardins de dimensions d'un mouchoir, construits sur un relief rocailleux, attirent l'attention du passager, même non averti (photos villas jardins, 8 et 9, A. H. fév. 2010).





cette zone sa spécificité. Ces citernes souterraines ont généralement un statut individuel, familial ou communautaire[15].



Compteurs d'eau à Aman -n-Tazart Ph.6, A.H, fév. 2010.



Champ de métfias à Tasdmit, Ph.7, A.H, fév. 2010

Elles sont omniprésentes près des habitations et au travers des différents lieux publics (cimetière, mosquée, grenier, meçalla [16]...) où elles prennent un caractère sacro-saint. L'emplacement de ces équipements près des mosquées, au sein ou près des greniers, sur les places centrales, révèle l'importance que leur accordait la population. Cette forme traditionnelle d'adaptation à la rareté laisse de plus en plus la place à de nouvelles formes

(15) Les métfias communautaires sont généralement installées au centre des localités, près des mosquées, au sein et à proximité des Igoudar.

16) Meçalla = place des grandes prières de fêtes.

Ainsi, la généralisation de l'usage des routes goudronnées ou cimentées[11], la démocratisation de l'usage de la voiture a beaucoup affecté l'espace rural. Les contrés totalement isolés se font de plus en plus rares. Les lignes de transport à grande distance sont fréquentes[12]. Les lignes qui prolongent le chemin de fer (Supra Tour) vont jusqu'à la ville de Laayoun. Le transport scolaire, nouveau venu dans le monde rural, fait ses pas. Les grands et moyens bus qui font le drainage pour les établissements scolaires, marquent le paysage urbain que rural[13].

Evoquant le problème de l'accessibilité / rentabilité, on peut même se poser le problème des inputs investis par les institutions publics et les privés dans ces zones. Ces routes, souvent désertes, sauf l'été, ont participé à la vulgarisation d'une infinité de produits de consommation, mais aussi de comportements souvent totalement étranges à ces milieux.

2-3- De l'eau des metfias à l'eau du robinet

Eu égard à sa rareté et à sa répartition intermittente dans le temps et dans l'espace, l'eau constituait un élément déterminant de l'organisation socio-spatiale. Ici, l'eau superficielle est presque absente. Son économie devient un art et sa conservation relève du défi[14]. Le creusement des metfias (tanoutfi), leur construction, leur architecture, leur répartition spatiale, les formes de leur appropriation et de celui des impluviums qui les alimentent, outre leur gestion, constituent une des richesses culturelles qui donnent à

(11) Un effort considérable de désenclavement est en train de se faire. Le Programme National des Routes Rurales a réalisé de nombreuses et larges routes goudronnées. Les chantiers en cours sont nombreux (le désenclavement des Communes rurales de Toumliline, Afella n'Ighir, Tighmarte, Taghjijt...)

(12) A Tafraout, on rencontre, aujourd'hui des bus qui font de long trajets à travers tout le pays : (Tafraout, Agadir, Marrakech, Casablanca, Rabat et Kénitra). Agadir est même relié par bus aux grandes métropoles européennes par des lignes terrestres régulières (Paris, Bruxelles, Amsterdam...)

(13) A Tafraout, par exemple, les bus sillonnent les espaces entourant la ville dans un rayon de plusieurs kilomètres.

(14) La population parlait des stocks pouvant durer plusieurs années.

Néanmoins, le caractère souvent vide de ces habitations pousse à poser plusieurs questions en la signification de ces investissements presque à fonds perdus. Cet habitat ostentatoire et à caractère exhibitionniste, est-il l'expression d'une réussite socioéconomique, d'un attachement psychique au territoire, une revanche sur la vie chiche que mènent ces gens dans leur lieu d'immigration, ou l'espoir, même fictif, et mythique du retour ?

Ce comportement plein de paradoxes pose aux aménagistes, avides de rationalités, des problèmes parfois dépassant les limites de la raison : faut-il équiper ces zones en fonction du nombre réel d'habitants ou de leur démographie fictive. ? (10)

2-2- L'Anti –Atlas, une montagne très pénétrée

Les sites traditionnellement pré-élus pour l'implantation des habitations rurales dans ces contrés sont déterminés par le souci de la sécurité et de la préservation des rares sols arables. Aujourd'hui, sous l'effet de la civilisation de la roue, ces sites sont de plus en plus désaffectés (Taghaout, photo n°1).

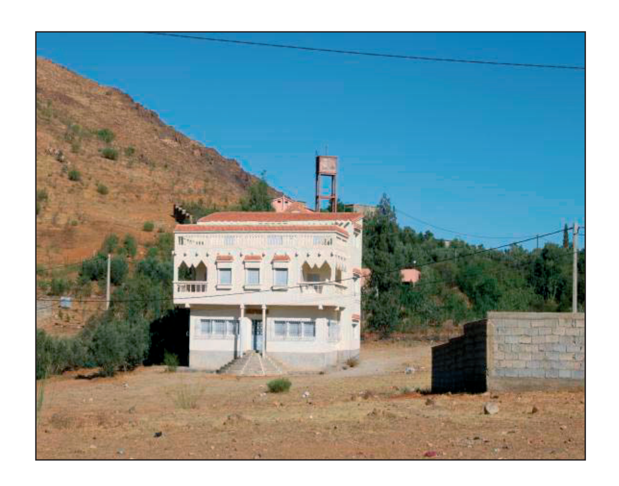
Les moyens de transport modernes ont partout exercé un fort attrait sur les habitations en les obligeant à s'aligner le long des routes goudronnées ou des pistes. (Photos n° 4 et 5, Commune rurale de Toumliline, et Ilalen).





(10) Le même problème qui se pose aux villes de pèlerinage.

construction modernes tels, le ciment, le fer, le verre, le marbre, le gypse se généralise. Dans ces maisons qui ne sont occupées qu'épisodiquement, seul le chien de garde y trouve place en tant qu'animal, alors que le garage est presque omniprésent et le confort intérieur est presque au complet : cuisine moderne, douche. L'immeuble, "complètement importé" n'a rien à envier à ce qu'on rencontre dans les grandes villes (photos, n° 2 Agadir Oumanouz et (3) Taghaout).





habitations à un seul étage, construites en pierre, dominent. A l'exception des maisons de notables, souvent imposantes par leur forme et leur architecture, le reste des constructions prend un caractère simple : maison carrée entourée de clôture vive, avec terrasse plate et murs extérieurs aveugles. A Ameln, le pardessus de la porte principale des anciennes maisons est finement décoré par un agencement de lames d'ardoise encastrées dans un blanc assorti. Comme dans la plupart des greniers, les portes sont faites par des planches de bois sculptées. (Photo, n° 1, Les ruines du village perché de Taghaout, (fév. 2010, par A.H))



Aujourd'hui, avec l'extraversion de l'économie et l'intense usage de la voiture, les routes et les pistes deviennent les éléments de restructuration de l'espace. Les anciennes habitations qui faisaient compagnie aux greniers sur les hauteurs ont glissé vers les routes pour laisser places aux nouveaux symboles de la technologie et de l'ouverture (les antennes téléphoniques, les radars satellitaires, les pilons électriques, les châteaux d'eau…) La maison individuelle devient le modèle quasi généralisé. Elle occupe, généralement une très large superficie en prenant la forme d'une villa complète, tronquée ou de la maison dite marocaine avec de larges cours flanquées de remparts, de grandes portes et jardins. Les maisons sont surdimensionnées, et menées d'un grand luxe architectural. Les grandes ouvertures sur l'extérieur, les balcons, même souvent jamais utilisés, en font symbole. L'usage des matériaux de

L'espace de vie de ces migrants est symboliquement, mais aussi matériellement, partagé en deux : un espace matériellement vécu et un espace affectivement vécu. C'est cette permanente absence / présence que nous essayerons d'analyser dans ce qui suit à travers un certain nombre de comportements, d'indices, de symboles observés sur le terrain.

II - L'Anti-Atlas : un espace fortement investi et approprié

Pour un observateur, même non averti, force est de constater les caractères imposants des paradoxes que développe le territoire : l'absence quasi-totale de la population masculine la plus grande partie de l'année et l'intense dynamique que manifeste l'espace.

2 -1- L'habitat et les mutations socio-spatiales

De toutes les mutations qu'a connues l'Anti-Atlas, les transformations de l'habitat restent les plus spectaculaires. Symbole de l'appropriation du terrain et de la structure de son exploitation, l'habitat porte dans sa consistance le reflet des éléments physiques (substrat géologique, topographie, éléments hydrogéologiques et bioclimatiques), mais aussi historico-économiques et socioculturels, ayant traversé le territoire

Généralement implantés sur des sites défensifs, pas trop loin des greniers, les anciennes habitations ont essentiellement accordé de l'importance aux facteurs sécuritaires. Ainsi, si les anciens greniers ont souvent choisi d'occuper les sommets de collines, de buttes ou d'éperons, les maisons qui les entouraient se disposaient côte à côte dans leurs alentours comme pour constituer un front face aux envahisseurs. Le grenier collectif, la mosquée, la métfia (tanoutfi) collective, le cimetière et la grande place communautaire, généralement situés au centre, forment ce qu'on appelle, aujourd'hui, les équipements structurants. Les champs, formés de terrasses alignées le long des courbes de niveau sont dominées et contrôlées par les habitations.

Sur le plan architectural, l'habitat souvent groupé, lâche, domine. Le concept de ksar tel qu'on le rencontre dans les oasis est presque absent. Les

et 2004 sur 114 communes rurales, 72 ont enregistré un taux d'accroissement négatif, les 42 restantes ont enregistré un taux inférieur à la moyenne nationale (1,4% /an)(9) . Les zones montagneuses des Provinces de Tiznit et Taroudante semblent être les plus touchées par cette hémorragie humaine (Tab. 1).

Evolution intercensitaire de la population de l'Anti-Atlas et ses franges

Province	**Population totale**			**Population urbaine**		
	1994	**2004**	**% acc**	**1994**	**2004**	**% acc**
Chtouka Ait Baha	240092	297245	2,2	25636	39694	4,5
Inzegane Aït Melloul	292571	419614	3,7	261446	385612	4.0
Taroudante	693968	780661	1,2	134400	186471	3,3
Tiznit	347814	344831	-0,1	70001	82858	1,7

Source : RGPH 1994 et 2004.

Cependant, et aujourd'hui encore, rares sont les foyers non touchés par le mouvement migratoire dans toute la zone. Les grands foyers récepteurs sont les grandes villes (Kenitra, Rabat, Casablanca, Marrakech, Meknès…) Les commerçants descendants de Tafraout, d'Ait Abdellah, d'Igherm, d'Ait Baha, de Tiznit… s'adonnent, outre au petit et au gros commerce, à des activités de restauration, de vente des matériaux de construction comme ils dirigent la grande entreprise (construction, franchise, supermarché, concession, etc.).

Cette intense présence au niveau des espaces économiques, dynamiques, à l'échelle nationale, voire internationale, leur donne un pouvoir socioéconomique de taille. Les émigrés agissent là où ils exercent, comme ils influent sur leur espace d'origine, comme s'ils y habitent toujours.

(9) Eu égard à l'instabilité des unités spatiales ayant servie de base aux différents recensements (RGPH), l'analyse de l'évolution des populations constitue une entreprise hasardeuse.

Les faibles sols cumulés sur les terrasses fluviales constituent le principal support de l'activité agricole[6] .

1-2- Espace peu attractif, mais anciennement peuplé

Les contraintes du milieu, malgré leur impact négatif sur la vie de l'homme n'ont pas prohibé sa présence dans ces espaces, ce depuis la nuit des temps. L'ancienneté de l'occupation de ces contrées est, aujourd'hui, attestée par de nombreux sites archéologiques englobant à la fois des gravures rupestres, mais aussi les vestiges d'une intense vie humaine. En fait, l'intense marquage de l'espace, symbole de vie et de dynamisme, fait référence à une culture caractérisée par un contrôle de l'espace et par un fort attachement au territoire et au terroir malgré l'ultime âpreté des conditions de vie. L'Anti-Atlas a constitué un théâtre pour de grandes confédérations de semi-nomades qui tantôt pratiquaient une maigre agriculture, tantôt se donnaient à un élevage extensif ou au commerce transaharien. La pluriactivité constituait l'ossature d'une stratégie d'adaptation aux contraintes naturelles.

Avec le déclin du commerce transaharien, le tarissement des ressources hydriques (El Bouqdiri, 2000, 162) et l'explosion des besoins, la population est contrainte de trouver l'alternatif dans l'exode et la migration. Aujourd'hui, à l'exception des territoires, dits urbains, connus par leur attractivité et leur compétitivité[7], le reste des espaces constitue un territoire à traditions migratoires. Ainsi, si les effets démographiques de la migration ont été signalés dans la région déjà au 19ème siècle[8], il est aussi remarquable de constater le fort attachement des populations à leur territoire. Entre 1994

(6) Les sources qui irriguaient la vallée de Mezdeg ont tari depuis déjà plusieurs dizaines d'années (El Bouqdiri, 2000, p162)

(7) Ces espaces ont un taux d'accroissement intercensitaire d'entre 2 et 10,3% par an (Laqliaa 10,3 ; Ait Amira 6,5, Biougra 6,4 : Temsai 5,3 et Dchira 4,6%)

(8) Désigné par Moulay Slimane pour commander l'expédition punitive sur les tribus du Souss et de l'Anti-Atlas, le Caïd Aghennaj, M. (1810-1820) a causé une destruction quasi systèmatique des greniers et des récoltes. Il s'en est suivi un fort exode des populations ((El Bouqdiri, A, 2000) ; voir aussi Maalamat Al Maghreb, 1989, T 2, pp. 542-543,

Les terres arables irriguées, à l'exception des étroites vallées de montagne sont rares. Les terrasses de culture accrochées aux versants pour préserver les rares ressources pédologiques et hydriques constituent la seule forme d'exploitation agricole possible hors les fonds de vallées. Les rares sols qui s'accumulent derrière les murettes de terrasses sont squelettiques et pauvres. Ailleurs, les lithosols dominent. La construction(4) des terrasses et des sols reflète le vrai génie des habitants de ces contrées. Les techniques de conservation des eaux et du sol (CES) sont ici très développées. L'effort, l'énergie, fournis pour construire ces micros-parcelles ne se justifie que par "le défi d'exister" dans un espace où l'absentéisme est de règle. La superficie moyenne des exploitations ne dépasse guère 3,4 ha. Celle-ci est généralement éparpillée entre plusieurs parcelles (7,5 parcelles par exploitation)(5) et plusieurs terroirs. Eu égard à l'aridité climatique et aux conditions hydrogéologiques, seuls 21,4% des superficies des terres arables bénéficient d'une irrigation.

Le climat semble, donc, partout ingrat. La moyenne annuelle des précipitations ne dépasse pas les 200 mm sur les versants exposés aux influences atlantiques. Sur ceux exposés aux influences sahariennes, l'aridité l'emporte. Ainsi, les précipitations, structurellement insuffisantes, se caractérisent par leur irrégularité dans le temps et dans l'espace. A titre d'exemple, les bassins des oueds Adoudou et Assaka ne reçoivent qu'une moyenne de 25 jours de pluie par an. La pluviométrie annuelle varie entre 50 et 350 mm. Il en résulte un important déficit hydrique, mais aussi un intense ruissellement superficiel et une forte érosion.

Le couvert végétal naturel, à l'exception de quelques touffes d'épineux (jujubier, oléastres) et d'euphorbes (cactus), est faiblement répandu. La nudité des versants est presque de règle.

(4) Berque, J. 1955, Les structures sociales dans le Haut Atlas, Paris.

(5) Pour les 4 provinces (Tiznit, Taroudant, Chtouka-Ait Baha et Inzegane-Ait Melloul, le RGA (1996) totalise une SAU d'environ 411304 ha pour 121159 exploitations.

Les idées présentées dans cet article sont le fruit d'un travail de terrain mené dans le cadre d'une équipe oeuvrant sur le patrimoine bâti et ses mutations dans le l'Anti-Atlas[(1)] .

I - L'Anti-Atlas, un espace contraignant

Le territoire que couvre cette étude coïncide, grosso modo, avec celui des provinces administratives de : Tiznit, Chtouka-Ait Baha, Inzegane-Ait Melloul et Taroudant[(2)] .

La population qui l'occupe est estimée à environ 2,34 millions d'habitants en 2004. Elle est essentiellement composée par la grande tribu Gzoula[(3)] (El Othmani M, 2004, 40-43), cette population a su atténuer les contraintes naturelles en tournant le dos à l'agriculture et en s'adonnant, très tôt, au commerce et à la migration.

1-1- Potentialités et contraintes naturelles

Situé entre le massif du Haut-Atlas et les vastes hamadas sahariennes, l'Anti-Atlas est constitué par une ancienne chaîne de montagne orientée généralement Nord-est / Sud-ouest. Essentiellement formé par des roches granitiques anciennes, cet ensemble est morphologiquement dominé par un relief tourmenté. Les sommets les plus hauts culminent à 2531m à Adrar n'Aklim au Nord–est d'Ighrem, à 2344 m à Adrar Mqorn et à 2358 m à Adrar Lekst. Le paysage dominant est formé par un ensemble de vallées étroites, et de bassins intérieurs entourés de versants abrupts et d'inter-fleuves étroits.

---

(1) Les travaux de terrain sont essentiellement basés sur l'observation et sur des entretiens menés avec une équipe constituée de H. Popp (Allemagne), B. El Faskaoui, H. Ait Saïd, M. Ait Hamza et A. Kassah, Tunisie. Le travail s'inscrit dans le cadre d'une étude sur les Igoudar de l'Anti-Atlas occidental (octobre 2009 et février 2010).

(2) Il faut noter qu'une grande partie de la Province de Tiznit s'étale sur la plaine atlantique (plaine de Tiznit), la Province de Taroudant est partagée entre le Haut Atlas, la plaine du Souss et l'Anti-Atlas, alors que les autres provinces : Chtouka-Ait Baha et Inzegane Ait Melloul sont partagées entre la plaine du Souss et l'Anti-|Atlas.

(3) En énumérant les composantes de cette tribu, El Othmani confond les noms des lieux avec ceux des tribus (Igherm, Issafen, Taghjijt, Ifrane, Foum El Hisn...).

Les paradoxes d'un territoire migratoire: l'Anti-Atlas occidental

Mohamed AIT HAMZA
CEHE/IRCAM

Introduction

Les comportements humains, malgré de nombreux facteurs qui les influent, n'obéissent que très faiblement aux mêmes facteurs et sous les mêmes conditions. En fait, l'observation analytique des comportements des émigrés de l'Anti-Atlas laisse voir des paradoxes souvent très difficiles à expliquer et qui intrigueraient le chercheur qui court derrière les logiques et les rationalités.

Ce paradigme appliqué à la relation entre le patrimoine bâti et son environnement dans un contexte migratoire tel celui de l'Anti-Atlas occidental, constitue un exemple parlant et pédagogique. Le patrimoine bâti forme, par excellence, un élément du paysage géographique très révélateur des aspirations et valeurs socioculturelles. Si l'habitat épouse, avec beaucoup de délicatesses les formes du relief qui lui servent de support et utilise les matériaux directement disponibles sur le site, son architecture n'échappe pas aux influences de l'environnement naturel ambiant, mais aussi à ceux de l'histoire et valeurs socioculturelles de ses usagers.

Le processus de construction et de l'évolution de l'homme, en tant qu'acteur, constructeur et usager, impose ses lois en termes d'architecture, de fonctionnement, mais parfois aussi de matériaux. Partant de cette interférence, l'espace se métamorphose, se plie à des adaptations qu'imposent l'histoire, l'économie, le niveau technologique, l'évolution psychosociale et culturelle. Il reflète donc et de façon la plus fidèle, le paradoxe des émigrés : être ici et là-bas au même temps.

recherche. Nos remerciements vont aussi à l'ensemble des auteurs qui nous en fait confiance en nous livrant leurs articles et la sécrétion de leurs recherches. Enfin que toute l'équipe de chercheurs, de techniciens et d'administrateurs ayant assuré le suivi de l'édition, trouve dans cet ouvrage l'expression de nos respects.

Mohamed AIT HAMZA

Ali BENTALEB

(IRCAM). L'ouvrage vise donc à mettre en relief l'importance de la valorisation et de la sauvegarde du patrimoine architectural notamment dans les zones amazighophones en tant que support tangible de la culture et de l'identité.

Des spécialistes venant d'horizons différents : historiens, géographes, architectes, anthropologues, etc, ont abordé des thématiques relevant du sujet et dans différentes zones du pays.

Ainsi, les articles présentés en langues arabe ont abordé le sujet de l'architecture religieuse dans l'histoire du Maroc antique, médiéval et moderne. Les greniers collectifs « Igoudar » dans l'Anti-Atlas, le Haut-Atlas et au Sud ont été aussi décortiqué. Plusieurs articles sur les spécificités architecturales des ksour et kasbah au Maroc y trouvent leur place. De nombreux articles ont aussi procédé à l'analyse du patrimoine architectural dans le Rif et le Moyen-Atlas.

Les articles présentés en français ont traité le patrimoine bâti en se focalisant sur les effets de l'émigration au niveau de l'architecture et sur les essais de valorisation à travers l'analyse de nombreux sites.

Les recherches consacrées à la valorisation et à la réhabilitation, revêtent une importance particulière. Elles ont suscité d'intenses débats autour des causes de la dégradation, des problèmes de la préservation et des perspectives du patrimoine bâti notamment rural.

Ainsi, si cet ouvrage rentre dans le cadre d'une série de livres que compte publier le CEHE sur cette question, il se réserve la qualité d'avoir contribué au renouvellement de la problématique du patrimoine en tant qu'élément identitaire dont la transmission affronte de nombreux entraves.

Il est donc sûr que ce livre comblera un vide dans les bibliothèques universitaires en mettant un outil de travail à la portée des étudiants, des chercheurs et des décideurs, comme il ouvre le chemin à d'autres travaux qui, on l'espère viendront consolider notre savoir et notre identité nationale.

Pour clore, nous tenons à remercier vivement M le Recteur de l'IRCAM pour son engagement, ses encouragements non conditionnels dans le domaine de la

INTRODUCTION

Le patrimoine architectural au Maroc constitue, par sa richesse et sa diversité, un héritage d'une grande importance. Il incarne l'identité de l'ensemble des composantes de la société marocaine. L'architecture rurale marque les paysages de plusieurs régions par sa beauté et son orgueil. Ainsi, malgré la rapidité des mutations, qu'a connu le pays, et leur profondeur, les spécificités architecturales des différentes régions du Maroc marquent encore leur identité.

Néanmoins et au vu des différentes contraintes auxquelles ce patrimoine est soumis, ce dernier traverse une situation peu encourageante. L'évolution socioculturelle de la société marocaine et l'ouverture sur d'autres cultures ont abouti à la régression, sinon, à la disparition de nombreux traits de ce trésor. La politique nationale, en terme de protection et de valorisation, étant très, peu claire et sélective, laisse la porte grande ouverte au laminage des spécificités locales et à l'uniformisation dans ce domaine.

Aussi, au niveau de la recherche académique, ce créneau n'a malheureusement pas attiré l'attention des chercheurs nationaux. Les rares travaux qui lui sont consacrés datent surtout de la période coloniale et sont œuvres des étrangers. Or, ce patrimoine, fortement enraciné et riche, mérite d'être mieux étudié, mieux connu et mieux valorisé.

Ainsi, et afin de stimuler la recherche pour combler le vide dans ce domaine, le Centre des Etudes Historiques et Environnementale (CEHE) a décidé de superviser et de publier le présent ouvrage sous le thème : **«Patrimoine architectural au Maroc »**. Il s'agit d'un collectif de travaux originaux et inédits.

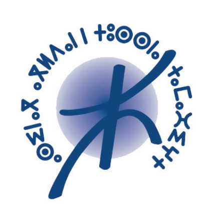
Le choix du thème de cet ouvrage s'inscrit dans le débat actuel sur la valorisation du patrimoine matériel et immatériel au Maroc et constitue l'œuvre du plan d'action du CEHE au sein de l'Institut Royal de la Culture Amazighe

Table des matières

Publications de l'Institut Royal de la Culture Amazighe
Centre des Etudes Historiques et Environnementales
Série Etudes et Recherches N° : 37

Titre : Patrimoine Architectural au Maroc
Edition scientifique : Mohamed AIT HAMZA, Ali BENTALEB
Editeur : Institut Royal de la Culture Amazighe.
Réalisation technique : CTDEC
Photo de la Couverture : Mohamed AIT HAMZA (Vallée du Dades)
Dépôt légal : 2013 MO 1665
ISBN : 978 - 9954 - 28 - 148 - 2
Imprimerie : El Maarif Al Jadida, Rabat 2013

ⵜⴰⴳⵍⴷⵉⵜ ⵏ ⵍⵎⴰⵖⵔⵉⴱ
ⴰⵙⵉⵏⴰⴳ ⴰⴳⵍⴷⴰⵏ
ⵏ ⵜⵓⵙⵙⵏⴰ ⵜⴰⵎⴰⵣⵉⵖⵜ



ROYAUME DU MAROC
INSTITUT ROYAL
DE LA CULTURE AMAZIGHE

PATRIMOINE ARCHITECTURAL AU MAROC

Coordination

Mohamed AIT HAMZA

Ali BENTALEB



ⴰⵢⴷⴰ ⵏ ⵜⵎⴱⴷⴰⴳⵜ ⴳ ⵍⵎⵖⵔⵉⴱ

PATRIMOINE ARCHITECTURAL AU MAROC



Coordination :

Mohamed AIT HAMZA **Ali BENTALEB**

(CTP) Imp. El Maarif Al Jadida - Rabat / 2013

65 درهم